نظرة فى التنوين

الدكتور ابراهيم السامرائى
المدرس فى قسم اللغة العربيـــة

كنت قد بحثت فى الجزء الثـالث من مجلتنا العـــامرة فى موضوع (النون والميم فى العربية) وقد شعرت وأنا أبحث الموضوع ان الامر يحتاج الى صبر طويل وتحقيق شامل ووقوف على الاســـانيد ، ليكون البحث أتم والتحقيق أشمل وأوفى . وقد وعدت القارئ الكريم انى ماض فى هـــذه السبيل ولا بد من رجعة ثانية آتى فيها على ما افتقر اليه بحثى ، وقد قيل ان الحقيقة بنت البحث . وربما تم للباحث الصابر الذى لم يحد عن النهـــج العلمى القويم غرضـــه لولا أنه مفتقر الى الوســـائل والادوات فى بعض الاحايين . والوسائل والادوات فى العربية هى مادة الكلام ووسائل التعبير وطرائق الاستعمال ، ولم تتيسر هذه للباحث فى لغة العرب على نحو ما تتيسر له فى اللغات الاخرى ؟ ذلك ان الكثير لم يصل الينا ، وهو ان وصـــل افتقر الى الصفة العلمية التأريخية ؟ فقد جاء فى الصاحبى لابن فارس « باب القول على ان لغة العرب لم تنته الينا بكليتها وان الذى جاءنا عن العرب قليـــل من كثير وان كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله »[1].

ويسمى التنوين الذى يلحق الاســـم المعرب صرفا ، والاسم المنـون مصروفا أو منصرفا . وهذا التنوين يعده النحاة دليلا على تمكن الاسم فـى الاسمية تمام التمكن . وقد انتهيت فى بحثى السالف الى القول : « ان النون من الاصوات السهلة التى اطمأنت العربية الى السكوت عليها والانقطاع عن

---

(١) ابن فارس ، الصاحبى ص ٣٤ .

الصوت عندها . وربما لمح الى هذا بعض المحدثين بقوله : « ان التنوين قطع للمد الممثل بالحركات »[٢] . وربما حركت نون التنوين بحركة لمناسبة اقتضت ذلك كالتقاء الساكنين كما قرئ في قوله تعالى : (ان المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين)[٣] . فقد حركت نون (عيون) بالكسر . ويرى الدكتور ابراهيم أنيس « ان الذى يعين تلك الحركة هو طبيعة الصوت وايثاره لحركة معينة أو انسجام تلك الحركة مع ما يجاورها من حركات »[٤].

ويقول الاستاذ ابراهيم مصطفى : «ومعنى التنوين غير خفى ؛ فهو علامة التنكير . وقد وضعت العرب للتعريف أداة تدخل أول الاسم ، وهى « ال » ، وجعلت للتنكير علامة تلحقه ، وهى التنوين »[٥].

واطلاق القول على هذه الصورة جائر على الحقيقة العلمية التأريخية ؛ ذلك ان الاستاذ مصطفى يفترض أن هذا المنهج النحوى هو الوجه الذى اتفقت عليه العرب ، ومعنى هذا انه لم يكن فى كلام العرب ما يشير الى مراحل أسبق من هذا اللون الذى لا يدل الا على مستوى عال فى التأليف ، وذلك بعد أن تضلع من العربية وعلومها جماعات وقفوا أنفسهم عليها فى عصور متأخرة بالنسبة الى العربية التى سلخت عنها القرون الطوال . وسأرجع الى الموضوع فافصل القول فيه .

والمنون فى الكلام هو الغالب فى العربية . والصرف هو التنوين . وهذا مذهب المحققين[٦] . والاصل فى الاسم الصرف[٧] . وغير المنون هو القليل المعروف فى كتب النحو ، والذى حصروه فى أبواب معروفة ، والاسم غير المنون لابد أن تتوافر فيه علتان من تسع أو علة تقوم مقام العلتين ،

---

(٢) العلايلى ، مقدمة فى لغة العرب ص ٢٤٣ .
(٣) سورة الحجر ، ٤٥ ـ ٤٦ .
(٤) ابراهيم أنيس ، من أسرار اللغة ص ١٧٥ .
(٥) ابراهيم مصطفى ، احياء النحو ص ١٦٥ .
(٦) حاشية الصبان على الاشمونى ج ٢ ص ٢٢٨ .
(٧) السيوطى ، همع الهوامع ج ١ ص ٢٤ .

وكل هـــذا مفصل معروف فى كتب النحو ، وليست بنا حاجة الى الرجوع اليه . على اننا لابد أن نقول ان مسألة العلل المانعة للاسم من الصرف مسألة ينبغى الرجوع اليها بحثا وتحقيقا ؛ ذلك أن كثيرا من غير المنون من الاسماء قد اختلف فيه ، وربما كان الاسم منونا عند بعضهم وغير منون عنـــد فريق آخر . وسنعرض الى شيء من هذا .

فمن العلل المانعة للصرف عندهم الالف المقصورة للتأنيث وهـى علة تقوم مقام علتين ، وطالب النحو يطمئن الى هذا ويجريه مجرى القواعـــد المقررة ، غير أن الباحث فى مظان النحو المطولة يجد شيئا غير هذا ؛ فقـــد جاء فى الكتاب : « وانهم فرقوا بين الالف التى تكون بدلا من الحرف الذى هو من نفس الكلمة ، والالف التى تلحق ما كان من بنات الثلاثة ببنـــات الاربعة ، وبين هذه الالف التى تجيء للتأنيث . فاما (ذفرى) فقد اختلف العرب فيها فقالوا : ذفرى أسيلة فنونوا ، وهى أقلهما ، وقالوا ذفرى أسيلة وكذلك (تترى) فيها لغتان »[٨] .

والالف والنون الزائدتان فى الوصف علة مانعة لصرف الاسم ان كان مؤنثه على (فعلى) . ذكر الرضى فى شرحه على الكافية : « والمطلوب منـه انتفاء التاء لان كل ما يجيء منه (فعلى) لا يجيء منه فعلانة فى لغتهم الا عند بنى أسد فانهم يقولون فى كل (فعلان) جاء منه (فعلى) (فعلانة) أيضـا كغضبانة وسكرانة فيصرفون اذن (فعلان) »[٩] .

ولسنا على يقين من أن بنى أسد وحدهم على هـــذه اللغة ؛ ذلك أن اللهجات لم تقيد بأهلها وباقليمها ، وكتب اللغة ليست وسيلة يطمأن اليهـــا فى هذا الباب .

ثم انهم صرفوا كل ما فيه نون لا يجيء مؤنثـــه على (فعلى) كما فى (عريان) و (سرحان) و (وانسان) وقد فرقوا بين النون الزائدة والنون التى هى من نفس الحرف ، قال سيبويه : « سألت الخليل عن رجل يسمى

---

(٨) سيبويه ، الكتاب جـ ٢ ص ٨ .
(٩) الرضى ، شرح الكافية جـ ١ ص ٦٠ .

(مرانا) فقال اصرفه لان المران انما سمى للينه ، وانما المران اللين »[١٠] .

وقد حملوا على ما فيه حرف التأنيث كل ما آخره همزة قبلهـا ألف زائدة ، وهذا علة منع الصرف فى (أشياء) فهى عند الخليل مقلوبة والاصل (شيآء)[١١] . وقد ذكر الرضى فى شرح الشافية أن : (أشياء) عند الخليل وسيبويه اسم جمع لا جمع كالقصباء والطرفاء والغضياء وأصلها شيآء[١١] . وقد ذكر الرضى فى شرح الشافية أن : (أشياء) عند (أبيات)[١٢] . وأوضح أن (أشياء) على رأى الكسائى غير ممنوعة من الصرف ومن أجل ذلك لم يركب المركب الخشن الذى لجأ اليه الخليل وسيبويه فى التماس العلة للمنع من الصرف . ومن هذا الباب ما ذكره سيبويه نفسه : « واعلم أن من العرب من يقول : هذا قوباء[١٣] بالتنوين »[١٤] .

ومهما تكن العلل مانعة للاسم من الصرف ، فانما يتغاضى عنها وينون الاسم الذى حقه عدم التنوين التماسا لفائدة من الفوائد ، وهذه الفائدة هى التزام الناحية الموسيقية التى تحصل فى التنوين .

فقد يجوز للشاعر صرف ما لا ينصرف للضرورة كما جاء فى الاشباه والنظائر للسيوطى[١٥] ، وهو رد للاصل وهو الصرف على رأيه . وابن يعيش يقول : « وجميع ما لا ينصرف يجوز صرفه فى الشعر لاتمام القافية واقامة وزنها بزيادة التنوين وهو من أحسن الضرورات »[١٦] .

ويجوز صرف ما لا ينصرف لتناسب أو ضرورة[١٧] والتناسب نحو

---

(١٠) سيبويه ، الكتاب جـ ٢ ص ١١ .
(١١) ابن جنى ، المنصف جـ ١ ص ١٠١ .
(١٢) الرضى ، شرح الشافية جـ ٢ ص ٣٢ .
(١٣) القوباء داء معروف (مختار الصحاح) الرازى .
(١٤) سيبويه ، الكتاب جـ ٢ ص ١٠ .
(١٥) السيوطى ، الاشباه والنظائر جـ ٢ ص ٣٢ .
(١٦) ابن يعيش ، شرح المفصل جـ ١ ص ٦٧ .
(١٧) السيوطى ، همع الهوامع جـ ١ ص ٣٧ .

قوله تعالى : « وجئتك من سبأ بنبأ »[١٨] ، وقوله تعالى : « سلاسلا وأغلالا »[١٩] .

وقد بقى من التنوين بقايا فى اللهجات الدارجة الحديثة ، وذلك كما فى لهجة نجد . ولعل النون التى تلحق الافعال الجوف المضارعة فى لهجة القرويين من جنوبى العراق (العمارة ، الناصرية) ، انما لحقتها اتماما للفائدة التى تحصل من التنوين فى الاسماء وربما كان شيئا أفاد التنبيه وهو كما فى قولهم (أروحن) و (أموتن) ، وقد أسلفت القول فى هذه المسألة فى مقالتى السابقة ، والآن أود أن أضيف شيئا من ذلك ، وهو أنهم يضيفون هذه النون الى الافعال المضارعة الثلاثية المضعفة ، وذلك فى الشعر دون النثر ، يقولون مثلا (أمرن) و (أجرن) ، وربما ألحق التنوين فى غير هذين الموضعين ، وذلك فى الفعل الثلاثى المضارع وهو فى الشعر أيضا ، وعلة هذا اقامة الوزن كما فى الشاهد : (أجلبنك يليلى اثنعش تجليبة)[٢٠] والجيم فى الفعل ابدال من القاف .

وأود أن أذكر شيئا أخيرا عن هذا الجزء من هذه القضية قبل أن انتقل الى مسألة أخرى ، وهو أنهم ينون (ساجدة) و(زاهدة) و(ساهرة) وهى نعوت ، ولكنهم يجردونها عن التنوين ان نقلت للعلمية جريا مع القاعدة وهى توافر العلتين (العلمية والتأنيث) . وأنهم ينونون (وردة) و (رملة) وهما اسمان ، وانهم يجردونها عن التنوين نقلا للعلمية لتوافر العلتين . وانهم ينونون المصادر مثل (وصال) و (اقبال) و (هدى) ولكنهم يجردونها عن التنوين ان نقلت للعلمية لتوافر العلتين . وفى كتب النحو شىء من هذا وهو أن (اذينة) و (عيينة) ، وهما علمان لمذكرين ، ينونان لعدم توافر القاعدة فيهما ، ولو كانا علمين لمؤنثين لفارقهما التنوين .

---

(١٨) سورة النمل ، ٢٢ .

(١٩) سورة الانسان ، ٤ .

(٢٠) على ان النون فى هذا الشاهد الاخير هى للتوكيد وليست من قبيل النونات السابقة .

ومن هذا العرض يتبين ان حرمان الاسم من التنوين مسألة اعتباطية وهى من غير شك من وضع النحويين واللغويين أنفسهم .

وقد ذكر النحويون ان التنوين لا يراعى فى مواضع معروفة وذلك لالتقاء الساكنين مثلا وان هذا الحذف كثير فى كلام العرب[٢١] . وانهم مثلا أبعدوا التنوين عن كل اسم غالب وصف بابن ثم أضيف الى اسم غالب أو كنية أو أم وذلك نحو قولك هذا (زيد بن عمرو) انما حذفوا التنوين من هذا النحو اذا التقى ساكنان . وذلك قولك (اضرب بن زيد)[٢٢] وأنت تريد الخفيفة وقولهم (لد الصلاة) فى (لدن) واذا اضطر الشاعر فى الاول أجراه على القياس[٢٣] :

هى ابنتكم واختكم زعمتـــم لثعلبة بن نوفل بن جســـر

(الوافر)

وفى كتاب سيبويه باب ما يحرك فيه التنوين فى الاسماء الغالبة ويمثل له بقولهم : (هذا زيد بن أخيك) و (وهذا زيد ابن أخى عمرو) و (هذا زيد الطويل) و (هذا عمرو الظريف)[٢٤] وهذا يدل على أن المسألة لم تستقر على حال ، وأن من ألف التنوين آثر لسانه التخفيف ولم ينون اتقاء الساكنين ، وأن من روض لسانه على التنوين فشاع فيه قبله فى هذا البـــاب أيضـــا .

ويحذف التنوين التماسا للخفة فالمنادى يبنى ولا ينون الا فى الضرورة بالاجماع[٢٥] .

وأرى تعليل هذا ان الاسم باعتماده على جزء سابق وهو (يا) النداء

---

(٢١) ابن يعيش ، شرح المفصل ج ٩ ص٣٥ .
(٢٢) اضرب بن زيد علم من الاعلام عند سيبويه .
(٢٣) سيبويه ، الكتاب ج ٢ ص ١٤٧ .
(٢٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٤٨ .
(٢٥) السيوطى ، الهمع ج ١ ص ١٧٣ .

يكون وحدة صوتية ذات طول معين محدود واقتضت هذه الزيادة السابقة حذف التنوين اللاحق التماسا للمحافظة على هذه الوحدة الصوتية الموسيقية بحيث ان الاسم يسلم له هذا التنوين قبل زيادة (يا) .

وعلى هذا الوجه نستطيع أن نعلل نصب لا النافية لما بعدها كنصب ان لما بعدها مع ترك التنوين فنقول مثلا (لا ريب) والريب قبل دخول الاداة كلمة تصلح للتنوين ، ولكنه يفارقها بعد دخول الاداة عليه حفاظا على هذه الوحدة الصوتية . وتعليل هذا عند النحويين كما فى كتاب سيبويه (ان ترك التنوين لازم لانها جعلت وما عملت فيه بمنزلة اسم واحد نحو خمسة عشرة وذلك لانها لا تشبه سائر ما ينصب مما ليس باسم وهو الفعل)[٢٦] .

وربما استطعنا أن نلتمس العلة نفسها فى مسألة نصب الافعال الخمسة وجزمها ؟ فالفعل (يعملون) مختوم بالنون ان لم يسبقه ناصب أو جازم ولكنه يفارق النون ان اعتمد على شيء من أدوات الجزم والنصب فنقول : (لم يعملوا) و (لن يعملوا) . وربما حمل على هذا مسألة جزم الفعل المضارع المعتل الآخر ؟ ذلك ان المد فى آخره يكون له وهو فى حالة الرفع كما يقولون ، ولكن هذا المد يفارقه ان سبقه جازم ، ويبدو أن هذا الخرم من آخر هذه الوحدة الصوتية يعادله ما استند عليه الفعل من مادة الاداة .

ولا نستطيع أن نعلل الترخيم فى العربية بغير هذه العلة ، ثم ان الحفاظ على هذه الناحية الصوتية مما يحقق التخفيف الذى هدفت اليه العربية فى كثير من قوالب الاستعمال .

والترخيم فى حقيقته اختصار للكلمة وخرم لها من الآخر تحقيقا للخفة . وللترخيم مواطن قيدها النحويون فى كتبهم ، وخصوصا فى النداء نحو (يا حار) بدلا من (يا حارث) . ولعل من المناسب أن نلحق بباب الترخيم استعمالات كثيرة شاعت فى العربية منذ أقدم الازمان ، ومنها (عم

(٢٦) سيبويه ، الكتاب جـ١ ص ٢٤٥ .

صباحا) ؟ فقد زعموا أن أصلها انعم صباحا ، ومنها أيضا (وايم الله) فى باب القسم وأصلها (وايمن الله)[٢٧] .

وحذف النون فى هذه الاخيرة التماسا للخفة ، والتماس الخفة سبب فى كل حالة يحصل فيها حذف التنوين . وقد فسر الاستاذ ابراهيم مصطفى حرمان العلم من التنوين حين يردف بكلمة (ابن) وينسب الى ابيه ، بكونه معينا تمام التعيين[٢٨] . وليس ابتغاء التخفيف كما ذهب اليه النحويون .

ومعنى هذا انهم ينون العلم اذا كان فيه معنى من التنكير واردت الاشارة اليه[٢٩] .

وعند الاستاذ ابراهيم مصطفى ان التنوين علامة التنكير كما بينا ، والنحويون يخصون التنكير بنوع واحد من أنواع التنوين وهو ما يلحق الاعلام المبنية نحو (سيبويه) وما يلحق أسماء الافعال مثل (صه) و (مه)[٣٠] .

وليس الاستاذ ابراهيم مصطفى بدعا فى هذه الدعوى ، فقد سبقه لغويون أشاروا الى أن التنوين دال على التنكير ، ومن هؤلاء ابن جنى الذى يعقد بابا للتنكير والتعريف فى (الخصائص) ولكنه لايتقيد باللغة فى منهجه ، ومعنى هذا انه يلجأ الى أسلوب فيه كثير من المحاكمة المنطقية العقلية التى هى أبعد ما تكون عن المنهج اللغوى الصحيح . يقول ابن جنى : « ان التضاد فى هذه اللغة جار مجرى التضاد عند ذوى (الكلام) فاذا ترادف الضدان فى شىء منها كان الحكم منهما للطارىء ، فازال الاول . وذلك كلام التعريف اذا دخلت على المنون حذف تنوينه كرجل والرجل . وذلك ان اللام

---

(٢٧) برجشتراسر ، التطور النحوى ص ١٧٩ .

(٢٨) و (٢٩) ابراهيم مصطفى ، احياء النحو ص ١٧٩ .

(٣٠) ولا معنى لاختصاص هذه المسائل بهذا النوع من التنوين لانه كيف يصح أن يكون التنوين فى سيبويه للتنكير ولا يكون فى علم آخر . =

للتعريف ، والتنوين من دلائل التنكير فلما ترادفا على الكلمة تضادا ، فكان الحكم لطارئهما وهو اللام »[٣١] .

ولا يفارقهم هذا المنهج العقلي فقد قرروا : « أن أصل الاسماء أن تكون نكرات ولذلك كانت المعرفة ذات علامة وافتقار الى وضع لنقلها عن الاصل »[٣٢] . والتعريف على هذا فرع من التنكير وان النكرة سابقة على المعرفة ، وان مسمى النكرة أسبق في الذهن من مسمى المعرفة بدليل طريان التعريف على التنكير .

ويتبين من هذا أنهم خصوا التنكير بعلامة تفتقر اليه وهو التنوين . اذا فكيف يتسنى لهم أن يؤكدوا سبق التنكير على التعريف .

وقد فصلوا في التفريق بين المعرفة والنكرة مستخدمين المنطق أداة في الحكم على ما يريدون ، فمن ذلك قولهم : « ان لفظ (شيء) و(معلوم) يقع على المعرفة والنكرة ، واندراج المعرفة تحت عمومها دليل على اصالتها كاصالة العام بالنسبة الى الخاص ، فان الانسان مندرج تحت الحيوان لكونه نوعا والجنس أصل لانواعه »[٣٣] .

وأرى ان النحويين واللغويين القدامى لم يفلحوا في التفريق بين المعرفة والنكرة ، فقد أطلقوا هذه الفروق ولم يستطيعوا أن يتبينوها بدقة تامة . فقد ذكروا في باب المبتدأ والخبر أن شرط الابتداء التعريف ، فاذا جاء المبتدأ نكرة اشترطوا الافادة في هذه النكرة والافادة معروفة مقيدة بمواضعها في كتبهم ثم انهم وجدوا ان في كلام العرب ما يند عن هذا فقد جاء المبتدأ نكرة من غير التزام الافادة . ومعنى هذا ان النكرة كما حددوها

= أما أسماء الافعال فاضافة التنوين اليها ربما كانت لضرورتها على ثلاثة أحرف بدلا من الثنائية ، والثلاثي في الكلمات العربية أسهل في الدرج والوصل من الثنائي ، وعلى هذا الاساس يمكن تفسير زيادة الفاء في (فقط) .

(٣١) ابن جني ، الخصائص ج ٢ ص ٦٢ .
(٣٢) السيوطي ، الاشباه والنظائر ج ٢ ص ٣٤ .
(٣٣) المصدر السابق .

فى اصطلاحهم تجرى مجرى المعرفة أو قل هى والمعرفة سواء بسواء ، والى هذا أشار ابن مالك فى الارجوزة :

وقس وكاستفهام النفى وقد يجوز نحو فائز أولو الرشد

والذى أريد من هذا ان التعريف باللام وان التنكير بالتنوين شىء واحد ، والذى يعين فى اثبات صحة هذه الدعوى ما نجده فى اللغة الاكدية العتيقة كنصوص (حمورابى) من (التمييم) الذى يقابل التنوين ، والتمييم فى تلك النصوص لا يقيد الكلمة بالتنكير ، فهو يدخل على الالفاظ عموما ، لا فرق بين معرفة ونكرة ، كما انه لا يوجد أداة للتعريف .

واتصال التعريف بالتنكير وتبادلهما حاصل فى اللغة الآرامية ، وذلك أن أداة التعريف كانت فى الآرامية العتيقة فتحة ممدودة ملحقة بآخر الكلمة نحو (Sum)أى اسم و (Sma) أى الاسم وربما كان أصل الفتحة الممدودة (ha) التى هى آلة التعريف فى العبرية والتى توضع فى أول الكلمة[٣٤] .

وان الفتحة فى آخر الكلمات السريانية شىء من هذا أيضا فربما كانت للتعريف ثم فقدت هذا الاختصاص فصارت تلحق بالكلمة معرفة أو نكرة على السواء .

ولو كان التنوين مقيدا بالتنكير لكان من العسير علينا فهم الاعلام التى تقبل هذا التنوين ، وهذه الطائفة من الاعلام هى أكثر الاعلام فى العربية .

ومكان أداة التعريف هو آخر الاسم فى كثير من اللغات السامية ، ففى لغات اليمن الجنوبية ان (آن) أداة التعريف وهى تلحق الآخر[٣٥] . وربما كانت هذه هى (هن) كما فى العبرية القديمة . ثم بدلت مكانها فصارت تتصدر الاسم كما فى اللهجة الصفوية والثمودية مثل (هجمل)

---

(٣٤) برجشتراسر ، التطور النحوى ص ٧٧ .

(٣٥) اغناطيوس غويدى ، المختصر فى علم اللغة العربية الجنوبية القديمة ص ١٤ .

ومعناه الجمل و (هبيت) ومعناه (البيت)[٣٦] • والتشديد فى الحرف من الكلمة دليل على النون المحذوفة كما هو الحال فى العبرية •

ولما غيرت هذه الاداة مكانها خصت الكلمة المنكرة بالميم للتفريق •

واللحيانية أيضا تتوصل الى التعريف بالهاء المفتوحة فى أول الكلمة على أنه وجد فى النقوش أداة التعريف فى كلمة منونة وذلك (همصلمن) ومعناه الصنم •

وربما كانت هذه الاداة هى الهمزة والميم فى لغة حمير من لغات الجنوب كما تذكر النصوص العربية • ويبدو من هذا العرض ان النون والميم متقاربان متبادلان • فقد روى النمر بن تولب الحديث المشهور : (ليس من امبر امصيام فى امسفر)[٣٧] •

وتنفرد العربية الشمالية عن أخواتها بهذه الاداة ، ولكن الناظر فى الاسانيد يجد ان النحويين على خلاف ، فان (ألـ) بجملتها حرف تعريف عند الخليل وسيبويه[٣٨] • وعن الرضى الاستربادى فى شرحه ان اللام وحدها اداة التعريف عند سيبويه[٣٩] وذكر المبرد فى كتاب الشافى أن حرف التعريف الهمزة المفتوحة وحدها وانما ضم اللام اليها لئلا يشتبه التعريف بالاستفهام[٤٠] على أننا نرى أن اللام ربما كان بدلا من النون التى وجدناها فى اللغات ، كما ان هذه اللام قد تطوى فى اللفظ مع الحروف الشمسية ، ويقتضى هذا الطى نوعا من التشديد والضغط[٤١] على المقطع الاول •

---

(٣٦) جواد على ، تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٧ ص ٢١٢ •

(٣٧) ابن يعيش ، شرح المفصل الطبعة الاوربية ص ١٢٢ ، العينى ج ١ ص ٤٦٥ ، مسند احمد ج ٥ ص ٣٤٣ ، الرضى ، شرح الكافية ج ٢ ص ١٣١ •

(٣٨) حاشية الصبان ج ١ ص ١٧٦ •

(٣٩) الرضى ، شرح الكافية ج ٢ ص ١٣٠ •

(٤٠) المصدر السابق •

(٤١) لم تعالج مسالة الضغط (Stress) فى اللغة العربية ومن ثم لم تعالج مسالة المقاطع فيها •

ونستطيع أن نخلص الى القول ان التنوين أو التمييم ـ وهى أداة صوتية فى آخر الكلمة ـ ربما قصد بها التنبيه والاشارة ثم فقدت مكانهـا فصارت (أل) فى أول الكلمات للتعريف • ولا حاجة لنا أن نطيل الجدل فى مسألة التعريف والتنكير بالوجه الذى عرفناه فى كتب النحو • وينبنى على هذا أننا لا نستطيع الجمع بين (الـ) و (التنوين)فى كلمة واحدة لانهما يدلان على شىء واحد ولان طبيعة الكلمة العربية أو وحدتها الصوتية لاتسمح بالجمع بينهما فى لفظ واحد •

ولا بد من كلمة أخيرة فى هذا الموضوع ، وذلك ان التنوين ربمـا توهم فيه فظنوه نونا كما فى كلمة (تضـامن) اذ الاصل فيها (تضـام) بالتنوين من الضم الذى يفيد الجمع • وعلى هذا الاسـاس نستطيع فهـم (صلدم) فالميم فيها من هـذه الزيادة أى الغرض (التمييم) مقابلة للتنوين وليست من (صلد) و (صدم) كما ذهب اليه ابن فارس •

وقد أضيفت التنوين الى طائفة من الادوات لفظا وخطـا فاضاف اليها معانى جـديدة أو قل اختصاصات جـديدة ، ومنها (ما) الموصولة التى أصبحت (من) وقيـدت بالعاقل وان ورد فى فصيح العربيـة أن الاولى استعملت وأريد بها العاقل كقوله تعالى : (سبح لله) •

وتمتاز هذه الادوات (اذا) التى أفادها التنوين شيئا آخر فصارت (اذا) أو (اذن) •

ومن هذه الادوات (لا) التى أصبحت مع النون (لن)[٤٢] ، وقيدت بمعنى خاص وهو كونها لنفى المستقبل • ويرى الخليل ان (لن) مركبة من (لا) و (أن)[٤٣] •

وربما استطعنا أن نقول ان (لن) و (لم) من حقيقة واحـد ولكن الاستعمال قد خص كلا منهما باستعمال خاص •

---

(٤٢) ابن فارس ، الصاحبى ص ١٣٦ •
(٤٣) ابن عقيل ، باب النواصب •

الادارة الايلخانية فى العراق

٦٥٦ ـ ٧٣٧هـ (١٢٥٨ ـ ١٣٣٦م)

الدكتور جعفر حسين خضباك
الاستاذ المساعد في قسم التاريخ

وصل هولاكو ظاهر بغداد الشرقية فى الثامن عشر من محرم سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) وأخذ بمهاجمة المدينة فى الثامن والعشرين من الشهر المذكور فاستولت جنوده على برج العجمى بعد ستة أيام من الحرب الشديدة وفى الرابع من صفر من نفس السنة وضع السيف فى أهل المدينة وأشعلت فيها النيران حتى احترق جامع الخليفة ومشهد موسى الجواد وتربة الخلفاء وفى الرابع عشر من الشهر نفسه قتل الخليفة مع ولده الأكبر وخمسة من الخدام الملازمين لهم وانتهت بذلك دولة بنى العباس[١]. وقد عهد هولاكو لقائديه (ايلكانويان) و (قرابوغا) أمر المحافظة على العراق واكمال اخضاعه ووضع تحت قيادتهما ثلاثة آلاف فارس وكان أهل الحلة والكوفة قد نزحوا بأولادهم وأموالهم الى البطائح وحضر أكابرهم الى هولاكو وسألوه حقن دماءهم فأجابهم الى ذلك وعين لهم شحنة فعادوا الى بلادهم وأرسلوا الى من فى البطائح من الناس يعرفونهم بذلك فخرجوا وحملوا الى هولاكو مبلغا عظيما من المال فتصدق عليهم بنفوسهم ثم ان القائد (بوقاتيمور) سار لامتحان ولاءهم وولاء أهل الكوفة وواسط فاستقبله أهل الحلة استقبالا حسنا وبعدما توثق منهم غادرهم فى العاشر من صفر متوجها نحو واسط حيث وصلها فى السابع عشر من

---

(١) رشيد الدين فضل الله ، داستان هولاكو ، جامع التواريخ (النص الفارسى مع ترجمة فرنسية بقلم M. Qatrmere) ص ٢٨٢ ـ ٢٠٦ .

الشهر المذكور فقاومه أهلها وحاربوه ولكنه انتصر عليهم وقتل منهم حوالى الاربعين ألف انسان ثم غادرهم نحو البصرة فأعلنت له المدينة خضوعها مع منطقتهـا وكذلك فعلت تستر ومنطقتها خوزستـان(٢) . أما الموصل فأن أميرها بدرالدين لؤلؤ كان قـد دخـل فى طاعة المغول منـذ سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٤م) وأمد هولاكو بالسلاح ولكنه ظل يراسـل الخليفة المستعصم سرا وبعد واقعة بغداد بقليل حضر عند هولاكو فأحسن استقباله وأقره على أمارة الموصل ولكنه لما عاد اليها مرض أياما ومات فتولى الحكم بعده ولده الملك الصالح اسماعيل ولكن هذا أعلن الثورة على المغول فى سنة ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) فأرسل اليه هولاكو قائده (سنداغو) حيث وصـل المدينـة وضرب حولها الحصار ونصب على أسوارها المناجيق مدة اثنى عشر شهرا وأبلى أهل الموصل وأميرهم فى القتال بلاء حسنا ونصبوا مقابل مناجيق المغول ثلاثين منجنيقا ترميهم ليل نهار فلما رأى القائد المغولى صعوبة فتح المدينة أمسك عن القتال حتى فنيت ميرتها وتعـذرت عليها الاقوات وأكل أهلها الميتة ولحم الكلاب فحينئذ طلب أميرها الامان فأجابه القائد المغولى الى ذلك ولكنه لما خرج اليـــه قبض عليه وعـلى ولده ثم قتـل ولده الملقب بعلاء الملك(٣) . وأرسـل بالملك الصـالح وأخاه الملك الكامل الى هولاكو فأمر بالاول منهما وكان غضبه عليه شديدا فسلخ وجهه وهو حى ثم قتـل وقتل أخوه وكان طفـلا ودخـل الجيش المغولى المدينـة وكان ذلك فى رمضان سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م) فقتل غالب أهلها وأخذ الكثير منهم أسرى حتى خوت المدينة وكأن لم يبق بها أحـد ولما انتهت استباحتهـا ورحلت الجنود المغوليـة عنها عـاد اليها من كان مختبئـا من أهلها فى الجبـال والمغارات(٤) . وفى الوقت الذى بدأ فيه هولاكو بالزحف على بغداد فى ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) أرسل قائده (أرقيونويان) لافتتاح قلعة أربيل ولكن

---

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٦ ـ ٣١٢ .

(٣) الحوادث الجامعة ، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٧ .

(٤) داستان هولاكو ، جامع التواريخ ، ص ٣٨٨ .

الاكراد دافعوا عنها دفاعا مجيدا فطلب القائد المغولى النجدة والمشورة من بدرالدين لؤلؤ أمير الموصل فأمده بطائفة من جنوده وأشار عليه بالاستمرار على الحصار حتى الصيف حيث لجأ الاكراد الى الجبال هربا من الحر فعمل بذلك وكان أهل القلعة يخرجون منها أثناء الليل فيهاجمون جنود المغول ويقتلون من يستطيعون قتله منهم ويشعلون النيران فى مناجيقهم ثم يعودون الى قلعتهم حتى طال الحصار ودكت أسوار القلعة وسقطت بعد حوالى السنة(٥) .

وهكذا أخضعت غالبية المناطق التى تكون العراق الحالى بأجزائها التى كانت تتكون من العراق العربى وقسم من بلاد الجزيرة وبلاد الجبال (العراق العجمى) وقتل عدد كبير من سكانه وخربت أجزاء منه . وقد قتل غالبية أعضاء العائلة العباسية الحاكمة باستثناء البعض منهم ممن استطاع الفرار والنجاة . وكان أحد هؤلاء أبوالقاسم أحمد بن الظاهر بأمرالله الذى صار الى عرب العراق واختلط بهم فلما ملك السلطان الظاهر بيبرس عرش مصر وفد عليه مع جماعة من مشايخ العرب فى رجب سنة ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) فركب السلطان للقائه ومعه الوزير وقاضى القضاة والشهود والمؤذنون وغيرهم فقررنسبه على القاضى وشهد الشهود بصحته وبويع بالخلافة وأصبح المستنصر بالله الثامن والثلاثين من خلفاء بنى العباس ولكنه لم يبق فى الخلافة غير خمسة شهور وعشرين يوما قام خلالها بتقليد السلطنة للملك الظاهر بيبرس ثم ان السلطان المذكور اعتنى بتجهيزه وأخذه معه الى دمشق وسيره منها فى الواحد والعشرين من ذى القعدة من نفس السنة نحو بغداد . وحينما وصل مدينة (الرحبة) وافاه الامير (بريد بن على بن حذيفة) من آل فضل وأخوه الاخرس فى اربعمائة فارس من العرب ثم سار الجميع الى (عانة) حيث لحق بهم الحاكم بالله وهو أمير عباس آخر سبق ان اعلن نفسه خليفة ، مع سبعمائة فارس من التركمان جهزه بها

---

(٥) المصدر السابق ، ص ٣١٤ ـ ٣١٦ ؛ انظر
Ency. of Islam, Vol. II, P 551.

حاكم حلب وقد نزل والى المدينة وناظرها وسلماها الى (المستنصر بالله) ثم أن الخليفة سار الى (حديثة) ففتحها له أهلها فنزل بها ثم رحل عنها قاصدا (هيت) • ولما اتصلت أخباره (بقرابوغا) قائد العسكر المغولى بالعراق و (على بهادر) شحنة بغداد خرج الاول منهما بخمسة آلاف رجل وقصد الانبار ودخلها غرة وقتل جميع من فيها وأعقبه على بهادر بمن بقى من عساكر بغداد • وقد أغلق أهل هيت أبواب مدينتهم دون الخليفة فحاصرها وفتحها فى التاسع والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) ثم رحل عنها وقصد الدور وبعث طائفة من عسكره بقيادة الامير أسدالدين محمود بن الملك المفضل موسى فبات تجاه الانبار ليلة الاحد ثالث المحرم سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م) فلما رأى (قرابوغا) العلامة أمر من معه من العسكر بالعبور اليها فى المخائض والمراكب ليلا فلما أسفر الصباح تهيء (قرابوغا) للقتال ورتب الخليفة جيشه وحمل بنفسه وحمل من معه فانكسر على بهادر ووقع معظم عسكره فى الفرات ثم خرج كمين من التتار فلما رآه التركمان والعرب هربوا وأحاط الكمين بعسكر الخليفة فصدق ومن معه القتال ولكنهم هزموا ولم يوقع للخليفة على أثر والارجح أنه قتل ونجا الحاكم بالله وبعض أمراء العرب(٦) • وكانت هذه آخر محاولة قام بها أمير عباسى لاعادة الخلافة الى بغداد •

وهنا يمكننا القول بناء على المعلومات التى مرت بنا ان المقاومة الجدية للغزو المغولى بين ٦٥٦ و ٦٦٠هـ (١٢٥٨م – ١٢٦١م) لم تقم فى العراق الا فى الجانب الشرقى من بغداد فى المنطقة المحاطة بالسور وفى أربيل وواسط والموصل • ومع صعوبة تقدير الخسائر المادية – عدا خسائر الارواح – التى أوقعها هذا الغزو بالعراق فان المصادر الاولية المطلعة تساعدنا على القاء ضوء غير قليل على سعتها وطبيعتها • ففيما يتعلق ببغداد يقول صاحب الحوادث الجامعة : (وأحرق معظم البلد وجامع الخليفة

---

(٦) قطب الدين اليونينى ، ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ص ٩٤–١٢٧ •

وما يجاوره ، واستولى الخراب على البلد)[٧] ويقول الخواجة رشيدالدين فضل الله : (وأحرقت أكثر المواضع الشريفة مثل جامع الخليفة ومشهد موسى الجواد عليه الرحمة وتربة الخلفاء)[٨] • ويقدم لنا صاحب كتاب مراصد الاطلاع فيما يأتى وصفا تأريخيا موجزا لتأريخ خراب المدينة وهو يعرفها قبل سقوطها وبعده بفترة غير طويلة : (فلم يبق من الجانب الغربى الا محال متفرقة أعسرها الكرخ وخرب من الجانب الشرقى من الشماسية الى المخرم ، وبنى السور على ما بقى منه على جانب دجلة حتى جاء التتر اليها فخرب أكثرها)[٩] • وقد تم بناء السور المشار اليه فى عهد المسترشد ٥١٢ - ٥٢٩هـ (١١١٨ - ١١٣٥م) وكانت أهم المحلات الواقعة فى داخله قبل سقوط بغداد هى : سوق الثلاثاء ومحلة المأمونية ومحلة باب الازج ومحلة قراح ابن رزين والمحلة المقتدية ومحلة المختارة ومحلة قراح ظفر ومحلة قراح القاضى وقراح أبى الشحم ومحلة القبيبات ومحلة البصلية وقطيعة العجم والظفرية وشارع دار الرقيق ونهر المعلى والجعفرية والقرية والحلبة • والمهم فى كتاب (مراصد الاطلاع) ان صاحبه يبين فيما اذا كان الموقع غير موجود فى زمانه ويعلن خرابه فيما اذا كان خربا فى عهده[١٠] • لذلك فان ما يقدمه من المعلومات عن كل محلة من محلات بغداد الواقعة داخل السور يلقى ضوء كبير الاهمية

---

(٧) انظر ما مر •

(٨) داستان هولاكو ، جامع التواريخ ، ص ٢٩٨ •

(٩) مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، ج ١ ، ص ٢٠٩ •

(١٠) يرى كاتب هذه السطور أن مؤلف كتاب مراصد الاطلاع لا يمكن أن يكون صفى الدين بن عبدالحق الحنبلى المولود سنة ٦٥٨هـ والمتوفى سنة ٧٣٩هـ بل أنه رجل آخر غير بغدادى كان يعرف بغداد منذ أيام الخليفة المستنصر بالله ودليله على ذلك ما يأتى :

أولا : ان مؤلف الكتاب أورد ما يأتى فى كلامه عن موضوع (دار الشجرة) : « قلت : والذى رأيناه نحن أنها كانت مثل المحلة بها مساكن ودار قد كان يسكنها أنساب الخليفة من أولاد الخلفاء بأهلهم =

على طبيعة ما خرب فى هذه المنطقة المهمة فيقول عن سوق الثلاثاء أنه (سوق فى وسط بغداد من أعمر أسواقها وهو سوق البزازين)[11] . ويصف محلة المأمونية بأنها (محلة كبيرة طويلة عريضة ببغداد ، بين نهر المعلى وباب الازج)[12] وعن باب الازج بأنها (محلة كبيرة ذات أسواق كثيرة ومحال كبار ، فى شرقى بغداد)[13] . وعن قراح ابن رزين ما يأتى : (وأهل بغداد يسمون البستان قراحا . وفى بغداد عدة محال تسمى بقراح مضاف الى رجل يعرف باسمه) ثم يقول عن قراح ابن رزين أنه

= كالمحبوسين ، يمنعون عن الخروج منها ، ولهم أرزاق دائرة عليهم وسموا بذلك لانهم من شجرة النسب ، فنسب الدار اليهم » ج ٢ ص ٥٠٦ .

ونحن نعلم أن عادة سجن انساب الخليفة وأولاده بالشكل الذى يشير اليه المؤلف قد انتهت بمجىء المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين الى دست الحكم لانه أطلقهم . وبما أن الخليفة المذكور تسلم منصب الخلافة فى ٦٤٠هـ فلا بد أن يكون صاحب مراصد الاطلاع قد شهد الموقع المشار اليه أى (دار الشجرة) قبل هذا التاريخ ولا بد أن يكون من السن فى ذلك الوقت بحيث يدرك أهمية ما أشار اليه أى بما لا يقل عن العشرين سنة وهذا ينفى نفيا قاطعا أن يكون صفى الدين المولود فى ٦٥٨هـ .

ثانيا : ان كلامه عن بغداد يدل على أنه لم يكن من أهلها فهو يقول تحت مادة بغداد « حتى جاء التتر اليها فخرب أكثرها وقتلوا أهلها كلهم فلم يبق منهم غير آحاد كانوا أنموذجا حسنا ، وجاء أهل البلاد فسكنوها وباد أهلها ، وهى الآن غير التى كانت وأهلها غير من عهدناهم ، والحكم لله تعالى » ج ١ ص ٢٠٦ .

فلو كان من أهل المدينة وأصاب أهلها ما أصابهم لما قال (وقتلوا أهلها كلهم) وقال (وباد أهلها) لانه لا بد وأن يكون قد مسه هو أو أحد أفراد عائلته أو مس بيته أو أحد بيوت أصحابه شىء من الضرر يقتضى الاشارة اليه ولو من بعيد بل أنه ـ على ما يبدو ـ يعرف المدينة وأهلها قبل سقوطها لانه لولا ذلك لما استطاع المقارنة بين أهل المدينة قبل سقوطها وبعده وهذا يؤكد النقطة الاولى كل التأكيد لان ميلاد صفى الدين بن عبدالحق أمر مقرر معروف وهو بعد سقوط بغداد بسنتين .

(١١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٩٨ .
(١٢) المصدر السابق ، ج٣ ص ١٢٢٢ .
(١٣) المصدر السابق ، ج١ ص ٦٥ .

(أقرب المحال فى وسط البلد)[١٤] • وذكر عن محلة المقتدية أنها بالجانب الشرقى وعن محلة المختارة أنها (بين باب أبرز وقراح القاضى ومحلة المقتدية)[١٥] • وعن قراح ظفر أنه (ظاهر محلة الظفرية)[١٦] وعن محلة قراح القاضى أنه (اذا خرجت من قراح رزين على يمينك درب واسع فيه درب قراح القاضى على يسارك ، ثم يمتد فيه الى قراح أبى الشحم • وفيه دروب عن يمينك وشمالك)[١٧] • وعن محلة القبيبات أنها (محلة ببغداد وراء قراح أبى الشحم)[١٨] • وقد وردت محلة البصلية تحت اسم البصلة وورد عنها انها (محلة فى طرف بغداد فى الجانب الشرقى متصلة بباب كلواذى)[١٩] • وعن قطيعة العجم أنها (بالجانب الشرقى فى أسفل البلد بين باب البصلية وباب الازج : محلة عظيمة كبيرة فيها أسواق كأنها مدينة برأسها)[٢٠] • وعن الظفرية بأنها (محلة بشرقى بغداد كبيرة)[٢١] وعن شارع دار الرقيق أنه (محلة ببغداد متصلة بالحريم الطاهرى باقية الى الآن وبها سوق)[٢٢] وعن نهر المعلى أنه محلة وأنه (من عقد الجديد الى عقدى المصطنع فى الشارع الاعظم من الريحانيين ، وباب النوبى الى باب جامع القصر الى المقدمين وفيه السوق والدكاكين)[٢٣] وعن الجعفرية أنها (محلة كبيرة مشهورة فى الجانب الشرقى من بغداد)[٢٤] وعن القرية أنها (محلتان ببغداد احداهما فى حريم دار

---

(١٤) المصدر السابق ، ج٣ ص ١٠٧١ •
(١٥) المصدر السابق ، ص ١٢٣٩ •
(١٦) المصدر السابق ، ص ١٠٧١ •
(١٧) المصدر السابق •
(١٨) المصدر السابق ، ص ١٠٦٦ •
(١٩) المصدر السابق ، ج١ ص ٢٠٢ •
(٢٠) المصدر السابق ، ج٣ ص ١١١٠ •
(٢١) المصدر السابق ، ج٢ ص ٩٠٥ •
(٢٢) المصدر السابق ، ص ٧٧٣ •
(٢٣) المصدر السابق ، ج٣ ص ١٤٠٦ •
(٢٤) المصدر السابق ، ج١ ص ٣٣٦ •

الخلافة وهى كبيرة فيها محال وسوق والاخرى بالجانب الغربى ...)[٢٥]. وعن الحلبة أنها (محلة كبيرة ببغداد فى شرقيها قرب باب الازج)[٢٦] . وقد أورد صاحب المراصد هذه المحلات دون أن يشير الى خرابها . يضاف الى ذلك أنه أورد من الدور المهمة فى بغداد ما يأتى (قصر ميدان خالص) وقد قال عنه أنه بدار الخلافة ببغداد[٢٧] ودار الريحانيين وقد ذكر أنه (دار فى دار الخلافة ... استجدها المستظهر بالله خرب أكثر هـــذه الدار وبقى بستانها لا غرس فيه)[٢٨] وقال عن دار سوق التمر أنها (دار عظيمة من دار الخلافة مشرفة على مشـرعة الابريين)[٢٩] وعن دار الشجرة أنهـا (دار بدار الخلافة ببغداد)[٣٠] . وعن الدار المثمنة أنها (بدار الخلافة من عمارة المطيع ، كانت فى غاية الحسن ، نقضت تقريبا)[٣١] . وعن الدار المربعة أنها (بدار الخلافة من عمارة المطيع أيضا)[٣٢] . يضاف الى ذلك ان المصدر الاولى المهم الموسوم بالحوادث الجامعـة يؤكد وجـود دار الخليفة ودار الدويدار الكبير وجامع الخليفة وقد أحرق فى الواقعة وأعيد اصلاحه بعدها والمدرسة النظامية وسوقها والمدرسة المستنصرية والمدرسـة التتشية ومدرسة الاصحاب ومدارس وربط أخرى[٣٣] . ومن مجموع المعلومات المتوفرة لدينا عن المواقع المـار ذكرها وهى أهم ما كان قائمـا فى

---

(٢٥) المصدر السابق ، ج٣ ص ١٤٠٦ .
(٢٦) المصدر السابق ، ج١ ص ٤١٧ .
(٢٧) المصدر السابق ، ج٣ ص ١١٠١ .
(٢٨) المصدر السابق ، ج٢ ص ٥٠٦ .
(٢٩) نفس المصدر والصفحة .
(٣٠) نفس المصدر والصفحة .
(٣١) نفس المصدر ، ص ٥٠٧ .
(٣٢) نفس المصدر ، ص٥٠٨ .
(٣٣) الحوادث الجامعـة ص ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٩٠ ، ٣٢٤ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٩ .

المدينة المحاطة بالسور يمكننا القول ان الخسائر المادية ـ عدا خسائر الارواح والاموال ـ كانت محدودة بحيث أمكن اصلاحها بسهولة خلال فترة قصيرة وقد جاء فى الرسالة المنسوبة الى نصيرالدين الطوسى أن هولاكو أمر بعد اعلان الامان بتعمير بغداد ودفن أجساد البشر والحيوانات(٣٤) • كما ورد فى الحوادث الجامعة ان الامر صدر ، بعد واقعة بغداد بقليل (بعمارة جامع الخليفة وكان قد أحرق) • وان صدر الوقوف فتح المدارس والربط(٣٥) • وقد جاء فى جامع التواريخ ما يؤكد ذلك ويضيف الى ذلك أن هولاكو أرسل القائدين ايلكانويان وقرابوغا وأمرهما باصلاح ما خرب من المدينة فى الحال واصلاح أسواقها واعادة أعمال أهلها الى ما كانت عليه ورفع القتلى من الناس والحيوان(٣٦) • ومما يؤكد ما ذهبنا اليه فى أن تخريبات الفتح لم تكن خطيرة فى بغداد ان السائح المغربى ابن بطوطة زار المدينة فى أواخر العهد الايليخانى فى ٧٢٧هـ (١٣٢٧م) وذكر أن فيها جسران يعبرها الناس ليل نهار رجالا ونساء والناس فى نزهة متصلة وان الجانب الشرقى من المدينة حافل الاسواق عظيم الترتيب أعظم أسواقه يعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيه على حدة وفى وسطه المدرسة النظامية وفى آخره المدرسة المستنصرية وأن فى هذا الجانب من المساجد التى تقام فيها الجمعة ثلاثة أحدها جامع الخليفة وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم ثم أنه ذكر قبور الخلفاء العباسيين بالرصافة وعلى كل قبر اسم صاحبه(٣٧) • وقد وصف حمدالله المستوفى القزوينى بغداد فى ٧٤٠هـ (١٣٤٠م) وقد رآها بنفسه ، فعد

---

(٣٤) نصير الدين الطوسى ، رسالة بالفارسية ترجمت الى العربية ونشرت من قبل محمد صادق الحسينى ، فى مجلة المرشد البغدادية ، ج٤ ص ٢٦ •

(٣٥) ص ٣٣٣ •

(٣٦) ص ٣٠٨ •

(٣٧) تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار (مطبعة مصطفى محمد على ، ١٩٣٨) ج١ ص ١٤٠ ـ ١٤٢ •

الكثير من المواقع المهمة فيها مثل المدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية التي وصفها بأنها أجمل بناية في المدينة وأشار الى وجود قبور الخلفاء العباسيين في الجانب الشرقي وغير ذلك من المواقع المهمة(٣٨) . وأخيرا وصف ابن فضل‌الله العمري المتوفى ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) بغداد فأشار الى وجود قصور الخلافة والمدارس والابنية العالية المطلة على دجلة ووجوه الخير من جوامع ومساجد ومدارس وخوانق وربط وبيمارستانات وغيرها(٣٩) .

هذا ما ورد عن بغداد أما عن المدن الاخرى فيبدو ان ما وقع فيها من الخراب كان غير خطير أيضا وأنه أصلح بعد فترة قصيرة فقد كتب صاحب مراصد الاطلاع عن أربيل أنها (مدينة كبيرة في فضاء من الارض واسع لها قلعة حصينة ذات خندق في طرف المدينة ينقطع سور المدينة في نصفها ، وهي على تل عال عظيم من تراب ، وفيها أسواق ومنازل للرعية)(٤٠) . وكتب عن الموصل أنها (المدينة المشهورة العظيمة : احدى قواعد بلاد الاسلام ، قليلة النظير كبرا وعظما ، وكثرة خلق ، وسعة رقعة)(٤١) . ووصف ابن بطوطة مدينة واسط بأنها (حسنة الاقطار كثيرة البساتين)(٤٢) .

هذا ما يتعلق بالمدن العراقية أما عن وسائل الري فان المصادر الاولية المطلعة لا تشير الا الى شيء واحد وهو ان الفول خلال غزو هولاكو لم يخربوا الا نهر بشير ، وهو فرع صغير من نهر دجيل خلال حربهم مع الدواتدار الصغير قائد جيش الخليفة في ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) وبذلك فان كل

---

(٣٨) حمد الله المستوفي القزويني ، نزهة القلوب (الترجمة الانكليزية للقسم الجغرافي بقلم G. L. Strange) ص ٤١ ـ ٤٢ .

(٣٩) ابن فضل‌الله العمري الكرماني الدمشقي ، مسالك الانصار ، كما ورد في القلقشندي ، صبح الاعشى في قلائد الانشا ، ج ٤ ص ٣٣١ ـ ٣٣٢ .

(٤٠) ج١ ص ٥١ .

(٤١) ج٣ ص ١٣٣٣ .

(٤٢) تحفة النظار ، ج١ ص ١١٤ .

ما قيل عن تخريب المغول المنظم لنظام الرى فى العراق فى عهد هولاكو أمر لا أساس له من الصحة(*) .

- ٢ -

كانت الادارة العباسية قبيل الفتح المغولى تمثل تطورا أملته الظروف التأريخية لادارة امبراطورية عظيمة تحولت الى دولة صغيرة تشتمل على العراق العربى وأربيل وخوزستان وبرأسها حاكم هو فى نفس الوقت خليفة المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها لمركزه صفة شبه مقدسة تحمل معها احترام المسلمين وعطفهم ولو بصورة شكلية نظرية . وكانت بغداد فى اول أمرها عاصمة العالم الاسلامى وقلبه النابض فأصبحت فى آخر أمرها قبل سقوطها بأيدى هولاكو عاصمة دولة صغيرة ولكنها ظلت مع ذلك رمزا للوحدة الاسلامية . وقد كانت التنظيمات الادارية لدولة الخليفة فى عهدها الاخير معقدة تشتمل على دوائر كثيرة العدد تلائم ماضى الدولة أكثر من حاضرها . وكان بلاط الخليفة يقوم - بسعته وتعدد أقسامه والوظائف القائمة به وتقيد مراسيمه - على اشباع مركز الخليفة الاسمى العظيم أكثر من خدمة الواقع المحدود المتواضع لدولة صغيرة ضعيفة الامكانيات . ولذلك فان تحول العراق الى مجرد ولاية من ولايات الامبراطورية الايلخانية المترامية الاطراف استلزم اعادة النظر بطبيعة ادارته ووظائفه واستوجب تقليصها وتبسيطها وزيادة اللامركزية فى ادارتها لان ادارة امبراطورية واسعة كبيرة على الاساليب المركزية أمر مستحيل فى عهد كانت أسباب المواصلات فيه بدائية ومسألة المحافظة على الامن أمر يستوجب عناية مستمرة من الحكومة خصوصا ورأس الامبراطورية بعيد عنها فى أذربيجان لذلك فقد ترك هولاكو حامية من الجنود المغولية فى العراق منذ أول عهده بالفتح وكان بعض أمراء العائلة المالكة الايلخانية

(*) أنظر الحوادث الجامعة ، ص ٣٢٤ ، تاريخ وصاف ، ج١ ص ٣٤ ، الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٧١ .

يتخذ مقره العسكرى مع قوات مغولية غير قليلة فى العراق(٤٣) . وكانت عناية الايلخانات متجهة منـــذ البداية الى التثبت من ولاء صـاحب ديوان العراق والى تعيين أحد المغول بمنصب الشحنة أى الحاكم العسكرى .

قرر هولاكو أسس ادارة العراق فى يوم قتل الخليفة المستعصم بالله فعـين مؤيدالدين ابن العـلقمى وزير الخليفـة وزيرا وفخرالدين ابن الدامغانى صاحب ديوان الخليفة صاحب الديوان وعلى بهادر الخراسانى شحنة(٤٤) . وحضر نجم‌الدين أحمـد بن عمران وهو من أهل باجسرا بين يدى السلطان فعينه صـدر الاعمال الشرقية وأقضى القضاة عبدالمنعم البندنيجى فأقره على القضاء وتاج‌الدين على بن الدوامى حاجب الباب فى عهد الخليفـة فعينه صـدر الاعمال الفراتية(٤٥) . وكان جميـع هؤلاء باستثناء الشحنة من أهل العراق والعارفين بشؤونه والمشتغلين بادارته فى زمن الخليفة الاخير وقـد فوض اليهم هولاكو أمر تنظيم ادارة العـراق فاجتمعوا وقرروا أحـواله ونظموها وعينوا حكامه وكبار موظفيـه وقـد راعى هؤلاء ظروف البلاد الجديدة فاحتفظوا بالوظائف المهمة الضرورية وألغـوا وظائف أخرى أو قلصـوها وعينوا فى بغـداد كاتب سـلة ونائب شرطة وخازن ديوان وصدر وقوف وهى وظائف عباسية قديمـة وقسموا البلاد الى خمسة مناطق ادارية وضعوا عـلى رأس كل منهـا موظفا باسـم صدر ثم عينوا النواب والنظار(٤٦) .

وكان من الطبيعى ان يؤدى الفتـح المغـولى الوثنى الى زوال منصب الخليفة وزوال وظائف البلاط القائمة على خدمته وخدمة منصبه الجليل . وقد كانت بغداد مركزا لدواوين تشرف على ادارة شؤون العراق العامـة كديوان الزمام وديوان الابنية وديوان الرسائل وديوان الجوالى وديوان

---

(٤٣) الحوادث الجامعة ، ص ٤٧٦ .

(٤٤) جامع التواريخ ، داستان هولاكو ، ص ٥٠٧ ـ ٤٠٠ .

(٤٥) الحوادث الجامعة ، ص ٣٣٢ .

(٤٦) نفس المصدر ، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

الحسبة وديوان عرض الجيش وديوان العقار وديوان المقاطعات وديوان الخراج وديوان التركات يرأس كلا منها موظف باسم صدر ومعه مراقب أو مفتش باسم مشرف(٤٧) • وكان لكل منطقة ادارية أو منطقة مهمة ديوان فى بغداد يرأسه صدر ومعه مشرف(٤٨) • ولكننا لم نعد نسمع فى العهد الايلخانى عن تلك التشكيلات شيئا ، ويبدو أنها ألغيت واستعيض عنها بديوان واحد واسع هو ديوان الزمام وقد كان ديوان الدواوين فى العهد العباسى فأصبح يدعى فى العهد الايلخانى بالديوان ويضم المركز الرئيسى لادارة العراق ويجلس فيه واليه الذى أصبح يسمى (صاحب الديوان) بسبب رآسته له • وأصبح لكل منطقة ادارية ديوان خاص لادارتها يقوم فيها وليس فى العاصمة بغداد سيرا مع الاتجاه الجديد فى اللامركزية • وفى ٦٥٧هـ (١٢٥٩م) ولى هولاكو علاءالدين عطا ملك جوينى صدرية ديوان العراق فأصبح الحاكم الاعلى فيه واختفت بذلك وظيفة الوزير وكان قد شغلها فى هذه الفترة كل من مؤيدالدين ابن العلقمى وعند وفاته ابنه عزالدين ابو الفضل ابن العلقمى ، ولم نعد نسمع بها لان وظيفة صاحب الديوان أصبحت تتضمنها • وقد خلعت شخصية علاءالدين عطا ملك القوية يساندها أخوه شمس‌الدين صاحب ديوان الممالك أى رئيس وزراء الامبراطورية ، البهاء والقوة على هذه الوظيفة خصوصا وأنها كانت على رأس ولاية ممتازة من ولايات الايلخان وأن علاءالدين استمر فى منصبه حوالى الواحد والعشرين سنة ، كان فى أكثرها الحاكم القوى الشديد للعراق العربى • وكانت سلطات هذه الوظيفة تتمثل فيما ذكره القلقشندى عن مسالك الابصار فى كلامه عن منصب الوزير ان (أمر متحصلات البلاد ودخلها وخرجها الى الوزير واليه يرجع أمر كل ذى قلم ومنصب شرعى ، وله التصرف المطلق فى الولاية والعزل والعطاء والمنع لا يشاور

---

(٤٧) أنظر مقدمة الدكتور مصطفى جواد لكتاب تاج الدين على المعروف بابن الساعى ، الجامع المختصر •

(٤٨) الحوادث الجامعة ، ص ٦٣ ، ٧١ ، ١٠١ ، ١٤٥ ، ٢٤٤ •

السلطان الا فى جل من الامور)[٤٩] • أصبح صاحب الديوان هو الذى يعين كبار الموظفين كقاضى القضاة والصدور والنظار وغيرهم وله عليهم وعلى الرعية حق الحياة والموت[٥٠] • كما أنه أخذ يقوم بواجبات أمير الحاج وهو وظيفة عباسية مهمة تقوم على النظر فى تهيئة الناس للحج سنويا بمفاوضة الاعراب القائمين على الطريق وأخذ البرهائن منهم واتخاذ مايلزم لايصال الحجاج سالمين الى مكة واعادتهم منها[٥١] • ولم نسمع طيلة حكم الصاحب علاءالدين أنه التزم وظيفته عن طريق الضمان ولا بوجود مشرف عليه ولكن الفترة التى أعقبت وفاته فى ٦٨١هـ (١٢٨٢م) شهدت سلسلة من أصحاب الديوان لا يستمر الواحد منهم فى الحكم الا مدة قصيرة ولا يبدى فى ادارته ما أثبته علاءالدين من المقدرة • وبينما كنا نرى ان السلطان الايلخانى هو الذى يعين صاحب ديوان بغداد أصبحنا نسمع أن أحد أمراء المغول أو صاحب ديوان الممالك هو الذى يعينه أحيانا أو ينيبه عنه • فقد عين أمير الامراء أى القائد العام للجيوش الايلخانية الامير بوقا أخاه أروق ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) حاكما على العراق وديار بكر فعين هذا بدرالدين خاص صاحب ديوان بغداد[٥٢] • وفى ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) عين سعد الدولة اليهودى صاحب ديوان الممالك أخاه فخرالدولة صاحب ديوان العراق[٥٣] وفى ٦٩٥هـ (١٢٩٥م) رتب جمال‌الدين الدستجردانى صاحب ديوان الممالك أخاه عمادالدين نائبا عنه فى بغداد وكان قليل المعرفة بأحوال العراق فاعتمد على عزالدين محمد بن شمام فى ذلك فكان هو الحاكم وعمادالدين صدره[٥٤] • وبينما لم نكن

---

(٤٩) صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ٤٢٤ ، أنظر الحوادث الجامعة ، ص ٣٤٦ •

(٥٠) الحوادث الجامعة ، ص ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٧٢ •

(٥١) المصدر السابق ، ص ٣٥٨ •

(٥٢) المصدر السابق ، ص ٤٣٧ •

(٥٣) المصدر السابق ، ص ٤٥٧ •

(٥٤) نفس المصدر ، ص ٤٩٠ •

نسمع بوجود مشرف على صاحب الديوان نسمع فى ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) ان على بدرالدين خاص عين بمنصب صاحب ديوان بغداد ورتب سعدالدين مظفر القزوينى مشرفا عليه(٥٥) . ونسمع فى ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) بتولية شرف الدين محمد السمنانى فى منصب صاحب ديوان بغداد وأقامة سعدالدولة مشرفا عليه(٥٦) . وبينما لم نكن نسمع سابقا ان حكم العراق يعقد بالضمان نسمع فى ٦٩٨هـ (١٢٩٨م) أن ضمانه يعقد على الملك أمام الدين يحيى القزوينى البكرى وأنه استقل بالحكم فيه(٥٧) .

ونجد الى جانب وظيفة صاحب الديوان من الوظائف الجليلة ، وظيفة (كاتب السلة) وهى وظيفة عباسية استمرت بعد الفتح المغولى كان صاحبها يقوم برئاسة كتاب ديوان الزمام فى العهد العباسى ولكن تركز الادارة الايلخانية فى هذا الديوان رفعت من أهمية هذه الوظيفة ومنزلة صاحبها، حتى أصبح يقابل ، على أقل تقدير من ندعوه الآن (سكرتير مجلس الوزراء) ويقوم على رأس كتاب ولاية العراق التى بيده أسرارها وخفاياها أصبح يطلق عليه أحيانا اسم (كاتب العراق) وينقل من وظيفته ليقوم برئاسة ادارة العراق أى اشغال منصب صاحب الديوان(٥٨) ، وكان كاتب السلة مرتبطا بصاحب الديوان مطلعا على أسرار ادارته لذلك كان يراعى الانسجام ـ على ما يبدو ـ بين من يشغل الوظيفتين فكانت نكبة صاحب الديوان تجر معها ـ فى كثير من الاحيان ـ نكبة كاتب سلته(٥٩) وتعيين صاحب ديوان جديد تجر معها كاتب سلة جديد(٦٠) ، حتى أن هذين الموظفين مع نوابهما ، كانا يعملان كهيئة مسؤولة تشبه الى حد ما مجلس

---

(٥٥) نفس المصدر ، ص ٤٣٧ .

(٥٦) نفس المصدر ، ص ٤٥٥ .

(٥٧) نفس المصدر ، ص ٤٦٨ .

(٥٨) المصدر السابق ، ص ٤٦٤ .

(٥٩) المصدر السابق ، ص ٤١٩ ، ٤٤٦ .

(٦٠) نفس المصدر ، ص ٤١٥ ، ٤٣٧ .

الوزراء الذى يسقط بأجمعه اذا سقط رئيسه(٦١) .

وهناك وظيفة (المشرف) وهى عباسية تعنى مراقب أو مفتش ، وكانت تقوم الى جانب أكثر الوظائف المهمـــة كالصدر والناظر وفى الدواوين كالاشراف فى ديوان واسط والاشراف فى ديوان أربيل وأشراف البلاد الحلية ولكن الوظيفة امتدت خلال العهد الايلخانى الى أهم وظائف العراق فأصبح هناك مشرف على صاحب ديوان بغداد ومشرف للعراق(٦٢) . وقد عين السلطان أباقا ابن هولاكو مجد الملك اليزدى مشرفا فى جميع الممالك أى لجميع مناطق الامبراطورية الايلخانية فعين هذا نوابا عنه وكانت علامته مشرف الممالك(٦٣) . ويبدو أن من عوامل تأكيد الايلخانيين على هذه الوظيفة رغبتهم فى السيطرة على امبراطوريتهم الواسعة المترامية الاطراف للمحافظة عليها من الاخطار الخارجية والداخلية التى أخذت تتهددها بازدياد كلما تقدم الزمن بها . ومن الجهة الاخرى لم نعد نسمع عن الاشراف الذى كان قائما بكثرة خلال العهد العباسى الاخير على الوظائف الادارية الكبيرة والدواوين الا القليل فقد كان هناك مشرف فى ٦٨٠هـ (١٢٨١م) على صـــدر الاعمال الواسطية(٦٤) ومشرف فى ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) على الحلة(٦٥) .

وهناك منصب قاضى القضاة وهو أول من دعاهم القلقشندى أرباب الوظائف الدينية وموضوعها كما قال : (القيام بالاوامر الشرعية والفصل بين الخصوم ونصب النواب للتحدث فيما عسر عليه مباشرته بنفسه ، وهى أرفع الوظائف الدينية وأعلاها قدرا وأجلها رتبة)(٦٦) . ويقابله اليوم منصب وزير العدلية . وقد كان فى بغداد قبل سقوطها بأيدى هولاكو ، قاضى قضاة وأقضى قضاة والاخير منصب ثانوى وقضاة يعينهم قاضى القضاة

---

(٦١) المصدر السابق ، ص ١٤٩ .
(٦٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٧ .
(٦٣) المصدر السابق .
(٦٤) المصدر السابق ، ص ٤١٧ .
(٦٥) المصدر السابق ، ص ٤٤٥ .
(٦٦) القلقشندى ، ج٤ ص ٣٤ ـ ٣٥ .

ولكننا نسمع أن أقضى القضاة عبدالمنعم البندنيجى حضر فى ٦٥٦هـ عند هولاكو فأمر أن يقر على القضاء[٦٧] • فأشغل منصبه باسم أقضى القضاة[٦٨] • ولكنه لما توفى فى ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) أحضر سراج الدين محمد بن أبى فراس الهنايسى الشافعى ورتب قاضى قضاة بغداد نقلا عن التدريس بالمدرسة البشيرية[٦٩] • وقد كان مدرسو المدارس الدينية هم المرشحون لمناصب القضاة بحكم اشتغالهم بدراسة الشريعة الاسلامية المصدر الذى يستقى منه القضاة أحكامهم فى الفصل فى الخلافات الناشئة بين المسلمين • وكان يرتبط بوظيفة القاضى أمر الحسبة والتدريس وأحيانا قضايا الوقوف فالحسبة وصاحبها المحتسب ، موضوعها التحدث فى الامر والنهى عن المنكر ومراقبة المعايش والصنائع والاخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح فى معيشته وصناعته[٧٠] • ونحن لا نسمع مما وصلنا عن العراق الايلخانى بوجود محتسب بل نقرأ أن هولاكو عين على بهادر فى ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) بوظيفة شحنة وأسند اليه أمر مراقبة الاوزان وأصحاب الحرف[٧١] الذى كان جزء من واجب المحتسب • وقد استناب أقضى القضاة نظام الدين عبدالمنعم البندنيجى فخرالدين عبدالله بن عبدالجليل الطهرانى الراوى وفوض اليه أمر الحسبة[٧٢] • وفوض شرف الدين هرون الجوينى صاحب ديوان بغداد فى ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) أمر القضاء بالجانب الغربى الى بدرالدين على بن محمد بن ملاق الرقى اضافة الى الحسبة بجانبى بغداد[٧٣] • ويبدو أن الحسبة ظلت تابعة للقضاة الى آخر العهد الايلخانى[٧٤] • أما قضايا

---

(٦٧) الحوادث الجامعة ، ص ٣٢١ •
(٦٨) المصدر السابق ، ص ٣٦٢ •
(٦٩) المصدر السابق ، ص ٣٦٢ •
(٧٠) القلقشندى ، ج٤ ص ٣٧ •
(٧١) داستان غازان ، جامع التواريخ ، ص ٣٠٦ •
(٧٢) الحوادث الجامعة ، ص ٣٦٢ •
(٧٣) المصدر السابق ، ص ٤٢٨ •
(٧٤) المصدر السابق ، ص ٤٩٤ •

الاوقاف ويشـــرف صاحبها على رزق الجوامع والمساجد والربط والزوايا والمدارس ، فقد عين لها صدر بعد سـقوط بغداد بقليل قام بالاشراف على ترميم جامع الخليفة وفتح المدارس والربط واثبـات الفقهاء والصوفيـــة وادرار الاخبار والمشاهرات عليهم • ثم أن جميع الاوقاف الاسلامية فـى الامبراطورية الايلخانية وضعت تحت اشراف نصيرالدين الطوسى وانتقلت بعد وفاته الى أبناءه حتى ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) حيث أعيدت الى حكام بغداد ، ثم أعيدت اليهم فى السنة التالية(٧٥) • وكان هؤلاء يعينون نوابا عنهم لادارة أوقاف العراق(٧٦) • وهنـاك وظيفتان دينيتان ظلتا قائمتين طيلة العهـــد الايلخانى هما (نقابة الطالبين) و (مشيخة الشيوخ) • وموضوع نقابـة الطالبين ، كما يقول القلقشندى (التحدث على ولد على بن أبى طـــالب كرم الله وجهه من فاطمة بنت رســـول الله صلى الله عليه وسلم ••• فى الفحص عن أنسابهم والتحدث فى أقاربهم والاخذ على يد المتعدين منهم ونحو ذلك)(٧٧) • أما (شيخ الشيوخ) فانه كان يقوم بالنظر فى شـؤون الربط والخوانق(٧٨) •

وبالاضافة الى ما مر كان هناك وظيفتان اداريتان مهمتان استمرتا من العهد العباسى الى العهد الايلخانى هما : الصدر والناظر • والصدر كان يطلق فى العصر العباسى على رئيس احدى الوحدات الادارية كصدر الاعمال الفراتية وصدر الاعمال الجبلية وعلى رئيس أحد الدواوين كصدر المخزن وصدر الوقوف • أما فى العهد الايلخانى فانها اقتصرت على رئيس احدى الوحدات الادارية التى أصبح ينقسـم اليهـــا العراق العربى وأصبح يلقب صاحبهـــا بلقب ملك(٧٩) باستثناء ادارة الوقوف الذى ظل يرأسها صدر الوقوف • وأصبح

---

(٧٥) المصدر السابق ، ص ٤٥٦ •
(٧٦) المصدر السابق ، ص ٤٤٣ •
(٧٧) القلقشندى ، ج٤ ص ٣٨ ، أنظر أيضا الحوادث الجامعـــة ، ص ٤٨٠ •
(٧٨) الحوادث الجامعة ، ص ٢١٤ ، ٤٥٦ ، ٤٦٨ ، ٤٩٢ •
(٧٩) المصدر السابق ، ص ٤٦٤ •

الصدر ، رئيس الوحدة الادارية ، يتمتع باستقلال ذاتى فى منطقته بدرجة أكبر مما كانت عليه خلال العهد العباسى ويشرف على ادارة القوات المسلحة القائمة على حماية الامن فى منطقتـــه[٨٠] • أما الناظر فانه كمـــا يقول القلقشندى (من ينظر فى الاموال وينفذ تصرفاتها ويرفع اليه حسابها ينظر فيه ويتأمله فيمضى ما يمضى ويرد ما يرد ••• ثم هو يختلف باختـــلاف ما يضاف اليه كناظر الجيش وهو الذى يتحدث فى أمر الجيوش وضبطها أو ناظر الخاص وهو الذى ينظر فى خاص أمـــوال الســـلطان أو ناظر الدواوين وهو الذى يعبر عنه بناظر الدولة يشارك الوزير فى التصرف ••• أو ناظر أوقاف أو جهة برد ما يجرى مجرى ذلك)[٨١] • وهذا يطابق ما كان يجرى فى العراق فى العهد الايلخانى فصاحب هذه الوظيفة موظف مالى بالدرجة الاولى ولكنه بسبب عدم وجود التخصص الواضح الشديد فى الادارة كان يقوم بالاشراف على أمور ادارية أحيانا • فقـد مر بنا أن المستنصر العباسى سار الى عانة فى ٦٥٩هـ. (١٢٦٠م) فنزل اليه واليهـــا وناظرها وسلماها اليه[٨٢] ، وأن سعد الدولة بن صفى الدولة عزل فى ٦٨٢هـ. (١٢٨٣م) عن نظر المارستان العضدى • وان والى العراق رتب فى ٦٩٤هـ. (١٢٩٤م) محمد بن شمام ناظرا لنهرى عيسى والملك[٨٣] •

هذه هى أهم الوظائف المدنية ، أما الوظائف العسكرية فأهمها اثنان : الشحنة ونائب الشرطة • والشحنة وظيفة كانت شائعة فى البلاد الاسلامية ومنها الدولة العباسية فى العهود الاخيرة ، كانت تقابل ما نسـميه اليوم (الحاكم العســكرى) • ولكنها أصبحت فى العهد الايلخـانى تتضمن بالاضافة الى ذلك وظيفة القـائد العام للقوات المسلحة الذى أصبحت أهـم واجباته محافظة الامن العـام فى العراق بالقضـاء على حوادث الثورات

---

(٨٠) المصدر السابق ، ص ٤٤٠ •

(٨١) القلقشندى ، ج٥ ، ص ٤٦٥ •

(٨٢) انظر ما مر •

(٨٣) الحوادث الجامعة ، ص ٤١٢ •

والعصيان وأعمال الشغب الكبيرة ومراقبة صـــاحب الديوان لضمان ولائه للدولة الايلخانية ، حتى أن الشحنة أصبح عين السلطان على رؤساء ادارة العراق من الموظفين المدنيين وقد كان على بهادر الخراساني أول شـــحنة للعراق فى العهد الايلخانى وكان من أول الذين دخلوا بغداد فى العهـد الايلخانى ، لكنه تآمر على صاحب الديوان فقتل فى ٦٦١هـ (١٢٦٢م) ونصب محله رجل مغولى هو (قرابوغا) وظل أمر هذه الوظيفة الجليلة بأيدى المغول ـ بصورة عامة ـ الى آخر العهد الايلخانى ، وكان من بينهم (توكال بخشى) و (تتارقيا) و (وتاولدار) وغيرهم • ويبدو أن سبب اسنادها الى مغولى يرجع الى أهمية الوظيفة والى عدم ثقة السلطان الايلخانى بغير أبناء جنسه فيما يتعلق بالامور العسكرية • وقد كان صاحب هـــذه الوظيفة يدعى أحيانا شحنة العراق(٨٤) أحيانا شحنة بغداد(٨٥) • وبينمـا كان هناك فى العهد العباسى شحنة لكل منطقة من مناطق العراق ومـــدنه الكبيرة كشحنة واسط وشحنة البصرة وشحنة البـــلاد الحلية(٨٦) فاننـا لا نسمع بها فى العهد الايلخانى الا فى نص واحد أشار الى هرب شحنـة البوازيج(٨٧) • وقد يدل ذلك على أن سلطة الشحنة انتقلت الى (الصدر) أو رئيس الوحدة الادارية • ومما يلقى ضوء على طبيعة هذه الوظيفة ومدى صلاحياتها أن شحنة بغداد اتفق فى ٦٩٠هـ (١٢٩١م) مع رســـل أمراء المغول ، وقد أرسلوا اليه نبأ موت السلطان أرغون وقتل وزيره سعدالدولة ، على القبض عـلى صدر ديوان بغـداد مهذب الدولة(٨٨) • وقد ورد أن الامير أذينا شحنة بغداد ، مهد العراق بحسن سيرته(٨٩) • أما وظيفة (نائب

---

(٨٤) المصدر السابق ، ص ٣٤٣ •
(٨٥) المصدر السابق ، ص ٣٥٠ •
(٨٦) المصدر السابق ، ص ١٧٦ ـ ١٧٩ •
(٨٧) المصدر السابق ، ص ٤٤٧ •
(٨٨) المصدر السابق ، ص ٤٦٤ •
(٨٩) المصدر السابق ، ص ٤٩٦ •

الشرطة) فهى تقابل مدير شرطة مدينة بغداد ، وهو مسؤول عن الاشراف على شؤون أمن العاصمة الا اذا حدث أمر خطير يهدد سلامتها أو سلامة العراق ، فعند ذلك يتدخل الشحنة • ويبدو ان صاحب هذه الوظيفة كان تابعا لصاحب الديوان وليس للشحنة • فقد ورد عن حوادث ٦٧٧هـ (١٢٧٨م) أن صبيين من الشطار ظهر فى بغداد وآذا الناس وانضم اليهما الكثير من العامة ، فقام نائب الشرطة بنقل الامر الى صاحب الديوان الذى وضع الخطط اللازمة للقبض عليهما ونجح فى ذلك فعلا(٩٠) •

٣

أدى الفتح المغولى الى جعل المناطق التى تكون العراق الحالى جزء من الامبراطورية الايلخانية التى أصبح يحكمها هولاكو وأولاده وأحفاده من بعده بمساعدة أمراء من المغول ووزراء وولاة من الفرس والعرب والاكراد وغيرهم وقد قتل هولاكو أكثر أفراد العائلة العباسية وألقى طائفة منهم فى السجون ومحا أثر بنى العباس حتى أصبح الخطر يهدد كل من يردد ذكرهم(٩١) • وكان من نتائج الفتح المغولى المباشرة أن تحطم الاساس الذى كانت تقوم عليه الدولة التى دخل فيها العراق منذ أوائل الفتوحات الاسلامية فى أواسط القرن السابع الهجرى وهو الرابطة الدينية • فالدولة لم تعد دينية اسلامية تضم فريق المؤمنين كوحدة سياسية يكون الاسلام فيها جنسية المواطن التى تزوده بحقوقه الكاملة كمسلم يساوى أخاه المسلم ولو نظريا وتسير حياته فيها طبقا للاسس التى قررها القرآن وأوضحتها السنة ويكون فيها غير المسلم من أهل الكتاب كالمسيحى واليهودى منتميا الى جنسيات أخرى تكون طوائف متميزة لها أسلوب الحياة الخاص الذى قررته أديانها ولا تتمتع بنفس الحقوق التى يتمتع بها المسلم وان كانت تخضع لنفس الحكومة •

---

(٩٠) المصدر السابق ، ٤٠٣ ـ ٤٠٤ •

(٩١) ابن الطقطقى ، الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ١٢٠ •

وقد جاء الاحتلال المغولى فألغى الاساس الدينى للدولة وجعل الاديان ومن ضمنها الاديان الوثنية طوائف متساوية الحقوق أمام السلطان الايلخانى ونوابه واستمر الحال كذلك حتى مجىء غازان الى العرش فى ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) حيث عادت الامور الى ما كانت عليه فى السابق • والحقيقة ان المسيحيين تمتعوا خلال النصف الاول من حكم الايلخانيين بأكثر من مساواة فقد أمر هولاكو ، بتأثير زوجته المسيحية (دوقوز خاتون) بعدم الاعتداء عليهم خلال استباحة بغداد فى ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) كما قدمت لرئيس الطائفة المسيحية (الجاثليق) احدى دور بغداد المهمة وهى دار الدواتدار الكبير الطبرسى فاتخذ منها كنيسة نزع منها الحروف العربية ورفع عليها الكتابة السريانية والشارات المسيحية ، وكان هولاكو وابنه أباقا وحفيده أرغون يعطفون على المسيحيين ويعملون على التقرب من الدول المسيحية خوفا من قوة الاسلام المتنامية فى مصر وسورية والقفجاق • يضاف الى ذلك أن عهد السلطان أرغون ٦٨٣ – ٦٩٠هـ (١٢٨٤ – ١٢٩١م) تميز بسيطرة اليهود فقد كان صاحب ديوان الممالك أى رئيس وزراء الامبراطورية الايلخانية منهم وكان نوابه فى حكم العراق وغيره من الولايات المهمة من اليهود أيضا •

وبزوال الخلافة العباسية من بغداد سددت لفكرة الوحدة الاسلامية ضربة قاصمة وفقدت بغداد مركزها السامى باعتبارها قاعدة بلاد الاسلام وانقسم العالم الاسلامى الى قسمين رئيسين متحاربين الاول وأهم أقاليمه العراق وايران وبلاد الروم ، وقد أصبح جزء من امبراطورية الايلخانيين والثانى وأهم من يمثله مصر وسوريا والحجاز وهى خاضعة لدولة المماليك• ولكن فكرة الوحدة الاسلامية لم تمت بل ظلت حلما يراود أفكار المسلمين تحقق بعودة الخلافة الى القاهرة بعد بضعة سنين من سقوط بغداد ولكن بشكل هزيل • ويشبه ذلك من بعض الوجوه سقوط روما الغربية بأيدى الجرمان فى ٤٧٦م وزوال الامبراطورية الرومانية من أكثر بلاد أوروبا الغربية حتى ظل الامل يراود نفوس أهلها بعودة الامبراطورية – التى

كانوا يظنون أنها خالدة لن تزول ـ من جديد ، حتى تحققت أحلامهم فى ٨٠٠م بتتويج شارلمان امبراطورا رومانيا •

كانت الامبراطورية الايلخانية تتكون من الولايات التالية : الجزيرة الفراتية والعراق العربى وخوزستان والاهواز وفارس وكرمان وسجستان والرخج وأرمينيـــا وأذربيجـــان وأران وبلاد الجبل أو العراق العجمى وبلاد الديلم والجيل وطبرستان ومازندان وقومس وخراسان وزابلستان والغور(٩٢) • وكانت المناطق التى تكون العراق الحالى تكون أجزاء من ولايات كبيرة ثلاثة هن : أولا بلاد الجبال أو العراق العجمى وفيه مدينـة شهرزور ، وثانيا : الجزيرة الفراتية وفيهـــا الموصـــل وسنجار والعمادية وأربيل ، وثالثا : العراق وهو القســـم الاهم وقد أصبح ولاية أيلخانيـة ممتازة وكان يمتد ما بين حديثة الموصل(٩٣) الى عبادان طولا والقادسية الى حلوان عرضا(٩٤) • كان العراقأحد الولايات الايلخانية المهمـة التـى كانت تســمى ممالك ويدعى حكامها أحيانا بملوك • وكان الســلطان الايلخانى يقوم بتعيين حكام هذه الولايات فى أول صعوده للعرش برأيه أو بعد مشاورة أمراءه وخواتينه ووزراءه ولم يكن من الضرورى أن يعين حاكما خاصا لكل ولاية بل قد يمنح بضعة ولايات لحاكم واحد يعين فى كل منها نوابا فقد منح هولاكو ممالك العراق العجمى وخراسان ومازندان لابنه أباقا وممالك أران وأذربيجان لابنه الآخر يشموت والجزيرة للامـير تودان وكرمان لتركان خاتون(٩٥) ولـــكن العراق العربى كان يخضـع لحاكم واحد على الاكثر وكان ولاية ممتازة من ولايات الامبراطورية وكانت

---

(٩٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج٤ ص ٣١٤ ، أنظر أيضا تاريخ وصـــاف ، ج٣ ص ٣٧١ ؛ وانظر الحافظ أبرو ، ذيل جامـــع التواريخ ، ص ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٣ •

(٩٣) حديثة الموصل : بليدة كانت على دجلة فى الجانب الشـــرقى قرب الزاب الاعلى (مراصد الاطلاع ، ج١ ص ٣٨٧) •

(٩٤) مراصد الاطلاع ، ج٢ ص ٩٢٦ •

(٩٥) داستان هولاكو ، جامع التواريخ ، ص ٤٠٠ •

عاصمته بغداد تسمى فى كتابات المعاصرين باسم مدينة السلام[٩٦] • ويزورها الايلخان عدة مرات كما فعل أباقا خان فى ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) و٦٧٢هـ (١٢٧٣م) و٦٨٠هـ (١٢٨١م) وكانت تتميز ببعض المناسبات فقد أرسل اليها رأس مجد الملك اليزدى مشرف الممالك فى عهد أباقا خان ورأس الامير نوروز قائد جيوش السلطان غازان[٩٧] •

فوض هولاكو أمر العراق العربى بعد فتحه الى جماعة من العراقيين ومعهم على بهادر الخراسانى الشحنة الجديد فقسموه الى المناطق الادارية التالية : الاعمال الشرقية وهى الخالص وطريق خراسان والبندنيجين وأعمال دجيل والمستنصرى والاعمال الفراتية • والاعمال الحلية والكوفية والاعمال الواسطية والبصرية[٩٨] • ولم تكن هذه الاقسام الادارية متميزة ولا ثابتة بل ان سلاطين الايلخانيين ونوابهم ومنهم صاحب ديوان بغداد كانوا يقسمون الواحدة منها الى أكثر من منطقة ادارية أو يضيفون بعضها الى بعض حين تعيينهم حكامها ومن ذلك أن ناصرالدين قتلغ شاه الصاحبى رتب فى الاعمال الواسطية فى ٦٧٦هـ (١٢٧٧م)[٩٩] • وان السلطان أرغون دخل بغداد فى ٦٨١هـ (١٢٨٢م) وطلب المال من الكثير من الحكام منهم نواب الاعمال الحلية والواسطية والبصرية[١٠٠] • وان فخرالدين مظفر بن الطراح ولى فى ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) قوسان وواسط والبصرة وولى دولة شاه بن سنجر الصاحبى الحلة وعزالدين محمد بن شمام ناظرا لنهرى عيسى والملك فى نفس السنة [١٠١] • وقد يعود هذا الاضطراب الى أن ادارة العراق الايلخانية كانت استمرارا فى كثير من مظاهرها للادارة

---

(٩٦) تاريخ وصاف ، ج٢ ص ٢٣٧ •
(٩٧) داستان غازان ، جامع التواريخ ، ص ٤٩٤ •
(٩٨) الحوادث الجامعة ، ص ٣٣٢ ؛ أنظر أيضا داستان هولاكو ، جامع التواريخ ، ص ٣٠٦ و ٥٠٧ •
(٩٩) الحوادث الجامعة ، ص ٣٩٥ •
(١٠٠) المصدر السابق ، ص ٤٢٤ •
(١٠١) المصدر السابق ، ص ٤٨٢ •

العباسية فى العهود المتأخرة حينما لم يكن العراق العربى يقسم الى مناطق ادارية ثابتة والى أن تولية المناصب فى العهد الايلخانى لم يكن يلتزم روتينا ثابتا بل كان عرضة للاهواء الشخصية .

كانت ادارة الامبراطورية الايلخانية لا مركزية وكان حاكم العراق مستقلا فى ادارة شؤونه مقابل تقديمه المال اللازم لخزينة السلطان والقوات العسكرية المناسبة له ساعة ظهور الخطر ولكن هذه اللامركزية لم تكن كاملة لان السلطان كان يزور العراق ليطلع على أموره بنفسه ويقضى الشتاء فى ربوعه فى بعض الاحيان وكان يرسل اليه مشرفا يستقصى شؤونه عن كثب ويرفع اليه تقريرا عنه يضاف الى ذلك ان حكام العراق كانوا يتآمرون على بعضهم البعض عند السلطان أو أمرائه أو وزرائه فيؤدى تآمرهم الى تدخل السلطان فى شؤونهم فمن ذلك ان سعدالدولة اليهودى اتصل فى ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) بالسلطان أرغون وكشف له أحوال العراق فأرسله مع الامير (أردوقيا) لتصفح أحواله فلما وصله اجتمع بحكامه وخفض على الناس ما قرر عليهم من القروض وأصلح أحواله ثم عاد الى السلطان[١٠٢] فعينه مشرفا على العراق فعاد اليه فى نفس السنة فأخذ بمراقبة حكامه ومحاسبتهم ومعاقبتهم . وفى ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) سير السلطان غازان الامير (توختا) لتصفح أحواله وسير معه (سعدالدين أسد بن على) مشرفا على العراق فقدما اليه وقبضا على مشرفه السابق شرفالدين بن بديعا[١٠٣] . وقد توجه صاحب ديوان العراق فخرالدين بن الدامغانى فى ٦٥٧هـ (١٢٩٩م) الى هولاكو ومعه صدور أعمال العراق وأراد هولاكو أن يفوض اليه أمر العراق ولكن أحد الصدور وهو نجمالدين بن عمران وشى به عند هولاكو بأنه أطلق أحد أنساب الخليفة المستعصم من السجن فقبض عليه ومات سجينا[١٠٤] . وفى ٦٧٧هـ (١٢٧٨م) ورد أمر السلطان أباقا بن

---

(١٠٢) المصدر السابق ، ص ٤٥١ .

(١٠٣) المصدر السابق ، ص ٤٩٢ .

(١٠٤) المصدر السابق ، ص ٣٣٨ .

هولاكو الى صاحب ديوان بغداد بالقدوم الى مقره لمقابلته الى ما نسب اليه من مكاتبة سلطان مصر والشام فلما قوبل على التهمة لم تثبت عليه فأمر بقتل من وشى به(١٠٥) .

كانت سلطة السلطان الايلخانى غير محدودة تتضمن حق الحياة والموت على رعاياه ومن بينهم الامراء المغول والوزراء وبقية الشعوب المحكومة وكان القتل مصير أكثر من يشك بولائهم ولم يكن للرعية حقوق بل واجبات أهمها الطاعة ودفع الضرائب بمختلف أنواعها . ومثال ذلك أن سراج الدين بن البجلى صدر واسط والبصرة كان من جملة من قصد هولاكو فى ٦٥٧هـ ، فوشى به أنه أخربها وأهمل مصالحها فأمر بقتله فقتل(١٠٦) . وقد أخذ صاحب ديوان الممالك خطوط حكام بغداد بما يفيد اساءة على بهادر شحنة بغداد الحكم وجبايته المال من الناس من غير حق ، فأمر به فى ٦٦١هـ (١٢٦٢م) فقتل(١٠٧) . وقدم الامير أرغون العراق فى ٦٨١هـ (١٢٨٢م) وطلب من أهل بغداد مساعدات مالية ثقيلة استوفيت بالعسف والجور حتى أن كل من اختفى من الناس نهبت داره وبيع ما فيها ، وفرضت مثل ذلك من المساعدات على حكام الاقاليم(١٠٨) . وكان نواب السلطان الايلخانى يتمتعون بالنسبة لمرؤوسيهم ورعاياهم بنفس السلطة المطلقة غير المحدودة . فقد جاء صاحب ديوان الممالك شمس الدين الجوينى الى بغداد فى ٦٨٠هـ (١٢٨١م) للتحقيق فى التهم التى نسبها الحكام الى أخيه صاحب ديوان بغداد عطا ملك جوينى ، فأمر بالقبض على صالح بن الهذيل ملك واسط أى حاكمها وطالبه بالمال وعذبه بالدوشاخة ثم أمر فطينت به فى واسط فحصل منه على قدر يسير من المال ساعده به الناس ثم قبض على أصحابه ونوابه وطالبهم بالمال وعذبهم ثم عزل صالح

---

(١٠٥) المصدر السابق ، ص ٣٩٩ .

(١٠٦) المصدر السابق ، ص ٣٣٨ .

(١٠٧) المصدر السابق ، ص ٤٢٤ .

(١٠٨) المصدر السابق ، ص ٣٤٩ .

بن الهذيل عن الاعمال الواسطية وسلمها الى آخر[١٠٩] . وفى ٦٩٠هـ (١٢٩١م) سار مهذب الدولة أحد مساعدى صدر ديوان الدولة الى واسط فقبض على ملكها أى حاكمها نور الدين عبدالرحمن وطوقه بالحديد ونفذه الى بغداد حيث ألقى فى السجن انتظارا لقتله ولكن الخبر ورد الى بغداد بموت السلطان (بايدو) وقتل وزيره سعدالدولة وان الامراء عينوا كاتب العراق جمال‌الدين الدستجردانى بمنصب صدر ديوان بغداد فاتفق هذا مع الرسل وشحنة بغداد وأطلقوا نورالدين عبدالرحمن من السجن وأعادوه الى صدرية واسط وأمروه بالقبض على مهذب الدولة وحمله الى بغداد حيث ألقى فى السجن ثم طولب بالاموال فأنكر أن يكون لديه شىء منها فضرب فلم يعترف فضرب بالسكاكين والسيوف وقتل ثم قطع اربا وتناهبه العوام وتعمم نقاط بمصرانه وطيف به فى شوارع بغداد ودروبها ثم أحرق بباب جامع الخليفة ما عدا رأسه الذى سلخ وحشى تبنا وطيف به فى جانبى بغداد ثم حمل الى واسط وعلق على جسرها[١١٠] .

كان من أهم مظاهر حكومة العراق الايلخانية عدم الاستقرار والفساد فقد كان حكام الولايات معرضين من رئيسهم صاحب الديوان الى الى أصغر موظف منهم الى السجن والتعذيب والقتل والتمثيل بأبشع الصور وبصورة مفاجأة بسبب تغير الادارة المركزية فى الامبراطورية بموت السلطان القائم أو قتله ومجىء سلطان يكرهه أو يختلف معه حيث يسرع الى البطش والتنكيل بالحكام السابقين ونوابهم وأصحابهم وكان دس الحكام على بعضهم سرا وعلانية عند السلطان ووزراءه مما يزيد الاحوال سوء وكانت تهمة الحصول على المال كالسيف القاطع الذى يهدد مختلف الحكام وباستثناء علاءالدين عطا ملك جوينى صدر ديوان بغداد الذى نجح بالاحتفاظ بمنصبه لواحد وعشرين سنة لم يستطع خلفاءه الاحتفاظ بمناصبهم الا لمدد قصيرة لا تزيد على بضعة أشهر أحيانا . ومثال ذلك أن

---

(١٠٩) المصدر السابق ، ص ٣٤٩ .

(١١٠) المصدر السابق ، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥ .

عطا ملك جوينى صدر ديوان بغداد القوى فى عهد (هولاكو) وابنه (أباقا) كان هدفا لسلسلة من المؤامرات التى كادت تودى بحياته عدة مرات وكان أشد خصومه عليه أحد الايرانيين الذى كان عاملا لاخيه شمس‌الدين الجوينى صاحب ديوان الممالك وهو المدعو (مجد الملك اليزدى ابن صفى الملك أبو المكارم) حيث أنه اتصل بالسلطان أباقا وأخذ يكيـــل التهم ضد الاخوين شمس‌الدين وعلاءالدين حتى أخبره بأن الاخير يسلك مسلك الملوك فى حكمه العراق وانه اتخذ لنفسه تاجا مرصعا(١١١) وأنه جنى لنفســـه أموالا طائلة حجبها عن خزينة السلطان وأنه يكاتب ملوك مصر والشام • وفـى ٦٨٠هـ (١٢٨١م) أمر أباقا خان بالقبض على علاء الدين وأصحابه ونوابه وتسليمهم الى (مجد الملك اليزدى) فاستوفى هذا منهم أموالا كثيرة وباع من أملاك علاء الدين وأسبابه شيئا كثيرا ، ثم أمر بالقاءه مكتوفا بقميص واحد على شاطىء دجلة فى بغداد وكان البرد شديدا ، بينما ضرب أتباعه واستوفيت منهم الاموال ثم حمل الى ايران • ولكن خلال ذلك حدث أن توفى السلطان أباقا ونصب مكانه (تكودار ابن هولاكو) الذى تحول الى الاسلام وسمى نفسه أحمد وغلب عليه الصاحب شمس‌الدين الجوينى ، وكان من أول أعمال السلطان الجديد أن أمر بتحرير علاء الدين والقبض على (مجد الملك اليزدى) وتسليمه الى أصحاب علاء الدين حيث قتلوه قتلة شنيعة ووزعوا أطرافه على البلاد وسلخوا رأسه وشوى الخربنـــدية لحمه وأكلوا منه وشربوا الخمر فى قطعة من رأسه(١١٢) • وقـد كان سقوط مجد الملك سببا فى سقوط أصحابه ونوابه فقد أرسل علاء الدين بعد تحريره جماعة من أصحابه الى بغداد ومعهم رسالة يشكر فيها أهـل المدينة على ولاءهم ومعهم رأس مجدالملك ، فدخل هؤلاء بغداد ونهبوا دار

---

(١١١) غياث الدين بن همـام الدين المعروف بخوندمير ، دســـتور الوزراء ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ ، أنظر أيضا تاريخ وصاف ، ج١ ص ٩١ •

(١١٢) الحوادث الجامعـة ، ص ٤١٥ ـ ٤١٩ ؛ تاريخ وصـــاف ، ج١ ص ١٠٧ •

مجدالملك وأمروا فطيف برأسه فيها وقبضوا على أحد أصحابه صفى‌الدولة بن الجمل كاتب السلة وأصحابه ونهبوا داره وطلبوا أحد الحكام المسمى (على جلبيان) فاختفى ، وكانوا يحملون معهم اثنين من النصارى من أصحاب مجدالملك هما عبد يشوع ويعقوب ، طيف بهما فى بغداد عراة والعوام يصفعونهما ويضربونهما بالآجر ثم انهما قتلا وجر العوام جثثهما ثم أحرقوها[١١٣] . وقد ثار الامراء المغول على السلطان (أحمد بن هولاكو) وقتلوه لاسلامه[١١٤] فى ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) ونصبوا أرغون ابن أباقا سلطانا فأسرع هذا بالتنكيل بأصحاب السلطان السابق وخصوصا آل جوينى ففر شمس‌الدين صاحب ديوان الممالك ثم قبض عليه وقتل وقتل أكثر أقاربه وكان صدر ديوان العراق فى هذه المرة شمس‌الدين ابنه ، فقبض عليه شحنة بغداد (تتارقيا) وعلى أصحابه شمس‌الدين زرديان نائبه وعزالدين جلال المشارك فى كتابة السلة ونظام‌الدين عبدالله بن قاضى البندنيجين وقبض على شرف‌الدين محمد بن بصلا وكيل الديوان وعذب وطولب بمال كثير ، ثم قتل نظام الدين قاضى النبدنيجين بعد تعذيب عظيم[١١٥] . وفى ٦٩٠هـ (١٢٩١م) توفى السلطان أرغون وقتل الامراء المغول وزيره سعدالدولة اليهودى ولما وصلت الرسل بذلك الى بغداد قبض شحنتها على فخرالدولة أخ سعدالدولة وكان صاحب ديوان بغداد وعلى قريبه مهذب‌الدولة أحد كبار مساعديه وقتل شر قتلة كما قبض على أمير الدولة حاكم الموصل وكان أخا لسعد الدولة وألقى فى السجن[١١٦] . وفى ٦٩٣هـ (١٢٩٣م) أمر السلطان كيخاتو شمس‌الدين محمد التركستانى المعروف بالسكورجى بالمسير الى العراق واليا عليه لاصلاح أحواله فجاء بغداد وعمل بذلك ولكن الامير (بايدو) وكان يتخذ مقره

---

(١١٣) المصدر السابق ، ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ .

(١١٤) انظر تفصيل ذلك فى تاريخ وصاف ، ج١ ص ١٢٥ ـ ١٣٢ .

(١١٥) الحوادث الجامعة ، ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨ .

(١١٦) المصدر السابق ، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٦ .

فى العراق نهب بعض القرى العراقية وقتل وسبى فشكاه الوالى الى السلطان فأمر به فألقى فى السجن لبضعة أيام • ولكن بعض الامراء المغول ثاروا على (كيخاتو) وقتلوه ونصبوا (بايدو) مكانه فأسرع هذا الى اصدار أمره بالقبض على والى العراق السكورجى وقتله ، فقتل شر قتلة ، وأمر بايدو باطلاق جمال‌الدين الدستجردانى وكان معتقلا لايضاح بقايا العراق مع أصحاب السكورجى ، وتوليته أمر العراق ، فأخذ هذا بعزل قسم من أصحاب السكورجى وتولية آخرين غيرهم(١١٧) •

وأخيرا لنا فى سيرة مجدالدين صالح بن الهذيل مثال جيد لما كان يلاقيه حكام العراق من الاخطار وعدم الاستقرار فقد كان هذا كريما ذا معرفة وكفاية خدم أيام الخليفة ورتب بعد سقوط بغداد صدرا فى نهر الملك ونهر عيسى ثم نقل صدرا لواسط ولقب بالملك ، ثم قبض عليه ودوشخ ، أى عذب بآلة تسمى الدوشاخة وطولب بأموال واسط وبيعت أملاكه وأسبابه واستوفى منه مال كثير ، ثم عين حاكما لاربل ، ثم عزل ورتب صدرا فى طريق خراسان ثم قبض عليه وخزم أنفه وطيف به فى بغداد ثم عين ناظرا لقوسان ثم عزل ثم عين نائبا عن شمس‌الدين البروجردى فى ديوان واسط ، فبقى كذلك الى أن توفى شمس‌الدين فعين مشرفا لصدر ديوان واسط(١١٨) •

ترك سقوط بغداد السريع واستسلام أكثر المدن العراقية بأيدى المغول أثرا كبيرا فى نفوس أهل العراق خلال السنين الاولى التى أعقبت الفتح حتى ليبدو أن الخوف قد سيطر على النفوس وقضى على كل رغبة فى الثورة على الحكومة الجديدة بالرغم من كونها أجنبية ووثنية ومغولية وان البلاد كانت قاعدة الاسلام وقد كان هذا واضحا أيام هولاكو وابنه أباقا ولكن قبضة الحكام أخذت تضعف مع الزمن وبدأ بعض العصاة يتجرأون على شق عصا الطاعة فيثيرون قلق الحكومة ويحملونها على التدخل وكانت

---

(١١٧) المصدر السابق ، ص ٤٨١ ـ ٤٨٣ •

(١١٨) المصدر السابق ، ص ٤٨١ ـ ٤٨٣ •

الوضعية العامة على الحدود السورية حيث تجثم دولة المماليك أمرا يقلق بال الايلخانات خصوصا وأن الصحراء الفاصلة بين سورية والعراق كانت موطنا لقبائل عربية شـــديدة المراس كان امراءها يعملون على الافادة من النزاع الناشب بين الدولتين العظيمتين الايلخانية والمملوكية(١١٩) لجـر المغانم لانفسهم وكان عرب خفاجة قوة تعرقل الامن وتنشر الخراب حوالى الكوفة(١٢٠) • وكانت البطيحة فى جنوب واسط ملجأ للعصاة والخارجين على الحكومة يضاف الى ذلك ان القوات المغولية الموجودة فى العراق كانت فى بعض الاحيان سببا من أسباب قلق السكان وارتباك الامن باعتداءها على الآمنين واغتيادها الى أيام غازان باطلاق حيواناتها ترعى فى زروع الفلاحين وأراضيهم(١٢١) • أما عامة بغداد فلم يعودوا الى ما كانوا عليه فى العهـد العباسى من المعارك الا فى أواخر أيام السلطان أباقا • ومع كل هذا يمكن القول ان الامن كان يسود أكثر بلاد العراق خلال أغلب ســـنى حكـم الايلخانيين وان حوادث الشغب والثورات لم تصبح مهددة لمركز حكومة العراق العربى أو الموصل بالشكل الذى كان يحدث فى ايران مثلا فى هذا العهد ولم يحدث أن شق والى من ولاة بغداد عصا الطاعة على الحكومـــة الايلخانية ، ولعل هذا يفسر عودة النشاط الاقتصادى الى البلاد وانتعاش بغداد والبصرة والموصل وكانت أهم مراكز التجارة فيه •

وفى ٦٦٣هـ (١٢٦٤م) نسمع لاول مرة عن حادثة شغب فى بغداد أكد المسلمون فيها أنفسهم أمام النصارى الذين حمتهم الدولة الايلخانيـة ومنحتهم من الحرية ما لم تمنحهم أياه الحكومات الاسلامية فقـــد غضب جاثليق النصارى أى رئيس طائفتهم ، فى بغداد على نصرانى قد أســـلم وحاول تفريقه ، فبلغ الخبر عوام بغداد فاجتمعوا ونهبوا محلات النصارى

---

(١١٩) أنظر القلقشندى ، صبح الاعشـــى ، ج٤ ص ٢٠٣ ـ ٢١٠ ، أبو الفدى ، المختصر فى أخبار البشر ، ج٤ ص ٨٧ •

(١٢٠) أنظر ابن بطوطة ، تحفة النظار ، ج١ ص ١٣٧ •

(١٢١) أنظر الحوادث الجامعة ، ص ٤٩٢ •

وحاصروا الجاثليق وأحرقوا داره وقاتلوا أصحابه حتى نزل فى سفينة والتجأ الى صاحب الديوان علاء الدين عطا ملك فاتصل هذا بالشحنة (توكال بخشى) الذى ركب وقتل نفرا من العامة وحبس آخرين حتى سكنت الفتنة[١٢٢] . وفى ٦٧٧هـ (١٢٧٨م) نسمع عن ظهور صبيان من الشطار انضم اليهم جماعة من الجهال فقويت شوكتهما وانتشر ذكرهما وأخذا بالتجرؤ على الناس وتكليفهم المال وتخويفهم اذا امتنعوا عن الدفع ولكن صاحب الديوان أرسل اليهما من قبض عليهما وقتلهما[١٢٣] . وفى ٦٨٠هـ (١٢٨١م) نسمع عن أعراب ومفسدين ظهروا فى السيب وأطراف واسط ، فسار اليهم جنود المغول الذين جاؤوا من سورية مهزومين من أمام جيش المماليك ، فنهبوا منهم خلقا كثيرا وعادوا بالاسرى والاموال ونزل الكثير منهم فى دور بغداد وأخرجوا أهلها منها[١٢٤] . وفى رمضان من ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) ظهر فى سواد الحلة رجل يعرف بأبى صالح ادعى أنه نائب صاحب الزمان أرسله ليعلم الناس أنه قد قرب ظهوره فانضم اليه خلق كثير وقصد بلاد واسط ونزل فى موضع يسمى (بلد الدجلة) من أعمالها وأخذ الكثير من أموال الناس وسار الى قرية قريبة من واسط تعرف (بالارحاء) فأنذره صدر واسط فخرالدين ابن الطراح ، فرحل عنها وقصد الحلة فأخرج اليه صدرها (ابن محاسن) ابنه مع جماعة من العسكر فاقتتل الطرفان وقتل ابن صدر الحلة وانهزم أصحابه ، فكاتب هذا حكام بغداد يعرفهم بالامر فسار شحنة العراق مع عسكره الى الثائر الذى قصد قبة (الشيخ البقلى) بناحية (النجمية) من قوسان وقتل كل من بها من الفقراء والصالحين ونهب أموال الناحية ، فوصل شحنة العراق اليهم وأحاط بهم وقتل أكثرهم وحمل رأس أبى صالح الى بغداد وعلق بها . ولكن رجلا آخر اسمه (شامى) ظهر بقرية

---

(١٢٢) المصدر السابق ، ص ٣٥٤ .

(١٢٣) المصدر السابق ، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤ .

(١٢٤) المصدر السابق ، ص ٤١٥ .

قرب واسط ، وادعى ما ادعاه أبو صالح وأمر الناس بالمعروف ونهاهم عن المنكر فمال اليه الكثير ولكن صدر واسط أرسل اليه يتهدده بالقتل ، فلما بلغه ما حل بأبى صالح هرب والتجأ الى العرب وتفرق جمعه[١٢٥] . وفى ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) كان العداء بين الايلخانيين والمماليك سببا فى اغارة عسكر الشام على ديار بكر والموصل وأربل وقتلها وأسرها الكثير ونهبها أموال التجار فى قيسارية الموصل ، ويبدو ان النصارى كانوا هدفا رئيسيا للاعتداء خلال فترة ضياع الامن الذى نتج عن ذلك فقتل الكثير منهم فى أربيل . ونهب الاكراد بلد (البوازيج) و (باصفرا) حتى هرب شحنة البوازيج وقصد بغداد وقتل جماعة من النصارى ونهبت أموالهم[١٢٦] . وفى ٦٨٦هـ (١٢٨٧م) دخل العرب فى يوم الجمعة الى الجامع (بالمحول)[١٢٧] فأخذوا ثياب كل من كان فيه ثم قصدوا (الحارثية) فكبسوها ليلا وأخذوا ما قدروا عليه وقتلوا جماعة من أهلها ، ولكن شحنة العراق ظل يفحص عنهم حتى ظفر بأكثرهم وضرب أعناقهم[١٢٨] . وفى نفس السنة عادت الحرب بين محلات أهل بغداد بسبب اهتمامهم بقتل السباع[١٢٩] . وفى ٦٩٣هـ (١٢٩٣م) أمر السلطان كيخاتو الامير (بايدو) بالمسير الى بلاد واسط وسوادها لظهور جماعة من الاعراب المفسدين فيها ، فسار اليهم ولكن الاعراب لجأوا الى البطائح فلم يقدر عليهم ، فعاد مع عسكره وأخذ بنهب الاموال والجواميس والبقر والغنم وأسر الناس وسبى النساء وصادف سفن التجار الواصلين من البحر فنهب

---

(١٢٤) المصدر السابق ، ص ٤١٥ .

(١٢٥) المصدر السابق ، ص ٤٣٩ ـ ٤٤١ .

(١٢٦) المصدر السابق ، ص ٤١٥ .

(١٢٧) المحول : بليدة طيبة حسنة نزهة كثيرة البساتين والفواكه بينها وبين بغداد فرسخ واحد على نهر عيسى (مراصد الاطلاع ، ج٣ ص ١٢٣٧) .

(١٢٨) الحوادث الجامعة ، ٤٥١ ـ ٤٥٢ .

(١٢٩) المصدر السابق ، ص ٤٥٣ .

بعض ما فيها من القماش ثم أنه أرسل جماعة من عسكره الى (عين التمر) و (الكنيسات) فنهبت الناس وأسرت وسبت منهم ، ثم أن بايدو عاد مع جنوده وذهب الى بغداد ومعه زيادة على ثلاثين ألف أسير ، فلما اتصل الخبر بالسلطان غضب عليه فحبسه ثلاثة أيام ثم أطلقه كما أطلق طائفة من أسراه وأرسلوا الى أهليهم(١٣٠) .

(١٣٠) المصدر السابق ، ص ٤٧٦ ـ ٤٧٧ .

نظام التعليم فى المدرسة المستنصرية

للسيد حسين امين
فى قسم التأريخ

تعد المدرسة المستنصرية التى أسسها الخليفة المستنصر بالله العباسى والتى تم بناؤها فى سنة ٦٣٠هـ من أعظم المدارس فى القرون الوسطى الاسلامية واتفق أكثر الباحثين « انه ما بنى على وجه الارض أحسن منها[١] » ، « وانها جاءت فى نهاية الحسن[٢] » ، « وصفها غريب وحسن ترتيبها عجيب شامخة الى عنان السماء[٣] » ، وهى أعظم من أن توصف وشهرتها تغنى عن وصفها[٤] ، وانها فى الحقيقة تعتبر أمرا عظيما فى القرن السابع الهجرى لانها كانت خطوة كبيرة فى سبيل تقدم التعليم ورقيه كما يعتبر نظام المدرسة المستنصرية من أحسن النظم المتبعة فى مدارس ذلك العصر بل لقد غدا هذا النظام مثلا يحتذى فى العراق وخارجه .

وقد أسست هذه المدرسة لتدريس المذاهب الاربعة ، الحنفية والشافعية والحنبلية والمالكية ، واختار الخليفة مدرسا لكل مذهب وشرط أن يكون لكل مدرس أربعة من المعيدين ، وكان المدرس يتقاضى راتبا شهريا قدره اثنا عشر دينارا والى جانب هذا الراتب كا نيصرف له حاجته من الطعام وقدرها فى كل يوم عشرون رطلا من الخبز وخمسة أرطال من اللحم بخضرها وحوائجها وحطبها[٥] .

---

(١) القرمانى : أخبار الدول ص ١٨٠ .
(٢) مجهول : انسان العيون ورقة ٢٤٩ مخطوطة .
(٣) الاربلى : خلاصة الذهب المسبوك ص ٣١٢ .
(٤) ابن الطقطقى : الفخرى ص ٣٤٢ .
(٥) الحوادث الجامعة : ص ٥٨ .
راجع مجلة المجمع العلمى بدمشق مجلد ٤ ج١ سنة ١٩٢٤ .

وكانت تراعى فى اختيار المدرس شروط كثيرة منها الاخلاق والسمعة الحسنة والعلم الوافر والصحة فى المذهب والاعتقاد .

والمعيد دون المدرس وأرقى درجة من عامة الطلبة وهو الذى يعيد الدرس بعد القاء المدرس المحاضرة على الطلبة كأنه معين الشيخ على الطلبة(٦) . وقد خصص الواقف فى شروط المدرسة لكل معيد فى كل يوم سبعة أرطال خبزا وغرفان طبيخا وفى كل شهر ثلاثة دنانير(٧) .

وكان الطالب المجد والذى يجد فيه الاستاذ كفاءة يعين معيدا فيوسف بن عبدالمحمود بن عبدالسلام البغدادى المقرىء الفقيه قرأ بالروايات على عبدالرزاق بن الفوطى خازن كتب المدرسة المستنصرية وابن الطبال مدرسها واستفاد فى الفقه من الشيخ تقى الدين الزريرانى مدرس المستنصرية وعين معيدا عنده فى المدرسة(٨) . وهناك كثير من المعيدين فى المدرسة المستنصرية بدأوا معيدين ثم رقوا الى درجة مدرسين فالشيخ جلال الدين عبدالجبار بن عكبر الواعظ مدرس طائفة الحنابلة بالمدرسة المستنصرية كان معيدا وفى سنة ٦٥٩ رقى الى درجة مدرس(٩) .

وكان المدرس يجلس على كرسى عند التدريس ويلبس ثياب السواد معتما وعلى يمينه ويساره معيدان(١٠) ، وكان بعض المدرسين ينقلون من مدرسة لاخرى فالشيخ عبدالرحمن بن عمر بن أبى القاسم البصرى كان مدرسا فى المدرسة البشيرية ونقل الى تدريس المستنصرية فى شوال سنة ٦٨١(١١) ، ورتب نجم الدين بن أبى العز مدرس المستنصرية للشافعية مدرسا فى المدرسة النظامية(١٢) . وكان بعض المدرسين يجمعون بين

---

(٦) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص ١٥٠ .
(٧) الحوادث الجامعة : ص ٥٨ .
(٨) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ص ٣٧٩ طبعة حامد الفقى .
(٩) الحوادث الجامعة : ص ٣٤٦ .
(١٠) ابن بطوطة : الرحلة ج١ ص ١٤٠ .
(١١) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ص٤٨٧ مخطوط فى الاوقاف .
(١٢) الحوادث الجامعة ٤٤٩ وص ٤٥٦ .

التدريس وبعض الوظائف الاخرى فالشـــيخ محيى الدين ابن الجوزى مدرس الحنابلة فى المستنصرية رتب استاذ الدار بالاضافة الى التـــدريس والشيخ عبدالله بن محمد بن حماد الواســـطى درس بالمســتنصرية وولى القضاء[١٣] ، كما كان بعض المدرسين يجتمع له التدريس فى مدرســتين فالشيخ تاج الدين ابن السباك درس بمشهد أبى حنيفة مضافا الى تدريس المستنصرية[١٤] .

والظاهر انه لم يكن هناك نظام احالة المدرس الى التقاعد (الى المعاش) فى العصر العباسى فقد ذكر ابن الفوطى ان الشيخ كمال الدين أبو الفـرج عبدالرحمن المعروف بأبى وريدة البغدادى كان يطيل الجلوس مع طـلاب العلم ولا يضجر وانه ينف على التســـعين وكان شـــيخا بدار الحـــديث المستنصرية[١٥] . كما ذكر الســـلامى ان ابن الصباغ المنعوت بالشمس طبيب المستنصرية توفى سنة ٦٨٣ وناهز على المائة وينف عليها[١٦] . كمـا ان نظام المدرسة كان يسمح أن يتولى الضرير التدريس فقد تولى عبدالرحمن بن عمر الحنبلى الضرير تدريس المستنصرية[١٧] .

ويمكن اعتبار شيخ دار القرآن ومعيـده من الهيئـــة التدريسية فى المدرسة ودار القرآن أشبه بالكتاب ففيه يعلم الصبيان القرآن ولاهمية دراسة الحديث كان يراعى فى اختيار شيخه أن يكون من المعروفين بعلو الاسناد . كما يلحق الطبيب الذى يدرس العلوم الطبية بالهيئـــة التدريسية وكـذلك النحوى يشغل بعلم العربية .

---

(١٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج٢ ص ٢٩٩ .
(١٤) السلامى : المنتخب المختار ص ١٤١ .
(١٥) ابن الفوطى : تلخيص مجمـع الآداب مخطوطة فى دار الآثار ص ١٤١ .
(١٦) السلامى : المنتخب المختار ص ١٦٤ ، والحوادث الجامعـــة ص ٤٤٥ ذكر أن عمره مائة وست سنين .
(١٧) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ص ٤٨٧ .

والذى ألاحظه ان المدرس فى هذا الدور تقدم من الناحية الاجتماعية وأصبحت له مكانة عالية ووسع له فى الرزق وأصبحت له شخصية معتبرة فى المجتمع ، وصار المدرسون يتولون المناصب العالية فالشيخ يوسف بن عبدالرحمن بن الشيخ جمال الدين بن الجوزى كان مدرسا للمستنصرية وولى استاذية الدار[١٨] ، وعين جمال الدين العاقولى مدرس المستنصرية لقضاء القضاة[١٩] . كما عين كمال الدين اللمغانى أقضى القضاة مدرسا فى المستنصرية[٢٠] . وهناك بعض النصوص تشير الى أن المدرسين فى المستنصرية كانوا يشتغلون بتأليف الكتب مما يدل على ان المدرسة كانت تهتم بانتاج المدرس العلمى والادبى .

أما ما يخص جانب الطلاب من نظام المدرسة فقد كان من شروط ذلك النظام أن يكون بها مائتان وثمانية وأربعون طالبا من كل طائفة اثنان وستون وأن يجرى لكل واحد منهم كل يوم أربعة أرطال خبزا وغرف طبيخ مما يطبخ فى مطبخ المدرسة وفى كل شهر ديناران غير الحلوى والفاكهة والصابون والزيت[٢١] .

أما كيف كان يختار الطلاب عند قبولهم فى المدرسة فانى ارجح أن المدرس كان يتعاون فى هذا مع ادارة المدرسة وللطالب الحق بعد قبوله فى اختيار المادة التى يريد دراستها . أما هل كان هناك شرط لقبول الطلاب فى سن معينة ؟ الذى اعتقده ان الطلاب الذين يقبلون فى المدرسة المستنصرية كانوا على نوعين من حيث السن . الطلبة الصغار وهم الذين يقبلون فى دار القرآن الملحقة بالمدرسة المستنصرية ، وذلك لان المؤسس نص فى شروط نظام المدرسة (أن يكون فى دار القرآن شيخ يلقى القرآن وثلاثون صبيا

---

(١٨) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ص ٤٥٤ .
(١٩) السلامى : المنتخب المختار ص ٧٤ .
(٢٠) ابن الفوطى : تلخيص مجمع الآداب ص ١٩٥ .
(٢١) الاربلى : خلاصة الذهب المسبوك ص ٢١٢ .

أيتاما ومعيد)[٢٢] ، والنوع الثانى هم الطلبة الكبار الذين يقبلون فى أقسام الفقه والحديث والطب وغيرها من الاقسام الاخرى وأعمارهم كبيرة بدليل ان الواقف نص فى نظام المدرسة (ان عدد الفقهاء بها مائتان وثمانية رجلا من كل طائفة)[٢٣] ، فكلمة رجل معناها الشخص الذى بلغ سن الرشد وتجاوزه .

كما اعتقد ان طلبة دار القرآن لهم الحق أن يستمروا فى دراستهم بعد أن يكملوها فى دار القرآن ويبلغوا سنا معينة ولهم أن يكونوا فى زمرة طلبة الفقه أو الحديث فى المدرسة المستنصرية .

ونظام المدرسة المستنصرية ، كان يوفر كل وسائل الراحة والمعيشة للطلاب ، وذلك كى يتفرغوا تفرغا تاما للمدرسة ، وقد خصص المؤسس فى شروط نظام المدرسة لكل طالب من طلبة الفقه أربعة أرطال خبزا وغرفا طبيخا وفى كل شهر دينارا من غير الحلوى والفاكهة والصابون والزيت[٢٤]، وكان الطلاب يعيشون فى غرف خاصة مجهزة بالضوء الكافى والبسط وكل ما يحتاجه الطالب من الحاجيات الضرورية له .

وقد وفد الطلاب على المدرسة المستنصرية من جميع انحاء العالم رغبة فى التحصيل والاستزادة من العلم وذلك لافتقار مناطقهم الى المدارس الكبيرة والاساتذة الكبار ولان المدرسة المستنصرية حديثة العهد عن المدرسة النظامية وانها جديدة فى نظمها وشروطها ومواضيع علومها المختلفة التى تتفق ورغبات الطالب ، كما ان الطالب وجد فى هذه المدرسة أمله فى المستقبل وانها تحقق رغبته فى العيش بصورة كريمة محترمة ، فطبيعى ان خريجى هذه المدرسة كانوا يعينون فى الوظائف الراقية كما ان أصحاب المذاهب السنية المالكية والحنابلة والحنيفة رأوا فى المستنصرية متنفسا لهم ومكانا لتلقى العلم وذلك

---

(٢٢) الحوادث الجامعة ص ٥٥ .

(٢٣) مجلة المجمع العلمى بدمشق مجلد ٤ ج١ ص ٤١ سنة ١٩٢٤ مقال لراغب الطباخ .

(٢٤) مجلة المجمع العربى بدمشق مجلد ٤ ج١ ص ٤١ .

لان النظامية كانت مقصورة على أبناء الشافعية ، ولا يقبل فى المدرسة الا من كان شافعيا أصلا وفرعا[٢٥] • فأخذ هؤلاء يفدون على المدرسة جماعات كثيرة يتلقون العلم والمعرفة فيها وبرز منهم الكثير فى مواضيع أدبية وعلمية مختلفة وأصبح منهم العلماء والادباء الذين يشار اليهم بالبنان •

وكان الطلاب ينامون فى غرف خاصة بالمدرسة والذى أرجحه ان كل ثلاثة طلاب أو أربعة كانوا ينامون فى غرفة واحدة وفيها يدرسون أيضا ، ومن الطبيعى أن تتوثق العلاقات بين هؤلاء الطلاب وأن تقوم بين بعضهم والبعض الآخر روابط قوية من المودة والاخاء •

وكان طلاب المدرسة ينقسمون فى نظامهم الداخلى الى قسمين : الطلبة الصغار أى طلبة دار القرآن فلا يمكن ادماجهم مع طلاب الفقه الرجال فى مكان واحد لاختلاف أمزجة الصغار عن الكبار وتباين تفكيرهم ثم ان الصبيان يكثرون من الكلام والتشويش مما يعكر صفو الكبار ، وهناك أيضا عوامل نفسية وأخلاقية وتربوية تحتم فصل الصبيان عن الطلاب الكبار ، لهذا أعدت فى دار القرآن غرف خاصة لاقامة طلاب هذه الدار من الصبية الصغار • أما الطلاب الكبار وهم طلبة الفقه والنحو والطب فان لهم غرفا خاصة يسكنونها والذى أعتقده أنه كان لكل طائفة جانب من هذه الغرف فالحنابلة مثلا لهم القسم الواقع الى يمين الداخل للمدرسة والمالكية لهم القسم الواقع الى يسار الداخل ، وربع القبلة الايمن للشافعية وربع القبلة الايسر للحنفية ، واسكنت غرفها واجرى لهم الجراية الوافرة[٢٦] •

أما من منهج التعليم في المدرسة ، فقد بينت ان المدرسة أسست لجميع أبناء المذاهب الاربعة وزودت الدولة المدرس بما يحتاجه من المال والكتب والعينيات وكذلك هيأت للطالب حاجته من الكتب والورق والحبر والفرش ، وكانت الغاية التى تتوخاها المدرسة هو اعداد المواطنين الصالحين لخدمة

---

(٢٥) ابن الجوزى : المنتظم ج٩ ص ٦٦ •
(٢٦) الحوادث الجامعة ص ٥٨ •

الدولة وانقاذ ما يمكن انقاذه نتيجة المفاسد الاجتماعية والسياسية المتخلفة من الحكمين البويهى والسلجوقى ، ولاحياء العلم ونشـره والمحافظة على تراث الاقدمين .

وكان التخصص واضحا فى المدرسة وقد نصت شروط المدرسة « أن يكون لكل طائفة من المذاهب الاربعة مدرس وأربعة معيدين »[٢٧] فالمدرس الحنفى يدرس الفقه الحنفى والمدرس الشافعى يدرس الفقه الشافعى وهكذا بقية المذاهب ، كما نصت شروط المدرسة أن يكون فى دار الحديث شيخ عالى الاسناد يشتغل بعلم الحديث ، أى أن يختص بتدريس علم الحديث ، « وأن يكون بالمدرسة طبيب حاذق يشغل عشرة أنفس يعلمهم الطب »[٢٨] ، وأن يكون بالمدرسة نحوى يعلم العربية[٢٩] ، كمـا شرط « أن يكون بهـا من يشتغل بعلم الفرائض والحساب الى غير ذلك »[٣٠] .

يمكن القول اذن ان المدرسة خطت خطوة جديدة وكبيرة الى الامام فى منهاجها العلمى والادبى فقد درست فيهـا العلوم الدينيـة وغيرها وادخلت علوم الطب لاول مرة فى مدارس بغداد[٣١] ، وطبيعى ان المدرسة اسلامية فكان لابد أن تهتم أولا بالعلوم الدينية ، الا أن هذه المدرسة أولت العلـوم الاخرى عناية كبيرة وعينت لكل فرع مدرسا يقوم بتدريس ذلك الفرع من العلـوم .

وكان المدرس هو الذى يختار المادة التى يدرسها للطلاب وهو المسؤول عن طلابه ولكن فى بداية انشاء المستنصرية حددت الوزارة والخلافة منهج التعليم وطلبتا أن يكون تدريس المدرسين فى المدرسـة من مصادر كتبهـا الشيوخ السالفون وهذا على ما اعتقده ان الوزارة والخلافة كان لهما هـذا

---

(٢٧) مجلة المجمع العربى بدمشق مجلد ٤ ج١ ص ٤١ سنة ١٩٢٤ .
(٢٨) الاربلى : خلاصة الذهب المسبوك ص ٢١٢ .
(٢٩) مجلة المجمع العربى بدمشق مجلد ٤ ج١ ص ٤١ سنة ١٩٢٤ .
(٣٠) الاربلى : خلاصة الذهب المسبوك ص ٢١٢ .
(٣١) الحوادث الجامعة ص ٨٢ .

الرأى وذلك للمحافظة على ما كتب الشيوخ الذين كانت لهم خبرة وتجربة وشهرة فى العلم « احتراما وتبركا لتآليفهم »(٣٢) وكذلك لكى يوحد المنهج ويدرس جميع الطلاب منهجا واحدا فيوجد المستوى على ما اتفق عليه •

ولكن قد يؤخذ على هذه السياسة التعليمية انها تقيد المدرس بما كتبه الشيوخ السابقون ولا يحاول أن يؤلف أو أن يبتكر ، وان صنف فلا مجال له لاستخدام كتبه فى دروسه ومحاضراته ، وقد حاول بعض مدرسى المستنصرية معارضة هذا القرار ، وان الشيخ شهاب الدين الزنجانى مدرس الشافعية وعبدالرحمن اللمغانى مدرس الحنفية قالا للوزير مؤيد الدين بن العلقمى : « ان المشايخ كانوا رجالا ونحن رجال »(٣٣) معنى ذلك ان المشايخ الذين سبقونا كان لهم عقل ورأى ومكانة ونحن أيضا لنا مثلهم كما لنا الحق والحرية فى الكتابة والتأليف والتدريس بتصانيفنا كما يفعل أولئك ، ولكن تدخل الخلافة فى الموضوع أنهى المشكلة بالتزام كلام المشايخ واحترامهم •

ولا بد لهذه السياسة من أثر فى الحياة العلمية فان الشيوخ والمدرسين سيكونون ملزمين باتباع ما كتبه الشيوخ السالفون والاقتداء بطريقتهم وعدم الحيد عنها ، كما لا تؤدى الى التجديد والابتكار وعدم تشجيع المدرسين على التفكير والتأليف •

ويمكن أن نقسم العلوم التى كانت تدرس في المستنصرية الى :ـ

١ ـ علوم دينية ، وهى تشمل : التفسير والحديث والفقه والفرائض وقراءة القرآن •

٢ ـ علوم أدبية ، وهى تشمل : اللغة والنحو والصرف والعروض والاخبار والادب •

٣ ـ علوم رياضية ، وهى تشمل : الحساب والجبر والهندسة والمساحة •

---

(٣٢) الحوادث الجامعة ص ٢١٦ •
(٣٣) المصدر السابق ص ٢١٧ •

٤ ـ علوم عقلية ، وهى تشمل : المنطق وعلم الكلام والاصول .
٥ ـ علوم طبيعية وعلمية ، وهى تشمل : الطب والصيدلة وعلم الحيوان .

ويؤيدنا فى هذا التقسيم ، النص الذى أورده المؤرخ الاربلى فى خلاصة الذهب المسبوك(٣٤) .

ولسنا نعلم ان كان المجال متسعا فى المستنصرية لدراسات أخرى غير هذه أم لا ، ففى ترجمة عبدالمؤمن بن فاخر صفى الدين ما يثبت انه كان طالبا فى المستنصرية وانه درس المذهب الشافعى ، وفى هذه الترجمة يفيد أنه شغف بدراسة الادب وضرب العود ، ولكننا لا نستطيع أن نؤكد أنه درس الادب والموسيقى فى المستنصرية أو خارجها(٣٥) .

أما كم يبقى الطالب فى المدرسة ؟ فهذا السؤال لا يزال جوابه غامضا عندى ولكن معرفته بالقياس ، فمن المؤكد ان المدرسة المستنصرية أخذت بالكثير من نظم المدرسة النظامية وكثير من مدرسى النظامية درسوا فى المستنصرية وأول مدرس فى المستنصرية لطائفة الشافعية كان مدرسا فى النظامية(٣٦) . وفى النظامية تفقه أبو عمران موسى بن حمود بن حمدان قريبا من سبعة عشر سنة(٣٧) . واذا كنا نقيس الدراسة فى المدرسة المستنصرية بالدراسة فى الجامع الازهر فانا نستطيع أن نقول ان مدة الدراسة لم تكن تقل عن عشر سنوات ففيها يكون الطالب قد استطاع أن يستوعب وأن يحصل على المواد التى يتخصص فى دراستها ، وبعد أن يقتنع المدرس ان الطالب قد أتقن ما تخصص فيه ، أجازه بذلك اجازة وسنتكلم عن الاجازة وشروطها فيما بعد .

أما عطلة المدرسة فالذى أرجحه انها تصادف فى عيد الفطر وعيد

---

(٣٤) الاربلى : خلاصة الذهب المسبوك ص ٢١٢ .
(٣٥) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ج٢ ص ٣٩ .
(٣٦) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ج٥ ص ٤٤ .
(٣٧) الاسنوى : طبقات الشافعية مخطوطة فى مكتبة الاوقاف ورقة ٢٦٦ .

الاضحى كما أرى انه لم تكن هنا لاجازة سنوية طويلة بل كان الطالب يشغل طيلة العام فلم يتمتع باجازة فى شهر رجب مثلا ذلك لان المدرسة فتحت أبوابها فى خامس رجب(٣٨) ، ولم يكن الطلاب يمنحون اجازة فى شهر رمضان ، فان محيى الدين بن الجوزى وصل من مصر فى شهر رمضان وخلع عليه بدار الوزارة خلعة التدريس على الحنابلة بالمدرسة المستنصرية وحضر المدرسة بالخلعة ومعه جميع الولاة والحجاب فجلس على السدة وخطب وذكر دروسا(٣٩) .

أما مواعيد الدروس فالذى أعتقده ، ان تلك المواعيد كانت مرتبطة بمواعيد الصلاة فهى اما أن تكون قبل أو بعد الصلاة فبعد صلاة الفجر مثلا أو بعد صلاة العصر ، كما نظمت بعض مواعيد الدروس فان مواعيد دروس الحديث فى كل يوم سبت واثنين وخميس من كل أسبوع(٤٠) ، فيلاحظ أنها مرتبة ترتيبا تربويا جيدا بحيث يكون للطالب وقت للتحضير ولا يحصل له الملل من تعاقب الموضوع الواحد يوما بعد يوم كما يكون لدى الطالب الوقت الكافى لدراسة أى موضوع آخر قد يحلو له دراسته .

أما كم هو وقت الدرس فهذا على ما اعتقد لم يحدد بل ترك مجاله للاستاذ وعلى الاستاذ أن يقدر الوقت الكافى للموضوع الواحد أو للدرس الواحد فقد يجلس للدرس ساعة وقد يجلس ساعتين ، فقد كان الشيخ كمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن عبداللطيف المعروف بابن وريدة البغدادى المحدث شيخا بدار الحديث وكان يطيل الجلوس مع طلاب العلم ولا يضجر(٤١) . كما ان الشيخ عبدالله بن محمد بن أبى بكر الزريرانى كان يورد دروسا مطولة فصيحة منقحة(٤٢) .

---

(٣٩) المرجع السابق ص ٦٠ .
(٤٠) المرجع السابق ص ٥٨ .
(٤١) ابن الفوطى : تلخيص مجمع الآداب ص ١٩٦ مخطوطة بدار الآثار .
(٤٢) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ص ٤١٠ .

ولم تكن هناك صفوف شبيهة بالصفوف الحديثة ، بل كان المدرس يجلس على كرسى والطلبة تجلس على الارض أمامه على شكل حلقة .

أما طريقة التدريس ، فقد كانت الدراسات فى المستنصرية من أحدث الدراسات فى القرن السابع الهجرى ، وقد نظمت هذه الدراسات بشكل يؤدى الى الثمار المطلوبة ، فان النظم التعليمية فى المستنصرية كانت من أرقى ما وصلت اليه نظم التعليم فى القرن السابع الهجرى . ولدينا نص طريف يصف طريقة التدريس فى المدرسة المستنصرية ، فقد زار ابن بطوطة المدرسة فى النصف الاول من القرن الثامن ، وشاهد بنفسه حلقات الدرس المختلفة بالمدرسة ووصفها بقوله :ـ وموضع التدريس وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط ، ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا ثياب السواد معتما وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الاربعة »(٤٣) .

والملاحظ ان طريقة التدريس كانت هي طريقة الاملاء ، وقد اتبعت هذه الطريقة فى المدرسة المستنصرية وذلك لندرة الكتب فى تلك الحقبة من الزمن كما يجب أن نعلم ان عدد طلاب الفقه لكل مدرس ٦٢ طالبا فليس هناك من طريقة تتبع لكى يستفيد هؤلاء الطلاب فى وقت واحد غير طريقة الاملاء ، وفى بعض الاحيان يكون فى يد كل تلميذ نسخة من الكتاب الذى يدريس يستنسخها لنفسه لتكون تحت تصرفه اثناء القاء المدرس أو شرحه أو تعليقه عليه . وان المدرس بعد الاملاء يبدأ بفتح باب المناقشة والمناظرة ولا يخفى ما للمناظرة من فوائد جمة فى رسوخ المعلومات فى ذهن الطالب « فان فائدة المناظرة أقوى من فائدة التكرار وقيل مطارحة ساعة خير من تكرار شهر » وكان أبو بكر بن عمر الفاروثى مدرس المستنصرية جيد المناظرة(٤٤) .

---

(٤٣) ابن بطوطة : الرحلة ج٢ ص ١٤١ ـ ١٤٢ .

(٤٤) العسقلانى : الدرر الكامنة ج٢ ص ٢٨١ .
الاسنوى : طبقات الشافعية .
العماد : شذرات الذهب ج٦ ص ١٤ .

وكان لتدخل الوزارة والخلافة فى أمر التدريس فى عهد الخليفة المستعصم والطلب الى المدرسين بأن لا يذكروا من تصانيفهم وألا يلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها بل يذكروا كلام المشايخ السابقين تأدبا معهم وتبركا بهم[٤٥] ، وكان لهذا أثر كبير فى ايقاف عنصر الابتكار عند المدرسين وجعل المدرسين يقفون فى نقطة معينة من مواضيع التأليف واقتصر التعليم فى المدرسة المستنصرية على كتب معينة يراجعها الاستاذ ويدرسها الطلبة ، وانحصرت جهود المدرسين بالحفظ والقراءة وتكرار أقوال السابقين ولا يجوز لهم الاضافة أو التجديد الى ذلك التراث .

ونتيجة لانتشار هذه الطريقة ظهرت المختصرات الكثيرة فى المدرسة المستنصرية والتعليقات العديدة على الكتب وقد انتقد ابن خلدون هذه الطريقة فى مقدمته ، قال : « ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والانحاء فى العلوم ، يولعون بها ويدونون منها برنامجا مختصرا فى كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار فى الالفاظ وحشو القليل منها بالمعانى الكثيرة من ذلك الفن ، وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسرا على الفهم ، وربما عمدوا الى الكتب الامهات المطولة فى الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ كما فعله ابن مالك فى العربية والخونجى فى المنطق وأمثالهما وهو فساد فى التعليم وفيه اخلال فى التحصيل »[٤٥] .

ولم تكن طريقة الاملاء هى الطريقة الوحيدة المتبعة فى المستنصرية بل يبدو أن بعض المدرسين بها كانوا أحيانا يشجعون طلابهم على البحث العلمى فكان المدرس يكلف الطالب ببحث موضوع من الموضوعات ، فاذا وفق فى بحثه نال من تشجيع استاذه الشيء الكثير من العناية والاهتمام ، فان الحسين بن يوسف بن محمد الدجيلى البغدادى أحد طلاب المدرسة المستنصرية عرض كتابا من تصنيفه سماه (الوجيز) فى الفقه على شيخه الزريرانى مدرس المستنصرية وعلق المدرس على الكتاب بعد مطالعته ،

---

(٤٥) الحوادث الجامعة ص ٢١٦ .

ما نصه : « الفيته كتابا وجيزا كما وسمه لمسائل كثيره وفوائد غزيرة قل أن يجتمع مثلها فى أمثاله »(٤٦) . فالبحث العلمى متوفر فى المدرسة المستنصريه لا جدال فيه ولكنه على ما يظهر موقوف على نخبة ممتازة من نوابغ الطلبة الراغبين فى هذا النوع من البحث والقادرين عليه .

أما دار القرآن فالتعليم فيها كان قائما على التلقين والحفظ ذلك لأن سن الطلاب فى هذه الفترة يتطلب التحفيظ لا التفهيم والتفسير وبعد أن يتكلم الطالب فى هذه المدرسة قراءة القرآن وحفظه ينتقل بعض هؤلاء الى دراسة علم الحديث أو الفقه مثلا ، والطريقة المتبعة لتحفيظهم ، هى أن الشيخ يقرأ القرآن ويردد الطلاب قراءته بصورة جماعية وهكذا يحفظ الطلاب ويلقنوا بالاعادة والتكرار .

وكان على المدرس فى المستنصرية أن يلاحظ الطلبة ويشرف على دراستهم والمفروض فيه أن يكون متأدبا معهم ولا يهزأ برأى طالب ، وكان بعض المدرسين الكبار كالشيخ الزريرانى يتلطف مع الطلبة(٤٧) .

وكان الطلاب فى دراستهم يتبعون أساليب عديدة لكى يهضموا المادة العلمية الملزمين بها ، وكان الحفظ من أهم الوسائل المتبعة ولذلك أسباب أهمها :ـ

١ ـ ندرة الكتب وصعوبة استنساخ المؤلفات الكبيرة العديدة التى تحتاج الى الورق الكثير والوقت الطويل .

٢ ـ علو طبقة الحفاظ ومكانتهم السامية فى المجتمع الاسلامى وكان الحافظ يعتبر أسمى درجات العالم بالحديث أو المشتغل باللغة(٤٨) ، كذلك اعتبر تحفيظ القرآن مثلا شرطا أساسيا لاستكمال التعليم .

٣ ـ ان انتشار بعض العلوم ولزوم دراستها فى المدارس كالعلوم اللغوية والادبية التى تتطلب من الطالب الحفظ والاستظهار كان سببا فى

---

(٤٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٣٠ .
(٤٧) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ص ٤١٧ .
(٤٨) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ص ٤١١ .

شيوع وسيلة الحفظ لدى طلاب المدرسة المستنصرية ، والمدارس الاخرى ، كما صار الطلاب يحفظون كتبا فى الفقه مثلا ، فالطالب سليمان بن عبدالقوى البغدادى ، « حفظ كتاب المحرر فى الفقه »(٤٧) .

ومما لا ريب فيه أن رياضة العقل منذ الطفولة وتعويده على حفظ آيات القرآن الكريم أو الاشعار أو النصوص الفقهية أو الاحاديث النبوية الشريفة من أهم الوسائل التى تقوى الذاكرة وتساعد على يقظة الذهن وتركيز المعلومات ومن أساليب الحفظ الاعادة والتكرار ، والامام الزرنوجى له رأى فى هذا الاسلوب قال : « تكرار ما حفظه الطلاب بالامس عدة مرات لان هذا أدعى للحفظ »(٥١) .

ولا بد أن نبين ان طريقة التحفيظ هذه ليست بالطريقة التربوية الصحيحة ولعل من أهم عيوبها انها تعطل القدرة على التفكير والابتكار ، وتجعل الطالب ينشغل فى محاولة حفظ النصوص دون البحث أو التفكير فيها أو فهم مدلولاتها أو بيان تعاليلها .

وكان الطالب لا يكتفى بالحفظ بل يحاول جهده فهم ما حفظه ، وقال الامام الزرنوجى : « فقد قيل حفظ حرفين خير من سماع وقرين وفهم حرفين خير من حفظ وقرين واذا تهاون فى الفهم ولم يجتهد مرة أو مرتين يعتاد ذلك ، فلا يفهم الكلام اليسير ، فينبغى أن لا يتهاون بل يجتهد »(٥٢) .

وواجب على المدرس أن « يحرص على تعليم الطالب وتفهيمه ببذل جهده وتقريب المعنى له من غير اكثار لا يحتمله أو بسط لا يضبطه حفظه ، ويوضح لمتوقف الذهن العبارة ويحتسب اعادة الشرح له وتكراره ويبدأ يتصور المسائل ثم يوضحها بالامثلة »(٥٢) .

وقد اتبع الطلبة فى زيادة الفهم ورسوخ المعلومات فى الذهن الى طريقة

---

(٤٩) السيوطى : المزهر ج٢ ص ١٩٩ .
(٥٠) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ص ٣٦٦ .
(٥١) الزرنوجى : تعليم المتعلم ص ٣٣ .
(٥٢) ابن جماعة : تذكرة السامع ص ٥٢ .

السؤال ومناقشة المدرس فى بعض مشاكل موضوع الدرس وكان المدرس يفسح المجال للطلاب ، وقد أخبرنا ابن جبير بصورة واضحة عن كيفية أسئلة الطلاب لمدرس النظامية(٥٣) . وكان لتوجيه السؤال من قبل الطالب ومناقشته للاستاذ آداب خاصة تكفل للاستاذ هيبته ووقاره وللطالب حرية رأيه وتهيء له سبيل الاستفادة ، ومن الآداب المعروفة أيضا ، « أن لا يهزأ المدرس برأى الطالب ولا يزدرى المساكين منهم »(٥٤) .

والظاهر ان بعض الطلاب كانوا لا يكتفون بالحفظ والفهم والسؤال والمناقشة بل كانوا يرجعون الى أماكن أخرى ينشدون بها العلم ، فقد يسمعون عن وجود أستاذ مثلا فى دمشق أو القاهرة أو أصفهان أو نيسابور وغيرها من المدن التى اشتهرت بالعلم وكثرة العلماء ، « فقد رحل عمر بن على بن موسى البغدادى الذى سمع من ابن الطبال وابن القاسم وابن الدواليبى وهم من مدرسى المستنصرية ، رحل الى دمشق وقرأ بها صحيح البخارى على الحجار بالحنبلية ، وجالس الشيخ تقى الدين ابن تيمية وأخذ عنه »(٥٥) . كذلك فعل الطالب سليمان بن عبدالقوى الذى سافر الى دمشق وجالس ابن تيمية والمزى والشيخ الحرانى ثم سافر الى مصر وسمع من القاضى سعدالدين الحارثى وقرأ على ابن حيان النحوى مختصرا لكتاب سيبويه ومجالسه(٥٦) .

وقد قام مدرسو المدرسة المستنصرية بالرحلات الدراسية أيضا ورحل كثير من مدرسيها الى مناطق كثيرة فى العالم الاسلامى طلبا للعلم . ومما لا شك فيه ان رحلة الطلاب والمدرسين من بلد الى آخر كانت سببا مهما فى زيادة التعارف الثقافى بين كثير من شيوخ العلم وطلابه ، فكانت المعلومات وأساليب الثقافة تنتقل من بلد الى آخر نتيجة المشاهدة والدراسة كما كانت

---

(٥٣) ابن جبير : الرحلة ص ١٧٤ .
(٥٤) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ج١ ص ١٢٨ .
(٥٥) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ص ٤٤٤ .
(٥٦) المصدر السابق : ص ٣٦٦ .

سببا رئيسيا فى وحدة الثقافة وتوطيد علاقات وثيقة بين العلماء فى تلك الحقبة .

وكان الطالب بعد أن يستكمل تعليمه ينال من شيخه (استاذه) اجازة ، والاجازة هى الشهادة التى يمنحها المدرس فى المدرسة للطالب بعد الفراغ من دراسة كتاب ما أو موضوع ما ، ليجيز له تدريسه أو روايته ، وقد أصبحت الاجازة من الضرورات المهمة التى يجب على الفقيه الحصول عليها لكى يثبت أنه وصل الى درجة كافية من العلم تؤهله لتدريس أو رواية ما سمعه أو تلقاه عن شيخه أو استاذه .

وكان لا بد للطالب من أن ينال الاجازة من أحد الشيوخ أو المدرسين والمدرس هو الذى يقرر أهلية الطالب ودرجة فهمه ، وكان المسلمون يكرهون الشخص الذى يدرس كتابا معينا بدون ارشاد أستاذ لما يلحق بذلك من الخطأ والتصحيف وكذلك أطلقوا على الشخص الذى يتعلم من الكتب بنفسه بالصحفى انقاصا لقدره ، وقد نعت الجاحظ ، أحمد بن عبدالوهاب حينما أراد هجاءه والسخرية به بأنه : كان قليل السماع غمرا وصحفيا غفلا(٥٧) . كما أن ياقوت ذكر فى معجمه : ان محمد بن يزيد فضل على ثعلب لانه قرأ كتاب سيبويه على العلماء بينما قرأ الثانى على نفسه(٥٨) .

ويبدو لى أن المدرسة لم تكن هى المسؤولة أو التى تقوم بمنح طلابها الاجازة العلمية بل كانت الاجازة تصدر من المدرس نفسه وباسمه ، ويمنح الشيخ الاجازة بعد أن يقدم الطالب التماسا الى شيخه يطلب فيه منحه الاجازة ، يقول ابن الفوطى عن نفسه : فلما قدمت بغداد باشارة الصاحب السعيد عطا ملك كتبت اليه أى الى كهف الدين ابن ابراهيم المخرزى الواعظ التمس منه الاجازة وما ينظم الى ذلك من الفوائد والفرائد فكتب الى اجازة جامعة ومعها كراسة بخطه تحتوى على النثر والنظم(٥٩) . وهذا النص يبين

---

(٥٧) الجاحظ : رسائل الجاحظ جمعها السندوبى ص ١٨٧ .

(٥٨) ياقوت : معجم الادباء ج٥ ص ١٢١ .

(٥٩) ابن الفوطى : تلخيص مجمع الآداب ص ٣١٠ مخطوطة في دار الآثار .

بصراحة ان الاجازة يسبقها الالتماس أى الطلب وكانت هذه الطريقة على ما يظهر متبعة عند مدرسى النظامية أيضا(٦٠) .

ويتبين لنا من دراستنا للنماذج القليلة التى عثرنا عليه للاجازات التى منحها مدرسون بالمستنصرية وغيرها من المدارس المعاصرة ان الشيخ المدرس كان يجيز تلميذه أو طالب الاجازة بوجه عام لرواية كتاب بعينه أو مجموعة من الكتب من تأليفه أو تأليف غيره ، وقد يجيز بالقراءة أو الرواية فى علم بذاته أو فى مجموعة من العلوم .

ويلاحظ فى بعض الاجازات أن الشيخ يكون حريصا ملتزما على براءته مما قد يعرض من سهو أو تحريف أو غلط أو تصحيف . ويذكر دائما فى الاجازة اسم الطالب ملتمس الاجازة واسم الشيخ مانح الاجازة كما يذكر كاتبها فى نهايتها مع تحديد التاريخ الذى صدرت فيه .

وهذا نموذج اجازة لاحد مدرسى المستنصرية ابن الساعاتى منحها للشيخ زكى الدين السمرقندى(٦١) .

« قد أجزت لمالكها الشيخ الامام العالم الفاضل الورع الكامل ذى الاخلاق الكريمة والفضايل الجسيمة زكى الدين السمرقندى أدام الله حراسته وكتب سلامته أن يرويها عنى وكذلك أجزت له رواية الشرح الذى صنفته بعد اذ وقعت اليه نسخة يثق الى صحتها وكذلك جميع ما يصح عنده انه من مقولاتى أو مسموعاتى أو مستجازاتى فهو أدام الله أيامه يحمل ما يرويه وأنا معتمد على الله تعالى ثم ملتمس من خدمته أن يصون هذا الكتاب ويحفظه عن تغيير يقع فيه ما يروى من مخالفة لفظ أو معنى لما فى أحد الكتابين فلا يتسرع الى انكاره فان لى فيه مقصدا صالحا من تحرير نقل أو اختيار ما هو الاصح من الاقوال والروايات وقد كنت عازما على التنبيه على ذلك فى حواشى الكتاب فلم يتسع الزمان لسرعة التوجه الى بلاد الاسلام صانها الله تعالى عن التغيير وفتح لها أبواب النصر والظفر ولكن كل ذلك منقول من

---

(٦٠) راجع مجلة المعلم الجديد حيث أوردت صورة اجازة سبقها التماس فى ج٥ ، ج٦ ، ج٧ .

مواضعه محرر عند واضعه منبه عليه فى شرح الكتاب والله هو الملهم للصواب كتبه المصنف أحمد بن الساعاتى الشامى الاصل البغدادى المنشأ بالمدرسة الشريفة المستنصرية رحمة الله على منشئها فى رجب سنة تسعين وست مائة »[٦١] .

هذه صورة لاجازة صادرة من أحد مدرسى المستنصرية وتعطينا فكرة واضحة عن أسلوب تلك الاجازات المماثلة .

---

(٦١) القرشى : الجواهر المضيئة فى طبقات الحنفية ص ١٤٧ .

الاسلام والشعر

للدكتور داود سلوم
المدرس فى قسم اللغة العربية

« انا اعربكـــم »
محمد (ص)

ان الذى يقرأ كتاب « الجمهورية » وكتاب « القوانين » لافلاطـون يخرج بنتيجة قاطعة ، هى ان افلاطون لم يرض عن الادب خاصة والفنون عامة • وقد أخرج أفلاطون الشاعر من مدينتـه الفاضلة ونبـذ انتاجـــه الفنى[١] •

ان الادب الممتاز يخلف ولا شك ظن الفيلسوف الافلاطونى النزعة فى التبشير « الخلقى » والتعبير عن « الحقيقة » • والادب الممتاز لم يخلق الا ليتعاطى التجارة بالخيال والشاعر لا يرضى الا حريتـــه التى تستبيح الاخلاق وتداعى الحواجز والموانع التى يفرضها الفلاسفة والمهذبون[٢] • أضف الى هذا ان « الخيال » « والصور الخيالية » عند افلاطون هى دون

---

(١) راجع
a. Plato: The Republic (The Penguin Classics), 1956 III. 398; P. 137 also: X. 607; P. 384.
b. William K. Wemsat Jr. and Cleath Brook: Litrary Criticism, P. 15, 10.
c. C. G. Saintsbury: History of Criticism (Preface 1900), P. 18.
d. R. C. Lodege: Plato's Theory of Art, London, 1953. P. 262.

(2) R. A. Scot James: Making of literature, 1948, P. 40.

درجة العلم ومعرفة الطبيعة • فالطالب يجب أن يعرف « الحقيقة » مجردة عن العاطفة وملابساتها • وان أفلاطون يميز بين المحب للجمال ، والشاعر « ويجعل بينهما درجات ويضع الشاعر فى الدرك الاسفل ، ان بعض النقاد قالوا ـ لذلك ـ ان أفلاطون يضع الفنون خارج نطاق الشىء الجميل »[٣] •

وان المجتمع الافلاطونى فى جمهوريته والمجتمع الاسلامى بعد ظهور محمد ـ ص ـ يتشابهان فى أن كليهما بنى على أنقاض مجتمع قديم • فما مقام الشعر والشعراء فى المجتمع الاسلامى ؟ وما النهج الذى شرعه محمد ـ ص ـ للشاعر ؟

ان القارىء ليتوقع الآن أن تكون مصيبة الشعر والشعراء فى دولة محمد ـ ص ـ الثيوقراطية Theocratical أكبر وأعظم • وان محمدا ـ ص ـ قد قاوم الفنون وانه قضى على قابليات الشعراء لانه حرم عليهم استعمال موضوعات جاهلية كانت تستثيرهم وتهزهم • ومن المؤسف أن نقول ان هذه النظرية تكاد تسود بين عدد غير قليل من مؤرخى الأداب العربية وانهم ليعرضون لادب الفترة الاسلامية الاولى فتدهشهم كثرة النصوص السهلة الميسورة الضحلة فلا يجدون لها تعليلا آخر كالانتحال وانما يفزعون رأسا الى ملجأ أمين ويقولون : ان الاسلام حارب الشعراء أن ينطقوا بكذا وحرم عليهم أن يصفوا كذا فضعف شعرهم وهذا خطأ محض لا شك فيه •

ولنر مدى مماشاة هذا الرأى لواقع الاشياء فاننا سوف نستقرىء الامثلة لنرى علاقة محمد ـ ص ـ بالشعراء فى تلك الفترة وندرس الموضوعات الشعرية لذلك الزمن • ثم لنبحث فى المسببات التى كونت تلك النظرة الخاطئة فيما يخص الحكم الذى ذكرناه آنفا •

كان محمد ـ ص ـ يعرف خطر الشعر وهو وسيلة من وسائل

---

(3) Bernard Bosanquet: A History of Aesthetic London, 1956.

الدعاية الخطرة على عصره وان رجلا كمحمد ـ ص ـ كان عليه أن يظهر للناس بصفة الزعيم الكامل الذى لا يتقول عليه الناس ويخوضون فى عرضه • فلم يكن محمد ـ ص ـ ليتساهل بهجاء الشعراء لرسالته أو بهجائهم لشخصه أو لعائلته • « فلما بلغ الرسول ـ ص ـ ان كعب بن زهير ابن أبى سلمى هجاه ونال منه أهدر دمه ••• فكتب اليه أخوه بجير بن زهير يعلمه أن النبى (ص) قد قتل ابن الاشرف وكان قد شبب بأم الفضل بن العباس وأم حكيم بنت عبدالمطلب »[٤] •

فمحمد ـ ص ـ حين لم يرض لام الفضل وأم حكيم أن تهانا وأن يحتك عرضهما شخص مثل كعب بن الاشرف ، لم يترك ـ كذلك ـ شاعرا مثل النضر بن الحارث بن كلدة ••• بن عبد مناف أن يتقول على رسالته و « وكان النضر يؤذى رسول الله (ص) ويقول محمد يأتيكم بأخبار عاد وثمود وأنا آتيكم بخبر الاكاسرة والقياصرة »[٥] •

ويروى عنه قوله : « اللهم من هجانى فألعنه مكان كل هجاء هجانيه لعنة » فالحرب هى الحرب • ولم يكن محمد يسمح لرتل الدعاية أن يعمل على مصلحته ومصلحة الاسلام ولم يتورع عن أن يرد على خصومه بالاسلوب نفسه وانه كان يعرف مقدار صحة ما يقوله شعراؤهم فى خصومه •

فقد « أتى حسان بن ثابت الى النبى (ص) فقال يارسول الله ان أبا سفيان ابن الحارث هجاك وأسعده على ذلك ابن الحارث (كذا) وكفار قريش أ فتأذن لى أن أهجوهم يا رسول الله ؟ فقال النبى فكيف تصنع بى ؟ قال : « أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين » فقال له : « أهجهم وروح القدس معك • واستعن بأبى بكر فانه علامة قريش بانساب العرب وهجا أبا سفيان فى أبيات منها :

---

(٢٤) أبو زيد ابن الخطاب القرشى : الجمهرة ١٢٤٥/١٩٣٦ ص ١٥ •

(٥) العلامة التبريزى : مختصر من شرح ديوان الحماسة ج١ ص ٤٠٦ •

فأنت لئيـــم نيط فى آل هاشـــم
كمـا نيط خلف الراكب القدح الفرد
. . . . . .
. . . . . .

قال : فلما أسلم أبو سفيان بن الحارث قال له النبـى (ص) أنت منى وأنا منك ولا سبيل الى حسان !(٦) .

هذا هو موقف محمـد ـ ص ـ من الشـعراء الخصوم فى حالة الحرب ، فما موقفه من شعراء المسلمين ؟ هل حدد لهم أفقا معينا ؟ وهل رسم لهم طريقا خاصة يسيرون فيها ولا يخرجون عنها ؟ ماذا يظن الرسول فى الشعر ؟ هل يتذوقه ؟ هل يتأثر به ؟

هـذا هو موقف محمـد من الشـعراء الخصـوم فـى حالـة النظرية الدينية فى القرون التالية للحركة الاسلامية والتى يبدو عليها التأثر الى حد ما بوجهة النظر الافلاطونية التى قدمنا شرحها للقارىء .

ووصف محمد ـ ص ـ بأن الشعر « كان يعجبه »(٧) .

وقيل عنه « لم يزل النبى (ص) يعجبه الشعر ويمدح به فيثيب عليه ويقول هو ديوان العرب »(٨) .

ويروى له (ص) : « ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا » .

وله (ص) : « الشـعر كلام من كلام العرب جزل تكلم به فى نواديها وتسل به الضغائن بينهما » .

وكان الرسول ـ ص ـ ولا شك يعرف ان شـعلة الفن فى النفس الانسانية لا يمكن لها أن تطفأ ولا يمكن أن تحدد وتوضع فى قوالب . وكان يعرف جيدا ألا سبيل للشعراء أن يتركوا الشعر المعبر عن عواطف الانسانية . فقد روى له قوله : « لا تدع العرب الشـعر حتى تدع الابل

---

(٦) الجمهرة ص ٥١ .
(٧) الجمهرة ص ٣١ .
(٨) الجمهرة ص ١٤ .

الحنين »[٩] . وان الشعراء كانوا ينشدونه وكان يسألهم أن يفعلوا ذلك . فيروى عن أبى بكر أنه قال : « كنت عند رسول الله (ص) وشاعر لديه ينشده فقلت له : أ شعر وقرآن ؟ فقال : هذا مرة وهذا مرة » .

وكانت نشوة السماع للمدح الجيد تدفعه الى الجود . فحين وصل كعب بن زهير فى انشاده الى :

ان الرسـول لسـيف يستضاء به
مهنـد من سـيوف الهند مسـلول

« قال رسول الله : من سيوف الله . ثم رمى اليه بردته التى كانت عليـه » .

فمهما صح من هذه الاحاديث وحتى لو صحت معنى لا لفظا فانها لتدل على وجهة نظر سمحة بالنسبة الى فن الادب وانه وان كان يعجزنا أن ندلل على هذه النظرة السمحة من أقواله التى لم ترد نصا فانه من السهل علينا أن نبرهن على ذلك من خلال قراءة النصوص الشعرية التى عاصرت الرسول والتى تليت له فسمع طرفا منها .

فهناك مجموعة من هذا الشـعر وردت الينا فى (الجمهرة) باسم (مشوبات العرب) وشرحها صاحب الجمهرة يقول : « وأما مشـوبات العرب وهن اللائى شابهن الكفر والاسـلام فلنابغة بنى جعدة وكعب بن زهير والقطامى والحطيئة والشماخ وعمر بن أحمد وابن مقبل »[١٠] .

فيمكننا مثلا أن نجزىء قصيدة النابغة الى أجزاء كل منهـا يتعاطى شيئا نظرت اليه النظرية الدينية فيما بعد بشىء من عدم التقدير والاحترام ما عدا الفقرات التى مدح بها الرسول طبعا .

قال نابغة بنى جعدة :

خليـلى عـوجا سـاعة وتهجـرا
ولوما على ما أحـدث الدهر أو ذرا

---

(٩) ديوان حسان (المقدمة) .
١٠) الجمهرة ص ٤٥ .

. . . . . .

. . . . . .

ا ـ مجالس اللهو وشرب الخمر :

تذكرت والذكرى تهيج لذى الهوى
ومن حاجة المحزون أن يتذكرا
نداماى عند المنذر بن محرق
أرى اليوم منهم ظاهر الارض مقفرا

. . . . . .

. . . . . .

لدى ملك من آل جفنة خاله
وجداه من آل امرىء القيس أزهرا
يدير علينا كأسه وشواءه
مناصفة والحضرمى المحبرا

ب ـ الفخر والهجاء :

ومهما يقل فينا العدو فانهم
يقولون معروفا وآخر منكرا
فما وجدت من فرقة عربية
كفيلا دنا منا أعز وانصرا
وقد آنست منا قضاعة كالثا
وأضحوا ببصرى يعصرون الصنوبرا

. . . . . .

. . . . . .

بلغنا السما مجدا وجدا وسؤددا
وانا لنرجوا فوق ذلك مظهرا

. . . . . .

. . . . . .

اذا افتخـــر الأزدى يومـا فقـــل له
تأخـــر فلن يجعـل لك الله مفتخرا
فان ترد العليـــا فلســـت بأهلهـــا
وأن تبســـط الكفين بالمجد تقصـرا(١١)

فالنظرية الدينية وأصحابها وبعض مدرسى الادب يرون أن الاسلام حرم على الشعراء ذكر ما يذم من الانسان كشرب الخمر والفخر الكاذب وهجاء الناس ونحن نرى عكس ذلك بعد قراءة هذا النص • ونضيف أن تغزل الشعراء بأم الفضل بن العباس وأم حكيم بنت عبدالمطلب لم يكن نظره اليه كنظرة أفلاطون وأنه يثير الغرائز ويغذى ما كان يجب ألا يغذى وانه يشجع من العواطف الانسانية • فهذا شاعر تائب يعتذر عما قدمت يداه ولم يجد ما يفتح به اعتذاره ومدحه الا قوله :

بانت ســـعاد فقلبـى اليوم متبـــول
متيـــم اثرهـــا لم يفـــد مكبـــول
وما ســـعاد غداة البين اذ رحلـــوا
الا اغن غضيض الطـرف مكحـــول
هيفـــاء مقبـــلة عجـــراء مـــدبرة
لا يشـــتكى قصر منها ولا طـــول
لكنهـــا خلة قد ســـيط من دمهـــا
فجـع وولـع واخـــلاف وتبـــديل(١٢)

وان شاعرا مثل القطامى لا يقـــدم حتى مـدح قريش على وصف الضجيع والصهباء • ولو كان الرســول ـ ص ـ يحمل الشـــعراء بعض ما يعرضه علينا أصحاب النظرية الدينية لما رأينا شعرا كهذا يقال فى عهد الرســـالة :

---

(١١) الجمهرة ص ٣٠١ •
(١٢) الجمهرة ص ٣٠٨ •

وقـــد أبيت اذا ما شـــئت بات معى
على الفراش الضجيع الاغيد الرســـل
وقـــد تباكرنى الصهبـــاء ترفعهـــا
الى لينـــة أطـــرافهـــا ثمـــــل
أمـــا قريش فلـــن تلقـــاهم أبدا
ألا وهم خـــير من يحفى وينتعـــل
قوم هـــم ثبتوا الاســـلام وامتنعـــوا
قوم الرسول الذى ما بعده رســـل[١٣]

وكان محمد ــ ص ــ يمر على مغالطات الشعراء الصريحة وكذبهم مبتسما • وهل يستمع محمد ــ ص ــ للشعر الا للمتعة الفنية واستحسان ما فيه ؟ فقد أنشده حسان ــ وهو معروف بجبنه ــ :

« لقد غـــدوت أمام القوم منتطقـــا
بصـــارم مثـــل لون الملح قطـــاع »
« فضحك السيد الامين »[١٤] •

فعلم محمد ــ ص ــ بالشعراء « انهم يقولون ما لا يفعلون » لا يمنعه من سماعهم ولم يأمرهم بالتصوير الصادق للحقيقة كما يراه افلاطون ونعلم ان هذا ليس من شغل الاديب الفذ والشاعر الممتاز •

فالفرق اذن قائم بين جمهورية افلاطون التى جف بها الجمال الفنى وذوى ودولة محمد ــ ص ــ التى قد يعفى فيها مجرم مسىء بأبيات شعر لان الشعر كان جيدا ولان قائله قد أجاد • فحين سمع محمد ــ ص ــ قول قتيلة بنت الحارث فى أخيها النضر الذى قتله محمد :

ما كـــان ضـــرك لو مننت وربمـــا
منّ الفتـــى وهـــو المغيظ المحنـــق

---

(١٣) الجمهرة ص ٣١٥ ــ ٣١٦ •
(١٤) ديوان حسان (مقدمة) •

والنصـــر أقرب من أصبت وســـيلة
وأحقهـــم ان كان عتـــق يعتـــق

فقال (ص) « لو سمعت هذا قبل أن أقتله لما قتلته »[١٥] .

اننا ـ لذا ـ نلاحظ أن السلطة الاسلامية فيما بعد لم تتدخل فـي حرية الشاعر حتى في حالة المهاجاة والمهاترة الشخصية كما حدث في هجاء جرير والفرزدق ، وما دام أحد الطرفين لم يتقدم الى الدولة لحمايته من الشاعر . أما شكوى الزبرقان الحطيئـــة الى عمر فالزبرقان رأى في قول الحطيئة هجاءا له فقدم الشاعر للسلطة ولم تر السلطة آنذاك ـ وقد صـح عندها هجاء الشاعر للزبرقان ـ الا أن تحكم على الشاعر بالسجن الذى لم يطل حيث أخرج الشاعر وألغى الحكم بعد أن رفع الشاعر ظلامتـــه الى الخليفة في قصيدة مدح واستعطاف .

كيف اذن نشأت هذه النظرة الخاطئة عن تحديد الاسلام للشعراء واضعاف أساليبهم ؟ ما أثر النظرية الدينية ونشأتها في ذلك ؟ ما هذه النظرية الدينية ؟ ما أثر القرآن في نشأتها ؟ ما أثر الفقهاء والفلاسفة في ذلك ؟

ان النظرية الدينية التى حددت للشعراء طريقهم لم يكن القـرآن مسؤولا عنها بالقدر الذى كان رجال الدين وأصحاب علم الكلام والفلاسفة المتأثرين بفلسفة افلاطون مسؤولين عنها .

أشار القرآن الى أن الشـــاعر يخلق ويصف ما ليس بحقيقى وأن الشاعر لعاجز تمام العجز على أن يجيد النطق بالحقائق التى لا شك فيهـا والتى افترضها القرآن بأنها من عمل الرسل والانبياء ووجائبهم .

ولو تفحصنا كلمة « شعر وشـــاعر وشعراء » في القرآن تردد في آذاننا هذا الصدى : وهو أن الشعراء ميدانهم خلق الصور وترتيب الاحلام وهذا أيضا ما كان يظنه بعض المعاصرين للرسول سواء أ كان ذلك سوف يثبت لهم ثقافة نقدية أم لا ؟

وقد وقعت كلمة (الشعر) في القرآن مرة واحدة فقال :

---

(١٥) الحماسة ج١ ص ٤٠٦ .

« وما علمنـــاه الشـــعر وما ينبغى له • ان هو الا ذكـــر وقـــرآن مبين »[٦١] •

فالقرآن المبين الموضح للحقيقة المطلقة هو غير (الشعر) الذى لم يكن هذا من عمله •

وقال : « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون »[١٧] •

فالقرآن فى نظر خصوم محمد بنى على غير الحقيقـــة كأضغـــاث الاحلام وكالشىء الذى يفترى ويختلق بل هو شىء مما يخلق الشـــاعر لماذا ؟ لان محمدا ــ ص ــ لم يأتهم بالحجة (المادية) التى يعجز الشعراء ومن لف لفهم أن يأتوا بها وان أطاقوا الكلام !

وقال : « انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون • تنزيل من رب العالمين »[١٨] •

فالقرآن لم يكن قـــول (شاعر) يلقى القـــول على عواهنـــه ولا قول كاهن يهذر ولكنه (تنزيل) •

كل هذه الآيات الكريمة ليس فيها تحديد للشاعر ولا تجريم فقهى ولا قاعدة خلقية تفرض على الشاعر أن يأخذ بشىء وأن يترك شيئا •

وبقيت لدينا آية خطيرة نشأت حولها النظرية الدينيـــة الفقهية فى القرون التالية للقرن الثانى والثالث وان لم تكن الأية نفسها لتفرض على الفن الشعرى تحديدا ما •

والآية الكريمة هى :

« والشعراء يتبعهم الغاوون • ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وانهم

---

(١٦) القرآن ٣٦ : ٦٩ •

(١٧) القرآن : ٢١ : ٥ •

(١٨) القرآن الكريم : ٦٩ : ٤٠ ــ ٤٢ •
وارجع أيضا الى : ٥٢ : ٣٠ •
و ٣٧ : ٣٦ •

يقولون ما لا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »[١٩] .

فالقرآن هنا لم يشأ أن يحرم ولم ترد كلمة « تحريم » أو ما هو فى معناه بالنسبة الى أى باب من الفن الشعرى اطلاقا . بل على العكس ، انا لنعجب كيف أباح الاسلام الدفاع عن النفس شعرا وأباح الهجاء للذين « انتصروا من بعد ما ظلموا » ولم يستطع واضعى هذه النظرية أن ينكروا ذلك[٢٠] .

وبقى علينا أن نرى ما هذه النظرية الدينية وان ذلك سوف يعكس لنا الحقيقة ان هذه النظرية لم تكن الا من عمل هؤلاء الفقهاء والمفسرين والفلاسفة المسلمين . ولم تمثل رأى الاسلام أو محمد ـ ص ـ أو القرآن فى الفن الشعرى اطلاقا .

فالنظرية تظهر تامة النضج فى القرن الخامس الهجرى فى كتاب (دلائل الاعجاز فى علم المعانى) للامام عبدالقادر الجرجانى المتوفى عام ٤٧١هـ وقد خصص الرجل فصلا لنقاشها وتسخيفها . ونعرض النظرية كما كانت على عهد عبد القاهر . فتحت عنوان : « فصل فى الكلام على من زهد فى رواية الشعر وحفظه وذم الاشتغال بعلمه وتتبعه » .

قال : « لا يخلو من كان هذا رأيه من أمور :

أحدهما ـ أن يكون رفضه وذمه اياه من أجل ما يجد فيه من هزل أو سخف وهجاء وسب وكذب باطل على الجملة .

والثانى ـ أن يذمه لانه موزون مقفى ويرى هذا بمجرده عيبا يقتضى الزهد فيه والتنزه عنه .

والثالث ـ أن يتعلق بأحوال الشعراء وانها غير جميلة فى الاكثر .

---

(١٩) القرآن ٢٦ : ٢٢٤ .

(٢٠) تفسير الطبرى : ج١٩ ص ٧٧ وما بعدها .
وتفسير الزمخشرى : ج٣ ص ٣٤٣ وما بعدها .
وتفسير الرازى : ج٦ ص ٣٩٦ وما بعدها .

ويقول قد ذموا فى التنزيل وأى كان من هذه رأيا له فهو فى ذلك على خطأ ظاهر وغلط فاحش وعلى خلاف ما يوجبه القياس والنظر وبالضد مما جاء به الاثر وصح به الخبر »[٢١] .

ولم تقتصر هذه النظرية على القسم الشرقى من العالم الاسلامى بل نسمع صداها فى الاندلس فى كتاب (الرد على النحاة) للنحوى الثائر ابن مضاء القرطبى (٥١٣ ـ ٥٩٢) . يقول ابن مضاء :

« وأما من اقتصر كل الاقتصار على المعارف التى لا تدعو الى جنة ولا تزجر عن نار كاللغات والاشعار ودقائق علل النحو ومسليات الاخبار فقد أساء الاختيار واستحب العمى على الابصار »[٢٢] .

فآية الشعراء التى احتج بها أنصار هذه النظرية نزلت فى الحقيقة فى حادثة محلية بعد أن هاجى رجل رجلا آخر والأية مدنية متأخرة فى سورة مكية وان وضع هذه النظرية ما هو الا لتقوية الفلسفة اليونانية وآراء افلاطون على حساب القرآن . ولو قصد القرآن الى ذم الشعراء والخلق الشعرى عامة لبكر فى ذلك ولانزل آية ناهية .

أما الطبرى فى تفسيره فقد حاول أن يعمم حكم الأية قائلا :

« ألم تر انهم فى كل واد يهيمون : يقول تعالى : ألم تر يا محمد انهم ـ يعنى الشعراء ـ فى كل واد يذهبون كالهائم على وجهه على غير قصد بل جائرا عن الحق وطريق الرشاد وقصد السبيل وانما هذا مثل ضربه الله فى افتتانهم فى الوجوه التى يفتنون فيها بغير حق فيمدحون بالباطل ويهجون كذلك بالكذب والزور »[٢٣] .

ولكن هناك رواية أخرى تقول ان القرآن انما عنى بذلك شعراء

---

(٢١) عبدالقاهر الجرجانى : دلائل الاعجاز فى علم المعانى . مصر ١٣٦٦هـ ص ٩ .

(٢٢) ابن مضاء القرطبى : كتاب (الرد على النحاة) . قاهرة ١٣٦٦/١٩٤٧هـ . ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(٢٣) الطبرى : ج١٩ ص ٧٧ وما بعدها .

المشركين فى قوله : « يقولون ما لا يفعلون » مما يضعف التعميم الذى مال اليه الطبرى[٢٤] ويقوى ردنا قول المفسرين فى (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) استثناء نزل فى شعراء النبى والاستثناء كما يبدو لنا معناه أن هؤلاء الشعراء مؤمنون وأصحاب عمل صالح لا أن شعرهم خال من الكذب الفنى والذى قيل عنه وعن شعر غيرهم من الشعراء : « ان أكثر قيلهم باطل وكذب »[٢٥] .

واذا حاول الطبرى ان يقنعنا بأن القرآن ذم فى الأية فن المدح الباطل والهجاء الذى يقصد به الاساءة . فالزمخشرى الفيلسوف المعتزلى حاول ان يضم الى ذلك : « النسيب بالحرم والغزل والابتهار (ادعاء الشىء كذبا)[٢٦] » .

وان هذا يجعلنا نعجب أكان هناك علاقة قائمة حقا بين الفيلسوفين افلاطون والزمخشرى فى وجهة النظر هذه ؟

وان هذه العلاقة الغامضة لتزيد وضوحا اذا رأينا ما فى النص التالى من وجوه الشبه بين نظرية افلاطون فى كتاب الجمهورية وقول الرازى فى تفسير « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا » . قال الرازى :

« استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلاوة القرآن وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر واذا قالوا شعرا قالوا فى توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة والزهد والأداب الحسنة ومدح رسول الله (ص) والصحابة وصلحاء الامة وما لا بأس به من المعانى التى لا يتلطخون فيها بذنب ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة »[٢٧] أليس هذا صدى لقول افلاطون :ـ

---

(٢٤) المصدر نفسه .

(٢٥) المصدر نفسه .

(٢٦) الزمخشرى : تفسير الزمخشرى ج٣ ص ٣٤٣ .

(٢٧) المصدر نفسه .

« وان كان ولابد من أن يكون هناك فن أدبى يسمح له فى البقاء فى الجمهورية فيجب ان نبق راسخى العقيدة بأن الفن الشعرى الوحيد الذى يسمح له فى دولتنا هو شعر مدح الألهة ومدائح الرجال الطيبين »[٢٨] .

أما الرازى فهو صدى لافلاطون وآرائه ويقف موقفا مشابها لافلاطون وحاجته الى شاعر واعظ .

فقد قال الرازى : ان الشعراء « لا يطلبون بشعرهم الحق ولا الصدق بخلاف أمر محمد (ص) فانه من أول أمره الى آخره بقى على طريق واحد وهو الدعوة الى الله والترغيب فى الأخرة والاعراض عن الدنيا »[٢٩] . وهذا لا ينتقص الشعراء ولا يزيد فى محمد (ص) شيئا لان عمل الشعراء هو غير عمل محمد (ص) وقد بين القرآن نفسه ذلك فى آيات متفرقة متعددة . فالشعراء ليسوا بأنبياء ومحمد (ص) ليس بشاعر وليس غرض الشعراء ان يؤدبوا أو يعلموا احدا ولا شك ان ذلك كان واضحا للرازى من شعر شعراء عديدين كأبى نواس وغيره . ويرى فى قوله تعالى (وذكروا الله كثيرا) ان معناه : « ان يكون شعرهم فى التوحيد والنبوة ودعوة الخلق الى الحق »[٣٠] ويرى الرازى ان شعر الشعراء يجب ان يعالج ما يأتى فقط :

١ ـ الايمان

٢ ـ العمل الصالح

٣ ـ ان يكون شعرهم فى الدين

ولا أدرى كيف استنتج الرازى كل ذلك من الأية الكريمة .

---

(٢٨) Plato: The Republic X. 607.

(٢٩) الرازى : تفسير الرازى ج٦ ص ٣٦٩ .

(٣٠) المصدر نفسه .

ومن حسن حظ الفن الشعرى ومن حسن حظ الادب والفنون قاطبة ان كثيرا مما قاله المشرعون فى الأداب والفنون لم يؤخذ به ولم يلتفت اليه وكيف يكون ذلك والانسان الذى يتمكن ان يتخلى عن عواطفه وميوله ونزعاته وغرائزه وآماله لم يخلق بعد وما أظنه سوف يخلق فى يوم من الايام •

دراسة مقارنة
بين الأكدية والعربية

لدكتور عبدالحليم النجار
الاستاذ المساعد المنتدب
فى قسم اللغة العربية

يرى علماء الساميات ان اللغة الاكدية من أقدم اللغات السامية التى صدرت عن الجزيرة العربية ، ويعدونها هى والمصرية القديمة أول فرعين تفرعا من الشجرة السامية اللغوية ، ثم أخذت كل منهما نموها المستقل فى حدود بيئتها الخاصة ، وضمن اطار الحياة السياسية ، والفكرية ، والاجتماعية ، التى أحاطت بها •

بيد أن اتصال الاكدية بمهدها الاول ، وكثرة اختلاط المتكلمين بها من أهل الجزيرة كانا من أهم العوامل التى ساعدت على احتفاظ هذه اللغة بالصورة السامية الاصلية على وجه أتم وأرجح من المصرية القديمة • ويبدو ذلك جليا فى رجحان الطابع السامى فى الاكدية على المصرية ، وقوة ظهور الخصائص السامية فى الاولى ـ افرادا وتركيبا ـ بمقدار لا يعرف فى الثانية بحيث تتفق الاكدية مع بقية الفروع السامية الحية أو شبهها فى كثير من النواحى ، أو تتقارب منها الى حد بعيد •

وربما كانت اللغة الاكدية قد حظيت فى مدارج نموها الاولى باصطناع الكتابة والتسجيل ، واختصت من ذلك بمزية لم يكد يشركها فيها غيرها من اللغات السامية الاخرى فى مرحلة تاريخها السحيق ، اذا استثنينا المصرية القديمة ، فقد يكون من حق علماء العربية ، أو من واجبهم ، أن يسبروا أغوار هذه اللغة ، وأن ينفذوا الى أسرارها ، ويكشفوا عن طبيعة تكوينها ،

ومسالك اشتقاقها وتصريفها ، وموازنة ذلك كله بما يشـــابهه فى غيرها من اللغات السامية ، لكى يمكن الحصول أخيرا على صورة كاملة أو شبه كاملة لمرحلة عظيمة الأهمية فى نمو لغتنا العربية ، لأ اخال اننا نستطيع النفاذ اليها من غير هذا السبيل •

وقد رأيت أن أشرع فى عرض بعض المحاولات لتحقيق هذا الغرض ، فى حلقات من الدراسات المتناثرة ، التى أرجو لها التوالى والتتابع ، عسى أن تؤلف بآخرة صورة متكاملة تعين المثقفين من قراء العربية على اســتجلاء طبيعة هذه اللغة ، ومعرفة تقاسيمها وملامحها •

١ ـ تكوين الفعل وطبيعته فى الاكدية

يتكون الفعل فى الاكدية من ثلاثة أحرف صامتة فى الغالب (وتدخل فى ذلك الهمزة) • وتسمى مجموعة الافعال المتكونة على هذا النحو : الافعال القوية • وهناك مجموعة أقل من ذلك ، تتكون من حرفين صامتين اثنين فقط ، مضافا اليها حرف مد ، وهذه تسمى : الافعال الضعيفة ، وتختلف فى قوالبها اختلافا قريبا أو بعيدا من المجموعة الاولى ؛ كما توجد مجموعة أقل كثيرا من الأخيرة ، تتكون من أربعة أحرف صامتة ، وأحيانا تشتمل هذه أيضا على حرف مد بدلا من الحرف الرابع الصامت •

ولكن عددا كبيرا من الافعال الثلاثية الحروف نشـــأ من أصل ثنائى أضيف اليه حرف صامت مميز ، يخصص المعنى الاساسى فى المادة الثنائية أو يحدده • وذلك كما فى الاصل : پ ر ، وهو يدل أســاســا على معنــى : فصل ؛ فقد أضيف اليه حرف ثالث فى الاول ، أو الوسط ، أو الآخر ، على صور مختلفة ، فنشأت الافعال التالية :

پ ط ر = فصل ، فسخ (وهو قريب من معنى : فطر ، فى العربية)•

پ ش ر = حل ، فك (والمراد المعنى المادى المحسوس ، وربما كان قد تفرغ منه فى العربية : فسر ، بمعنى الكشف ، والايضاح ونحوه) •

پ ر ر = افترق ، انفصل (وهذا المعنى موجود فى أساس معنى : فر ، بالعربية) •

پ ر س = فصل ، ميز (وهـذا المعنى موجود فى أســـاس معنى : فرس ، بالعربية ، يقال فرس الشيء فرقه ؛ وربما أيضا معنى : فرز الشـيء عزله ونحاه) •

پ ر ص = قطع (وفى العربية : فرص الشيء قطعه ، والجلد شقه ؛ وربما شابه أيضا معنى فرض فى العربية ، لان الصاد الأكدية تقابل الضاد العربية غالبا ، وفى العربية يقال : فرض الخشبة حزها ؛ وقد يكون : فرض الامر بمعنى قدره متفرعا من ذلك ، لان من يفرض الامر يتصوره ويلاحظه بعقله ، فهو يعينه ويجعل له علامة تشبه الحز فى الخشبة) •

پ ر ق = فرق ، قسم (وفى العربية : فلق ، فصل) •

پ ر ك = أغلق ، سد (وربما كان قد نشأ من ذلك : فرك ، بمعنى أبغض ، فى العربية ، لان البغض عزل واطراح لمن تبغضه كأنك جعلت من دونه سدا) •

پ ز ر = اختفى ، أخفى (وهو معنى يتضمن الفصل والانفصال ، وان حصل فيه تطور عقلى • وقد تكون العربية احتفظت بالمعنى الاصـلى ، ففيها : فرز الشيء فرزا شقه وفسخه وكسره ؛ كما انه قد يكون من معنى الكلمة فى الاكدية لفظ : فزورة ، بمعنى : أحجية أو لغز ، فى العاميـة الدارجة) •

ش پ ر = بعث ، أرسل (ومنه فى العربيـة مادة : سفر ، ومنهـا السفارة والسفير ••• الخ ، وفى أساس اشتقاقات المادة فى العربيـة معنى الرسالة والارسال) •

ط پ ر = أبعد ، طرد (وهذا المعنى موجود فى أساس معنى : طفر بالعربية ، وتراجع المادة) •

ك پ ر = فصل ، قص (وربما كانت من هذا المعنى مادة : كفر ، فى العربية ، فهى وان دلت على معنى التغطية والستر ، تشتمل فى أساسها على معنى الفصل والعزل) •

الى غير ذلك من الامثلة والشواهد التى يضيق المجال هنا عن تفصيلها •

وهناك سبب آخر أدى الى زيادة محصول الافعال فى الاكدية على ممر الازمنة ؛ وربما كان فى العربية أيضا ما يشبهه . وذلك هو صوغ الافعال من الاسماء الجامدة ، غير أن الغالب فى مثل تلك الأفعال ألا تكون ثلاثية مجردة ، بل مزيدة غير ثلاثية ، ويغلب فى الاكدية أن تكون مضعفة الحرف الاوسط ؛ وان وجد أيضا عدد قليل جدا من الثلاثى .

فمن الثلاثى مثلا الافعال :

ب ى ت = بات (مشتق فى أغلب الظن من لفظ بيت ، لتقدم معنى البيت غالبا فى الوجود) .

م خ ر = قبل ، قابل ، استقبل (مشتق فى أغلب الظن من لفظ : mahnu = وجه الشىء ، والصفحة التى تواجهك) .

ش پ ل = سفل بفتح الفاء وضمها (مشتق فى أغلب الظن من لفظ : saplu = تحت ، الجانب الاسفل ، ويلاحظ تشابه المادة فى الاكدية والعربية لفظا ومعنى) .

ومن المضعف مثلا :

المصدر : upullum (= ورث ، مشتق فى الغالب من الاسم : aplu = الابن الوارث) .

المصدر : ruggubum (= سقف [البيت مثلا] ، مشتق فى الغالب من الاسم : rugbum = سقف) .

المصدر : kullulu (= توج ، مشتق غالبا من الاسم : kululu = تاج ، اكليل) .

المصدر : sunnum (= قص ، حكى ، مشتق غالبا من الاسم : sena ، sina اثنان ، وفيه معنى التثنية والتكرار ، وانظر فى نحو ذلك لفظ : مثانى ، فى العربية ، وتفسير قوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعا من المثانى ») .

المصدر : sullusum (= ثلث ، كرر ثلاث مرات ، مشتق عالبا من الأسم : salasum = ثلاثة) •

وأمثلة هذا الباب كثيرة • ويبدو أن هذا النحو من الاشتقاق الفعلى حصل من توليد الذوق اللغوى العام ، كما جرى مثل ذلك كثيرا فى العربية • أنظر من الصنف الاول مثلا : باب يبيت ، فالغالب ان أصل اشتقاقه أيضا من : البيت ؛ وذرع يذرع = قاس ؛ الذراع ؛ ورمح يرمح = طعن بالرمح ؛ وقبس يقبس = أوقد ، من القبس ، وأصله فى المصرية القديمة : خبس ، بمعنى : مصباح ••• الخ • والصنف الثانى أيضا كثير فى العربية ، بل بل يلاحظ أن التوليد فيه دائم مطرد الى عصرنا هذا فى العامية ؛ ومن ذلك : دون يدون ، من الديوان ؛ وسجل يسجل ، من السجل ؛ وبوب يبوب ، من الباب ؛ وصنف يصنف من الصنف ؛ وطرز يطرز ، من الطراز ؛ وجنق يجنق ، من المنجنيق ؛ ودنر وجهه = أشرق كالدينار وكثير غير ذلك •

بل توسعت العربية فى اشتقاق الأفعال من الأسماء على صيغ أخرى غير الثلاثى والمضعف ، مثل : ألجم الفرس ، من اللجام ؛ ومثل : زندق ، وتزندق ؛ ونورز ؛ ودرهمت الخبازى أى صارت كالدراهم ؛ ومثل : تحجر ؛ وتجسم ؛ وتجسد ؛ وتجمد ؛ واستأسد ؛ واستنسر ؛ واستنوق الجمل ؛ وشرح ذلك يطول •

وهذا ونحوه نمو واقعى ملموس فى اللغات ، لا علاقة له بنظريات النحاة العرب فى أصل الاشتقاق هل هو المصدر أو الفعل ، على اختلاف رأيى البصريين والكوفيين فى ذلك • وقد يمكن قبول مثل هذه النظريات اذا كان المراد بها وضع ضوابط تعليمية ، وقواعد منظمة للغة وموادها وصيغها ؛ أما اذا نظرنا الى الواقع الفعلى ، ولاحظنا التدرج الطبيعى المقتضى لتقدم المادة على الحدث ، والمحسوس على المعقول ، فقد يكون ذلك مقتضيا لرجحان أن كلا من المصدر والفعل مشتقان جميعا ـ فى بادىء الامر ـ من اسم جامد محسوس المعنى ، تفرعت منه الاشتقاقات الفعلية ومصادرها ،

وفروعها الصرفية ؛ كما تفرعت من معناه أسماء المعقولات والمدارك النظرية ، تبعا لاتساع اللغات وتقدم أفكار الناطقين بها •

٢ ـ تقسيم الفعل فى الاكدية

هناك نوعان من الصيغ الفعلية ، أى الصيغ الدالة على الحدث ، فى الاكدية :

١ ـ صيغ فعلية تامة ، وهى تقابل الافعال المعروفة فى العربية • وهذه الصيغ لها تقسيمات متعددة باعتبارات مختلفة ، نقتصر هنا على ذكر أهمها :
فهى تنقسم من حيث الزمن أو ما يشبهه (Tempora) أربعة أقسام :
أ ـ الافعال الدائمة • ب ـ أفعال الحال أو الاستقبال • جـ ـ أفعال الماضى المنقطع • د ـ أفعال الماضى المستمر •
وتنقسم الافعال الاكدية أيضا باعتبار دلالتها الفعلية ذاتها Modi أربعة أقسام كذلك :
أ ـ أفعال الوقوع • ب ـ أفعال الامكان • جـ ـ أفعال الطلب • د ـ فعل الحركة والاتجاه •
ولكل هذه الافعال ـ كما فى العربية ـ دلالات مختلفة أخرى ، بالنظر الى العدد ، والجنس ، والشخص • فهى تدل فى الاصل على ثلاثة أنواع من العدد : المفرد ، والمثنى ، والجمع ، ثم اقتصرت ـ فيما بعد ـ على المفرد والجمع • وهذا طبعا باستثناء فعل الامر وما يشبهه •
وهى تدل على نوعين من الاجناس فقط كالعربية وغيرها من الساميات ، وهما المذكر والمؤنث ؛ ولا مكان للمحايد كما فى اللغات الهندية ـ الجرمانية •
ثم هى تدل أخيرا على ثلاثة أنواع من الاشخاص : المتكلم ، والمخاطب ، والغائب •

٢ ـ أما صيغ الافعال الناقصة ، وهى تقابل الاسماء العاملة عمل الفعل فى العربية ، فهى فى الاكدية : المصدر ، واسم الفاعل ، والوصف الفعلى •

٣ ـ الزمن فى الفعل الاكدى

تتنوع صيغ الافعـــال الاكدية تنوعا تتبـــادر منـه دلالات زمنيـة مختلفة • غير أن هذه الصيغ ـ كما يبدو ـ لم تكن تدل فى أصل وضعها على مراتب زمنية تختلف كل منها بالنسبة الى الاخرى كما يظهر ذلك الاختلاف فى اللغة الهندية ـ الجرمانية • بل ربما كانت هذه الصيغ تدل فى أصـل وضعها على تنوع مختلف فى كيفية وقوع الحدث ، أو فى وجه وقوعه •

فالاول كاختلاف وقوع الحدث بين انتهاء وقوعه ، أو مباشرة ايقاعه ، أو انتظار وقوعه ، أو المبالغة فى ايقاعه ، أو نحو ذلك بصرف النظر عن افادة ما يقتضيه كل ذلك من الزمن •

والثانى كالاختلاف بين افادة وقوع الحدث فعلا ، أو امكان وقوعه ، أو طلب وقوعه ، أو ما شاكل ذلك •

على أنه لا يمكن الجزم بعـــد بمدلولات الافعال الاصلية وتحـــديد مقاصدها ، لا سيما بالنسبة الى الزمن • وذلك لفقدان أكثر النصوص الاولى التى يمكن أن يستعان بها على تحقيق ذلك • ولكن صيغ الافعال انتهت فى الاستعمال اللغوى للاكدية القديمة (مثل لغة حمورابى وعصره) الى نظام كامل يمكن اتخاذه أساسا لدراسة الزمن التاريخى فى تلك الافعال •

وعلى ذلك يمكن تقسيم الافعال الاكدية من حيث الزمن الى أربعـــة أنواع كما سبق : الافعال الدائمة ، وأفعال الحال أو الاستقبال ، وأفعـــال الماضى المنقطع ، وأفعال الماضى المستمر أو المتصل •

ا ـ الفعـــل الدائم

وهذا الفعل الدائم Permansiv أو Stativ يختلف اختلافا واضحـا عن الافعال المعروفة في بقية اللغات السامية ، كما يختلف عن بقية الافعال فى الاكدية نفسها • ومرجع هذا الاختلاف الى صيغته ، وطريقـة تصريفه أولا ، ثم الى معناه وأسلوب استعماله •

فأما صيغته فان هذا الفعل يمكن صوغه من الاسماء والافعال جميعا :

فكل اسم يمكن أن يكون فعلا دائما ، على شرط أن يكون هذا الاسم دالا على الشخص ، لا مجرد الوصف أو المعنى ، ويغلب أن يكون هذا الشخص هو شخص الغائب ، لا المتكلم ولا المخاطب ، لا سيما في الاستعمال القديم ، أما في الاستعمال المتوسط أو المتأخر فقد أسند الى جميع الاشخاص والاجناس ؛ كذلك يغلب أن يصاغ الفعل الدائم من لفظ المفرد لا الجمع •

وسواء أكان الاسم المستعمل فعلا دائما يدل على ذات الشخص فقط ، مثل : aurlu = انسان ؛ zikaru = رجل ؛ sinnisu = امرأة ؛ sarru = ملك ؛ abu = أب ؛ أم كان يدل مع ذلك على وصف ، وهذا هو الغالب ، سواء أكان الوصف فعليا أي على صيغة اسم الفاعل أو نحوه ، أم كان غير فعلي ، فالفعلي نحو : pasiru = الذي يحل أو يفك ؛ muskenu = التابع ، العامل ، الموظف ••• الخ •

وغير الفعل نحو : sehheru = صغير ؛ remenu = رحيم ؛ dandannu = قوي •

والذي دعا الى نظم هذا النوع من الصيغ في سلك الافعال لا الاسماء هو طريقة تصريفه المشابهة لتصريف الفعل من بعض الوجوه أولا وبالذات ، ثم ما يفيده مع ذلك من الاعتبارات الزمنية التي لا تستفاد من الاسم مجردا عن قرائن زمنية أخرى •

تختلف طريقة تصريف الفعل الدائم عن تصريف بقية الافعال من ناحية ، وتتفق معها من ناحية أخرى • فتختلف عن بقية الافعال في أن الفعل الدائم لا تلحق بأوله فواتح الفعل التي تشبه أحرف المضارعة في العربية ، والتي هي مطردة في بقية الافعال الاكدية غيره ، حتى في الافعال الماضية ، فهذه الاحرف لا تختص في الاكدية بالافعال المضارعة كما هو الشأن في العربية • ويستثنى فعل الامر بطبيعة الحال في اللغتين •

ولكن الفعل الدائم يتفق مع بقية الافعال فى اسناد ضمائر الرفع المتصلة اليه ، كما تسند هذه الضمائر الى الفعل الماضى فى العربية •

ولنذكر هنا جدولا يبين كيفية اسناد ضمائر الرفع الى الفعل الدائم ، مع بيان تحول الاسماء على اختلافها الى أفعال دائمة :

اسم الذات : zikaru = رجل

اسناده الى الضمائر

zikaraku = كنت أو أكون رجلا
zikarata = كنت أو تكون رجلا
zkarati = كنت او تكونين رجلا
zikar = كان او يكون رجلا
zikarat = كانت أو تكون رجلا
zikaranu = كنا أو نكون رجالا
zikaratunu = كنتم أو تكونون رجالا
zikaratina = كنتن أو تكن رجالا
zikaru = كانوا أو يكونون رجالا
zikara = كن أو يكن رجالا

اسم الصفة غيرالفعلى sehheru = صغير

اسناده الى الضمائر

sehheraku = كنت أو أكون صغيرا
sehherata = كنت أو تكون صغيرا
sehherati = كنت أو تكونين صغيرة
sehher = كان أو يكون صغيرا
sehherat = كانت أو تكون صغيرة
sehheranu = كنا أو نكون صغارا
sehheratunu = كنتم أو تكونون صغارا
sehheratina = كنتن أو تكن صغيرات

اسم الصفةالفعلى : pasiru = حل أويحل

اســـناده الى الضمائر

sehheru = كانوا أو يكونون صغارا
sehhera = كن أو يكن صغيرات
pasiraku = حللت أو أحل
pasirata = حللت أو تحلن
pasirati = حل أو يحل
pasir = حللت أو تحل
pasirat = حلت أو تحل
pasiranu = حللنا أو نحل
pasiratunu = حللتم أو تحلون
pasiratina = حلوا أو يحلون
pasiru = حللن أو يحللن

ومن طريقة التصريف ، أو اسناد الضمائر كما سبق ، يتبين السـبب الذى من أجله نظمت هذه الصيغ فى سلك الافعال لا الاسماء ، فهى تتصل من ناحية بضمائر الرفع مباشرة • ولا يقال ان هذا الاتصال يمكن أن يكون على سبيل الاسناد الخبرى ، بتقديم الخبر على المبتدأ ، كما نقول فى العربية : رجل أنت ، ورجل أنا ••• الخ • لانه لو كان الامر كذلك لوجبت المطابقة بين المبتدأ والخبر ، وهي هنا مفقودة ، فصيغة الفعل الدائم مفردة فى جميع الاحوال مع اختلاف الضمائر •

ومن جهة أخرى يفيد الفعـل الدائم ما يشـــه المعنى الزمنى ، وهو ما عبرنا عنه بلفظ : كنت أو أكون ، حسب مقتضيات الاحوال • وهذا المعنى مصدره هو الاسناد الفعلى كما يتجلى بوضوح فى اسم الذات والصفـــة غير الفعلية وان كانت الصفة الفعلية تفيده بمجرد الصيغة كما هو شأن اســم الفاعل فى العربية •

غير أن الفعل الدائم لا يشارك الفعل فى افادة تجدد الحدث أو الوصف، بل يقصد منه افادة ثبوتهما فحسب ، وليكن ذلك بطبيعة الحال فى زمن ما ، بصرف النظر عن المضى أو الحال أو الاستقبال • ففرق واضح بين الفعـل

الدائم مثلا : baltaku: كنت أو أكون متصفا بالحياة ، وبين الفعل الماضى : iblut حييت ، أو المضارع : iballut : أحيا وسأحيا ، لان فى الفعلين الاخيرين معنى التجدد والحدوث بعد العدم ، أما فى الاولى فالمعنى المقصود هو الاتصاف بالحياة بقطع النظر عن التجدد أو الحدوث • وفى هذا وجه تسمية هذا الفعل بالفعل الدائم ، أى أنه يفيد ثبوت الوصف لا تجدده ، سواء أ كان هذا الوصف فى نفسه دائما ملازما كما هو الحال فى الصفة المشبهة فى العربية ، أم عارضا مفارقا كما هو الشأن فى اسم الفاعل فى العربية •

ومن الغريب فى هذا الصدد أن الامام أبا زكريا يحيى بن زياد الفراء النحوى الكوفى ذهب أيضا الى أن قوة علاقة اسم الفاعل بالفعل هى أحرى بأن تجعله من قبيل الافعال لا الاسماء ، وأنه سماه لذلك أيضا بالفعل الدائم ، وهى تسمية لها جذر عميق فى الاكدية كما نرى (وانظر فى رأى الفراء وتسميته كتاب : مدرسة الكوفة ، للدكتور مهدى المخزومى ص ٢٧٧ وما بعدها) •

على أنه يمكن توضيح الفروق بين الفعل الدائم فى الاكدية وبين اسم الفاعل فيما يلى :ـ

١ ـ الفعل الدائم يتصل بضمائر الرفع مباشرة كما فى الجدول السابق •
٢ ـ لا يلتزم الفعل الدائم الاشتقاق من الفعل ، فقد يكون اسم ذات ، أو اسم صفة ، كما يشتق أيضا من الفعل •
٣ ـ اذا اشتق الفعل الدائم من الفعل جاء من الثلاثى فى الغالب على وزن : فعل ، كفرح ومرح ؛ كما يجىء كثيرا على وزن : فاعل أيضا • أما من غير الثلاثى فله أوزان مختلفة بعضها على وزن اسم الفاعل من غير الثلاثى • وليس هنا محل بيان ذلك •
٤ ـ يتميز الفعل الدائم بافادة الاتصاف بالوصف على وجه ثبوته لا حدوثه وتجدده • وربما كان أشبه فى ذلك بالصفة المشبهة منه باسم الفاعل

فى العربية • بل ربما كان الفعل الدائم أقوى شبها بالمنسـوب على فاعل ، فى مثل : لابن وتامر ، أى ذو لبن وذو تمر •

وبملاحظة هذا الشبه الاخير يتيسر فهم هذه الحقيقة الثابتة فى الاكدية ، وهى أن كثيرا من الافعال الدائمة تدل على معنى الفعل المبنى للمجهول ؛ وذلك لانه لما كان معنى هذه الافعال هو ثبوت الحدث على معنى اتصـاف صاحبه به ، كان سواء من الامر أن تكون الصفة صادرة عن الموصوف ، أو قائمة به ، أو واقعة عليه ؛ فالمهم هو افادة أن الموصوف هو ذو الصفـة فحسب ، وعلى ذلك يكون كل من الضارب والمضروب مثلا متصفا بأنه : ذو ضرب •

ولذلك كان الفعل الدائم على وزن فعل فى الاكدية تارة بمعنى المعلوم وتارة أخرى بمعنى المجهول • فمثلا لفظ : paris ، معناه محسوم مفصول فيه ، من : parasu بمعنى الحسم والفصل ؛ بخلاف لفظ ahiz مثلا ، بمعنى آخذ ، حاصل على الشىء ، من : ahazu بمعنى الاخذ • وربما كانت هذه الصيغة ، صيغة فعل ، أقرب شبها فى ذلك التردد بين المعلوم والمجهول بصيغة : فعل ، للمبالغة فى العربية ، نحو كريم وحكيم بمعنى المعلوم ، ونحو قتيل وجريح بمعنى المجهول • فالامر المشترك بينهما ـ كما بينا ـ هو افادة أن الموصوف ذو هذه الصفة وصاحبها ، سواء أكان ذلك على وجه الفاعلية أم المفعولية •

وان كان يمكن أن يقال ان الفعل الدائم اذا جاء على وزن : فاعل ، لزم الدلالة على المعلوم بالمراد •

ب ـ فعل الحال او الاستقبال

وهذا الفعل (Imperfekt - Durativ - Praseus) يدل فى وضعه ـ كما يبدو ـ على وقوع حدث يمتد زمنه فى مدة معينة ، دون تحديد لمرتبة هذه المدة بين مراتب الزمن المختلفة •

ومن ثم سماه بعض اللغويين Durativ أى فعل الاستمرار • وفى ضوء هذا المعنى يفسر هؤلاء اللغويون ما اختص به هـذا الفعل من ظاهرة

تكرار الحرف الاوسط منه فى الاكدية اذا صيغ من الثلاثى مثلا • فصيغته من الثلاثى المجرد من مصدر : parasu مثلا كما يلى :

aparras = أحسم	niparras = نحسم
taparras = تحسم	taparrasu = تحسمون
taparrasi = تحسمين	taparrasa = تحسمن
iparras = يحسم	iparrasu = يحسمون
taparras = تحسم (هى)	iparrasa : يحسمن

فكان تضعيف الحرف الاوسط أريد به افادة استمرار الفعل ، ووقوعه على وجه متصل متجدد •

وقد يصاغ هذا الفعل من مادة لفظية تدل على معنى الاحوال الثابتة الدائمة ، كالالفاظ الدالة على الحسن ، أو الحياه ، أو انطيبة • فهو فى هذه الحالة يقترب فى معناه من الفعل الدائم • غير أن الاخير يدل على ثبوت الوصف فحسب ، بقطع النظر عن معنى تجدده واستمراره المتصل ، بخلاف فعل الحال أو الاستقبال الذى يفيد معنى التجدد المستمر فى الاتصاف بالحدث •

فمثلا الفعل الدائم : balit ، معناه : كان أو يكون متصفا بالحياة وثبتت له هذه الصفة ، أما فعل الحال :iballut ، فمعناه : يكون حيا أو يصير حيا ، أى يحصل له هذا الحدث وهو الحياة ، وان كان ذلك على سبيل الاستمرار والدوام المتجدد باتصال •

وكذلك الفعل الدائم : damiq ، معناه . كان أو يكون متصفا بالحسن ، بخلاف : idammiq ، فمعناه : يحصل له وصف الحسن وان كان على سبيل التجدد المستمر •

على أننا نجد هناك أفعالا وردت على صيغة فعل الحال • ولكنها تتفق مع الفعل الدائم فى المعنى أيضا ، مثل : ide = يعلم ، isu = يملك ،

ونحوهما من الافعـــال الدالة على صفات راســـخة أو لازمة لا تقبل معنى التجدد • ومثل هذه الافعال قليلة ، وهى تسمى لذلك بالافعال الدائمة على صيغة فعل الحال أو الاستقبال ، أو الافعـال الدائمة المبـــدوءة بأحرف : أنيت •

بقيت دلالة هذا الفعل على الزمن ، وقد سبق أن ذكرنا انه يدل على وقوع الحدث فى زمن ممتد ، دون تحديد لمرتبة هذا الزمن • وقد نجد فى مختلف الاستعمالات اللغوية لهذا الفعل ما يؤكد ذلك •

نعم يقابل هذا الفعل فى العربية الفعل المضـــارع المخصص للحال أو الاستقبال • ولكنا نجده فى الاســـتعمال يتمحض أحيانا للحال ، وأحيـــانا للاستقبال ؛ وتارة يفيد حدثا مجردا عن الزمن بالكلية ، وتارة أخرى يفيد الاستمرار فى الزمن الماضى ؛ وطورا يدل على المضى المنقطع ، وطورا آخر على ما ينبغى أن يكون ، أو على الاستفهام عما يكون ، أى على امكان الوقوع فى المستقبل •

أ ـ ورد متمحضا للحال فى مثل :

يأكلون الآن ikallu وهو لا يسعل الآن inanua ul igen nih

ب ـ ورد متمحضا للاستقبال فى مثل :

سيقول igabbi لن يرجع : ul itar وخصوصا فى الافعال الدالة على معنى الاذن ، نحو (يؤذن أو يجوز له أن) يدخل : irrub

جـ ـ ورد مجردا عن معنى الزمن ، فى مثل :

أحد ما لا يحسم mamma ul iparras

وهذا كثير فى الامثال ، والقوانين ، وكلمـات العبادة ونحوها مثـل :

يقتل iddak

د ـ ورد للاستمرار فى الماضى ، نحو :

اعتدت أن أعطيهم anaddinsunusim:

الذى اعتاد قبلا أن يسعل sa pana igennihu

ومن هذا الباب فعل الحكاية على زنة الحال أو الاستقبال ، نحو :

ذهب illak زاد ، أضاف ussab:

هـ ـ ورد فى الماضى المنقطع ، نحو :

لم يقبلوا ul imahharu:

ز ـ ورد فى الدلالة على ما ينبغى أن يكون ، نحو :

ينبغى أن يعطى inddin: ينبغى أن يرسل isappar:

وفى الاستفهام ، نحو :

من (يمكن أن) يخبره mannu igabbassu:

الى غير ذلك من الدلالات • ففعل الحـال يدل على ما ذكر وان كان السياق هو الذى يحدد فى كل حالة ما يناسبها • فربما صح هذا دليلا على ما سبق ، وهو أن طبيعة هذا الفعل تدل فى أصل الوضع على وقوع الحدث فى زمن ممتد غير معين •

ج ـ فعل الماضى المنقطع

وهذا الفعل (Punctual ; Perfekt ; Prateritum) يدل فى أصل وضعه ـ كما يبدو ـ على وقوع حدث آنى عابر منقطع (Punctual) ؛ ويقابله فى العربية فعل الماضى أيضا ، فمعنى : ضرب ، كتب ••• الخ ، أن الحدث وقع وانتهى ، دون استمرار زمنى أو دوام • فهو فى حقيقته يدل على كيفية من كيفيات وقوع الحدث ، وهى انقضاؤه وانتهاؤه •

ومن ثم لزم أن يجعل هذا الفعل خاصا بالزمن الماضى ، بقطع النظر عن تعيين مرتبته فى دائرة ذلك الزمن ، ودون تفرقة بين أن يكون ما دل عليه من الحدث قد انتهى بعد مدة طويلة متراخية ، أو فترة منقضية عابرة ، فقد مضى وانتهى على كل حال ، والماضى أيا كان لا يساوى فى نظر المتكلم أكثر من لحظة زائلة ، مهما اتسع وقت حصوله وامتد .

واذا فالظاهر أنه لا دلالة فى أصل هذا الفعل على الزمن ، وانما استفيد الزمن منه لزوما واقتضاء . ومن أدلة ذلك أنه استعمل فى حالات كثيرة دالا على مجرد وقوع الحدث غير مقيد بزمن ما . ويحسن قبل ذكر شواهد من تلك الاحوال أن نذكر صيغة هذا الفعل من الثلاثى المجرد فى الاكدية . فصيغة الماضى من المصدر الثلاثى المجرد : Perfect مثلا كما يلى .

aprus	: حسمت	niprus	: نحسم
taprus	: حسمت	taprusu	: تحسمون
taprusi	: حسمت	taprusa	: تحسمن
iprus	: حسم	iprusu	: يحسمون
taprus	: حسمت	iprusa	: يحسمن

ومن أحوال هذا الفعل استعماله فى الدلالة على الرجاء والتمنى . وهو الاداة المذكورة الا فى حالتى الغيبة بكثرة ، أو التكلم بقلة ، أما فى حالة حينئذ يسبق بالاداة : lu بمعنى : لو ، ولم يرد استعماله فى هذا المعنى مع الخطاب فلم يرد أصلا . ففى حالة الغيبة كثر فى الاستعمال تغليب كسرة أول الفعل على ضمة آخر الاداة ، فنشأ من ذلك كسرة ممدودة :

liprus بدلا من : lu - prus ، بمعنى : لو حسم (الامر ، أى وددت لو حسم الامر) أما فى حالة الخطاب فالشائع فى البابلية غلبة ضمة الاداة على الفتحة فى أول الفعل ، وفى الآشورية غلبة فتحة الفعل على ضمة الأداة ، فيقال :

laprus بدلا من : lu - prus فى البابلية ، و : la prus فى الآشورية •

ويلاحظ أن معنى الرجاء يتعلق بمجرد حدوث الفعل ، دون تقيد بالزمن ، الا بقرينة • كذلك من أحوال هذا الفعل استعماله فى التعليق الشرطى ، نحو :

اذا تزوج رجل امرأة ••• الخ summa awrlum naditam ihiz

وهذا التعليق كما فى العربية : اذا جاء نصر الله والفتح ؟ اذا جاءك المنافقون قالوا ••• الخ • فالملاحظ فى مثل ذلك افادة توقف وقوع الجزاء على وقوع الشرط بقطع النظر عن تحديد الزمن •

وهناك أحوال أخرى لا مجال هنا لتفصيلها ، يظهر فيها تجرد صيغة الماضى من الدلالة الزمنية ، ورجحان أن معناه هو افادة تحقق الوقوع فحسب • وربما أشبه ذلك ما قيل فى قوله تعالى : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » من أن الغرض هو افادة وقوع الحدث وأنه حاصل ضربة لا زب •

بقى أن ننبه الى ما ظهر فى صيغة الفعل الماضى فى الاكدية من شبهه بالمضارع فى العربية من حيث الوزن ، والابتداء بحروف : أنيت • وقد يكون فى وجه الشبه الاخير تأكيد لان حروف : أنيت انما هى رموز مختصرة من الضمائر للدلالة على تعيين الاشخاص التى يسند اليها الفعل ، بقطع النظر عن الدلالة الزمنية •

وقد تكون العربية حاولت أن تخطو خطوة الى الامام فى افادة الزمن حين فرقت بين الماضى والمضارع فى افادة تعيين الاشخاص المسند اليها الفعل ، فأسندت الماضى الى ضمائر متأخرة عن الفعل ، ودلت على المسند اليه فى المضارع برمز متقدم عليه يشير اليه •

ومعنى ذلك أن الفعل فى الماضى يتقدم زمنا فهو يحصل أولا ثم يضاف بعد وقوعه الى الضمائر ويجعل الترتيب اللفظى دليلا على ذلك الترتيب

الزمنى ، كما أن الترتيب اللفظى فى المضارع ، بتقديم رمز الضمائر على الفعل ، دليل على تأخر الفعل المسند اليه •

وعلى ذلك يكون معنى : ضربت ، أن الضرب حصل أولا ثم أسند الى المتكلم ، ومعنى : أضرب ، أن المتكلم موجود ، ثم يلحق به معنى الضرب الذى يحصل الآن أو بعد الآن •

واذن فللترتيب اللفظى دلالة مقصودة فى العربية ، وهى التفرقة الزمنية التى بيناها •

د ـ الماضى المتصل

وهذا نوع من الافعال يتميز بدلالة زمنية خاصة تنشأ من ادخال زيادة فيه لم يعهد دلالتها على الزمن فيما عدا ذلك • وهو من هذه الوجهة مختص بالاكدية لا يشركها فيه غيرها من اللغات السامية وأول من تنبه الى وجوده فى الاكدية هو المستشرق B. Landsberger الذى سماه pefect وتبعه غيره مثل : San Nicolo ; Oppenheim ; Goetee.

ولكن دراسة هذا الفعل لم تستكمل بعد ، لقلة النصوص التى يستعمل فيها من ناحية ، ولتشابهه من ناحية أخرى فى بعض الاحيان مع الفعل المزيد بالتاء المشبهة لتاء الافتعال ، وان كان الغالب عند صياغة هذا الفعل من الفعل المشتمل على تاء الافتعال هو الجمع بين التاءين ، تائه وتاء الافتعال •

وصيغة هذا الفعل تنشأ من زيادة المفطع :ta — بعد الحرف الاول من الفعل الثلاثي ، الذى يسمى فى أوزان العربية : فاء الكلمة • فصيغته من المصدر الثلاثى المجرد : parasu مثلا ، كما يلى :

aptaras = حسمت الآن	niptaras = حسمنا الآن
taptaras = حسمت الآن	taptarasu = حسمتم الآن
taptarasi = حسمت الآن	taptarasa = حسمتن الآن
iptaras = حسم الآن	iptarasu = حسموا الآن
taptaras = حسمت الآن	iptarasa = حسمن الآن

وطبيعة هذا الفعل ، المقترن بالتاء على هذا النحو ، هى الدلالة على حدث منته أو مفروض انتهاؤه مع اتصاله بالزمن الحالى ، ومن ثم يقع كثيرا بعد

الظرف الدال على الحال ، مثل : inanna : الآن ، نحو :

أرسلت اليك الآن inanna attardakkum

غير أنه يستعمل أحيانا أيضا فى الدلالة على ترتيب وقوع الحدث على حدث آخر فى الزمن الماضى ، نحو :

اشتريت (منهم) ثم طلبوا منى الرجوع (فى البيع)

asam - ma ibtagruninni

بل يكثر دلالة هذا الفعل على مجرد ترتب وقوع الحدث على حدث آخر فى المستقبل ، أو على سبيل الافتراض والامكان ، كما اقترن بالظروف الزمنية الدالة على الحال أو الاستقبال ، وكما اذا استعمل فى التعليق الشرطى نحـــو :

اذا ... فرض أن (أحدا) اقترف خطيئة summa ... hititum ittafsi.

وان كان يلاحظ بوجه عام أن هذا الفعل لا يستعمل أصلا فى السؤال والاستفهام ، لعدم افادتهما تحقق الوقوع وانتهاءه ، وان استعمل فى النفى ، فانه يدل حينئذ على عدم تحقق الوقوع .

ومهما يكن من أمر فهناك اضطراب كبير فى استعمال هذا الفعل يحول دون القطع بتحديد معناه الزمنى ، وهل هو قسم مستقل بنفسه من أقســـام الفعل ، أو هو بالاحرى استعمال خاص ببعض صيغته ، كصيغة الافتعال مثلا .

وربما أمكن أن نتعرض لبيان ذلك مفصلا فى حديث آخر ، كما ينبغى افراد كل نوع من أنواع الفعل الاكدى ، ما ذكر منها وما لم يذكر بعـــد ، بفصل خاص يبين صيغه ، وطرق تصريفه ، ومسالك اشتقاقه ، وفى هذا القدر كفاية لالقاء نظرة اجمالية على طبيعة الفعل الاكدى .

مصادر البحث

A. Ungnad, Grammatik des Akkadischen, 1949.
F. Delitzsch, Assyrische Grammatik, 1908.
W. von Soden, Grundriss der Akkadischen Grammatik, 1952.
C. Brockelman, Grundriss d. vergl. Grammatik d. Sem. Sprachen, 1908—13.

ملاحظة :ـ لم نستطع طبع الكلمات بالحروف اللاتينية مضبوطة لعـــدم وجود العلامات الكافية فى المطبعة . (المجلة)

التخطيط الاقتصادى
نظرياً وتطبيقاً

الدكتور عبدالرحمن الحبيب
مدرس علم الاقتصاد

١ ـ مفهوم التخطيط الاقتصادى ، ٢ ـ اهداف التخطيط الاقتصادى ، ٣ ـ هيكل التخطيط الاقتصادى ، ٤ ـ مراحل التخطيط الاقتصادى ، ٥ ـ مشكلات التخطيط الاقتصادى ، ٦ ـ التخطيط وتطوير العراق الحديث ، ٧ ـ خلاصة واستنتاجات .

١

مفهوم التخطيط الاقتصادى (١)

يعنى التخطيط الاقتصادى Economic Planning عدة أشياء ويختلف فهمه بالنسبة لاختلاف الافراد واختلاف الاحوال التى يذكر فيها . والتخطيط عملية معقدة ذات وجوه متعددة مما يجعل من الصعب تعريفه وجعله موضوعا بسيطا محدودا ثابت الصفات . وهذا الامر يقود المرء الى القول بان التخطيط الاقتصادى يكتشف ويميزه واقعيا ولا يعرف . ويمكن أن يطرق موضوع التخطيط الاقتصادى فى سبيلين مختلفتين . أولاهما تبحث التخطيط من الناحية المحددة وتركز هذه الدراسة على نوع معين من اقتصاديات البلد تتميز بالاقتصاد المخطط أو التخطيط المركزى . ويمكن أن يعتبر هذا

---

(١) انظر John E. E. Elliott, "Economic Planning Reconsidered," The Quarterly Journal of Economics, Vol. LXXII, No. 1 (February, 1958), 55-76; William N. Loucks and J. Weldon Hoot, Comparative Economic Systems (New York: Harper and Brothers, 1952), pp. 292-295.

النوع ظاهرة فريدة وحديثة • والتخطيط الاقتصادى كما قال الاستاذ اسكر لاينه (Oscar Lange) نوع جديد من وسائل التطوير الاقتصادى[٢] • وثانيتهما تدرس التخطيط من الناحية الشاملة حيث يعنى التخطيط صفة عامة وهى محاولة استخدام العقل والحصافة لترتيب الشؤون البشرية أو لبلوغ الاعراض الانسانية • ويقصد بالخطة (plan) اعداد منهج عمل للمستقبل • وتعد هذه الخطة على أساس الاهداف والوسائل المتوفرة والامور التى تلعب فيها الفعاليات الاقتصادية والاجتماعية دورا مهما • وفى مثل هذه الاحوال لا يتحدد معنى التخطيط فيقتصر على نوع معين ثابت الحدود من السياسة الاقتصادية وانما يرمز الى صفة شاملة يمكن وجودها فى كثير من الفعاليات الاقتصادية : كالتخطيط الرأسمالى[٣] والتخطيط الاشتراكى والتخطيط الديمقراطى والتخطيط الكلى والدكتاتورى والتخطيط فى الاعمال الخاصة والتخطيط العائلى والتخطيط الحكومى •

ان المفهوم الاول أكثر استعمالا فى الادب الاقتصادى وقد حظى باهتمام كثير من المخططين النظريين واستعمل بمفهومات متباينة • فقد أعطاه مايزس (Ludwig Von Mises) وهايك (F. A. Von Hayek) مفهوما يختلف عما أعطاه اياه سويزى (Paul M. Sweezy) ودوب (Maurice Dobb)[٤] • وعرف هايك التخطيط الاقتصادى بأنه الادارة المركزية لكل الفعاليات الاقتصادية على أساس خطة عمل واحدة

---

(٢) ذكر الاستاذ اسكر لاينه ذلك فى حديث عام ألقاه فى قاعة الشعب فى اليوم الثانى من كانون الثانى ١٩٥٩ • ونشر فى مجلة المثقف • العددان الرابع والخامس كانون الثانى ـ شباط ١٩٥٩ ترجمة عبدالغنى نصيف الجاسم ، ص ٥٢ ـ ٥٨ •

(٣) ويؤكد الاشتراكيون ان التخطيط الحقيقى لا يمكن أن يتم الا فى ظل الاشتراكية • أنظر Loucks and Hoot ص ٢٩٣ •

(٤) أنظر John Elliott المرجع نفسه ص ٥٦ •

توضع لتوجه موارد المجتمع بصورة عقلية للوصول الى غاية معينة وبطريق واضحة • أما دال(R. A. Dahl) ولند بلم(Charles E. Lindblom) فقد عرفا التخطيط فى دراسة حديثة بأنه محاولة فى الحساب العقلى وفى السيطرة عند استعمال الموارد النادرة(٥) • والتخطيط الاقتصادى بمعناه الشامل يمتزج مع أفكار وموضوعات وظواهر أخرى كالسياسة والادارة والحسابات والسيطرة والتمحيص • فيمكن أن تعرف السياسة بأنها منهج عمل اطلاقا وأما التخطيط فهو منهج عمل مستقبل • ويجعل هذا من العسير تمييز السياسة عن التخطيط • فالفرق بينهما يقتصر على عامل الزمن • الخطة تنظر الى الامام وتتطلب اعدادا وتحضيرا سابقا • وكما يمكن أن تختار وتنجز واذا أنجزت أصبحت سياسة نافذة المفعول وقد لا تتعدى الخطة دور الرسم أو التخطيط • وربما تعتمد السياسة على خطة سابقة وفى بعض الاحيان تنمو الخطط اعتباطا •

ولا يمكن فرز التخطيط عن الادارة • ويقصد بالادارة طرق تنفيذ الخطط والجهاز الذى يتطلبه ذلك التنفيذ • وعملية رسم الخطط أو التصميم فى معناها الواسع تشمل :

(١) تفهم الظروف واعداد الخطط المتباينة (أو تصميم المشروعات) •

(٢) انتقاء خطة أو خطط معينة بوساطة الجهاز الادارى •

(٣) تنفيذ الخطة أو الخطط من قبل الجهاز الادارى والاشراف على سير العمل •

فالعملية الاولى تختص بالذكاء والعملية الثانية بالحكم والثالثة لها علاقة وثيقة بالتنظيم والمواصلات Organization and Communiction.

---

(٥) المرجع نفسه ص ٥٧ •

(٦) Sir Oliver Franks, Central Planning and Control in War and Peace (Cambridge: Harvard University Press, 1947), P. 27.

والتخطيط الفعال يعتمد على تطوير وتطبيق طرق الحساب ووسائله (Techniques of Calculation and Control) • ويتطلب التخطيط تقييما منظما للاحوال وموازنة للعروض المتوفرة وتقديرا للعوائد والتكاليف وتنبؤا بأحوال المستقبل وتأثير الخطط فى الفعاليات الاقتصادية • وتعتمد كل هذه الفعاليات على ذكاء المخططين وخبرتهم وسعة اطلاعهم • والاغلاط التى تحدث فى هذا الدور تؤثر فى سير ونتائج الخطط • لذا أصبح من الضرورى القيام بدراسة مستفيضة ومسح دقيق شامل لجميع امكانيات الثروة الوطنية الظاهرة والكامنة واعداد الاحصائيات المتعلقة بالموارد الاقتصادية ودراسة حالة الطلب واتجاه الاذواق وطبيعة نمو السكان •

ولتكون الخطط فعالة يجب تنفيذها والتنفيذ يستلزم أساليب سيطرة • فالتخطيط اذن يتطلب وسائل سيطرة وعملياتها • وتوحى كلمة الحكومة عادة السيطرة والسيطرة شىء غير مرغوب فيه • والسيطرة تعنى القيادة والتنظيم بينما نجد فى الواقع أن دور الحكومة فى الشؤون الاقتصادية ليس دائما سلبيا أو مقيدا للحريات • وكثيرا ما كانت أعمال الحكومة ايجابية ودافعة وغير مقيدة • ولكن للسلطة الحكومية غالبا وجهين وجها مقيدا ارادة وحسن خيال وتصور •

وللتخطيط الاقتصادى علاقة واضحة ووثيقة بالحكم العقلى وعلى المرء أن يكون حذرا ومعتنيا • والتبصر فى رسم الخطط وتطبيقها أمر ضرورى • فحتى الخطط التى ترسم بدقة وعناية تتعرض الى عراقيل أو عوائق كثيرة فى دور التنفيذ • فالتخطيط الاقتصادى لا يتطلب ذكاء اجتماعيا وحسب بل ارادة وحسن خيال وتصور •

قد يجرى التخطيط الاقتصادى فى حالات متباينة من الملكية والسيطرة • ومن المتعارف عليه ان التخطيط معناه الملكية والاستثمار الحكومى • وهذا الاعتقاد يقود الى عدم وجود اشتراكية غير مخططة أو رأسمالية مخططة • ولكن تاريخ التجارب التخطيطية والاشتراكية والتأميم فى البلدان

الاسكندنافية وانكلترا يوضح لناامكانية وجود نماذج متوسطة بين الطرفين حيث نجد الاقتصاديات الممتزجة (Mixed Economies) .

والتخطيط الاقتصادى عملية يقوم بها مجموعة من الافراد ولا تتم فى فراغ • انها تجرى فى كيان اجتماعى ولها علاقة وثيقة بالحالات والعلاقات الاجتماعية والدينية والثقافية • اذن يجب أن يدرس التخطيط الاقتصادى على ضوء علاقته بالتخطيط فى الحقول الاجتماعية والثقافية والصحيـــة • ومدى تقدم ونجاح التخطيط الاقتصادى يتأثر تأثرا كبيرا بالتخطيط فى هذه الحقول ويؤثر فيها •

٢
اهداف التخطيط الاقتصادى

لكل عمل غاية ، فما هى غاية التخطيط الاقتصادى ؟ ان الجـدال بين التخطيط وحرية التصرف فى الاعمال ليس نزاعا بين النظام والفوضوية فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية • ففلاسفة حرية السلوك يبدأون بافتراض أن الانتاج والتوزيع يجب أن ينظما لصالح الجماعة ولو أن دافع الربح هو المتحكم[٧] • والتخطيط فعاليـــة بشرية ذو غرض فلا يمكن أن يفكر فى التخطيط دون أن يتبادر الى الذهن غرض أو هدف • ويمكن أن ينظر اليه كأداة أو وسيلة محايدة تتبع للوصول الى الغاية أو لادراك المأرب ولكن فى الوقت نفسه نجد أن عملية التخطيط نفسها تتأثر بطبيعة ومدى الغرض الذى يبتغيه المخطط[٨] • والهدف الرئيس للتخطيط القومى هو الاقتصـــاد فى

---

(٧) W. Athur Lewis. The Principles of Economic Planning (London: Dennis Dobson Ltd. George Allen & Unwin Ltd, 1954), p. 7.

(٨) فالتخطيط التسلحى لا يهدف الى استخدام تام بينما نجد ان التخطيط وليد التدهورات الاقتصادية يرمى الى الاستخدام وربما لا يعـير نوعية الانتاج نفس الاهتمام •

الثروات النادرة واستغلال الموارد الاقتصادية على أحسن وجه ممكن (Optimum Utilization) • والغرض هذا هو فتح السبيل للتطور الاقتصادى وذلك بتحشيد كل مصادر الوفر الى الاستثمارات المنتجة • وهذا يجعل للسلوك الاقتصادى العقلى أهمية لان حسن توزيع الثروات والعوامل النادرة وتوجيهها يتوقف على الحكم العقلى • والغرض الثانى من اتباع سياسة التخطيط هو محاولة التخلص من الجمود والركود اللذين يميزان البلدان المتخلفة وتأمين الاستقرار الاقتصادى والطمأنينة والنفع العام ورفع مستوى العيش ويمكن ملاحظة هذا الغرض فى الاصلاح الزراعى العراقى الذى يهدف الى هدم النظام الاقطاعى وفى ازالة الاستغلال من يد المحتكرين الاجانب • والهدف الثالث هو تحرير عقول الافراد والجماعات والحكومات من كثير مما علق بها من الافكار المفروضة أو المتصورة • وتوجد هذه الاعتقادات والفكر غير الصيحة نتيجة المقارنات التى يغلب عليها حسد الاقطار المتخلفة للاقطار المتقدمة • واذا بقيت هذه الافكار فانها تسيطر حتما وتتحكم فى سياسة البلد المتخلف وتؤدى الى أضرار وخيمة •

تكون كثير من الاستثمارات التى ترسم غير رابحة من وجهة السوق وخاصة تلك المشروعات التى لم تطرق بعد • ومن أسباب عدم طرقها هو الخوف فى المجازفة وتحمل الاخطار وكذلك فان الارباح من هذه المشروعات غير جذابة وغير مغرية للمستثمرين • وبعض هذه المشروعات تكون كبيرة التكاليف وادارتها صعبة فقد تكلف الملايين من الدنانير وتستلزم جهازا واسعا ومعقدا يصعب على المؤسسات الفردية أو الشركات توفيره • فتقوم الدولة فى مثل هذه الاحوال بالاستثمار والتنظيم ويتحمل المجتمع أو الخزانة القومية الخسائر أو تحصل على الارباح اذا وجدت •

فلو رمز الى المشروعات التى تدر ربحا بـ مم (مشروعات مربحة) والى المشروعات التى تكلف المستثمر خسارة بـ مخ (مشروعات خاسرة) • فاذا قام الافراد أو الحكومة بالمشروعات المربحة نجد أن الحاصل يكون :

$$\text{مم}_{1} + \text{مم}_{2} + \cdots\cdots + \text{مم}_{\text{ن}} = \sum_{\text{ن}=1}^{\infty} \text{مم}_{\text{ن}}$$

ومن البديهى ألا يقوم الافراد أو المؤسسات الفردية أو الشركات بأى مشروع غير مربح لان الربح هو دليل المستثمر وقائده فى النظام الرأسمالى (نظام السوق الحرة) • ولكن الدولة تقوم برسم المشروعات وتنفيذها بغض النظر عن الربح والخسارة طالما كانت هناك ضرورة تبنى مثل هذه المشروعات فاذا قامت الدولة أو من ينوب عنها بالمشروعات نجد أن الحاصل يكون :

$$\left(\text{مم}_{1} + \text{مم}_{2} + \cdots\cdots + \text{مم}_{\text{ن}} + \cdots\right)$$
$$+$$
$$\left(\text{مخ}_{1} + \text{مخ}_{2} + \cdots\cdots + \text{مخ}_{\text{ن}} + \cdots\right)$$
$$= \sum_{\text{ن}=1}^{\infty} \text{مخ}_{\text{ن}} + \sum_{\text{ن}=1}^{\infty} \text{مم}_{\text{ن}}$$

والربح والخسارة الصافية يتوقف على مدى الربح والخسارة فى المشروعات المتباينة • وهذه الظاهرة تمثل أحد الفروق بين اقتصاد السوق الحرة والاقتصاد المخطط حيث أن قيام المشروعات التى تكلف خسارة والاستمرار فى تسييرها لا يحلم به فى نظام السوق الحرة أما فى النظام الموجه فتقوم مشروعات لا تدر أى ربح ومشروعات تكلف الخزانة خسارة لان المنفعة الاجتماعية شىء لا يثمن •

وقد يجد المرء أن الدوافع الى التخطيط الاقتصادى تكون مشكلات اقتصادية داخلية وخارجية • فقد كان الدافع المباشر لانشاء جهاز التخطيط فى الجمهورية المصرية السابقة مجابهة مشكلات الحصار الاقتصادى من الخارج ومشكلات اقتصادية تعلقت بانتاج السلع وتسويقها وانشاء بعض

المشروعات الاقتصادية فى الداخل • فتم تأسيس مجلس الانتاج القومى الذى قام بتنفيذ عدد من المشروعات الاقتصادية الحيوية ومجلس الخدمات الذى أنجز عددا من الاصلاحات الادارية والخدمات العامة اللازمة(٩) •

٣
هيكل التخطيط الاقتصادى

يقصد بهيكل التخطيط الاقتصادى بصورة رئيسة رسم الخرائط والتصاميم أو بناء المواصفات الاساسية وتوضيح المقاييس والعلامات التى بوساطتها تصنف المخططات • وتراعى عند بناء الهيكل الامور التالية :

١ ـ الهدف الذى يرمى اليه التخطيط •

٢ ـ المدى الذى يقطعه التخطيط فى الواقع •

٣ ـ التضحيات أو التكاليف المادية والمعنوية التى يتحملها الناس بسبب التخطيط(١٠) •

ويحدث التخطيط الاقتصادى فى مجالات مختلفة من أعمال البشر • قد يتم التخطيط تحت هيمنة الافراد أو الشركات أو تحت سيطرة الجماعة أو الحكومة مع العلم ان المتعارف عليه الآن هو أن التخطيط الاقتصادى انما هو أمر يعود الى الحكومة • وهذا التحديد غير مقبول ويؤدى الى مصاعب جمة حيث ان مجرد مفهوم « يقتصد » يوحى التخطيط •

ويمكن أن تكون للتخطيط علاقة بالمناطق الجغرافية وبالمناطق السياسية ويمكن أن يتم التخطيط لمحلة أو منطقة أو ولاية أو دولة أو أقليم أو للعالم •

---

(٩) الكتور محمد سلمان حسن ، « أجهزة التخطيط الاقتصادى في الاقطار المتحررة » • مجلة المثقف • العدد الثالث • كانون الاول ١٩٥٨ • ص ٩٢ •

(١٠) Gunnar Myrdal. Rich Lands and Poor: The road to World Prosperity. World Prospectives, edited by Ruth Nanda Anshen (New York: Harper & Brothers, 1957), Chap. VII, pp. 81-99.

ومع هذا نجد كثيرا من النماذج التخطيطية تعتمد على الفرضية الهزيلة التى تقول ان التخطيط ليس تخطيطا الا اذا عم البلد أجمعه • وتهمل هذه الفرضية الخطط الاقتصادية القائمة فى المناطق المحدودة سواء كانت جغرافية أم سياسية •

ويتم التخطيط الاقتصادى فى الاطوار والادوار والحالات الاقتصادية المتباينة فى البلدان المتقدمة اقتصاديا والبلدان المتخلفة • وأوجه الاختلاف ظاهرة فى درجات التحرر وتياراته وفى عدد السكان وفى نوعية وكمية الموارد الاقتصادية ونوعيتها وفى مستوى انتاجية العمل الحدى ومستوى العيش • وتؤكد الاقطار المتخلفة اقتصاديا على زيادة الانتاج بينما تكون غاية البلدان المتقدمة فى حلبة السباق المحافظة على مستوى الانتاج وتحسينه • وفى كلتا الحالتين تبذل مبالغ باهضة وجهد كبير على المؤسسات الادارية والاحصائية والفنية الضرورية للتطور الاقتصادى •

التخطيط الاقتصادى المركزى واللامركزى :

ان التخطيط الاقتصادى يجرى فى ظل أى نظام اقتصادى ويمكن أن تناط السلطة الى هيئة مركزية حكومية أو تعاونية عامة • كما يمكن أن تقوم بهذه المهمة عدة مؤسسات على انفراد • وقد قيل ان التخطيط ليس تخطيطا حقيقيا الا اذا كان مركزيا « Centralized »أى أن التدابير والاجراءات التخطيطية تنبعث من سلطة حاكمة عليا وتشمل اقتصاديات البلد كلها[١١]• ومن حيث الادارة يمكن التمييز بين أربعة أصناف : (١) انفصال السلطات واللامركزية أو المحلية كما فى الولايات المتحدة الامريكية بالرغم من نمو السلطات المركزية (الفدرالية) • (٢) تركز السلطات واللامركزية كما فى سويسرا ويوغوسلافيا حيث نجد فى جمهورية يوغوسلافيا الفدرالية ان اللجنة المركزية ترتبط بها لجان تخطيط اقليمية مناظرة لها فى تركيبها ولكنها تعمل فى نطاق الجمهوريات اليوغوسلافية المختلفة • (٣) تركز

(١١) George N. Halm, Economic Systems, Chap. 15, pp. 191-192.

السلطات كما فى فرنسا والعراق • (٤) انفصال السلطات والمركزية كما فى كوستاريكا[١٢] • ان جهازالتخطيط يمكن أن يتألف من هيئة واحدة مخططة ومنفذة • كما ويمكن فصل هاتين المهمتين • فيقوم جهاز التخطيط فى الاقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة على أساس الفصل التدريجى بين التخطيط والتنفيذ • حيث ان التخطيط هو مهمة المجلس الاقتصادى أما التنفيذ فمعهود به الى مؤسسة الانماء[١٣] • ويوجد فى الاقليم المصرى الآن مجلس أعلى للتخطيط القومى تحت رياسة رئيس الجمهورية ويتكون من عدد من الاعضاء الذين يعينون بقرار جمهورى •

وتنحصر مهمة هذا المجلس الاعلى فى تحديد الاهداف الاقتصادية والاجتماعية العامة واقرار خطط التنمية فى مراحلها المختلفة • وبالاضافة الى المجلس الاعلى توجد لجنة للتخطيط تؤلف من أفراد يعينون بقرار من رئيس الجمهورية ويكون وزير الدولة لشؤون التخطيط رئيسا لها • وتختص لجنة التخطيط القومى باعداد الخطة العامة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية للدولة وبيان مراحلها واجزائها السنوية وجميع ما يتصل بذلك من تشريعات وتوصيات واقتراحات[١٤] • وتقوم اللجنة بمتابعة سير العمل فى الخطة العامة ومراجعتها وتقييمها دوريا وتقديم تقارير عن ذلك الى المجلس الاعلى للتخطيط القومي • ثم أنها تشرف فنيا على تنظيم وتنسيق جميع الاحصاءات ونشرها • يبدو بوضوح ان التنفيذ يخرج عن نطاق أعمال جهاز التخطيط اذ أنه يعهد به الى الوزارات المختصة • وفعلا فقد صدر مرسوم جمهورى بتأسيس مكتب للتخطيط فى كل وزارة للجمهورية العربية المتحدة يرتبط

---

(١٢) Leslie Lipson The Great Issues of Politics: AN Introduction to Political Science. pp. 268—270.

(١٣) الدكتور محمد سلمان حسن ، « أجهزة التخطيط الاقتصادى فى الاقطار المتحررة » فى مجلة المثقف العدد الثالث ص ٩١ •

(١٤) المصدر نفسه ص ٩١ •

بوزارة التخطيط القومى المركزية[١٥] .

أما فى الجمهورية العراقية فيوجد مجلس الاعمار ولجنة توجيه الاعمار . ويؤلف المجلس برياسة رئيس الوزراء وعضوية كل من نائب رئيس الوزراء ووزراء الاعمار والمالية والاقتصاد والزراعة والشؤون الاجتماعية والمواصلات والاشغال[١٦] . وقد أنيط بمجلس الاعمار العراقى اعداد منهج اقتصادى عام لاستثمار المواد الموجودة فى العراق ورفع مستوى العيش ومسح الموارد الاقتصادية المستثمرة وغير المستثمرة الموجودة فى العراق وتنفيذ مشروعات الاعمار التى تضمها المناهج العامة على أساس أسبقيتها المقررة[١٧] . ويؤلف وزير الاعمار لجنة تدعى لجنة توجيه الاعمار يعين الوزير رئيسها وينسب أعضاؤها من المدراء العامين فى وزارة الاعمار أو رؤساء الهيئات الفنية فيها أو معاونيهم أو من خبراء فنيين عراقيين أو أجانب . وتكون واجبات لجنة التوجيه الاعمارى ما يأتى :ـ

أ ـ مراجعة المنهج السابق وتقديم التوصيات بشأن المشاريع السابقة على شكل منهج قصير الاجل .

ب ـ وضع منهج جديد طويل الاجل[١٨] وتقديمه الى مجلس الاعمار على ضوء امكانيات البلاد الاقتصادية يهدف الى رفع مستوى معيشة الشعب .

جـ ـ دراسة المشروعات المقدمة من الهيئات الفنية التابعة الى وزارة الاعمار على ضوء المنهج .

---

(١٥) صدر المرسوم فى ٩ شباط ١٩٥٩ .

(١٦) أنظر قانون رقم (٨) لسنة ١٩٥٨ . قانون ذيل مجلس الاعمار ووزارة الاعمار رقم ٢٧ لسنة ١٩٥٣ . الوقائع العراقية رقم ١٠ ، الثلاثاء ١٢ آب ١٩٥٨ .

(١٧) أنظر قانون مجلس الاعمار ووزارة الاعمار رقم ٢٧ لسنة ١٩٥٣ .

(١٨) اعتاد مجلس الاعمار العراقى أن يجعل مدة مناهجه خمس سنين أو ستا ولم يسمح القانون بزيادة مدة التنفيذ على سبع سنوات . أنظر سياسة الاعمار الاقتصادى فى العراق تأليف الاستاذ بالوك ص ٣٥ ـ ٣٦ وقانون رقم ٢٧ لسنة ١٩٥٣ . المادة الثانية عشرة (٢) .

ويعين الوزير سكرتيرا لمجلس الاعمار يرتبط به عدد من الموظفين والفنيين ويقوم بالاشراف على أعمال لجنة توجيه الاعمار وتبليغ توصياتها الى مجلس الاعمار(١٩) .

٤

مراحل التخطيط الاقتصادى

ان التخطيط الاقتصادى سواء كان بسيطا أو معقدا عملية حيوية متطورة . وهنا يجب أن نأخذ بنظر الاعتبار ما يلى : (١) المستوى الاقتصادى والفعاليات الاقتصادية فى الاحوال الاعتيادية . (٢) مستوى الانتاج الاساسى . (٣) طبيعة عامل الزمن وأهميته فى عملية التخطيط الاقتصادى (طول فترة التخطيط) . (٤) ما يراد بلوغه من التخطيط الاقتصادى كميا ونوعيا . (٥) نسبة الانكماش فى بعض القطاعات والتوسع فى القطاعات الاخرى . (٦) طبيعة سكان البلد ومدى نموهم ونمو وتركيب القوة العاملة . (٧) المشكلات والصعوبات التى تجابه فى تنفيذ التخطيط والتى ربما تقوم خارج نطاق التخطيط بصورة ذاتية . (٨) الوسائل والسياسات التى تتبع للتغلب على هذه الصعوبات(٢٠) . (٩) قابلية التعديل والتغيير فى الخطط ودرجة مطاوعة البشر افرادا وجماعات لهذه التعديلات اذا ما حدثت واستعداد السكان لمجابهة الظروف غير الاعتيادية . (١٠) التغييرات والتعديلات التى تجرى على الخطط والمشروعات من حيث سعتها ومدة تنفيذها وطريقته وتمويلها والاشراف عليها . (١١) تخمين أو تقدير النتائج التى تتأتى عن هذه المشروعات . (١٢) التصرف بعد اتمام المشروعات ورسم خطط جديدة ترمى الوصول الى أهداف جديدة .

ويمكن تقسيم مراحل التخطيط الى ثلاث :

١ ـ تقرير الاهداف .

---

(١٩) المادة ٣ من القانون رقم (٨) ١٩٥٨ .

(٢٠) فارضين استقرارا اقتصاديا وسياسيا في الداخل والخارج .

٢ ـ تقييم الاحوال وتقرير الخطط المختلفة على أســـاس التوقعـات فى المستقبل والتغيرات الممكن حدوثها فى المستقبل فى العوامل المهمـــة المختلفة •

٣ ـ تقرير مناهج العمل (خطط العمل) وتنفيذها •

وكل وجه من هذه الاوجــه يمكن بدوره أن يجزأ الى أجزاء مختلفـــة حسب الظروف والحاجة •

ان الاهداف كما أسلفنا كثيرة ومتباينة وأهمها النهوض الاقتصـــادى والاجتماعى فى الدولة • وأولى المهمات تحديد هذه الاهـداف • وتحـــدد الاهداف الرئيسة للخطة القومية والمدة اللازمة للوصول اليها على أســاس الطاقة المالية واليد العاملة والخبرة الفنية وامكانية التنفيذ والنجاح مع مراعاة مقتضيات المصلحة العامة وما يتفق والقواعد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتقاليد العامة •

يقتضى أن تكون اتجاهات الرقى الاقتصادى والنهوض الاجتماعى قوية ومتناسقة وأن تكون احتياجات الدولة فى نواحى الانشاء والتعمير فى حدود الطاقة المالية والبشرية المتوافرة وبما لا يعرض كيان البلد لاى خطر • وقد تداخلت أعمال الدولة وتشابكت أغراضها ، بحيث أصبح من المتعذر البت فى موضوع بذاته دون اعتبار أثره فى الموضوعات الاخرى وعلاقته بها[٢١] •

أما تقييم الاحوال وتقرير الخطط المختلفة على أساس التوقعـــات فى المستقبل والتغيرات الممكن حدوثها فى العوامل المختلفة فأمر مهـــم وصعب ويحتاج الى دراسة الموارد الاقتصادية دراسة وافية • فتحدد الموارد الاقتصادية على أساس هذه الدراسة وبالاستعانة بالاحصائيات المتوفرة • ومســـتلزمات التخطيط الاقتصادى الاساســية هى ثلاث : أ ـ مستلزمات رأس المـــال • ب ـ مستلزمات القوة العاملة • جـ ـ ومستلزمات المهارة والفن الانتاجـى •

---

(٢١) رياســـة مجلس الوزراء فى الجمهورية المصرية • لجنـــة التخطيط القومى • رسائل فى التخطيط القومى • رسالة رقم (١) قانون لجنة التخطيط رقم ١٤١ لسنة ١٩٥٥ ومذكرته التفسيرية • ١٩٥٧ •

أما الطاقة المالية للدولة فى القطاع الحكومى وفى القطاع الخاص والفردى فتحدد بالنظر الى مجموع الدخل القومى وطبيعة مصادره والى حاجات الاستهلاك الضرورية وانماط النفقات فى مختلف طبقات المجتمع سواء منها الانماط السائدة الآن أو التى يرغب فى اعدادها وتوجيهها وفقا للخطة المرسومة • ويقتضى هذا بالتالى رسم سياسة استخدام الاموال العامة والخاصة فى المشروعات والاتجاهات المطلوبة •

ويدخل عدد السكان وتوزيعهم ، وهو جزء من الهيكل الطبيعى كأساس جوهرى فى عملية التنظيم والتخطيط • فتحقيق الاهداف لا يتم الا اذا زاد معدل التنمية الاقتصادية والاجتماعية على معدل النمو فى عدد السكان زيادة تكفى لرفع مستوى المعيشة بين المواطنين الى المستوى الذى يهدف اليه • فتدرس حاجة التخطيط الى اليد العاملة فى مختلف مستويات التدريب والتخصص وأماكن توافر القوى العاملة وقابلياتها للنقل والتحول من عمل الى آخر • ويجب دراسة توفر أصناف العمل اثناء مدة التخطيط كى لا تقع مشكلات ليست بالحسبان نتيجة شح بعض أصناف العمل مما يعرقل سير المشروعات وتقدمها وفى بعض الاحيان يسبب تعطيلها بالمرة • وهذا التعطيل اذا حدث يكلف مبالغ باهضة • وعلى ضوء هذه الدراسة لاصناف العمل المتوفر تعد برامج التدريب اللازمة وكل ما يؤدى لحسن الافادة منها•

ويجب أن يدرس المخطط مدى توافر الخبرة الفنية وتنظيم القوى الفكرية فى الدولة والخبرة العلمية والمواهب الابتكارية والتنظيمية لتشارك فى تنفيذ الخطط مع الافادة من التقدم العلمى فى البلدان الاخرى والاساليب الفنية والصناعية الحديثة لتشجيع البحوث والدراسات العلمية والافادة من المؤسسات التعليمية والعملية والفنية القائمة وتعضيدها • ولا يمنع الواقع استخدام خبراء أجانب كما تفعل الجمهورية الهندية في استخدام مساعدة خبراء ألمان وروس وانكليز في انشاء مصانع الصلب فى مشروع الخمس

سنوات الثانى[٢٢] • وعلى المخطط أن يحرص على التنسيق بين مشروعات التربية والتعليم والصحة والخدمات العامة وسياسة الارشاد القومى من ناحية واتجاهات التعمير والانشاء فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة والخدمات من ناحية أخرى بما يكفل مستوى محترما للافراد ماديا ومعنويا بزيادة الانتاج وزيادة كفايتهم الانتاجية وحسن تفهمهم للامور وتعاونهم لايجاد مجتمع تتوافر فيه لهم ولاولادهم العزة والكرامة •

وتحدد سياسة النقد والاستيراد والتصدير والضرائب والائتمان والتأمين والاقتراض الداخلى والخارجى واجراءات تهيئة الجو الصالح للاستثمار الحكومى والفردى فى المشروعات الزراعية والعقارية والصناعية والتجارية بقصد كفالة صالح المستثمر والمستهلك معا •

وفى الوقت نفسه يلزم اعداد الجهاز الادارى والفني اللازم لاعداد الخطط ودراسة المشروعات • وعلى المخطط أن يحاول جهد الامكان الافادة القصوى من الأجهزة الحكومية وغير الحكومية القائمة (وخاصة من بين أعضاء الهيئة التدريسية فى المعاهد العلمية العليا) عند بدء التخطيط وخلال مدة تنفيذ المشروعات •

وبعدئذ يفصل المخطط الاهداف الرئيسة الى أهداف فرعية فى مختلف الاتجاهات ويحدد مراحل متتابعة لتنفيذ تلك الاهداف الجزئية • وينظر فى المشروعات المحددة التى يقترحها لتحقيق الاهداف الفرعية ويتأكد من التنسيق بين هذه المشروعات وحسن التوقيت فى تنفيذها وترتيبها تباعا • وتشمل الدراسة التفصيلية للمشروعات المقترحة تقدير حاجة كل مشروع الى النقد الاهلى والاجنبى وموعد حلول تلك الحاجة والايدى العاملة والخبرات الفنية اللازمة ومدى توافرها وعوامل اختيار موقع المشروع ومدة تنفيذه ومدى المنفعة التى تتحقق من تنفيذه بالنسبة الى رأس المال ومدى الزيادة فى الدخل

---

(٢٢) Information Service of India. India 1957. London, December 18, 1957, p. 45.

القومى المترتبة على تحقيق المشروع وفائدته العامة للخطة •

وبعد الدراسة التفصيلية للمشروعات المختلفة المقترحة فى كل قطاع ، تجرى المفاضلة بينها وتقدر أسبقيتها فى الاختيار ولا يكون ذلك بالنظر الى المشروعات فرادى بل باعتبار النظرة الشاملة • فقد يكون المشروع ممتـــازا ونافعا ولكن غيره يفضله بالنظر الى مجموعة المشروعات الاخرى • فالاولوية تكون على أساس الصلاحية الجماعية وليست على أساس الصلاحية الفردية •

ويتم التخطيط الاقتصادى فى شكل سلسلة من الخطوات المتتابعة تؤدى كل منها الى تعديل فى الاوضاع الاقتصادية التى يبدأ منها والانتقال بهـــا الى أوضاع تستهدفها الخطة • فرسم الخطة له ركنان : نقطة الابتداء ونقطـــة الانتهاء • ويستحيل على المخطط تحديد الخطوات التى ينتقل بمقتضاها من نقطة الابتداء الى نقطة الانتهاء ما لم تكن لديه صورة تقريبية للاوضاع التـــى يبدأ منها فعلا وللحالة التى يريد الانتهاء اليها • والحسابات القومية هى التى تمنحنا هذه الصورة • وتبرز الحسابات القومية الترابط بين جوانب النظـــام الاقتصادى بما تقوم به من ايضاح للكميات التى يحويها النظام • وفى هـــذا تنحصر فائدتهـــا كأداة من أدوات التخطيط • فهى تمكن المخطط أن يدرك ويقيس نتائج أى سياسة اقتصادية على نطاق يشمل الاقتصاد بأكمله • وتمكنه من ملاحظة الثغرات التى سوف تترتب على تنفيذ القرارات الاقتصـــادية • فالحسابات القومية اذن هى وسيلة من وسائل تحقيق تطور متوازن مطـــرد للاوضاع الاقتصادية وبدونها تصعب مهمة المخطط والمنفذ •

٥
مشكلات التخطيط الاقتصادى

ان عملية التخطيط الاقتصادى عملية جماعية تعاونية وليست عمليـــة فردية • والتخطيط يؤدى الى مجموعة متشابكة من المشـــكلات والوســـائل والطرق البشرية والمادية • انه من الســـهل رسم ووضع المواصفات ولكن تنفيذها والسير بها حتى اتمامها أمر محفوف بالمصاعب والمخاطر • ويجدر بنا

أن نناقش بعض هذه المشكلات •

من المشكلات الكبيرة هى معارضة أصحاب المصالح المثبتـــة للتخطيط الاقتصادى كمعارضتهم لاى اصلاح اقتصادى أو اجتماعى • وتركيز السلطة أمر ضرورى فى المراحل الاولى من التخطيط وخاصة فى دور التأسيس حيث الحزم والارادة القوية والتمويل المضمون أمور ضـرورية(٢٣) • وهـــذا ما حدث فى بولندا أيام تطورها الاولى اذ أصبحت السلطة بيد مؤسسة مركزية تمكنت من تحشيد الموارد الاقتصادية المحدودة لغرض تنفيـــذ المشروعات وتفادى تشتت الموارد النادرة كالمواد الاوليـــة والايدى العـــاملة والمكائن والآلات وتجنب تبذير هذه الثروات فى المشروعات غير الاساسية • أما بعد تقدم المشروعات ونمو الصناعات فيمكن البدء فى تقليـــل المركزية وتوزيع السلطات حسب ما تقتضيه الظروف والمصلحة العامة • وهذا الاتجاه واضح فى تاريخ بولندا حيث نمت الصناعات فى حجمها وعدد مؤسساتها وأصبحت ادارة المشاريع الصناعية المركزية معقدة وصعبة للغاية بدأ فى سياسة عـــدم تركيز التنفيذ فى التخطيط الصناعى قبل حوالى سنتين • والتحول من المركزية الى اللامركزية ظاهر فى الجمهورية العربية المتحدة وكذلك فى الجمهورية العراقيـــة •

والمشكلة الكبيرة الاخرى فى التخطيط هى كيفية اســـتغلال الثروات القومية والمحافظة على سير فعاليات اقتصاديات البلد دون تعثر وتلكؤ • وأهم ما يجابهه البلد المخطط هو توفير رأس المال الضرورى لتمويل المشروعات الاقتصادية والاجتماعية ، وخاصة العملات الاجنبية اللازمة لشـــراء المواد

---

(٢٣) وقد حققت بولندا سحق معارضة أصحاب المصالح المثبتـــة باجراءين أساسيين هما الاصـــلاح الزراعى الذى سحق الاقطـــاع وتأميم المشروعات الصناعية الكبيرة والتى كانت مشروعات أجنبية على الاغلب ولكنها كانت على درجة كبيرة من القوة بحيث كان بمقدورها معاكســـة التخطيط الاقتصادى •

الضرورية للمشروعات[٢٤] وتوفير رأس المال (Capital Accumulation) مشكلة عويصة • ومن الضرورى القيام بدراسات وافية عن كيفية تكوين رأس المال المنتج اللازم • ولما كانت قابلية تكوين فضلة فى رأس المال أمرا صعبا في البلاد المتخلفة لانخفاض مستوى الكسب ومستوى العيش أصبح ايجاد هذا المال واستخدامه فى المجالات التى تدر أحسن عوائد (Optimumuse) والتى تدر رأسمالا يوفى الاستثمارات السابقة ويغذى الاستثمارات اللاحقة أمرا غير يسير • فنجد أن مصدر الاستثمارات فى الولايات المتحدة الاميركية هو رأس مال فردى خاص • أما فى المستعمرات حيث الاحوال الاقتصادية متأخرة نجد أن مصدر الاستثمارات يأتى بصفة رأس مال من الدول الحاكمة المستعمرة • وهذا الاسلوب من التمويل لا يمكن الاعتماد عليه فى الوقت الحاضر فى البلدان المتخلفة وخاصة المستقلة منها لانه ظاهرة تتصل بعهد استعمار قضى نحبه • وأى قطر قد يستفيد من خبرة الاقطار الاخرى بشرط ألا يقلده تقليدا أعمى • وتجارب الاقطار الاخرى شديدة الاختلاف لكنها تتضمن دلالة واشارة للمشكلات التى حدثت وتقدم أساليب وطرقا لحلها ولكن المهم هو انه لا يمكن التعويض عن معرفة ددراسة مشكلات كل بلد على حدة وان هذه الدراسات والمعرفة تختلف باختلاف تجارب هذه الدول نفسها • وتنحصر قيمتها فى ايجاد الاسس اللازمة للتخطيط ووسائل تلائم الظروف الخاصة للقطر المعين ولا يوجد ما يمكن أن يعوض عن الجهود اللازمة للقيام بذلك •

وهناك وسيلة لتمويل الاستثمارات وذلك بوساطة استيراد سلع ومواد أولية فائضة من الخارج واستغلال رأس المال الموفر فى مجالات الاستثمارات الاعمارية الاخرى • ولهذه الوسيلة محاذيرها وتلاقى الصعوبات والمشكلات

---

(٢٤) الاستاذ اسكر لاينه فى حديث ألقاه فى قاعة الشعب فى الثانى من كانون الثانى ١٩٥٩ •

الناتجة عن طبيعة هذا النوع من المساعدة[٢٥] .

ومن المشاكل الرئيسة فى التخطيط الاقتصادى هو كون التخطيط أمرا يعود الى المستقبل • انه ينظر الى المستقبل ويشمل افكارا واستعدادات منظمة وأفكارا تسبق تطبيق الخطط والحوادث التى تلازم تطبيقها • والذى يهمنا هنا هو التخطيط طويل الاجل والتخطيط قصير الاجل • والتمييز بين هذين الصنفين هزيل جدا حيث ان المنهج الطويل الامد انما هو مجموع مناهج قصيرة الامد • ان من أهم ما يمكن أن يقدمه الاقتصادى مقدرته على تثبيت منهج طويل الامد ومراعاة تأثير المناهج القصيرة الامد فى أحوال وأهداف مناهج المدى الطويل •

وتحضير واعداد الخطط نفسها عملية تستغرق وقتا وتحتاج الى بذل جهد ومال • لتكون الخطط جاهزة لمواجهة الظروف الطارئة يجب أن تعد مقدما • واذا رسمت الخطط فى وقت يسبق وقت تنفيذها بمدة طويلة فعندئذ يكون ضروريا تعديلها اذا تغيرت الاحوال والا فلا يمكن تطبيقها •

والموضوع الآخر ذو العلاقة هو مشكلة التوقيت والتأخر الزمنى • ويركز الاقتصاديون والمخططون على التوقيت ويبينون أهميته • وربما يؤدى عدم التوقيت الصحيح فى اقتصاديات متغيرة حيوية ومتطورة الى ضرر أكثر جسامة من عدم التخطيط بالمرة • وهنا تظهر أهمية الفترات الزمنية الثلاث• (١) الفترة الزمنية بين ظهور الحاجة للعمل والاعتراف أو الاقرار بتلك الحاجة • (٢) الفترة الزمنية بين الاقرار بتلك الحاجة الى العمل واتخاذ اجراء عملى ايجابى لسد تلك الحاجة • (٣) الفترة الزمنية بعد بد الاجراءات العملية واتمام العمل • (٤) الفترة الزمنية بين اتمام العمل وظهور النتائج • وان مدى هذه الفترة يتوقف على طبيعة المشروعات وعلى العوامل الاخرى •

هنالك مشكلة أخرى وهى عدم التثبت والتأكد مما يكنه المستقبل •

---

(٢٥) J. H. Richter, "Agricultural Surpluses for Economic Development", The Journal of Political Vol LXIV, No. 1 (February, 1956), 69.

فربما تجرى بعض الحوادث دون تأثير من جانب المخطط • وهناك أمـــور تتأثر بما يفعله المخطط نفسه • ويعتمد على الحدس والتخمين والاستقراء للاستعداد للحوادث فى الحالة الاولى وكثيرا ما يكون الزلل ناتجا عن عـدم تقدير ما يجرى فى المستقبل تقديرا صحيحا • أما ما يحـدث فى الحـالة الثانية فيتوقف على عملية التخطيط •

وأخيرا توجد مشكلة تحديد فترات التخطيط • وهذا الامر يتوقف على طبيعة المشروع وتوفر العوامل اللازمة لتنفيذه • وتظهر بعض الصعوبات من ندرة الاصناف اللازمة من المواد الاولية أو العمل أو السلع المتوسطة أو عدم توفرها •

والعقبة التى تقف فى وجه تنفيذ المشروعات الاقتصادية تنفيذا دقيقـا هى موقف الناس تجاه الخطط الجديدة سيما اذا كانت تخالف ما اعتـادوا عليه • وان رد الفعل للخطط عند الناس له أهميتـــه حيث ان قدرتهم على تقبل ما هو جديد وعلى التكيف وتقبل التغيرات يساعد على نجاح المشروعات الاقتصادية • واذا كانت عندهم مطاوعة وقابلية لتقبل التغيرات على مـــدى التطور فان المشروعات تنجح أكثر مما اذا كانوا صلبين ومناهضين لكل جديد ويعتبرونه بدعة •

ويلزم لنجاح الخطة أن يتعاون أفراد الشعب وهيئاته مع الحكومة فـى تنفيذها وانجاحها • فليست الخطة الشاملة خطة حكومية بل هى خطة قومية لا بد وأن يشـعر كل فرد من أفراد الشعب أن واجبـه نحو وطنه وقومـه أن يسهم في تحقيقها ، وينبغى أن يرى الجميع ان فائدة الوطن ومســـتقبل البلاد الاقتصادى والاجتماعى رهين بوضع الخطة القومية الصحيحة وبتمام تنفيذها ثم اعداد خطط متتابعة تدفع كل منها البلاد دفعة الى الامام فى اتجاه الرقى الاجتماعى والاقتصادى • ولما كان التخطيط يتطلب عملا تعاونيا على نطاق المجتمع الشامل فانه يتطلب تطورا اجتماعيا وقبولا من الافراد ولا بد أن يحظى بعطف الجمهور ومساندتهم له •

٦
التخطيط الاقتصادى وتطوير العراق الحديث

ان العراق بلد متخلف اقتصاديا • وهذا أمر لا نقاش فيه • ولكنه يملك قابليات ومقومات اقتصادية كثيرة • فهو غنى بثرواته الطبيعية ونفوس أبنائه الذين يقرب عددهم من سبعة ملايين(٢٦) • ويملك العراق ثروة النفط الغزيرة والكبريت والتربة الخصبة والمياه اضافة الى المناخ الملائم للزراعة والفعاليات الاقتصادية الاخرى • فالعراق نسبيا عنده بعض مقومات التطور الاقتصادى وان يكن قسم من ثرواته الطبيعية محدودا وذا نوعية رديئة •

ان تخلف العراق الاقتصادى الى وقت قريب ناتج عن عدم استغلال موارده بشكل مركز منظم وعن جملة أسباب أخرى منها عدم كفاية الجهاز الحكومى وعدم كفاية النظم المالية والضرائبية والتعليمية والصحية وقلة الخبرة وندرة المهارة الفنية • وهناك عوامل أخرى منها عدم مشاركة المرأة مشاركة واسعة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، والامية السائدة فى البلد وقلة الرغبة والجرأة لدى أصحاب رؤوس الاموال على الاستثمار المنظم • وينقص العراق التدبير الاقتصادى على أبسط معانيه؟ هذه عوامل فعالة تؤثر فى سير العراق الاقتصادى والاجتماعى تساندها بعض العادات والتقاليد البالية التى تقف حجر عثرة أمام كل اصلاح اقتصادى أو اجتماعى •

ان الغاية التى يجب أن يهدف اليها هى تطوير العراق اقتصاديا ورفع مستوى معيشة الفرد وتحسين الحالة العامة فيه • وان أكثر الناس ان لم يكونوا كلهم يقدرون النمو الاقتصادى ويحبذون الرخاء • ان الغاية العامة

---

(٢٦) حسب عملية التسجيل العام الاخيرة لسنة ١٩٥٧ بلغ المجموع العام لسكان الجمهورية العراقية ٦ر٥٣٨ر١٠٩ منهم ٣ر٢٤٤ر٠٣٦ أناثا و ٣ر٢٩٤ر٠٧٣ ذكورا • أنظر مجلة وزارة الشؤون الاجتماعية العدد ١ ، ٢ • عدد خاص عن عملية التسجيل العام ١٩٥٧ • تصدرها مديرية النفوس العامة • ص ٣٧٨ •

من الفعاليات الاقتصادية فى البلدان كافة هو التقدم الاقتصادى وزيادة الانتاج وسرعته(٢٧) • ويراد بالنمو الاقتصادى السيل المتزايد من الانتـــاج الذى تفوق نسبة الزيادة فيه الزيادة فى عدد السكان • أى أنه يقصد به زيادة فى الانتاج ترتفع فى نموها عن نسبة الزيادة فى الافراد فى تلك البقعة • أما فى العراق فهذه الزيادة يجب أن تكون كبيرة الى حـــد يكفى لرفع مســـتوى العيش(٢٨) وفى الوقت نفسه يمكن العراق من تصدير قسط من الانتـــاج لتمويل المشروعات العمرانية •

ومهمة الاقتصاديين هى المشاركة فى رسم الخطط لاستغلال المـــوارد الاقتصادية وخاصة النادرة منها الى أقصى حد ممكن وبطريقة اقتصادية تعود بأحسن النتائج والمنـــافع الممكنة(٢٩) • ولمـا كان العراق فى حاجة ملحة الى نهضة اقتصادية تشمل تقريبا جميع نواحى حياته ولما كانت ثرواته الطبيعية محدودة وفقيرة وجب ترتيب المشاريع حسب أهميتها للبلاد وعلى أساس مدى الحاجة الى تنفيذها على أن تقرر هذه المشاريع على أسس قويمة آخذة بنظر الاعتبار ما يلى :

١ ـ حاجة البلاد وامكانياتها فتعطى مثلا أهمية كبرى للمشاريع التى يعتقد أنها تنفع أكبر عدد من المواطنين وينتبه لكمية الموارد الطبيعية الموجودة فى الوقت الحاضر ونوعيتها وكيفية توزيعها • وعلى الدارس المتمحص

---

(٢٧) لا مجال هنا لبحث توزيع النـــاتج القومى على المواطنين أو لبحث العدالة الاقتصادية والمالية والاجتماعية •

(٢٨) اذا أراد القارىء أن يأخذ فكرة بســـيطة عن الدخل القومى العراقى فينظر :

Dr. K. G. Fenelon, Iraq: National Income and Expenditure 1950—1956. Baghdad, Ar-rabita Press, 1958.

(٢٩) أنظر John E. Elliot, pp. 63-64; Lionel Robins, An Essay on the Nature and Significance of Economic Science (London: Mac Millan and Co. Ltd, 1952), pp. 15-16.

أيضا أن يعالج الموضوع محاولاً الوصول الى أنجع الطرق لاستغلال هذه الموارد الطبيعية المتوفرة •

٢ ـ عند دراسة التطور الاقتصادى تعطى أسبقية للمشاريع التى لا يمكن اهمالها فى الزراعة والصناعة •

والتخطيط الاقتصادى هو أحد الاساليب الجديدة التى يتم التطـــور الاقتصادى بموجبها حيث ترتب المشروعات العمرانية حسب الضرورة اليها فتعطى الاسبقية لتلك المشروعات التى يحتاجها البلد بصورة ملحة • فاذا اتبع التخطيط الاقتصادى الشامل فى العراق فربما قامت صعوبات جمة مما يعرقل التقدم الاقتصادى والنجاح فى تنفيـذ التخطيط • أما اذا اتبعنـــا التخطيط الجزئى كما فعل العراق فى مناهجه الاعمارية المتوالية ابتداء من عام ١٩٥١ ، فان عدم التخطيط فى القطاعات غير المخططة يعرقل ويؤخر سـير الفعاليات فى القطاعات المخططة وربما يعطلها بالمرة • والاستاذ اسكر لاينه أكد على التخطيط فى الفعاليات الاقتصادية الاساسية • وبالرغم من هذه الصعوبة فى الاختيار بين الطريقتين يجب أن يكون هدف التخطيط فى العراق مركـــزا على التطور الاقتصادى والتشغيل التام والاستقرار الاقتصادى والطمأنينة • ويواجه العراق المشكلات الرئيسية التالية : قلة فى الانتاجية وتباين فى الدخل الفردى وفوارق اجتماعية • وسرعة اعمار اقتصاديات بلد من البلدان هـــو نتيجة لعدة عوامل أساسية مشتركة ومن هذه العوامل نمو القوة العاملة وطبيعة تركيبها ونسبة الاستثمار واتجاهـــه والفنون الانتاجية المتوفرة وتقدمهـــا وجدارة المؤسسات الاجتماعية لدفع النمو الاقتصادى وتنفيذه •

ان مدى تكاثر البشرية له أهميته وتأثيره فى التخطيط الاقتصادى ويجب أن يعالج موضوع العمل من الوجوه التالية : (١) الزيادة فى متوفر مجموع القوة العمالية • (٢) امكانية نقل العمل من الحرف التى يكون انتاجهـــم الحدى فيها واطئا الى حرف ذات انتاج أعلى • (٣) الزيادة فى الانتاجيـة

للعامل فى الحرف المختلفة(٣٠) .

مستقبل زيادة القوة العمالية فى العراق :

ان استمرار التحضر ونمو الفعاليات فى المدن ربما يؤدى الى قلة فى نسبة نمو السكان بينما نجد ان تعادل نسبة الجنسين الذكور والاناث وامكانية تحسين الصحة والنظافة يقودان الى زيادة فى عدد السكان . وستقرر سرعة نمو القوة العمالية ضمن العمر الشغول (١٥ ـ ٦٤ سنة) خارج الزراعة سرعة نمو الاستخدام بدون شك هناك وبدورها تقرر سرعة نمو الانتاج القومى . وتقليل ساعات العمل سيؤدى الى تقليل زيادة فضلة العمل(٣١) . ونجد فى العراق ان قابلية نقل العمال من الريف الى الفعاليات غير الزراعية أمر يسير وخاصة لوجود البطالة المقنعة(٣٢) .

والبطالة وان كانت موجودة بصورة ضيقة فى الريف وفى بعض المدن فان التصنيع سيساعد على تشغيل هؤلاء العاطلين ويزيد دخلهم ويرفع مستوى معيشتهم . وستسد حاجة الصناعات والفعاليات الاخرى الى الايدى العاملة بزيادة السكان الطبيعية اذ أن نفوس العراق تزداد سنويا بنسبة (١ - ١ ونصف) بالمئة ومن الهجرة الوافدة الى العراق مما يجاوره من الاقطار وكذلك باستخدام النساء اذ فيهن وفرة فائضة صالحة للاستخدام فى وظائف جديدة أو للحلول محل الرجال الذين يستخدمون فى أعمال

---

(٣٠) أنظر: Abram Bergson. Soviet Economic Growth: Conditions and Prospectives (Evanston, Illinois: Row, Petrson and Company, 1953), p. 13.

(٣١) حدد قانون العمل العراقى رقم (١) لسنة ١٩٥٨ ساعات العمل فى العراق بين سبع ساعات الى تسع ساعات فى اليوم وأيام العمل بست . المادتان الرابعة والثانية عشرة .

(٣٢) ان مثل هذا العمل حدث فى روسيا وكان فعالا فى زيادة الناتج ابان الفترة ١٩٢٨ ـ ١٩٣٧ وساهم فى زيادة ما يقرب من نصف الانتاج القومى فى هذه الفترة . Abram Bergson, p. 13

جديدة أخرى • ومصدر آخر يمكن استغلاله لزيادة ســـاعات العمل فى العراق هو تحسين غـذاء المواطنين والعناية بصحتهم وانقـاذهم من براثن الامراض ولا سيما الملاريا والبلهارزيا والطفيليات المتنوعة • يضاف الى هذا تحسين طرق الزراعة باستخدام الآلات فيها اذ التوفير فى الايدى العـاملة فى الحقول يقود الى الاشتغال فى الصناعـة أو فى الفعاليات الاقتصـــادية الاخرى • لذا يجب رسم خطة تتعلق بنمو السكان وتوفير الايدى العاملـة الكافية لتسيير الفعاليات الاقتصادية والاجتماعية فى المستقبل •

توجيه الاستثمار فى العراق :

ان الفعاليات الزراعية والصناعية يعتمد بعضها على بعض • وان تثبيت العلاقة النسبية بين الزراعة والصناعة ذو أهمية كبيرة للتطور الاقتصـادى المخطط فى أى اقتصاد وطنى • اذن يجب أن تؤمن النســـبة بين النمو الزراعى والنمو الصناعى • فمن جهة نجد أن الصناعة يجب أن تنمـــو بخطوات أوسع لتزويد الزراعـــة بالآلات والادوات الضرورية وتزويد الريف بالسلع المنتجـــة وكذلك فان نمو الفعاليات الزراعية والانتـــاج الزراعى ضرورى لاطعام السكان غير الزراعيين ، ولتزويد الصناعات بالمواد الاوليـــة •

واذا ماقامت الصناعات الاساسية وترعرعت فستنمو الصناعات الثانوية والخدمات الاخرى اذ بقيام الصناعات تتسـع طرق المواصـــلات وتكثر وسائط النقل والمواصلات ويقبل الناس على التأمـــين والصيرفة وتزداد الحاجة الى المطاعم والمنازل • ومثل هذا الامر ينتج عن نمو الزراعة وتقدمها ولكن بصورة محدودة •

اذن يظهر أن الفعاليات الزراعية والصناعية فعاليات متلازمة يعتمـــد بعضها على بعض • فيجب على المخطط أن يلاحظ فى رسم المنهج عـــدم حدوث تباين أو تفاوت أو عدم تكافؤ بين الزراعة والصناعة وبين الزراعة

والحاجة الى المنتوجات الزراعية • ومن الاوجه أن تعطى أهمية الى كل من الزراعة والصناعة والتجارة • والمهمة الرئيسة هنا هى مهمة متشعبة تتألف من تجديد وتحسين وتوسيع كل من الزراعة والصناعة •

ما هى الصناعات التى يجب أن تنمى ؟ لقد بين كثير ضرورة تنمية الصناعات المنتجة للسلع المنتجة وكذلك الصناعات المنتجة للسع الاستهلاكية الاساسية وقالوا بأن البدء فى انتاج السلع المنتجة له هدف رئيس هو توفير وسائل الانتاج • واذا لم يبدأ ذلك فأين نجد المكائن والآلات وكيف يمكن تجديدها ؟

ولما كان العراق قد بدأ فى المشروعات الاعمارية منذ ثمانى سنوات فان المبالغ التى تصرف على العمال وغيرهم تزيد فى القوة الشرائية وتزيد الطلب على السلع والخدمات بصورة عامة • والنتيجة الطبيعية لانخفاض مستوى المعيشة ومستوى الاجور حاليا ان زيادة الاجور اليومية للعامل لا تساعده على شراء الكماليات بل بالكاد تمكنه من شراء المواد الاستهلاكية الرئيسة فى الدرجة الاولى اذ حينما يتسلم العامل أو الفلاح أجوره يبادر الى زيادة كمية الطعام الذى يستهلكه ثم يسارع الى تنويع ملابسه الضرورية وقد ينوع أثاث بيته ويشترى سلعا أخرى ولا يلجأ الى الكماليات الا اذا توفر لديه المال الكافى فيشترى عندئذ الراديو والمدفأة والمروحة • ولما كان العراق لا ينتج ما يكفيه للاستهلاك المحلى فان الجزء الاكبر من هذه السلع يستورد من الخارج ويذهب جزء كبير من هذه الاجور والمبالغ الموفرة الى خارج البلد •

لذا أصبح ضروريا قيام صناعات وطنية وتشجيعها على انتاج السلع الاستهلاكية الضرورية والتى تنتج بوقت أقصر من غيرها • ويمكن تحقيق ذلك بوساطة الحكومة أو بوساطة المؤسسات الخاصة التى تساعدها الحكومة ماديا ومعنويا • وقد تكون هذه الصناعات فى أول أمرها عاجزة عن منافسة الصناعة الاجنبية ولكنها مع هذا تحافظ على بقاء الدخل القومى داخل البلد

ليستغل فى الصناعات المختلفة التى تسد حاجة البلد وتستخدم الايدى العاملة غير المستخدمة • لهذا فان من مهام التخطيط دراسة امكانية تأسيس صناعات صغيرة يمكن تأجيرها أو بيعها ، اذا ما تأسست ، الى المستثمرين الذين يتمكنون الافادة منها • وهذا سيشجع استثمار رؤوس الاموال الصغيرة التى لا يقدر أصحابها على المجازفة أو لا يعرفون طريقة البدء ومساعدة الحكومة لمثل هذه المشروعات ضروزة وواجب محتم • أما الصناعات الثقيلة فيمكن رسم خطة لتأسيسها فى المدى الطويل على أساس توفر عوامل الانتاج اللازمة لقيامها وتوفر السوق لتصريفها •

التخطيط الاقتصادى والتجارة الخارجية :

هناك علاقة مباشرة بين سياسة التخطيط والتجارة الخارجية حيث ان التخطيط فى البلاد المتخلفة يتطلب مشتريات كثيرة من الآلات والادوات من الخارج • اذا لم تسد هذه النفقات بوساطة هبة أو قرض من الخارج ، يضطر البلد المتخلف أن يسدد هذه النفقات بالوسائل التالية : (١) زيادة الصادرات • (٢) تقليل الواردات • وقدرة البلد على القيام بذلك تحدد : (أ) بالقوة الانتاجية • (ب) وبطبيعة مرونة الطلب الخارجى على سلعها • (ج) وبالقدرة على تحديد الاستيرادات من السلع الاستهلاكية بصورة عامة والكماليات بصورة خاصة •

وتجميع رأس المال المنتج للاستثمار يجب أن يصحب بارتفاع بالوفر بطرق مختلفة • ان التغيرات فى الاستهلاك والانتاج وفى الصادرات والاستيرادات عوامل مهمة فى الخطة الوطنية • كلما ازدادت الاستثمارات والانتاج تتحول عوامل الانتاج الى مرافق جديدة وهنا يتوقع حلول تضخم فى البلد الذى يقوم بتنفيذ مشاريع الاعمار • وحتى لو سيطر على هذا الميل فان أثر عملية التطور الاقتصادى يظهر فى زيادة الدخل النقدى وزيادة القوة الشرائية والاستهلاكية • وجزء من هذه الزيادة فى الطلب

يتوجه الى الاستيرادات متوقفا على القابلية الحدية للاستيراد (Marginal Propensity to import) وزيادة الاستيرادات لرأس المال المنتج تخلق ضغطا على مصادر العملات الاجنبيـــة فيضطر البلد الذى ينـوى تنفيـذ المشروعات الاعمارية الى تطبيق تقييدات على الاستيرادات وفرض نظـام الرخص والرقابات لحماية ميزان الصرف الخارجى لا لسبب آخر • وهذه التقييدات ليس لها صلة أو علاقة بالحماية • وفى الوقت نفسـه تقـوم مشروعات لا تقدر على المنافسة وتعتمد على الحماية والمعونة الحكوميـة • وعندما تبدأ هذه المشروعات فى الانتاج وتبعث السلع الى السـوق يخفف عنـدئذ الضغط التضخمى وكذلك الضغط على الصرف الخارجى(٣٣) • والتخطيط الاقتصادى ربما يشمل الحماية لملافاة بطالة محلية(٣٤) •

ومن صعوبات التخطيط الاقتصادى فى العراق التى تقف فى وجـه نجاح المشروعات هى آثار النظام الاقطاعـى الذى طالمـا عرقل التطـور الاقتصادى • والنظام الاقطاعى يعطل التقدم الاقتصادى بتبذيره قسما كبيرا من فائض الانتاج فى أوجه غير انتاجية • وفقر أكثرية السكان فى العراق يجعلهم لا يتمكنون أن يوفروا أى مال كاف لتجميع رأس االمال وتقـديم اللازم منه لتحقيق التقدم الاقتصادى • ولكن بالرغم من فقر أكثرية سكان وادى الرافدين فالحصول على رأس مال من الصادرات متوفر من صادرات النفط والتمور والحبوب والالياف والصوف • ولا توجد ضرورة لاستيراد رأس المال من الخارج لوجود عوائد النفط وللاخطار التى قد تنتـج من

---

(٣٣) ان الحماية تعطى فرصة للصناعات الناشئة لتنمو وتعطـى مجالا لقيام صناعات تقدم خدمات للبلد بصورة عامة كالاقتصاديات الخارجية والحصول على المهارة والتقليد الصناعى •

(٣٤) Joan Robinson, "Beggar - My - Neighbour Remedies for Unemployment," Reading in the theory of International Trade. Blakiston Series of Reprinted Articles on Economics, Vol. IV (Philadelphia: The Blakiston Company, 1950), 393-407.

التدخل فى شؤون البلاد الداخلية[٣٥] .

أما مسألة الافادة من تجارب الامم الاخرى فشيء يستوجب المناقشة . فصحيح أن بلدا يتمكن أن يفيد من تجارب البلدان الاخرى ولكن هذا ليس معناه ان التقليد ضرورى وذلك لان الظروف والثروات والسكان والمشكلات تختلف اختلافا كبيرا من قطر الى قطر آخر . فلا يمكن أن نقيس التخطيط فى بعض الاقطار المتخلفة بصورة آليـة ليطبق فى قطر متخلف آخر . بل يجب أن يرسم كل قطر خططه على أساس ظروفه وثرواته وقوته العمالية والخبرات الفنية المتوفرة ولا يمكن أن توجد سياسة تصلح بديلا لهـذه السياسة .

تحسين نوعية الناس كعامل انتاج والتخطيط الاقتصادى :

لم يتمكن الانسان حتى الآن من الحصول على الخبرات الضرورية التى تمكنه من الحصول على الحد الاقصى من النمو الاقتصادى . وهـذه الخبرات ناقصة ولا سيما فى الاقطار المتخلفة اقتصاديا . وكثير من البلدان ومنها العراق ، ينقصها النمو الاقتصادى الملموس وذلك نتيجة للتوانى فى استغلال الموارد الاقتصادية المتوفرة فيها . والانتاج الحدى واطىء فى البلاد المتخلفة بسبب فقر مجموعات العوامل الانتاجية ولكنه ليس صفرا . وفى مثل هذه الاحوال يكون الانتاج الحدى للعامل واطئا لجميع أصناف العمل ولا فى الحقل فقط . ومن الضرورى للحصول على نمو اقتصادى ذى أهمية فى هذه الاقطار المتخلفة أن يجرى تخطيط يهدف الى توزيع واسـتغلال الجهود ورأس المال المنتج وذلك سعيا وراء :

١ ـ الزيادة فى الانتاج فى السلع والخدمات سواء كانت للاستهلاك أو

---

(٣٥) بلغت حصة الحكومة العراقية من عوائد النفط للسنة الماضية (١٩٥٨) والتى تسلمتها ٤٢٢ر٨١٢ر٨٣ دينارا وكانت الكميات المستخرجة من النفط خلال السنة نفسها قد بلغت ٢٩٤ر٢٥٥ر٣٢ طنا . جريدة الحرية رقم ١٣٧٩ فى ١٩٥٩/١/١٢ . ص ٤ .

للاستثمار •

٢ ـ تحسين نوعية الناس كعامل انتاج •

٣ ـ ورفع مستوى فن الانتاج الزراعى والصناعى •

ان لذلك ثلاث غايات ، الاولى هى زيادة مجموع الحاصل من مادة معينة أو خدمة معينة والاخريان يمثلان اضافة الى عنصر خاص غير ملموس وتحسنا فيه •

ولتحسين نوعية الناس كعامل انتاج ورفع مستوى فن الانتاج الزراعى والصناعى يجب تخصيص جهود وموارد اضافيـــة للاستثمار فى توفـــير الخدمات الصحية وتوسيع المعرفة وتنوير المواطنـين عن طرق التغـــذية الصحيحة ونشر التربية الاساسية والاختصاص • ويجب أن تعطى الاسبقية الى الخدمات الصحية وتحسين التغذية وتفضـــل على التعليم فى تخصيص الموارد لتحسين نوعية الافراد كعوامل انتاج(٣٦) • وليكن واضحا ان هذه العبارة لا تعنى اهمال التعليم أو الحد من أهميته حيث ان المرء لا يتمكن أن يفيد من الخدمات الصحية اذا كان جاهلا • وكذلك فانالصحة التمة ضرورة للافادة من التعليم والخبرات المكتسبة • وان رفع مستوى فنون الانتـــاج وتوفير المهارات والكفايات يتطلب جهودا وأموالا كثيرا • وللوصـــول الى ذلك أصبح ضروريا توسيع الفعاليات والبحوث العلمية واستخدام وسـائل جديدة فى الانتاج وتعميم استخدام هذه الوسائل بوساطة المعاهد العلمية على اختلاف درجاتها ومعاهد البحوث ومحطات التجارب والارشاد الزراعى والصناعى • وبذل هذه الجهود والاموال لابد وأن يعطى ثمارا كثيرة •

اذن فعلى المخطط ألا يقصر عمله على التخطيط الهندسى للمشروعات بل عليه أن يرسم الخطط التى تتعلق بعدد القوة العاملة وتركيبها ومهاراتها •

---

(٣٦) انظر Theodor W. Schultz "The Role of Government in Promoting Economic Growth," Unpublished paper read November 12, 1955 at the 25th. Anniversary of the Social Sciences at the University of Chicago. Revised Copy pp. 9-15.

فلا بد أن يتضمن التخطيط الاقتصادى سياسة أو خطة للسكان تستهدف توفير العدد الكافى واللائق من القوة العاملة والهيئة المنظمة للانتاج •

٧

خلاصة واستنتاجات

ان التخطيط الاقتصادى وسيلة عملية لتجميع القوى وتنسيق الجهود ، وتنظيم النشاط الاقتصادى والاجتماعى الذى تبذله جماعة من الجماعات فى هيكل واحد متكامل الاهداف وموحد المواقف بحيث يمكن الانتفاع بجهود وذكاء الافراد ومعلوماتهم ومقدرتهم الذهنية والعملية ، مع استغلال امكانيات البيئة ، والافادة بتجارب الماضى ووسائل الحاضر للوصول الى أهداف تقابل حاجات المجتمع وتحقق ارتقاءه الى حياة اقتصادية واجتماعية أفضل •

لقد أصبح التخطيط الاقتصادى أهم الموضوعات التى تشغل بال الباحثين والمتناقشين من رجال الاقتصاد والاعمال والمسؤولين فى كثير من الدول ويستأثر بقدر كبير من اهتمامهم وتفكيرهم ودراساتهم • وأخذت غالبية الدول لا سيما تلك التى لم يكن لها سابق عهد بالتخطيط الاقتصادى فى الاندفاع نحوه • وليس التخطيط شيئا جديدا فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية • فكل عمل يقوم به الانسان فى حياته اليومية يتطلب نوعا من السلوك العقلى أو التخطيط • ومن الصعب أن نجد مجتمعا فى أى زمان أو مكان لم تقم فيه الدولة بدور ايجابى فى تنظيم الانتاج والتوزيع ولم ينشب فيه خلاف فى وجهات النظر بين مؤيدى المزيد من التنظيم الحكومى أو الجماعى على جهة ومناهضى هذا السلوك ومؤيدى الحرية الفردية والحد من تدخل الجماعة أو الحكومة •

حتى فى البلاد المتقدمة اقتصاديا يزداد الطلب على انتهاج نوع من أنواع التخطيط الاقتصادى • أما الاقطار المتخلفة تهتم طبعا بالتخطيط وتظهر رغبة ثابتة فيه لانها تنظر اليه كمنقذ •

والتنمية الاقتصادية عملية اجتماعية وسياسية بالاضافة الى كونها مشكلة اقتصادية • وهناك أمور ضرورية لفهم كيفية الوصول الى التقدم الاقتصادى أهمها الموقع الجغرافى والموارد الطبيعية وعدد السكان وتركيبهم من حيث الاعمار والمهارات والمؤسسات السياسية والاجتماعية والقانونية الاقتصادى وهو يمثل طريقة السيطرة التى بواسطتها تدار الفعاليات وطرق تسويتها •

والتخطيط الاقتصادى ما هو الا طريقة لتنظيم مجهود المجتمع الاقتصادية وهو يمثل طريقة السيطرة التى بواسطتها تدار الفعاليات الاقتصادية فى البلد لتكون جهازا اقتصاديا معقدا ويضم الاستعمالات والترتيبات الرسمية وغير الرسمية التى توضع عقليا والتى تتعلق بالامور التى تخص نوع الانتاج وكميته ومن يشارك فى الانتاج وكيفية استهلاك السلع والخدمات وكيفية توزيع الدخل القومى بين عوامل الانتاج وعائدية السلطات ومدى استغلال المصادر المادية والبشرية واستخدامها • ويجب أن يكون الهدف دفع تطور اقتصادى متوازن واحراز أقصى زيادة ممكنة فى معدل الانتاج • ويتطلب تنفيذ التخطيط الاقتصادى دراسة الموارد الاقتصادية دراسة وافية واقامة قاعدة وطيدة يبنى عليها التطور الاقتصادى •

لا يمكن أن ينظر الى مشروع السنوات العدة الا بعلاقتها بالماضى لان ما يبنى فى الحاضر يقوم على عوامل لها جذور متمكنة فى الماضى القريب والبعيد • اذن كلا من الماضى والمستقبل يحدد عمل المخطط ولا يجوز اهمال أحدهما اذا أريد الوصول الى الغاية المطلوبة •

والعناصر الرئيسة التى يجب النظر اليها عند وضع الخطة هى : الطاقة العمالية والطاقة المالية والخبرة الفنية وامكانية التنفيذ والنجاح مع مراعاة مقتضيات المصلحة العامة وبما يتفق والقواعد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتقاليد الوطنية • وحسن رسم الخطة ينطوى على خطوتين رئيستين : (١) اختيار أهداف تقع فى حدود الامكانيات المتاحة خلال فترة التخطيط • (٢) واستخدام الموارد والامكانيات بالشكل الذى يحقق

الاهداف على أكبر درجة وبأقل تكليف •

والتخطيط الاقتصادى لا بد أن يؤدى الوظائف الثلاث التالية : (١) توجيه الانتاج أى تقرير نوع السلع والخدمات وكميتها التى ينتجها المجتمع • (٢) وتنظيم الانتاج أى تقرير أفضل النسب التى تشترك فيها عوامل الانتاج فى العملية الانتاجية • (٣) وتوزيع الانتاج أى تقرير نصيب كل عامل من عوامل الانتاج التى ساهمت فى العملية الانتاجية •

وفى الوقت الحاضر أصبح التخطيط الاقتصادى من أهم الوسائل للوصول الى تطوير اقتصادى واجتماعى وبعض الناس يعتبرونه الوسيلة المنقذة للشعوب من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية • وهذا مما جعل الحكومة تصبح محور الفعاليات الاقتصادية والاجتماعية وتلعب الدور الكبير فى الاقتصاد المخطط وفى توجيهه فى الامد القصير والامد الطويل • فهى التى تعين نوع الانتاج وكميته وتوازن الحاجات الضرورية وغيرها وتحاول أن تقلل من الفروق فى الدخل على قدر الامكان • ومثل هذه السياسة يجب أن تحتضن أربعة أهداف : التقدم والاستقرار والعدالة والحرية •

والتخطيط القومى عملية مستمرة يبدأ الاعداد لها بتحديد الاهداف الرئيسة والتعرف على الاطار العام للخطة ثم تبحث المشروعات التى تقترح فى مختلف قطاعات الاقتصاد بحثا تفصيليا وتجمع نتائج هذه المشروعات وآثارها لاختيار مدى تماسك الخطة وانطباقها على الاطار العام المحدد ويعاد بحث المشروعات للتأكد من أن الوصول الى الاهداف الرئيسة ممكن بتنفيذ المشروعات المقترحة فى حدود الطاقة المادية والبشرية والفنية المتوفرة فى البلد •

والعراق أحوج الى انتهاج سياسة اقتصادية شاملة موجهة للنهوض باقتصادياته • وانه لضرورى رسم خطط للتنمية الاقتصادية فى القطاعات الاساسية ولو أن الاهتمام بنواحى محدودة لا ينهض بالفائدة المتوخاة بأكملها وقد يأتي باضرار كثيرة فيعرقل التطور الاقتصادي ويجب أن

يشمل التخطيط الفعاليات الزراعيـة والصناعية ونمـو وتركيب ومهـارة الافـراد •

ولضمان نجاح هذه السياسة يلزم تنوير الجمهور العراقى عن أهمية التخطيط والفوائد المتوخاة بمختلف الطرق والوسائل • وبدون اتبـاع سياسة تخطيطية يصعب استغلال جميع القوى والموارد الطبيعية والانطلاق الى الامام والخلاص من الجمود والركود الاقتصـادى والاجتماعى الذى ورثناه عن الماضى البغيض •

نشوء الاصناف والحرف فى الاسلام

للدكتور عبدالعزيز الدورى
الاستاذ فى قسم التاريخ

١ ـ تلعب الاسواق ، حيث الصناع والتجار ، دورا حيويا فى تأريخ المدن الاسلامية • ولا يقتصر دورها على الحياة الاقتصادية بل يتعداه الى النواحى الفكرية والاجتماعية والسياسية •

وربما كان للارث الحضارى الساسانى والبيزنطى أثره فى حياة التجار والصناع • ويمكننا أن نضيف أثر الاسلام والبيئة التجارية التى ظهر فيها •

فقد كانت توجد أصناف لاهل الحرف والتجار فى العصر البيزنطى فى الاناضول وسورية ومصر • وكانت الاصناف فى القسطنطينية خاضعة لرقابة دقيقة للدولة ، وهذه تتطلب منها بعض الخدمات وتشرف على فعالياتها بواسطة مشرف خاص (Eparch) • وكان الهدف الرئيسى من تنظيم الاصناف تيسير سيطرة الدولة على الحياة الاقتصادية وخدمة الدولة والمستهلك لا خدمة الصنف ذاته • وكانت الحكومة تعين رؤساء الاصناف وتستعين بموظفين خاصين للنظر فى أمورهم[١] •

ومن المحتمل وجود تنظيمات حرفية لدى الساسانيين ولكننا لم نجد معلومات تذكر عنها •

Ostrogorsky=History of the Byzantine State (Transl. by J. Hussey) London 1956 p. 224-5; Rostovzev = Economic and Social History of the Hellenistic World p.445, p.1222, p.1066, p.1063.

وروستوفتزف ـ تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ـ تعريب زكى على ومحمد سليم سالم ، القاهرة ١٩٥٧ ص٢٣٢ وص٢٤٤ـ٢٤٥ •

وضآلة المعلومات تجعل بحث مسألة الجذور الحضارية ، ساسانية أو بيزنطية ، لتنظيمات الصناع فى اطار الفرضيات الشكلية • ويؤكد ذلك ان معلوماتنا عن تنظيم الصناع فى الفترة الاسلامية ، على ضآلتها ، تشير الى نمو طبيعى فى الظروف العامة التى أحاطت بها •

وقد بانت هذه التنظيمات منذ القرن الثالث الهجرى وكانت فى وضع يختلف عن الاوصاف البيزنطية •

ويبدو ان نشاط أهل الصنايع يتصل اتصالا وثيقا بنشاط العامة فى المدن ، وان بوادر الحيوية والتنظيم المستقل تقع فى الفترة التى بدأت فيها حركة العامة منذ القرن الثالث الهجرى • كما ان الثورة الاجتماعية التى رافقت قيام العباسيين أثرت بدورها على وضع أهل الصنايع ، فلم يعودوا من الموالى فقط بل وجدت بينهم جماعات عربية ، كما انهم لم يقفوا بعيدين عن الحركات الاجتماعية بل شاركوا فيها بصورة فعالة •

ومشكلتنا الاساسية فى بحث الموضوع هى ندرة المعلومات وخاصة عن بدء تنظيم أهل الصنايع لانفسهم • ولكن أهمية فترة التكوين تحفزنا الى محاولة دراستها والاقتصار على الفترة التى سبقت سقوط بغداد والتى لم تحظ بما تستحق من اهتمام(٢) •

وهذا يتطلب منا أن نبحث فى وضع الاسواق فى حياة المدن ودور الحكومة فى الاشراف عليها وبوادر النشاط المستقل بين الصناع ونموه •

٢ ـ وحين ننظر الى المدن التى أنشأها العرب نستطيع ملاحظة التطور بصورة أوضح من المدن القديمة ، وهنانرى أن المراكز الاساسية للحياة العامة فى المدن هى الجامع ودار الامارة والسوق ، والسوق هو

---

(٢) أنظر ب • لويس ـ النقابات الاسلامية ـ مجلة الرسالة ١٩٣٩ و
B. Lewis-Islamic Guilds, E.H.R. 1937,
L. Massignon=Ency. of Soc. Sc. art. Guilds (Muslim)
L. Massignon=Situation de l'Islam, Paris 1939 p. 16 off.

مركز الحياة الاقتصادية • ويظهر هـــذا بتماثل واضح فى كافة المـــدن الجديدة •

فعند تمصير الكوفة جعلت وسط المدينة ساحة واسعة لم يسمح لاحد بالبناء فيها وكانت تحوى الجامع والقصر والسوق ، وكان السوق أمام دار الامارة[٣] ، ويلاحظ أنه لم يكن فى السوق بناء فى البدء ، وقد أوضـح عمر بن الخطاب مفهومه بقوله : « الاسواق على سنة المساجد ، من سـبق الى مقعد فهو له »[٤] • وهذا لا يدل على وجود تصميم معين بالنسبة لاهل الحرف • ولكن يبدو أن الصناع والباعة تجمعوا بعدئذ كل فى موضـع وأصبح لكل حرفة سوق أو مجموعة حوانيت ضمن اطار السوق الكبير • ويظهر هذا جليا حوالى منتصف القرن الاول الهجرى[٥] • وهذا التطور ناشىء عن رابطة المشاركة فى الحرفة بين الصناع من جهة ، ومتطلبـات الاشراف الحكومى على الحرف كما سنرى • ونعتقد ان رابطة المشاركـة هذه رابطة اجتماعية موروثة خاصة اذا تذكرنا أن عامة الصناع هـم من الموالى وأهل الذمة فى البدء • وقد حصل تطور مماثل فى البصرة •

واذا كان تجمع الصناع طبيعيا من جهة وموجها من جهة ثانية فى الكوفة والبصرة ، فان بناء واسط (تم سنة ٨٦هـ) يشير الى اهتمام خاص بالاسواق والى أول تنظيم واضح للسوق • فقد بنى الحجاج قصره وبجنبه المسجد الجامع وبنى أسواقا كبيرة تمتد من القصر الى شاطىء دجلة • وقد أورد بحشل وصفا لتنظيم السوق جاء فيه : « وأنزل الحجاج أصحـاب الطعام والبزازين والصيـارفة والعطارين عن يمـين السـوق الى درب الخرازين ، وأنزل البقالين وأصحاب السـقط وأصحاب الفاكهة فى قبلة السوق والى درب الخرازين ، وأنزل الخرازين والروزجاريين والصناع فى درب الخرازين ، وعن يسار السوق الى دجلة • وقطع لاهـل كـل

---

(٣) الطبرى ـ الطبعة الحسينية جـ٤ ص١٩٣ •
(٤) ن • م • جـ٤ ص١٩٢ •
(٥) انظر الطبرى جـ٦ ص٢١٣ـ٢١٤ •

تجارة قطعـــة لا يخالطهم غيرهم • وأمر أن يكون مع أهل كل قطعـــة صيرفى ، وترك الحجاج رحبة واسعة جنوب السوق مساحتها ٣٠٠ ذراع فى مثلها(٦) • وفى هذا ما يشعر بأهمية السوق فى حياة المدينة ، وبانضواء الصناع والباعة كل فى حرفته ، وبوضع كل حرفة فى سوق أو قطعـــة خاصة بها •

ومن الطبيعى أن لا تقتصر المدينة على الاســـواق التى تظهر عنـــد تأسيسها قرب المسجد الجامع بل تنشأ أسواق جديدة نتيجـة الاوضـــاع الاقتصادية • ففى الكوفة نشأ سوقان مهمان : دار الرزق فى الشـــرق من عند الجسر الى مركز المدينة ، والكناسة عند باب المدينة الغربى ، ولقـــد تطور الاول من مركز لبيع غنائم الحرب ، ونشأ الثانى محطة للتجارة مع الجزيرة العربية(٧) • هذا اضافة الى السوق المركزى جنب القصر • وبقى السوق المركزى مظللا بالحصر حتى ولاية خالد القسرى (١٠٥-١٢٠هـ) الذى « بنى الاسواق وجعل لاهل كل بياعة دارا وطاقا »(٨) • وهذا يدل على اهتمام بالسوق وبتنظيم الحرف •

وفى البصرة نلاحظ نشأة سوق كبير فى المربد على الطرف الغربى من المدينة على طريق القوافل • كما ظهر سوق آخر فى القسم الشرقى على نهر عبدالله بن أبى عامر الذى يتصل بدجلة العوراء ، هذا اضافة الى السوق الكبير(٩) •

---

(٦) بحشل ـ تاريخ واسط (خط ، مكتبة مديرية الآثار القديمة العامة ـ بغداد ـ رقم (٦) ص١١) ، المقدسى ـ أحسن التقاسيم ص١٣٢ •

(٧) الدورى ـ تاريخ العراق الاقتصادى ص١٣٢ •

(٨) اليعقوبى ـ البلدان (ط • دى خويه) ص٣١١ ، وماسينون ـ خطط الكوفة ـ وتعريب المصعبى ص٣٢ وبعدها •

(٩) صالح العلى ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ص٢٣٨ ، المقدسى ص١١٧ ، الدورى ـ نفس المصدر ص١٢٩-١٣١ •

ومن هذا نرى أهمية طرق التجارة سواء أكانت برية أم نهرية فى ظهور الاسواق ومواقعهـــا • بل أن وضع الاســـواق قرب الجامع ناتج عن كونه مركز التجمع فى المدينة وملتقى طرقها الرئيسية • وبعد هـــذا فاننا نلاحظ بصورة عامة فى حياة المدن الاسلامية ان أسواقها الفرعية تكون عادة قريبة من أحد المساجد •

ان ما مر يعطى فكرة عن الاتجاه الذى نشهده جليا فى تنظيم المدن الاخرى كالقيروان وبغداد وسامراء • فابن عذارى يورد نصا يفيد الاهتمام بتنظيم الحرف فى القيروان سنة ١٥٥هـ اذ يقول : « وكان (الامير) يزيد (ابن حاتم) هذا حسن السيرة ، فقدم افريقية وأصلحها ورتب أســـواق القيروان وجعل كل صناعة فى مكانها »[١٠] • وهذا يذكرنا بما فعله خالد القسرى فى الكوفة ويشير الى تطور متماثل مع ان الكوفة فى منطقة كانت ضمن الحضارة الساسانية والقيروان فى منطقـة كانت ضمن الحضـــارة البيزنطية •

ولما بنيت بغداد وجهت عناية خاصة الى الاسواق بما فيها من تجـار وباعة وصناع ، فنرى فيها أسواقا رئيسية وأخرى فرعية حتى كان فى كل ناحية ومحلة سوقها[١١] • ويعطينا وصف أسواق الكرخ المهمة صـورة لتنظيمها ، اذ كان فيها « لكل تجارة وتجارة شوارع معلومة وصفوف فـى تلك الشوارع وحوانيت وعراص ، وليس يختلط قوم بقوم ولا تجـــارة بتجارة ، ولا يباع صنف مع غير صنفه ولا يختلط أصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهـم وكل ســـوق مفـــردة وكل أهـــل صنف مفردون بتجاراتهم »[١٢] • ويلاحظ أن الاســـواق الكبرى كانت على طـــرق

---

(١٠) ابن عذارى المراكشى ـ البيان المغرب (نشره دوزى ، ليدن ١٨٤٨) ص٦٨ •

(١١) اليعقوبى ـ البلدان ص٢٤٢ •

(١٢) ن • م • ص٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، الدورى ـ تاريخ العراق ص١٢٦ وبعدها •

المواصلات الرئيسية • وقد تقاطر أهل الصناعات الى بغداد اذ أن « حذاق أهل الصناعات انتقلوا اليها من كل بلد وأتوها من كل أفق »[١٣] واتبعت نفس الخطة فى بناء سامراء اذ اختطت « الاسواق حول المسجد الجامع ووسعت صفوف الاسواق وجعلت كل تجارة منفردة وكل قوم على حدتهم على ما رسمت عليه أسواق بغداد » • هذا اضافة الى الاسواق الصغيرة فى القطائع المختلفة[١٤] •

وهكذا نجد أن تنظيم أهل الحرف فى العصر العباسى الاول كان تنظيما شاملا لجميع أصنافهم •

٣ ـ ولننظر الى تنظيم الاسواق وحياة أهل الصنايع فى صدر الاسلام وثم فى العصر العباسى • كانت الاسواق تحت اشراف موظف يدعى « العامل على السوق » وأول اشارة اليه ترجع الى زمن عمر بن الخطاب • فقد كان السائب بن زيد « عاملا على سوق المدينة »[١٧] • ويذكر عن عبدالله بن عتبة أنه « استعمله عمر على السوق » ، ويبدو ان الاشارة الى أسواق الكوفة[١٦] • وترد اشارة أخرى الى عامل سوق المدينة لعثمان بن عفان[١٧] • ويرد ذكر عامل على سوق البصرة لزياد بن أبيه[١٨] • وتولى مهدى بن عبدالرحمن وأياس بن معاوية على التعاقب وظيفة « العامل على السوق » فى واسط زمن ابن هبيرة (١٢٩ ـ ١٣٢هـ) • ورفض أياس هذا العمل أيام يوسف بن عمر (١٢٠ ـ ١٢٦هـ)[١٩] • ويبدو

---

(١٣) اليعقوبى ص٢٥١ •
(١٤) ن • م • ص٢٥٨ ، أنظر ابن الربيع ـ سلوك المالك ص١٢٠ ـ ١٢١ •
(١٥) ابن سلام : الاموال ص٥٣٣ •
(١٦) الاصابة فى معرفة الصحابة جـ٢ ص٣٣٤ •
(١٧) البلاذرى : أنساب الاشراف جـ٥ ص٤٣ •
(١٨) صالح العلى ص٢٣٩ عن البلاذرى ـ أنساب جـ٤ ص٧٨٦ من مخطوط القاهرة •
(١٩) وكيع : أخبار القضاة جـ١ ص٣٥٣ •

أن هذه الوظيفة استمرت طيلة العصر الاموى وكانت ممهدة لوظيفة المحتسب •

ولدينا أول اشارة صريحة الى الحسبة من زمن المنصور العباسى ، فقد كان عاصم بن سليمان الاحول « على الكوفة على الحسبة فى المكاييل والاوزان »[٢٠] كما كان لهذا الخليفة محتسب ببغداد[٢١] •

ويبدو ان ازدياد أهمية الاسواق وتشعبها من جهة ، وتجمع أهل كل صنف أو صناعة فى سوق خاصة ، أدى الى تعيين عرفاء للاصناف يستعين بهم العامل على السوق • ويشير وكيع الى عريف على سوق السنانير فى الكوفة وعريف على سوق الدجاج[٢٢] • وكان أبو حنيفة عريفا على الحاكة[٢٣] • وهؤلاء العرفاء كما يظهر كانوا يساعدون العامل على السوق فى الاشراف على الحرف والنظر فى بعض مشاكلهم •

وتمنعنا قلة المعلومات من اعطاء أكثر من مخطط عام لاعمال العامل على السوق والعرفاء •

يبدو أن العامل على السوق كان يتولى مراقبة الاوزان والمكاييل[٢٤]، ويتولى جباية بعض الضرائب على السوق كالعشور[٢٥] • وكان من جملة الشكوى على الحارث بن الحكم الذى ولاه عثمان سوق المدينة انه كان « يجبى مقاعد المتسولين » واعتبر هذا سوء تصرف[٢٦] • وكان يفرض « المكس » أحيانا على المبيعات فى السوق وهو غير العشر[٢٧] • جاء فى

---

(٢٠) ابن سعد جـ٧ ق٢ ص٦٥ ـ توفى عاصم عام ١٤١/١٤٢هـ •
(٢١) الخطيب البغدادى ـ تاريخ بغداد جـ١ ص٧٩ •
(٢٢) وكيع ـ أخبار القضاة جـ١ ص٣٤٧ •
(٢٣) الخطيب البغدادى جـ٣ ص ٦٧ •
(٢٤) ابن سعد ـ الطبقات جـ٧ ق٢ ص٦٥ •
(٢٥) ابن سلام ـ الاموال ص٥٣٣ •
(٢٦) البلاذرى ـ أنساب جـ٥ ص٤٣ •
(٢٧) Grohmann-Arabic Papyrii III pp. 9-11.

ورقة بردى بتاريخ ٩١هـ رفع المكس عن بيع الحبوب فى الفسطاط لتجنب الغلاء[٢٨] .

وقد ألغى عمر بن عبدالعزيز المكس لكثرة التذمر منه واعتبره غير شرعى كما جاء فى رسالته الى عدى بن أرطاة أمير البصرة « وضع عن الناس المكس وليس بالمكس ولكنه البخس ... فمن جاءك بصدقة فاقبلها منه ومن لم يأتك فالله حسيبه »[٢٩] وكان يؤخذ من الباعة والصناع أحيانا « كراء » عن الحوانيت التى يشغلونها والتى شيدتها الحكومة كما يبدو . يقول وكيع : « بلغنى أن أياسا كان على سوق واسط ، وكلمه ابان بن الوليد فى درهم يحطه عن كراء حانوته ... »[٣٠] . ولذلك نجد الباعة والصناع فى سوق ابن عامر بالبصرة « لا خراج عليهم فيه » لانه اشترى السوق من ماله ووهبه لهم[٣١] . وعلى كل فان هذه الضريبة لم تستقر الا فى زمن المهدى العباسى . وقد تفرض ضرائب خاصة على الصناع على قدر احتمالهم[٣٢] وهى غير الجزية .

ويظهر أن العامل على السوق فى المركز (العاصمة) يعين من قبل الخليفة ، أما فى الامصار فيعين من قبل الامير[٣٣] .

أما العرفاء فيعينون من قبل الامير ، وقد يعينهم القاضى[٣٤] .

---

(٢٨) جاء فى ورقة البردى هذه « ... الى الفسطاط ، فانى قد وضعت عنهم مكسه ، فليبعيوه بالفسطاط ، وعجل ذلك فانى قد خفت غلا الطعام بالفسطاط وانى اذا وضعت للتجار مكسهم أصابوا ربحا حسنا » . Grohmann, O. C, III p. 8.

(٢٩) ابن سلام ص٥٢٦-٥٢٨ .

(٣٠) وكيع - أخبار القضاة جـ١ ص٣٥٧ .

(٣١) ابن حبيب - المحبر ص١٠٥ .

(٣٢) سيده كاشف - مصر فى فجر الاسلام ص٥٥ وما بعدها .

(٣٣) وكيع - أخبار القضاة جـ١ ص٣٥٣ ، البلاذرى - أنساب جـ٥ ص٤٣ .

(٣٤) وكيع - أخبار القضاة جـ١ ص٣٤٧ .

ويرجح انهم فى الاصل من الاصناف ذاتها ، فأبو حنيفة عريف الحاكـــة كان يبيع الخز فى حدائته فى سوق الكوفة ، وهذا ما يؤكد وجود كيان متميز لكل صنف .

وهناك ما يشير الى وجود عرف خاص بين الصناع يتبعونه فى أمورهم حتى أن القضاة يقرونه فى بعض المشاكل الحرفية . يذكر وكيـــع « أن قوما من الغزالين اختصموا الى شريح فقالوا سنتنا بيننا كذا وكذا ، فقـال سنتكم بينكم »(٣٥) .

وكان عامة الصناع وأهل الحرف فى صدر الاسلام من الموالى وأهل الذمة وهم فى منزلة اجتماعية واطئة . ولكنهم كانوا أحرارا فى ممارسة المهنة التى يريدونها ولم تتدخل الحكومة فى شؤونهم خارج ضبط الاوزان والمكاييل ، وفرض ما أشرنا اليه من ضرائب والنظر فيما ينشأ بينهم من خلافات(٣٦) .

٤ ـ نمت الحياة المدنية فى العصر العباسى ، وتوسعت العـامـة فى المدن ، وازدادت أهميتها بالتدريج . ولا شك أن تكتل الصناع فى أسواق خاصة ، وما يجابهونه من مشاكل ، وتطور الحياة الاقتصادية قوت تماسكهم وجعلتهم يزيدون فى تنظيمهم .

ونجد أهل الحرف يشار اليهم بـ « الاصناف »(٣٧) . و « أصحاب المهن »(٣٨) . و « أهل الصنايع » .

وقويت الرابطة بين أهل الصنايع ، وصار كل يشعر بالارتباط الوثيق بزملائه ، وصار من أقوالهم المأثورة : « الصناعة نسـب »(٣٩) . وبلـغ

---

(٣٥) وكيع ـ أخبار القضاة جـ٢ ص٣٥١ و٣٧٢ .
(٣٦) أنظر صالح العلى ـ التنظيمات الاجتماعية ص٢٧١ وبعدها.
(٣٧) رسائل الجاحظ ـ نشر السندوبى ص١٢٦ .
(٣٨) اليعقوبى ـ البلدان ص٢٥٩ .
(٣٩) الجاحظ ـ البخلاء . ط المجمع العلمى بدمشق ص٥١ .

التماسك حد العصبية للمهنة والاعتزاز بها • ويشـــير الجاحظ الى ذلك بقوله : « وكل صنف من الناس مزين عندهم ما هم فيه ومســـهل ذلك عليهم ، فالحائك اذا رأى تقصيرا من صاحبه أو سوء حذق قال : يا حجام ! والحجام اذا رأى تقصيرا من صاحبه قال له يا حائك ! »(٤٠) •

ويتصل بالتماسك الحرفى والشعور بالكيان لدى أهل الصنايع انتشار الانتساب الى المهنة جنب الانتساب الى المدينة أو القبيلة ، ومن أمثلة ذلك بين المشـــهورين « الزيات » و « الجراح » و « الزجاج » و « الفـــراء » و « الحلاج » و « الثعالبى » • وأصبحت النسبة للحرفة شـــائعة بصورة خاصة فى الطبقة العامة(٤١) • وهذا الاتجاه يدل على تحسن النظرة الى الصناعات اليدوية •

ومن مظاهر تماسك الاصناف وتركز كيانهم ، وقوف الصنف كوحدة تجاه الخطر الخارجى • ففى سنة ٣٠٧هـ اقتتل الاساكفة مع أهل الطعام بالموصل(٤٢) •

وفى سنة ٣١٨هـ اقتتل أصحاب الطعام مع البزازين فى الموصل ثم اشترك الاســـاكفة مع البزازين فقهروا أصحـاب الطعـــام « وأحرقـوا أسواقهم »(٤٣) وفى سنة ٤٢٢هـ حدثت معارك فى الرصافة بين الاصناف مثل أهل سوق السلاح وأهل سوق يحيى والاساكفة(٤٤) • ووقعت فى نفس السنة فتنة بين أصحاب الاكسية وأصحاب الخلقان فى الكرخ(٤٥) •

---

(٤٠) رسائل الجاحظ (السندوبى) ص١٢٦ •
(٤١) حكاية أبى القاسم البغدادى (نشره متز) ص٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ •
(٤٢) ابن الاثير جـ٨ ص٩٠ •
(٤٣) ابن الاثير جـ٨ ص١٥٨ •
(٤٤) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ٨ ص٥٥ ـ ٥٦ •
(٤٥) ن • م • جـ٨ ص٥٥ •

ومن أمثلة تضامنهم ضد العدوان أنه فى سنة ٤٢٣هـ دخل العيارون ليلا على أحد البزازين وأخذوا ماله « فتعصب له سوقه » وقاتلوا العيارين وأجبروهم على ارجاع بعض ما سلبوا(٤٦) .

وقد تصطدم الاصناف بالحكومة دفاعا عن مصالحها . ففى سنة ٣٧٤هـ فرض صمصام الدولة ضريبة العشر على المنسوجات القطنية والحريرية التى تصنع فى بغداد فهاج الصناع وألغيت الضريبة(٤٧) . ثم أعيد فرض هذه الضريبة سنة ٣٨٩هـ فثار سكان محلة العتابية ومحلة باب الشام ، وهى مواطن صناع هذه الاقمشة ، « وقصدوا المسجد الجامع بالمدينة ... ومنعوا الخطبة والصلاة وضجوا واستغاثوا وباكروا الاسواق على مثل هذه الصورة » ، ولكن ثورتهم أخمدت بعد أربعة أيام(٤٨) .

وفى سنة ٤٢١هـ اقتتل القلاؤن بالكرخ مع الجند التركى دفاعا عن أنفسهم(٤٩) .

وقد سبق للاصناف أن اشتركت فى الدفاع عن بغداد نفسها حين حوصرت فى زمن الامين . فقد كان « أهل السوق » من جملة المتطوعين فى الدفاع(٥٠) .

كل ذلك يشير بوضوح الى تركز الاصناف فى الحياة العامة والى شعورها بكيانها وبوحدة مصالحها .

ويبدو أن دور أصحاب الصنايع والحرف ازداد أهمية فى العصر البويهى فى العراق كما زاد تماسكهم وتكتلهم . فالماوردى يرى فى العرف

---

(٤٦) ن . م . جـ٨ ص٦٢-٣ .
(٤٧) ابن الاثير جـ٩ ص٣٣ .
(٤٨) الصابى - تاريخ الوزراء ص٣٦٨ . مسكويه - تجارب الامم جـ٣ ص٣٦١-٢ .
(٤٩) ابن الجوزى - المنتظم جـ٨ ص٤٧ .
(٥٠) الطبرى جـ١٠ ص١٧٦ وبعدها .

الجارى بين أهل الصنايع أساسا يستطيع المحتسب الرجوع اليه[٥١] . ويبين ابن الاخوة ، وهو يتابع من قبله ، ان من صفات المحتسب « أنه من أهل الاجتهاد العرفى دون الشرعى ... والاجتهاد العرفى ما ثبت حكمه بالعرف »[٥٢] ، ويذكر أن الحسبة على الحلوانيين تستند الى العرف[٥٣] . ومن المنتظر أن يكون للعريف دور يذكر فى تثبيت العرف الذى يتبعه أهل الصناعة[٥٤] . ويؤكد ابن عبدون ذلك حين يقول : « يجب للقاضى أن يجعل فى كل صناعة رجلا من أهلها ، فقيها عالما خيرا ، يصلح بين الناس اذا وقع الخلاف فى شىء من أمورهم ولا يبلغون به الى الحاكم ، .. فهو أرفق لهم وأستر لانكشافهم »[٥٥] .

ويهمنا بصورة خاصة أن أرباب الصنايع قبلوا أحيانا كشهود من قبل القضاة[٥٦] . وفى هذا اعتراف اجتماعى بهم وتحول فى النظرة اليهم . ونجد مسألة قبول شهادة أهل الحرف فى نهاية الفترة أمر طبيعى ويقتصر النقاش ، بين نفى وتأييد ، على « أهل الصنايع الرذلة » كالحجامة والحياكة[٥٧] .

وكانت المهن مفتوحة للمسلمين وغيرهم ، وساهم أهل الذمة فى كثير منها . وكان فى الرابطة المهنية خير أساس للتسامح والتعاون . ففى القرن الثالث كان من النصارى « أطباء الاشراف ، والعطارين والصيارفة » فى حين أنك « لا تجد اليهودى الا صباغا أو دباغا أو حجاما أو قصابا أو

---

(٥١) الاحكام السلطانية ص٢٣١ .
(٥٢) معالم القربة ص٩ ، ص١١ .
(٥٣) ن . م . ص١١٣ .
(٥٤) المقريزى ـ اغاثة ص١٨ـ١٩ .
(٥٥) ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة (نشر ليفى بروفنسال) القاهرة ١٩٥٥ ص٢٤ .
(٥٦) ابن الجوزى المنتظم جـ٩ ص٢١٠ ، سنة ٥١٣هـ .
(٥٧) ابن الاخوة ـ معالم القربة ص٢١٥ .

شعابا »[٥٨] . ثم اتجه اليهود الى التجارة والصيرفة ولعبوا دورا كبيرا فيهما . ولدينا رسالة وجهها أبو عبدالله يحيى بن فضلان الى الناصر لدين الله تبين مدى تغلغل أهل الذمة فى الحرف ، جاء فيها : « ومنهم أرباب المعايش من العطارين والمخلطين والكسارين أصحاب المكاسب الظاهرة ... ومنهم أصحاب الحرف والصناعات من الصاغة وغيرهم ... ومنهم الجهابذة ومنهم الصيارفة »[٥٩] .

ويتبين أثر الرابطة المهنية فى خبر يفيد تدخل المحتسب سنة ٤٨٨هـ فى بغداد لمنع بعض الاصناف كالبزازين من فتح حوانيتهم يوم الجمعة وغلقها يوم السبت ، « وقال هذه مشاركة لليهود فى حفظ سبتهم[٦٠] ، وهذا يدل على أن بعض أهل الصنايع كانوا يغلقون حوانيتهم يوم الجمعة .

وبلغ من أهمية الاصناف أنها أخذت تشارك فى المناسبات العامة بصفتها المهنية . ففى سنة ٤٨٠هـ ، ولد للمقتدى ولد ، فزين البلد ابتهاجا ، « وزينت سوق الصاغة بأوانى الذهب والفضة والجواهر ، وأظهر الكافوريون تماثيل من الكافور ، وأظهر كل قوم من صناعهم عجبا ، فسير الملاحون سفينة على عجل ، وأظهر الطحانون ارحاء تطحن على وجه الارض »[٦١] . وواضح من هذا أن كل صنف أبرز ما يدل على صنعته اعتزاز بالحرفة ومشاركة بالمناسبة .

وتأتى الاشارة الاخرى فى سنة ٤٨٨هـ ، حين تقرر بناء سور الحريم ، فخرج الوزير « واذن للعوام فى الفرجة والعمل » . وهنا تبارى أهل المحلات ورجال الاصناف فى عمل المواكب ، فعمل أهل باب المراتب

---

(٥٨) الجاحظ ـ الرد على النصارى ، ثلاث رسائل ـ باعتناء ى . فنكل ص١٧ . والبخلاء (ط .. دمشق) ص١٦٢ .

(٥٩) ابن الفوطى ـ الحوادث : ص٦٩ .

(٦٠) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ٩ ص٩١ . وانظر آدم متز جـ١ ص٦٥ وبعدها .

(٦١) ابن الجوزى ـ المنتظم ـ جـ٩ ص٣٨ .

من البوارى المقيرة على صورة الفيل وتحته قوم يسيرون به ، وعملوا زرافة كذلك • وأتى أهل قصر عيسى بسميرية كبيرة فيها الملاحون يجدفون وهى تجرى على هاذور ، وأتى أهل سوق يحيى بناعورة تدور معهم فى الاسواق • وعمل أهل سوق المدرسة قلعة خشب تسير على عجل وفيها حائك ينسج ، وكذلك الخبازون جاءوا بتنور وتحته ما يسير به ، والخباز يخبز ويرمى الخبز الى الناس(٦٢) •

ان هذه المواكب تشير الى الدور الهام الذى تلعبه الاصناف فى حياة المدن اجتماعية واقتصادية ، والى شعور السلطات بهذا الدور • وهناك ما يدل على أن السلطات كانت تنظر اليهم كمنظمات اجتماعية متضامنة فى المسؤولية • فمثلا قتل شخص فى الانبار سنة ٥٩٥هـ ، ففرضت الحكومة دية على بعض أهل المدينة ووضعت « على الصفارين ٥٠٠ دينار »(٦٣) ، فاعتبرت صنف الصفارين مسؤولا بالتضامن • وحين أساء معلم اساءة خلقية قبيحة سنة ٦٠٠هـ ، وأريد معاقبته ، « أحضر جميع المعلمين بمدينة السلام » و « عوقب (المسىء) بمشهد من الجميع »(٦٤) •

وقد حصلت تطورات داخلية فى تنظيم الاصناف اكسبتها اطارها العام • فلكل حرفة (رئيس) من أصحابها تعينه الحكومة عادة أو تعترف به ويظهر أنه شيخ الصنف(٦٥) ويليه (الاساتذة) وهم المتقدمون فى الصنف • ويبدو أن تعبير (استاذ) فى بغداد يقابله تعبير (معلم) فى القاهرة(٦٦) • ثم يأتى الصناع وهم ممن تعلموا المهنة بحيث يستطيعون

---

(٦٢) ن • م • جـ٩ ص٨٥ •
(٦٣) ابن الساعى ـ الجامع المختصر ص١٩ـ٢٠ •
(٦٤) ن • م • ص١٢١ •
(٦٥) اليعقوبى ـ البلدان ص٢٤٨ ، التنوخى ـ نشوار المحاضرة جـ١ ص٣٨ ، المقريزى ـ الخطط • (بولاق) • جـ١ ص٤٦٣ •
(٦٦) Wiet-Les Mosquees du Caire, I, p.311
ويقول ناصر خسرو « ورأيت كذلك (فى مصر) معلمين مهرة ينحتون بلورا فى غاية الجمال » سفرنامة تعريب الخشاب ص٥٩ـ٦٠ •

فتح حوانيت لهم وممارسة الصنعة مستقلين[٦٧] • ويلى هؤلاء المبتـــدؤن وهم الذين ينتسبون الى الصنف ويتدربون على أيدى الصناع •

ويظهر أن طلبة المدارس (الكليا ت) والمدرسين فيها يشكلون صنفا خاصا ويتدرجون وفق السلم الذى نشهده فى بقية الاصناف، فهناك المتفقهون أو الطلبة[٦٨] ، والمعيدون والمدرسون أو الاســاتذة[٦٩] • ويتــدرج الشخص من طالب الى معيد الى مدرس • فمثلا عين أبو المكارم الزنجانى معيدا فى النظامية ثم ولى التدريس بمدرسة ثقــة الدولة أبى الحسـن الدرينى بباب الازج سنة ٥٩٣هـ[٧٠] • وقد نجد (نائبا) جنب المـدرس يساعده فى التدريس وقد ينفرد بذلك[٧١] • وشعار هذا الصنف الجبـة السوداء ، ويتميز المدرس بطرحه كحلية فيخلع عليه عند تعيينه جبة سوداء وطرحه كحلية[٧٢] • يقول ابن الفوطى عن مدرس جديد فـى النظامية « واذن له أن يدخل المدرسة بطرحة أسوة بالمدرسين »[٧٣] • ولذا فحين تنحى المدرس عن كرسى التدريس يترك الطرحة[٧٤] •

وكان أفراد هذا الصنف متماسكين فحين توفى أحد طلبة النظامية سنة ٥٤٧هـ وأراد متولى التركات ختم غرفته رفض طلبة الكلية هذا التدخل

---

(٦٧) رسائل أخوان الصفا • جـ١ ص٢٥٥ •

(٦٨) يذكر ابن الفوطى عن المستنصرية « شرط أن يكون عـــدة الفقهاء ٢٤٨ متفقها كل طائفة ٦٢ بالمشاهرة الوافرة » • الحوادث ص٥٨ •

(٦٩) ن • م • ص١٥ • وص٥٧ •

(٧٠) ابن الساعى ــ الجامع المختصر ص٦٤ •

(٧١) ابن الفوطى ــ الحوادث • ص٥٥ •

(٧٢) ابن المساعى ــ ص٧٩ ، ابن الفوطى ص٥٥ •

(٧٣) ابن الفوطى ــ ص١٤٨ • فى حوادث سنة ٦٣٨ •

(٧٤) يذكر ابن الفوطى فى أحداث سنة ٦٢٦هـ « استدعى شهاب الدين الزنجانى مدرس النظامية الى داره فأخـذ وهو على السـدة يذكر الدروس وعزل وتوجه الى داره بغير طرحة » الحوادث ص٧ •

وطردوا المتولى فسجن اثنان من الطلبة وعندئذ اعتصب الباقون وتظاهروا داخل المدرسة وعلى سطحها دفاعا عن حقوقهم(٧٥) .

ويشكل المعلمون فى الكتاتيب صنفا خاصا بهم(٧٦) .

٥ ـ وكانت الاصناف تحت اشراف المحتسب . ويتطلب معرفة مدى الاشراف الحكومى على الاصناف دراسة عمله وصلاحياته .

وأول كتاب وصلنا عن الحسبة يرجع لاواخر القرن الثالث الهجرى(٧٧) . بين مؤلفه أنه ينتظر من المحتسب « أن يتفقد أحوال السوق » ليتأكد من صحة المقاييس والمكاييل والاوزان ، وليمنع الغش فى الصناعة والبخس فى الكيل وليتأكد من حفظ الآداب ويمنع التزييف فى النقود . وفى ذلك حماية للمستهلكين عامة .

وفى عهود القرن الرابع الهجرى يوصى ولاة الحسبة « بمراعاة أمور العوام فى المتاجز والصناعات ومنعهم من الغش والتدليس فى سائر المعاملات ، وامتحان المكاييل والاوزان وحياطتها من التطفيف والنقصان »(٧٨) . وجاء فى عهد آخر « والى ولاة الحسبة بتصفح أحوال العوام فى حرفهم ومتاجرهم ومجتمع أسواقهم ومعاملاتهم وأن يعيروا موازينهم والمكاييل ويقرروها على التعديل ، ومن اطلعوا منه على حيلة أو تلبيس أو بخس فيما يوفيه أو استفضال فيما يستوفيه نالوه بغليظ العقوبة وعظيمها »(٨٩) .

ويتطلب الماوردى (ت سنة ٤٥٠هـ) من المحتسب أن يمنع البيوع الفاسدة) و (غش المبيعات وتدليس الاثمان) ويمنع (الطفيف والبخس

---

(٧٥) ابن الجوزى ـ المنتظم . جـ١ ص١٤٦ـ١٤٧ .

(٧٦) أنظر ابن الساعى ص١٢١ .

(٧٧) تأليف الناصر الاطروش الزيدى : ت سنة ٣٠٣هـ . وانظر R. S. O. 1953 pp. 1—32.

(٧٨) من سنة ٣٦٦هـ ، رسائل الصابى . جـ١ ص١٤١ـ١٤٢ .

(٧٩) سنة ٣٦٦هـ . ن . م . ص١١٤ .

فى المكاييـــل والموازين والصبخات) ، ويتأكد من ســـلامة البضاعـــة وجودتها(٨٠) .

وفى عهد للحسبة من القرن السادس الهجرى ، يكلف المحتسب بان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، و « أن يبالغ فى تعديل المكاييل والموازين على وفق أحكام الشرع والدين ، فان وجد تفاوتا فى شىء منها سواه وعدله وغيره وبدله »(٨١) .

ويبين الشيزرى (ت ٥٨٩هـ) فى مطلع كتابه فى الحسبة « ونبهت فيه على غش المتعيشين فى المبيعات وتدليس أرباب الصناعات »(٨٢) . ويقول « وينبغى للمحتسب أن يجدد النظر فى المكاييل » ، وعليه أن يتفقد عيار الصنج والحباب ، والموازين ، وأن يختمها بختم خاص بعد أن يرى أنها من مادة صلدة كالحديد أو مغطـاة بالجلد(٨٣) . ويبين أهميـــة العرفاء لمساعدته فى كشف الغش والتدليس لدى أهل الصناعة(٨٤) .

ومن هذا يتبين أن مهمة المحتسب تنصب على التأكد من صحة الاوزان والمقاييس والمكاييـــل ، ومنـــع الغش والتدليس ، وضمان مراعاة الآداب العامة . ويبدو هذا جليا فيما أورده ابن الجوزى بمناسبة تعيين محتسب سنة ٤٧٢هـ بالحريم ببغداد اذ يقول : « وكان التطفيف فاشيا والامور فاسدة حتى أنه وجد فى ميزان بعض المتعيشين حبات على شـكل الارز من رخام وزن الواحدة حبتان ونصف » . وقبل المرشح المنصب على أن تطلق يده ، فقبل شرطه « واستقامت الامور »(٨٥) .

---

(٨٠) الاحكام الســـلطانية ـ لابى يعـلى الفـــراء ص٢٨٢ـ٣ ، ص٢٨٦ـ٧ ، والاحكام السلطانية للماوردى ص٢٣١ وبعدها .
(٨١) رسائل الوطواط (٥٧٣هـ) جـ١ ص٨٠ .
(٨٢) نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص٣ .
(٨٣) الشيزرى ـ نهاية الرتبة ص١٩ ، ص٢٠ ، انظر ايضا ابن عبدون ـ رسالة فى الحسبة ص٣٩ ، ٤٠ ، ص٤٤ .
(٨٤) ن . م . ص١٢ ، ص٢٠ .
(٨٥) المنتظم جـ٨ ص٣٢٣ .

وقد يسجل المحتسب فى دفتره قائمة بأسماء الصناع وحوانيتهم ومواضعها للرجوع الى ذلك عند الحاجة(٨٦) .

وليس لدينا ما يشير الى اضطهاد مباشر لارباب الصنف ، أو تدخل فى أسعارهم ، أو تحديد لانتاجهم ، بل يبدو أن الهدف الاساسى حماية المستهلك .

ومع ذلك فان النظرة الى الصناع وأهل الحرف فيها شك بامانتهم واتهام لهم بالجهل والضعة(٨٧) . كما أن التحديدات فى كتب الحسبة وان استهدفت ضمان الامانة والنظافة فى الانتاج والبيع ، الا أنها تفتح الباب لسوء الاستغلال من جانب المحتسب وأعوانه ، وقد تفرض قيودا مهنية على الصناع ، ويقابل ذلك مجال الرشوة وخاصة لاعوان المحتسب ولجوء أهل الصنايع اليها والى الوساطات والشفاعات(٨٨) .

وحين ننظر الى الحسبة عند الفاطميين نجدها مماثلة للحسبة عند العباسيين ، فقد كان للمحتسب نواب ومساعدون ، يطوفون على أرباب الحرف والمعايش ، « وهؤلاء يقفون على من يكون سىء المعاملة فينهونه بالردع والادب » . وهم يتفقدون الموازين والمكاييل . وقد جعل الفاطميون للموازين والمكاييل دارا أسموها « دار العيار » يتأكدون فيها من صحة الصنج والموازين والاكيال وذلك بضبطها هناك . وللمحتسب النظر فى دار العيار(٨٩) . والمحتسب يعين النواب أو العرفاء من أرباب الصنايع لمعاونته فى الاشراف عليها . قال محتسب زمن الحاكم بأمر الله : « ان العادة جارية باستخدام عرفاء فى الاسواق على أرباب الصنايع ويقبل قولهم فيما يذكرونه »(٩٠) . وكانت مهمة المحتسب وأعوانه حماية المستهلك قبل كل

---

(٨٦) الشيزرى ـ نهاية الرتبة ص٢٢ .
(٨٧) ابن عبدون ، ص٢٠ .
(٨٨) الشيزرى ص١٠ ، ص٢٩ ، المنتظم جـ٨ ص٣٢٣ : ابن الاخوة ـ معالم القربة ص١٣ـ١٤ .
(٨٩) المقريزى ـ الخطط (بولاق) جـ١ ص٤٦٣ـ٤ .
(٩٠) المقريزى ـ اغاثة : ص١٨ـ١٩ .

شيء ، كما كانوا يعنون بمراعاة الشعائر الاسماعيلية وبمتطلبات الدعوة(٩١) .

ويساعد المحتسب عرفاء يعينهم من أهل الصنف . جاء في حوادث سنة ٤٧٩هـ في المنتظم « ودخل عريف الصناع ، والفعلة والصناع معه الى دار الخلافة »(٩٢) . ويشترط في عريف أي صنعة أن يكون « من صالح أهلها خبيرا بصناعتهم بصيرا بغشوشهم وتدليساتهم ، مشهورا بالثقة والامانة »(٩٣) . ويبين المقريزي في حديثه عن الفاطميين « وكان في كل سوق من أسواق مصر على أرباب كل صنعة من الصنايع عريف يتولى أمرهم » ويبين انه من أهل تلك الصناعة(٩٤) . ويعين العريف من قبل المحتسب أو القاضي ، ويمثل الحكومة أمام أهل الصناعة(٩٥) . وينتظر منه منع الغش والتدليس من قبل الصناع أو الباعة ، اذ أنه الخبير في تدقيق الجانب الفني والمهني من البيوع والصناعات(٩٦) . ويظهر أنه يستطيع التدخل في الاسعار لحماية أهل الصنف(٩٧) . وله رأي أحيانا في أجور العمال بتحديدها أو منع الخلافات حولها . وقد يتدخل لمنع اساءة التصرف من قبل الاجراء(٩٨) .

ويظهر أن أفراد الصنعة يتفاهمون على الاسعار حماية لانفسهم من

---

(٩١) البراوي ـ حالة مصر الاقتصادية في عصر الفاطميين ص١٩٢ وبعدها . عبدالمنعم ماجد ـ نظم الفاطميين جـ١ ص١٦٤ وبعدها .
(٩٢) المنتظم جـ٩ ص٢٧ .
(٩٣) الشيزري ـ نهاية الرتبة ص١٢ ، ص٦٥ ، وانظر ابن الاخوة معالم القربة ص٢٢٤ـ٢٣٥ .
(٩٤) المقريزي ـ اغاثة ص١٨ـ١٩ .
(٩٥) المقريزي ـ خطط . جـ١ ص٤٦٣ .
(٩٦) الشيزري ـ نهاية الرتبة ص٤٠ ، ص٦٥ .
(٩٧) المقريزي ـ اغاثة : ص١٩ .
(٩٨) البراوي ـ حالة مصر الاقتصادية في عصر الفاطميين ص٢٩٢ـ٣ ، نقلا عن مخطوط حسبة يرجح أنه فاطمي ، وابن الاخوة ـ معالم القربة ص٢٣٤ـ٥ .

المنافسة ، ولا تتدخل الحكومة فى الاسعار الا فيما يخص أسعار المـــواد الغذائية من حنطة ودقيق عند حصول غلاء أو مجاعة[٩٩] .

وقد تعرض الصناع للدعوات الاجتماعية ، وكانت السلطات ، عباسية أو فاطمية ، تهتم بها وتحاول مقاومتها بالتأكيد على شعائرها . وهذا يصدق بصورة خاصة على القرن الخامس الهجرى فصـــار من مهمـة المحتسب مراقبتها لمنع أخطارها العامة[١٠٠] .

ومن هذا نجد أن الموقف من الاسواق وأهل الصنايع واحـد لدى الفاطميين والعباسيين من ناحيتى الاشراف والتنظيم .

وقد فرضت ضريبة منظمة على الاســـواق ، وهى « الاجرة » ، فى بغداد لاول مرة زمن المهدى (١٦٧هـ - ٨٧٣م)[١٠١] . وفى العصر العباسى الثانى فرضت المكوس على البياعات المختلفة[١٠٢] وبقيت بين الغاء وابقاء حسب الظروف الى آخر أيام الدولة العباسية[١٠٣] . ومن الامثلة المتأخرة لذلك الغاؤها سنة ٥٤١هـ ، « وطيف بالالواح التى عليهـا ترك المكس في الاسواق »[١٠٤] . وفى سنة ٥٥٥هـ « أسقطت الضرائب وما كان ينسب الى سوق الخيل والجمال والغنم والسمك والمدبغة والبيع فى جميع أعمال العراق »[١٠٥] . ولكنها كانت تفرض من جديد . ولما أعيد الغاؤها سنة ٦٠٤هـ ، وجد أن واردها السنوى كان ٢٠٠ر٠٠٠ دينار[١٠٦] .

---

(٩٩) المقريزى - اغاثة : ص١٧ وبعدها : مسكويه - تجارب الامم جـ١ ص٧٢-٧٥ : التنوخى - نشوار جـ٨ ص٩٢ .

(١٠٠) أنظر الشيزرى - نهاية الرتبـــة ص١١١ . اذ يقول فـــى تأكيده على مراعاة شعائر الاسلام ، « سيما فى هذا الزمان لكثرة البـــدع واختلاف الاهواء وتنوع الباطنية » . وأنظر ص١١٣ .

(١٠١) اليعقوبى - تاريخ جـ٣ ص١٣٤ .

(١٠٢) الدورى - تاريخ العراق الاقتصادى ص٢٠٣ وما بعدها .

(١٠٣) أنظر ابن الجوزى جـ١٠ ص ٧٧ ، ص١٩٣ .

(١٠٤) ن . م . جـ٨ ص١٢٠ .

(١٠٥) ن . م . جـ١٠ ص١٩٤ .

(١٠٦) ابن الساعى - الجامع المختصر ص٢٢٨ .

وكانت الدكاكين فى العصر الفاطمى « ملك السلطان » فى القاهرة ، وتؤجر لمن يشغلها باجرة تتراوح بين دينارين وعشرة دنانير[١٠٧] . وكانت المكوس تفرض زمن الفاطميين على كل شىء من المصنوع والمبيع[١٠٨] . ويذكر المقدسى ان الضرائب ثقيلة فى مصر فى أوائل عهد الفاطميين ، خاصة بتنيس ودمياط وعلى ساحل النيل ، وهذا يصدق بصورة خاصة على صناعة الاقمشة[١٠٩] .

ومن هذا يتضح أن سياسة الضرائب فى المشرق ومصر متماثلة .

وكان الصناع بصورة عامة صنفين ، فهناك من يشتغل باجرة ، مثل الصناع الذين يعملون فى معامل الخلافة للنسيج أو فى دار الضرب[١١٠] ، وفى حوانيت صناعية تشتغل لحساب التجار كما هو الحال فى عمل النسيج فى تنيس[١١١] . ومنهم من يشتغل لحسابه ويملك ما يلزم من مواد أولية وآلات تقتضيها الصنعة[١١٢] . وهؤلاء هم الصناع والاساتذة . وقد يشتغل مع الصانع عدد من المبتدئين . كما يكون مع الاستاذ عدد من الصناع[١١٣] .

وقد حصل تمركز فى العمل فى عصر الازدهار الصناعى التجارى فى القرن الرابع يتمثل ذلك فى المعامل الكبيرة فى بغداد مثلا .

وهناك العمال الرقيق وعددهم كبير فى الزراعة كما هو الحال فى سباخ البصرة[١١٤] . هذا اضافة الى أعمالهم فى البيوت أو الحوانيت ، ويبدو أن عددهم قل نسبيا فى الصناعة[١١٥] .

---

(١٠٧) ناصر خسرو ـ سفرنامة ص٤٨ .
(١٠٨) آدم متز ـ الحضارة جـ١ ص٢٠٦ـ٧ .
(١٠٩) المقدسى ـ أحسن التقاسيم ص٢١٣ .
(١١٠) أنظر ناصر خسرو ـ سفرنامه ص٤٠ .
(١١١) آدم متز ـ الحضارة الاسلامية . جـ١ ص٧٦ .
(١١٢) ناصر خسرو ـ سفرنامة ص٩٣ .
(١١٣) Grohmann Arabic Papyrii, IV p.74-5.
(١١٤) الدورى ـ دراسات فى العصور المتأخرة ص٧٦ـ٧٧ .
(١١٥) الدورى ـ تاريخ العراق الاقتصادى ص٦٢ـ٦٧ .

ومع أن المهن كانت عادة وراثية ، الا أن الافراد مخيرون فى المهنة التى يريدون اتباعها • ويعرف اخوان الصفا الصناع بأنهم « الذين يعملون بأبدانهم وأدواتهم »(١١٦) • وكان الصناع فى المرتبة السفلى من السلم الاجتماعى(١١٧) • أما وارداهم فلا يكفى الا لضروريات المعيشة فى الظروف الاعتيادية • وقد عبر عن ذلك المقدسى حين قال : « وأما الصنايع العملية ، وهى المهن ، فقد قيل قديما : الصناعة فى الكف أمان من الفقر وأمان من الغنى • وذلك أن الصانع بيده لا يكاد كسبه يقصر عن اقامة ما لا بد له منه ، ولا يكاد كسبه يتسع لاقتناء ضيعة أو عقد نعمة »(١١٨) • ولعل الحريرى أكثر واقعية فى تقديره لوضع الصناع حين يقول : « وأما حرف أهل الصناعات فغير فاضلة عن الاقوات ولا نافقة فى جميع الاوقات ومعظمها معصوب بشبيبة الحياة »(١١٩) • وهو بهذا يشير الى صعوبة وضع الصناع معاشيا ، لصعوبة التوفير وضنك العيش أحيانا ، والى المستقبل العسير الذى ينتظرهم فى الشيخوخة •

وليست لدينا الا أمثلة قليلة مبعثرة عن الاجور ، نوردها للتمثيل لا لاعطاء صورة مقبولة • ففى القرن الاول الهجرى نجد أجرة النجار دينارا ونصف دينار شهريا ، وأجرة بناء السفن دينارين شهريا • وأجرة الصانع العادى ثلثى دينار شهريا(١٢٠) • وكانت أجرة عامل النسيج فى مدينة تنيس حوالى سنة ٢٠٠هـ نصف درهم فى اليوم (١٢٠ ب) •

وكانت أجرة الزجاج النحوى فى أواخر القرن الثالث ، وهو فتى

---

(١١٦) رسائل أخوان الصفا : جـ١ ص٢١٧ •

(١١٧) ابن الربيع ـ سلوك المالك ص٨٦ ، والمقدسى ـ الاشارة الى محاسن التجارة ص٤٣ ، حيث يقول : « اذا ميز الناس دخل (الصانع) فى أدون طبقاتهم » •

(١١٨) المقدسى ـ الاشارة ص٤٣ •

(١١٩) مقامات الحريرى ، طبعة دى ساسى جـ٢ ص٦٥٨ •

(١٢٠) I. Bell-Aphrodite papyrii XXXViii.

(١٢٠ ب) آدم متز ـ الحضارة الاسلامية جـ١ ص٧٦ •

يشتغل بخرط الزجاج ، تبلغ درهما ونصف درهم فى اليوم[١٢١] • وأجرة عامل فى حانوت فى أواخر القرن الرابع نصف درهم فى اليوم مع طعامه وكسوته ، ثم زيدت الى درهم فى اليوم[١٢٢] •

وكانت أجرة حارس (٣٩٧هـ) ثلاثة أرطال خبز ونصف درهم فى اليوم ، أى حوالى درهم فى اليوم[١٢٣] • وبلغت أجرة بناء فى مصر فى القرن الثالث حوالى درهم ونصف درهم فى اليوم مع طعام الغداء وهو نصف درهم ، وأجرة العامل فى البنـــاء مع غدائه حوالى ثلاثة أرباع درهم فى اليوم[١٢٤] • وبلغت أجرة عامل فى حقل (سنة ٢٢٧هـ) درهمين فـى الشهر[١٢٥] ، وكانت أجرة خادم مســجد (سنة ٣٥٦هـ) ثلاثة دنانير ونصف فى السنة مع مسكن بلا أجرة[١٢٦] • ولعله كان يحصـــل على طعامه من خيرات الآخرين • وواضح من هـذا أن أجور الصناع الاجراء كانت واطئة • ونرجح أن الصناع أصحاب الحوانيت يربحـون أكثر من ذلك بكثير ، ولعـــل وارد هم كان يتجاوز الثلاثمائة درهـم فى الشـــهر كمعدل[١٢٧] •

وهذه المعلومات لا تســـاعد على استنتاج شـىء عن تدرج الاجور ، ولكنها لا تشير الى تبدل يذكر بين الفترات البعيدة •

٦ ـ لقد لاحظنا التطورات المهنية فى الاصناف ، وهى فى جملتهـا تطورات سلمية هادئة ، ولكن بعض التطور فى وضع الاصناف وكيانهـا يعود الى مؤثرات أخرى أدت الى ظهور تيارات ثورية بين أهل الحرف ،

---

(١٢١) التنوخى ـ نشوار المحاضرة جـ١ ص١٣٤ •
(١٢٢) التنوخى ـ الفرج : جـ٢ ص١٥٥ •
(١٢٣) الدورى ـ تاريخ العراق الاقتصادى ص٢٦١ •
(١٢٤) Grohmann-Arabic Papyrii II 74-5.
(١٢٥) Ibid II p. 101.
(١٢٦) Ibid II p. 114-5.
(١٢٧) أنظر مصارع العشـــاق ص١٥٩ ، وأبو يوسف الخراج ص٢٣ـ٢٤ •

وذلك منذ أواخر القرن الثانى للهجرة ، ومن الصعوبة بمكان أن نفهم حركة العمل دون التعرض لهذه المؤثرات •

لقد ظهرت طبقة تمتلك رؤوس اموال كبيرة وتستطيع انشاء المعامل والمصانع وتستثمر فى ازدهار وسائل الصيرفة والائتمان ، وحصل تركز فى العمل على نطاق أوسع يتمثل فى المعامل الكبيرة فى المدن الهامة كالكوفة والبصرة وبغداد ، وتجمع العمال من الاحرار والرقيق باعداد كبيرة فى بعض الجهات كسباخ البصرة[١٢٨] ، مما أدى الى شعور أقوى بالكيان وتماسك أوثق •

هذا وقد حصل ارتباك سياسى وسوء ادارة نتيجة تسلط الاتراك فى القرن الثالث فأربك الحياة الاقتصادية وأضر بأهل الصنايع بصورة مباشرة ، ورافق ذلك ارتفاع فى الاسعار دون وجود ما يشعر بارتفاع مقابل فى الاجور • وظهرت تيارات اجتماعية تدعو ـ باسم الدين ـ للاصلاح وتؤكد بصورة خاصة على تحسين الوضع المالى والاجتماعى كما فعل صاحب الزنج والقرامطة واخوان الصفا[١٢٩] •

هذه العوامل أثرت على وضع « العامة » وبينهم أرباب الصنايع والمهن بصورة خاصة وأوجدت لديهم روح التذمر والتمرد وجعلتهم يساهمون فى الحركات الاجتماعية بصورة فعالة ، بل وكونت بينهم وجهة ثورية تتمثل بوضوح فى حركات العيارين والشطار منذ القرن الثالث الهجرى حتى سقوط بغداد •

كان [illegible] المدن الكبيرة خليطا من مختلف الشعوب والالوان والعقائد يدعو للعمل والبحث عن الرزق • وتكثر مصادرنا ، من القرنين الرابع والخامس للهجرة ، من التندر بهم فتتحدث عن جهلهم واستعدادهم لاتباع كل ناعق ، وعن سذاجتهم وميلهم للفوضى ، وأهم من ذلك عن

---

(١٢٨) الدورى ـ دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص٧٦ـ٧٧ •

(١٢٩) الدورى ـ تاريخ العراق الاقتصادى ص٦٧ وما بعدها •

نظرتهم المادية للامور وقياس كل شيء من العقائد بمقياس المصلحة المادية ، وتؤكد على سهولة انجرافهم بالدعوات(١٣٠) .

بدأ العامة يلعبون دورا مهما فى بغداد فى أواخر القرن الثانى للهجرة وحاولوا حفظ النظام خلال الفوضى التى سـادت بغداد اثر مقتل الامين (سنة ٢٠١هـ)(١٣١) .

وظهرت فعاليات العيارين والشطار لاول مرة فى حصار بغداد الاول (سنة ١٩٦ ـ ١٩٧هـ) كقوة تدافع عن المدينة(١٣٢) . ولسنا هنا بصدد بحث تأريخهم الطويل ، ويكفى أن نذكر أنهم نشطوا فى أدوار التخلخل السياسى وذلك فى فترة الحصار الثانى لبغداد (٢٥٠هـ) ومنذ الربع الاخير من القرن الرابع الهجرى حتى سقوط بغداد بصورة تكاد متصلة . والذى يعنينا هنا هو أن ننظر فى اتجاهاتهم وتنظيمهم وصلتهم بالاصناف وأثرهم فيهـا .

لم يفهم المؤرخون حركة العيـارين واتهموهم بأنهم « سـفلة » ، « غوغاء » ، و « لصوص » و « أهل الزعارة » وانهم نهابون(١٣٣) . ولكننا نرى فى وضعهم وفى استمرارهم ما يدل على أنهم يمثلون حركة اجتماعية ثورية ، ناتجة عن ظروف العامة (وفيهم أهل الصنايع والحرف) وأوضاعهم

---

(١٣٠) المسعودى ، مروج (باريس) جـ٥ ص٧٩ـ٨٣ وص٨٥ـ٨٧، الغزالى : فضائح الباطنية ص٥٣ ، ابن الجوزى : مناقب بغداد ص٥١ـ٥٢ ، البغـدادى : الفرق بين الفـرق ص١٤١ ، ابن الجـوزى : المنتظم جـ٥ ص١٢٢ وص١٧١ .

(١٣١) الطبرى (ليدن) ق٣ ص١٠٠٩ـ١٠١٠ ، ابن الاثير جـ٦ ص١١٨ـ١١٩ وجـ٧ ص١٣ـ١٤ .

(١٣٢) أنظر الطبرى (المطبعـة الحسـينية) جـ١٠ ص١٧٦ وص١٨٧ـ١٨٣ وص١٨٧ـ١٨٨ ، المسعودى (القاهرة) جـ٣ ص٣١٥ .

(١٣٣) أنظر مثلا : الطبرى (المطبعة الحسينية) جـ١٠ ص١٨٧ وص١٨١ ، المسـعودى جـ٣ ص٣١٥ ، ابن الجـوزى ، تلبيس ابليس ص٣٩٢ ، البيهقى ـ تتمة صوان الحكمة ص١٩ ، ابن الاثير جـ٨ ص١٢ ، مصطفى جواد (مجلة المجمع العلمى العراقى) جـ٥ ص٥٢ وما بعدها .

المعاشية الصعبة ، وانهم استفادوا من التخلخل السياسى لممارسة فعالياتهم علنا فى بعض الاوقات ، وهذا يفسر أعدادهم الكبيرة حتى قدروا فى الحصار الثانى لبغداد بخمسين ألف(١٣٤) .

ولذلك نجد حركتهم موجهة ضد الحكام والاغنياء والشرطة والوجهاء . ونستطيع تكوين فكرة عامة عن وضعهم مما جاء عنهم بصدد الحديث عن حصار بغداد الاول .

الواضح أنهم منذ بدايتهم من العامة ، وبينهم بعض أهل الصنايع والمهن . يقول الطبرى (حوادث ١٩٧هـ) : « وأطلت الغواة من العيارين وباعة الطرق »(١٣٥) .

وقال الشاعر فى نفس الفترة :

الكرخ أسواقه معطلة يستتن عيارها وعابرها
خرجت الحرب بين أسواقهم أسود غيل علت قساورها

ويذكر الطبرى أنه أثناء حصار بغداد « ذلت الاجناد وتواكلت عن القتال الا باعة الطرق والعراة وأهل السجون والاوباش والرعاع والطرارين وأهل السوق »(١٣٦) .

وكان العيارون فى مرتبة اجتماعية ومعاشية واطئة ، فهذا أحدهم يخاطب جثة عيار :

يا قتيلا بالقاع ملقى على الشط هواه بطيء الجبلين —
ما الذى فى يديك أنت اذا ما اصطلح الناس أنت بالخلتين
أ وزير أم قائد بل بعيد أنت من ذين موضع الفرقدين(١٣٧)

وهم أناس مغمورون ليس لهم نسب يذكر ، كما وصفهم الشاعر بقوله :

---

(١٣٤) المسعودى جـ٣ ص٣١٦ .
(١٣٥) الطبرى جـ١٠ ص٨١ ١.
(١٣٦) ن . م . جـ١٠ ص١٧٦ .
(١٣٧) ن . م . جـ١٠ ص١٩٤ .

خرجت هذه الحروب رجالا لا لقحطان لا ولا لنزار[١٣٨]

ورغم اعجاب البعض بشجاعتهم وجرأتهم نجد من يلمح الى الناحية المادية فى اتجاههم كما وصف أحدهم دور العيارين فى الفتنة :

كان فيما مضى القتال قتـــالا فهو اليوم يا على تجـارة[١٣٩]

وهم فى حالة الحرب يعبئون أنفسهم تعبئة عسكرية ، فلكل عشرة عريف ، ولكل عشرة عرفاء نقيب ، ولكل عشرة نقباء قائد ، ولكل عشـرة قواد أمير[١٤٠] • وفى نشاطهم الثورى فى القرن الرابع وبعده نجد أن لهم عادة أمير أو قائد ، وفى كل محلة متقدم[١٤١] • ولكن يبدو أن لهم تنظيمات داخلية أخرى • فاذا صرفنا النظر عن بزتهم الحربية التى تنسجم وامكانياتهم المالية وتميزهم عن غيرهم وتنطبع بطابع السذاجة[١٤٢] ، فان شعارهم الاساسى فى اللباس هو الميازر فى أوساطهم • ويلقبون أنفســـهم بالفتيان • قال على الاعمى :

ويقول الفتى اذا طعن الطعنة خذها من الفتى العيـار[١٤٣]

بل أن أحد الشعراء يشير اليهم بالفتيان ويقول :

وقد رأيت الفتيان فى عرصـــة المعرك معفورة منـــاخرها

كل فتى منـــاع حقيقتـــه تشقى به فى الوغى مساعرها[١٤٤]

وتؤكد أخبار العيارين والشطار فى دور نشاطهم على فتوتهم[١٤٥] •

---

(١٣٨) ن • م • جـ١٠ ص١٨٣ ، المسعودى جـ٣ ص٣١٨ •
(١٣٩) الطبرى جـ١٠ ص١٨٨ •
(١٤٠) المسعودى جـ٣ ص٣١٥ •
(١٤١) المنتظـــم جـ٧ ص١٥١ وص٧٤ ــ ٧٥ ، وانظـر الطبرى (ليدن) ق٣ ص١٥٥٢ •
(١٤٣) وهى خوذ خوص ودرق من البوارى المحشى بالحصى والرمل، والجلاجل فى أعناقهم والصدف الاحمر والاصفر عليهم • المسعودى جـ٣ ص٣١٥ •
(١٤٣) المسعودى جـ٣ ص٣١٨ ، الطبرى جـ١٠ ص١٨٣ •
(١٤٤) الطبرى جـ١٠ ص١٧٩ •
(١٤٥) القشيرى ــ الرسالة ص١٢١ــ١٢٢ •

ولهم مقاييس خلقية تتصل بهذه الفتوة منها الصدق والعفة واحترام المرأة ومساعدة الفقراء والضعفاء والتعاون والنجدة والكرم والصبر على الاذى وعلو الهمة(١٤٦) . فالبرجمى العيار « كان فيه فتوة ... لم يعرض لامرأة ولا الى من يستسلم اليه »(١٤٧) ، وشاع عنه « أنه لا يتعرض لامرأة ولا يمكن من أخذ شيء معها أو عليها »(١٤٨) .

ويذكر عن ابن حمدون أنه « فيه فتوة وظرف .. لا يفتش امرأة ولا يسلبها »(١٤٩) . وترد اشارات أخرى الى آداب هؤلاء الفتيان (فى القرن الثالث) بعضها يشير الى أدب خاص بهم فى تناول الطعام(١٥٠) ، وبعضها يحدد أدب الساقى(١٥١) . وبعض الاشارات تخرج بهم عن الادب(١٥٢) . ويشير الجاحظ الى وجود قاض للفتيان ، عرف هؤلاء الفتيان بأنهم من الشطار(١٥٣) .

وكانت حركة العيارين موجهة ضد السلطان وأصحاب الاموال فقد ركزوا هجومهم على التجار والبارزين وجبوا الاسواق بدل الحكومة(١٥٤) .

---

(١٤٦) ابن الجوزى ـ الاذكياء ص١٩٦ـ١٩٨ ، ابن الجوزى تلبيس ابليس ص٣٩٢ ، التوحيدى ـ المقابسات ص٩٦ ، القشيرى ـ الرسالة ص١١٣ ، المنتظم جـ٨ ص٧٨ .

(١٤٧) ابن الاثير جـ٩ ص١٦٤ (حوادث ٤٢٥هـ) .

(١٤٨) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ٨ ص٧٢ .

(١٤٩) التنوخى ـ الفرج بعد الشدة جـ٢ ص١٨٠ .

(١٥٠) الجاحظ ـ البخلاء (ط ـ دمشق) ص١٠٥ وص١١٨ وما بعدها .

(١٥١) تلخيص معجم الالقاب جـ٤ ص٢٩٧ (م . ج) .

(١٥٢) مثلا سئل قاضى الفتيان عن اللواط : أ هو نوع من الزنا ؟ فاعترض وقال : ذلك من أراجيف الزناة ، التوحيدى ـ البصائر والذخائر (ط . لجنة التأليف) ص١٦٥ .

(١٥٣) الجاحظ ـ البخلاء ص١٠٥ .

(١٥٤) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ٧ ص١٥١ ، ص٢٢٠ ، جـ٨ ص٢١ـ٢٢ ، ص٤٤ ، ص٤٧ ، ص٥٤ـ٥٥ . ص٧٢ ، ص٧٥ ، ص٧٩ ، ص٨٧ ، ابن الاثير جـ٩ ص١٠٥ .

ومع أن الاسواق عامة تضررت بفوضاهم وأصابها الكثير من الحريق والدمار اضافة الى من قتل بالسيف الا أن هدفهم الاساسى كان التجار لا أهل الصنايع • وكانوا يرأفون حتى بالضعفاء من التجار فيذكر عن ابن حمدون « انه اذا قطع لم يعرض لاصحاب البضائع القليلة التى تكون دون الالف ، واذا أخذ ممن حاله ضعيفه قاسمه عليه فترك شطر ماله فى يديه »(١٥٥) • وكانت نظرتهم الى التجار تتلخص فى أن هؤلاء لم يدفعوا زكاة أموالهم وان العيارين فقراء يستحقون ذلك ولذا فان أخذ أموال التجار مباح لهم « لان عين المال مستهلكة بالزكاة وهم (العيارون) مستحقون للزكاة شاء أرباب المال أم كرهوا »(١٥٦) •

ومما يؤكد الجانب الاجتماعى فى حركتهم اننا نجد علويين وعباسيين فى صفوفهم بعد الغزو البويهى الذى أفقر أهل البلاد وهبط بهؤلاء الى وهدة اجتماعية خطيرة(١٥٧) •

وللعيارين كما يبدو تنظيمات سرية كانت ممهدة لتنظيمات الفتوة والاصناف فيما بعد ، اذ يورد التنوخى خبرا عن منظمة للعيارين الفتيان تعود للقرن الثالث الهجرى ، ويبين أنهم لهم ناد خاص يجتمعون فيه ولهم لباس يتميزون به فهم يتزرون بالمئزر ويتشحون بالازار ، ومراسيمهم لدخول المنظمة تشمل شرب كأس من النبيذ ، والشد (شد المئزر) ، وهم يجتمعون فى النادى للمذاكرة ولتناول الطعام والشراب ، وبين أعضاء المنظمة أناس حرفيون(١٥٨) •

وهنا نبين أن مفهوم الفتوة حتى القرن الثانى للهجرة لم يتصل بحركة ما ، وان الفتوة كانت مجموعة مقاييس خلقية وأدبية تطورت بتطور

---

(١٥٥) التنوخى ـ الفرج بعد الشدة جـ٢ ص١٠٨ •
(١٥٦) ن • م • جـ٢ ص١٠٦ •
(١٥٧) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ٧ ص٢٢٠ •
(١٥٨) التنوخى ـ الفرج بعد الشدة جـ٢ ص١١٢ـ١١٤ ، ابن الجوزى ـ الاذكياء ص١٩٠ـ١٩١ •

المجتمع[١٥٩] ، ومع وجود اشارات الى مجموعة من فتيان اللهـــو فـلا يمكن اعتبارهم يمثلون حركة اجتماعية للفتوة ، فهم من المترفين المثرين وكل ما يهمهم اللذة والشراب والغناء[١٦٠] .

ثم تبلورت الفتوة فى تيارين : فتوة العيارين والشـطار وهى فتـوة عملية عنيفة ، وفتوة العارفين أو الصوفية[١٦١] ، وبينما صار شعار العيارين السراويل[١٦٢] ، كان شعار الصوفية المرقعة[١٦٣] . وقد أشـــار ابن الجوزى الى اتجاهى الفتوة المذكورين وندد بفتوة العيارين فقال « ومن هذا الفن تلبيسه على العيارين فى أخذ أموال الناس فانهم يسـمون بالفتيـان ويقولون الفتى لا يزنى ولا يكذب ويحفظ الحرم ولا يهتك ستر أمرأة ، ومع هذا لا يتحاشون من أخذ أموال الناس ويسمون طريقتهم الفتوة ..

---

(١٥٩) يقول السلمى « وكل حال من الاحوال ووقت من الاوقات يطالبك بنوع من الفتوة فلا يخلو حال من الاحوال عن الفتوة » كتاب الفتوة (خط) ٩٩ب ، وانظر مجموعة الاشارات لمفهوم الفتوة فى مقدمة مصطفى جواد لفتوة ابن المعمار ص٥ـ٩ ، والبيـــان والتبيـــين جـ١ ص٥ ، جـ٢ ص٣٥٠ ، ٣٥٢ ، الزمخشرى ـ أســاس البلاغـــة جـ٢ ص١٨٤ـ١٨٥ ، الجاحظ ـ المحاسن والاضـــداد (ط . فلوتن) ص١٨٥ ، البـــيرونى ـ الجماهر ص١٠ـ١٢ ، وص٢١ ، ومقال بشر بن فارس عن الفتوة فى ملحق دائرة المعارف الاسلامية ص٧٩ـ٨٠ ، ومرآة المروات (خط) ١٨أ و١٨٥أ .

(١٦٠) الاغانى (ط الســاسى) جـ٢ ص٣٤٥ـ٣٤٨ ، الجاحظ ـ المحاسن ص١٨٥ وص١٩٥ وشرح مقامات الحريرى للشريشى (القاهرة) جـ٢ ص٨٥ .

(١٦١) مرآة المروات (خط) ٢٨ب ، ١٢٩أ .

(١٦٢) أنظر ابن الاثير فى حديثه عن ابن بكران العيار فى حوادث ٥٣٢هـ جـ١١ ص٢٦ .

(١٦٣) يقول السلمى « قيل لابى عبدالله السجزى لـــم لا تلبس المرقعة ؟ فقال من النفاق أن تلبس لباس الفتيان ولا تدخل فى حمل أثقال الفتوة » كتاب الفتوة (خط) ص٨٢ب .

ويجعلون لباس السراويل للداخل فى مذهبهم كالباس الصوفية للمريد المرقعة »(١٦٤) .

وتوسعت فتوة العيارين ، وكثرت فئاتها وأحزابها ، وأشار ابن الاثير الى ذلك فى حوادث سنة ٣٦١هـ. حين حصلت فتنة ببغداد بسبب استنفار العامة للغزو « فتولد بينهم من أصناف النبوية والفتيان ، السنة والشيعة ، والعيارين فنهبت الاموال »(١٦٥) .

ويوضح الخرتبرتى الوضع فى حديثه عن تنظيم الناصر لدين الله للفتوة ويقول : « وبعد فان أحزاب الفتوة كانوا تايهين وعن الحق زايغين .. ، تأولوا للفتنة والابتداع ، .. غلبت عليهم الشقاوة وتحكمت فى بواطنهم الضلالة » ، وهو بهذا يعكس النقد الموجه الى تصرفاتهم وأوضاعهم ليبرز دور الناصر فى توحيدهم وفى وضع أسس أمتن لحركتهم .

وبقيت مراسيم الفتيان أساس تنظيمات فتوة الناصر ، اذ أن السراويل بقى شعار الفتوة ، وبقى الشد رمز الدخول فى الفتوة . ويبدو أن العيارين تخلوا عن النبيذ فى القرن الرابع أو قبله ، وحل محله الماء بالملح(١٦٦) ، واستمر هذا محتوى كأس الفتوة . ويعطينا الخرتبرتى وصفا لحفلة الشد زمن الناصر فيبين أن الفتيان يجتمعون ويلقى النقيب « خطبة الفتوة » يتبعها بسبع آيات قرآنية فيها تحريم الزنا ، وعدم قتل النفس الا بالحق ، واحترام مال اليتيم والوفاء بالعهد والوفاء بالكيل وترك الكبرياء وتأكيد التوحيد . ويأخذ بعد ذلك الماء ويقلب فيه الملح ويقف الطالب على الجانب الايسر ، ويقول النقيب « اعلموا أيها السادة الحاضرون ان هذا الطالب الراغب قد قصدكم فى شده الفتوة .. ويتوسل اليكم بالله العظيم أن تسأل (لعله : تسألوا) الشيخ فلانا أو المقدم فلانا أن يقبله أخا ورفيقا ، ثم يشد النقيب نيابة عن

---

(١٦٤) ابن الجوزى ـ تلبس ابليس ص٣٩٢ .
(١٦٥) ابن الاثير ، جـ٨ ص٢٢٠ .
(١٦٦) التوحيدى ـ المقابسات ص٧٤ .

المطلوب » • وبعد الشد ينقله النقيب من الجانب الايسر الى الجانب الايمن ويسقيه الشربة وتسمى « شربة المعاهدة »[١٦٧] •

وتبدو لنا الصلة واضحة فى الهيكل بين هذه المراسيم وبين ما أورده التنوخى ، كما اننا نلاحظ أثر الجانب الحرفى فى الحفلة فى التأكيد على الوفاء بالكيل •

هذا وقد أورد ابن الجوزى فى حوادث ٤٧٣هـ ما يبين وجود « الرئيس » و « المتقدم » أو « المقدم » و « التلاميذ » أو « المنتسبين الجدد »[١٦٨] • مما يوازى المراتب الذى ذكرها الخرتبرتى • ومن ناحية ثانية أرى فى الدرجات « نقيب » و « شيخ » و « مقدم » والمنتسب الجديد ما يقابل « الرئيس » و « الاستاذ » و « الصانع » ثم المبتدىء لدى أهل الصنايع •

ولما كانت حركة العيارين والفتيان حركة شعبية تضم بين صفوفها الكثير من أهل الصنايع ، فان من المنتظر أن تتبادل التأثير مع تنظيمات الاصناف • فهناك توازى فى درجات الصنف والنقابة كما مر • بل اننا نجد لفظ « مقدم الصناع » يستعمل أحيانا بدل الاستاذ فى الحرفة[١٦٩] • ولعل استعمال لفظة « الشيخ » لرئيس الصنف أخذ عن حركة الفتوة وحل محل كلمة « رئيس » • ويبدو أن من آثار هذه الصلة فكرة الشد لدى أهل الصناعة وانتساب كل صنف الى أحد الصحابة أو الانبياء باعتباره حامى الصناعة وشيخها الروحى الاول[١٧٠] ، وكذلك ظهور الطابع

---

(١٦٧) الخرتبرى ـ الفتوة ص٦١ أ •
(١٦٨) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ٨ ص٣٢٦ـ٣٢٧ •
(١٦٩) ابن الفوطى ـ الحوادث ص٥٤ •
(١٧٠) أنظر مجلة المجمع العلمى العراقى جـ٥ ص٧٨ وما بعدها •

العسكرى فى بعض الاصناف خاصة على الحدود كما فى الاناضول(١٧١) .
وبعد هذا فان حركة العيارين كانت من أسباب تماسك الاصناف دفاعا عن مصالحها ضد الفوضى ودفاعا عن أسواقها(١٧٢) .

ولم تقتصر المؤثرات فى الاصناف على حركة العيارين ، بل تأثروا بالتيارات العامة الاخرى ، فقد تأثروا بالاتجاهات المذهبية فى العصر البويهى بقوة ووقعت بينهم معارك بسبب ذلك .

ومن المنتظر أن يتعرض الصناع لدعوة الاسماعيلية وما تمثله من اتجاهات اجتماعية . وأول اشارة صريحة ترد الى ذلك تعود للنصف الثانى من القرن الخامس الهجرى . فقد ذكر ابن الجوزى تحت سنة ٤٧٣هـ صلة بعض الفتيان بالفاطميين ودعوتهم لهم ، وكان رأسهم ببغداد ابن الرسولى الخباز الذى « صنف فى معنى الفتوة وفضائلها وقانونها » وجعل عبدالقادر الهاشمى البزاز « المتقدم » على من يدخل فى الفتوة « وأن يكونوا تلامذته » ، وله ممثلون فى بلاد أخرى ، واتخذ الفتوة سبيلا الى دعوات ومجتمعات لخدمة قضيته وكان يتصل بممثل للفاطميين فى المدينة ندب نفسه « لرآسة الفتيان » وكان المرجع الاول لهم . واتخذ من جامع براثا المهجور مركزا للاجتماعات . وقد شكى البعض وضعهم الى « الديوان » وقالوا : ان هؤلاء القوم يدعون لصاحب مصر ويجعلون ذكر الفتوة عنوانا لجمع الكلمة على هذا الباطن مما أدى الى ضربهم(١٧٣) .

وأورد سبط بن الجوزى ما يتمم هذه المعلومات ، ومنه نعرف بوجود

---

(١٧١) أنظر م . جودت ـ الاخية الفتيان ، المقدمة والفصل الاول .
(١٧٢) أنظر مثلا ابن الجوزى ـ المنتظم جـ٨ ص ٧٨ـ٧٩ وص٥٩ـ٦٠ وأنظر ص٨٣ حيث يتبين تحديهم للشعائر العامة .
(١٧٣) المنتظم جـ٨ ص٣٢٦ـ٣٢٧ .

سلسلة ترجع نسب الفتوة لآدم ويدخل ضمنها موسى وعيسى ، وهذا معناه ان سلسلة الانتساب بشكل ما كانت معروفة فى تنظيمات الفتوة آنئـــذ ، ونلاحظ أن بين أنصار ابن الرسولى الخباز عددا كبـــيرا من الاشـراف والاعيان وزعماء البلدان وهذا يسبق ما فعله الناصر لدين الله(١٧٤) .

وقد يتبادر الى الذهن أن دعاة الاسماعيلية ادخلوا هـــذا النوع من السلسلة ولكننا نجد ما يسـبقها عنـد الصوفية . فقـــد ذكر السـلمى (ت ٣٦٦هـ) سلسلة مفصلة للفتوة تبدأ بآدم وتنتهى بالرسول ثم بعـلى بن أبى طالب وهى أوفى من سلسلة ابن الخباز(١٧٥) .

ويبدو أن الصوفية يستندون فى الاساس الى بعض الآيات القرآنيـة فى هذا الربط(١٧٦) ، والسلمى من أعلام الصوفية وما أورده لا صلة له بالاسماعيلية . ولدينا ما يشير الى وجود صلة واضحـــة لحركة العيارين بالصوفية ، واحتمال تأثرها بها(١٧٧) ، والراجح أن سلسلة النسب لدى الفتوة تأثرت بها .

وعلى كل فان الموضوع يتطلب دراسة أوســـع ، وكل ما نقوله ان الحركة الاسماعيلية حاولت أن تستفيد من الصناع والفلاحين فى حركتها ، ولكن أثرها فى تنظيمات الاصناف غير واضح .

---

(١٧٤) مرآة الزمان ورقة ٧٤ من نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم ١٥٠٦ نقلا عن مصطفى جواد فى مقدمته لفتوة ابن المعمار ص٣٩ .

(١٧٥) الفتوة للسلمى ٩٩ (أ) وهم آدم ، هابيل، شيت، ادريس ، نوح ، عاد ، هود ، صالح ، ابراهيم الخليل ، لوط ، اسحاق ، يعقـوب ، أيوب ، يوسف الصديق ، ذو الكفل ، موسى ، هرون ، داود ، سـليمان ، يونس ، زكريا ، يحيى ، عيسى ، محمد (ص) ، على ابن أبى طالب .

(١٧٦) كتاب الفتوة تأليف أخى أحمد المحب بن شيخ محمد بن ميكائيل الاردبيلى ورقة ٧٨ (خط) .

(١٧٧) أنظر القشيرى ـ الرسالة ، باب الفتوة .

٧ ـ مما مر يتبين أن تنظيمات أهل الصنايع والحرف سارت ببطء وتدرج ضمن الظروف العامة المحيطة بها ، فقد بدأت بالتجمع فى أسواق ومحلات خاصة لكل صنف نتيجة الشعور بالمشاركة ، وجعلت تحت اشراف العامل على السوق ويبدو أن هذا التجمع طبيعى وأنه موروث فى المجتمع • وظهر أثر ذلك بوضوح فى تخطيط المدن الجديدة منذ النصف الثانى للقرن الاول الهجرى وفى تعيين محلات خاصة للاسواق وانفراد كل صنف بسوقه ، مما ييسر الاشراف الحكومى ويحقق للاصناف تجمعها وحماية مصالحها • وكان الاشراف لحماية المستهلكين بالدرجة الاولى •

ثم تطور المجتمع فى العصر العباسى نحو العناية بالتجارة والصناعة ونمت المدن وتوسعت العامة فيها مما أدى الى تركيز الاشراف تحت يد المحتسب وأعوانه ، والى شعور الاصناف بأهمية جديدة ، وبان فيها التدرج الحرفى من مبتدىء الى صانع الى استاذ والى تعيين رئيس للصنف •

وجاءت الفوضى التركية فى القرن الثالث فأربكت الحياة العامة وأضرت بالاصناف ، وارتفعت الاسعار مما ولد تذمرا لدى الاصناف وشعورا أقوى بالتماسك لحماية مصالحها ، وتوسعت الصناعة والتجارة بازدهار المؤسسات الصيرفية وحصول تجمع فى العمل ، وقامت حركة العيارين والشطار التى اتخذت من مبادىء الفتوة مثلها الاخلاقية واتجهت وجهة ثورية وبدأت بشعائر ومراسيم فى اللباس والشد مما أعطى مثلا جديدا لاهل الحرف فى التنظيم • وربما كان للدعوة الاسماعيلية أثرها فى نشاط حركة العمل •

ولم تكن حركة العيارين الا الجانب الثورى من نشاط العامة وأهل الصنايع ، وجاءت حركة الفتوة العسكرية ـ كما نظمها الناصر ـ تهذيبا لها،

ولعل فتوة العيارين تأثرت بالصوفية ، وخاصة فى سلسلة النسب . والملحوظ أن التدرج فى الفتوة ـ قبل اصلاحها ـ يوازى التدرج لدى أهل الحرف مما يؤكد القاعدة المشتركة وهى حركة العمل .

وكان من المنتظر أن تتخذ بعض الاصناف صفة عسكرية وخاصة بعد تنظيمات الناصر ، وأن تندمج فى منظمات الفتوة وذلك فى المواطن التى حرمت من وجود سلطة سياسية عليا كما هو الحال على الحدود .

وقد استمر جمهور أهل الصنايع على تنظيمهم الحرفى الصرف مستفيدين من خبرتهم ومن الضعف السياسى ، فبرز كيان الاصناف الاجتماعى ، وصار لهاصوت مسموع فى الحياة العامة ، وأصبح لشيخ الحرفة أو رئيسها أهمية كماحصل اعتراف بكيانها المتميز من قبل السلطات . ويبدو أن بعضها اتخذ شعارا خاصا مأخوذا من الحرفة ، كالسفينة للملاحين ، والرحى للطحانيين والبئر للحياك والتنور للخبازين .

وحاولت الاصناف اعلاء شأنها فربط كل صنف حرفته بأحد الانبياء أو الصحابة أو الصالحين وجعلت الوصول الى سوية معينة فى الانتاج أساسا للارتقاء الى درجة صانع أو أستاذ . واتخذت دورا فى تعيين الاسعار خاصة وأن الحكومة كانت لا تتدخل عادة فى السعر .

وقد تداخلت عوامل عديدة فى نشأة الاصناف ، منها رابطة المشاركة وضرورة الاشراف الحكومى، ونمو الحياة المدنية ، وتطور الصناعة والتجارة والمؤسسات الصيرفية ، والارتباك السياسى الذى أوجب عليها الاهتمام بحماية نفسها ، والنظرة الاسلامية التى زادت قوة بمرور الايام فصبغت كافة نواحى الحياة والمجتمع وأكدت أهمية المبادىء الخلقية ، ولذا يتعذر علينا ربط هذه الاصناف بتنظيمات الحرف قبل الاسلام الا فى موضوع المشاركة فى المهنة وربما فى وجود العامل على السوق .

وكان هذا التطور متماثلا فى أرجاء العالم الاسلامى ولا نستطيع التمييز بين الفاطميين أو العباسيين ، ومع أن الدعوة الاسماعيلية ثورية في

تأكيدهم على تحسين وضع الصناع والفلاحين الا أن الفاطميين فى السلطة غيرهم فى الدعوة ولا نحس بثورة اجتماعية خاصة فى مصر فى زمنهم عكس القرامطة الذين كانوا ثوريين حتى فى السلطة كما هو الحال فى جنوب العراق والبحرين ، والاشارة الوحيدة التى تردنا الى مساعدة للصناع كانت لدى قرامطة البحرين •

ولم يكن الصناع محترمين اجتماعيا ، لان الصنايع كانت فى البدء بين أهل الذمة والموالى ولانهم يتهمون بالجهل ، وبقيت هذه النظرة تلاحقهم • ومع أن كتب الحسبة تجعل همها منع الغش والتدليس والتطفيف فى الكيل وحفظ الأداب العامة ، وبصورة عامة حماية المستهلك ، ومع أنها لم تطلب خدمات خاصة من الصناع ، الا أن كثرة الشروط التى نراها فى كتب الحسبة تفسح المجال للتدخل فى شؤونها الحرفية •

ويبدو أن رابطة المهنة ، ووجود الكثيرين من أهل الذمة فى الاصناف ، ولدت تسامحا وتعاونا بين أعضائها فى الصنف الواحد بصرف النظر عن الفوارق الدينية وخاصة فى الاوقات التى تتعرض فيها مصالحها للخطر •

مما مر نلاحظ اطار الاصناف ونطاقها وقد حافظت عليه الى الفترة الحديثة •

دراسات فى مصادر التاريخ الاسلامى وحياة مؤلفيها

بقلم : الدكتور على ابراهيم حسن
أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب
بجامعة بغداد

ان دراسة التاريخ الاسلامى تستلزم أن يدخل الباحث ساحة التاريخ مزودا بأمثل الادوات التى تعينه على دراسة ما فيه من كنوز مطمورة وآثار قيمة ، وأن يلم بدراسة مصادر الآثار ودواوين الشعراء ومصادر الرحالة والجغرافيين الى جانب دراسة مصادر الاقدمين المخطوطةوالمنشورة • ولكل منها أهميته فى دراسة التاريخ الاسلامى وحضارته • وسنتناول فى بحثنا هذا مشاهير مؤرخى الاسلام وقيمة مؤلفاتهم ، عسى أن يجد فيه الباحث قبسا يضىء له ما يواجهه من المشاكل ، كالسارى فى الليل يأخذ بنور القمر وهدى عقله كى يقطع الطريق الذى يريد فى طمأنينة وسلام •

اولا ـ الادب والتاريخ :

الادب سجل للحوادث ومرآة صادقة للحضارة ، فكثيرا ما جلى الشعراء فى شعرهم أحداثا خفيت تفاصيلها وجانب الحق فيها على نفر من المؤرخين • وأصدق الشعر فى وصف الحقيقة هو ما ساير الحوادث واستلهم الوقائع •

ومن أبرز الادباء الذين استشهد بهم المؤرخون : أبو الفرج الاصبهانى (٣٥٦هـ = ٩٦٧م)[١] فى كتابه « الاغانى » •

نشأ أبو الفرج فى بغداد[٢] ووصفه ياقوت فقال انه « العلامة النساب

(١) السنوات المثبتة أمام اسم كل مؤلف ، هى سنة وفاته •
(٢) تجد تاريخ حياة الاصبهانى فى ياقوت : ارشاد الاريب ٥ ص ١٤٩

الاخبارى الحفظة الجامع بين سعة الرواية والحذق فى الدراية • لا أعلم لاحد أحسن من تصانيفه فى فنها وحسن استيعاب ما يتصدى لجمعه وكان مع ذلك شاعرا » • وينتهى نسبه الى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أميـــة وكان يحفظ من الشعر والاغانى والاخبار والآثار ما لم ينافسه فيه أحد من علماء عصره • وكان عالما فى اللغة والنحو والسير والطب وعلم النجوم • جمع كتابه الاغانى فى خمسين سنة وأهداه الى سيف الدولة الحمدانى فمنحه ألف دينار وعنه قال ياقوت فى كتابه ارشاد الأريب : « ولعمرى ان هـــذا الـكتاب الجليل القدر الشائع الذكر ، جم الفوائد ، عظيم العلم ، جامع بين الجد البحث والهزل البحت »• وأشمل كتب أبى الفرج وأهمها هو هـذا الـكتاب الذى يعد بحق من أمهات كتب الادب العربى وفيه ترجم صاحبه لاكثر شعراء العرب من جاهليين واسلاميين ومحدثين وترجم لـكل من عرف اسمه من المغنين فى الدولة الاموية والدولة العباسية ، وأورد أخبار الملوك فى الجاهلية والخلفاء فى الاسلام • ونشر الاستاذ محمد الخضرى (المرحوم) هذا الـكتاب بصورة اكثر ترتيبا ونظاما واطلق عليه : مهذب الاغانى ، ووضع مسيو جويدى لـكتاب الاغانى « فهرست كتاب الاغانى » باللغة الفرنسية واللغة العربية ورتبه على أربعة فهارس : لاسماء الشعراء ، وللقوافى ، ولاسماء الرجال والنساء والقبائل ، ولاسماء الامكنة والجبال والمياه • ووضع الامام اللغوى جمال الدين بن حبقة بن منظور الانصارى المولود بمصر سنة ٦٣٠ هـ كتاب « مختار الاغانى فى الاخبار والتهانى » اختاره من كتاب الاغانى ورتبه على حروف المعجم وجاء فى ثلاثة مجلدات الموجود منها الثانى فقط •

ومن أبرز الشعراء ابن هانىء الاندلسى (٣٦٢هـ = ٩٧٣م) صاحب « ديوان ابن هانىء » • ولد محمد بن هانىء فى أشبيلية فى بلاد الاندلس

وقضى بها أيام صباه واتصل بصاحب اشبيلية ونال الحظوة لديه وانهمك فى دراسة الفلسفة وانتعمق فيها حتى اتهم بالكفر والالحاد فنقم عليه أهل هذه المدينة فرحل عن أشبيلية وعمره سبع وعشرون سنة ولقى جوهرا القائد ومدحه ثم ارتحل الى أبى جعفر يحيى بن حمدان الاندلسى أمير المسيلة وأمير الزاب ومن أنصار العلم والعلماء فبالغا فى اكرامه ونمى خبره الى المعز لدين الله الخليفة الفاطمى فطلبه منهما فلما وفد عليه بالغ فى اكرامه وأغدق عليه عطاياه ولما توجه المعز الى مصر شيعه ابن هانىء اليها ثم عاد الى المغرب ليصطحب معه أسرته ويلحق بعد ذلك بالخليفة المعز ولكنه بعد أن وصل الى برقة فى طريقه الى مصر أضافه شخص من أهلها ، فأقام عنده أياما فى مجالس الأنس والطرب وتوفى بعدها (٢٣ رجب سنة ٣٦٢هـ)[٣] .

وتنحصر أهمية ابن هانىء الاندلسى فى أنه أشار فى ديوانه الى الدعوة الفاطمية فى أيام الخليفة المعز وأشاد بمآثر هذا الخليفة ومجد أعماله ، حتى وصل به هذا الغلو أن نسب الى المعز بعض صفات النبوة والألوهية ، وبذا مهد ابن هانىء طريق الالحاد لمن أتوا من بعده من الشعراء . وناط به المعز الآمال الكبيرة عسى أن يحاكى الشعراء العباسيين ويبذهم . واذا تصفحنا ديوان هذا الشاعر وجدنا اكثره قد نظم فى مدح المعز .

ومن الكتب الهامة المماثلة لديوان ابن هانىء وأنفت فى عصر الفاطميين « ديوان الشريف الرضى » . ولد الشريف الرضى فى بغداد سنة ٣٥٩هـ وتقلد وظيفته نائب الاشراف بها . وديوانه مرتب على خمسة أبواب : فى المديح ، فى الافتخار وشكوى الزمان ، فى المراثى ، فى النسيب والمشيب ، فى الفنون المختلة . ورتب كل باب منها على حروف المعجم .

وجاء كتاب « عمارة اليمنى » المعروف باسم : « النكت العصرية فى

---

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٥

أخبار الوزراء المصرية » فى ثلاثة أجزاء[٤] • كان عمارة من أهل تهامة فى اليمن • أوفده أمير مكة الى مصر رسولا من قبله ، فدخلها فى أول ربيع الاول سنة ٥٥٠هـ (١١٥٥م) فى عهد الخليفة الفائز الفاطمى ووزيره طلائع بن رزيك • وعظم قدره لدى الخليفة بعد أن أنشد له فى قاعة الذهب بالقصر الفاطمى أولى قصائده • وعاد عمارة بعد ذلك الى مكة ، واستقر به المقام فى القاهرة وصار من أظهر شعراء العصر الفاطمى فى عهد الخليفتين الفائز والعاضد ، وبعد موت الوزير ابن رزيك قربه الوزير شاور حتى كان يتردد على داره ويجلس الى مائدته مرتين فى اليوم • ولكنه رفض اعتناق مذهب الشيعة ، مذهب الفاطميين • وأمدنا فى كتابه بمعلومات ذات غناء عن الدور الذى قام به الشعراء فى نشر تعاليم الفاطميين ومعرفة العوامل الحقيقية فى سقوط الدولة الفاطمية • ووضع أحد الادباء كتاب « مختارات من ديوان عمارة اليمنى » (واسم واضعه غير معروف) وهو فى الغزل والنسيب والمدح والهجاء والعتاب والرثاء • وعمل عمارة بعد سقوط الفاطميين على اعادة الحكم اليهم ، اذ اعتبر الأيوبيين مغتصبين للعرش الفاطمى •

وللقاضى الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦هـ ديوانه المعروف باسم « ديوان القاضى الفاضل » • واستفاد أبو شامه فى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين » (دولة نورالدين ودولة صلاح الدين) من هذا الكتاب •ووضع الامام جمال الدين ابو بكر المتوفى بالقاهرة سنة ٧٦٨هـ كتابا أسماه : « الفاضل ، من كلام القاضى الفاضل » وهو عبارة عن مختارات من المراسلات والمكاتبات من انشاء القاضى الفاضل ، وهو مخطوط[٥] •

---

(٤) طبعة هارتوج (شالون ١٨٩٧م) ومعها مقدمة وترجمة وملاحظات باللغة الفرنسية للمسيو هارتوج ، وفهرس بأسماء الرجال والنساء والدول وآخر بالبلدان والملل والنحل •

(٥) هذا المخطوط موجود بدار الكتب بالقاهرة مأخوذ بالتصوير الشمسى عن النسخة الاصلية المحفوظة فى المتحف البريطانى فى لندن •

ويعد كتاب « خريدة القصر وجريدة أهل العصر » لعمـــاد الدين الاصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ من أهم الـكتب الخطية ، وتقع فى ستة أجزاء تقع فى ستة مجلدات(٦) • ولد عمـادالدين بأصفهان وكان فقيهـا شـافعى المذهب ، تفقه بالمدرسة النظامية ببغـداد وتخرج فيهـا • وأتقن المجادلة وفنون الآداب واتصل بخدمة الوزير عون الله بن هبيرة فأحسن اليه وقربه وشمله بعطفه • فلما توفى الوزير رحل عمادالدين الى دمشق ، فوصلهـا سـنة ٥٥٢ هـ وهنـاك عهـد اليه بادارة البريد ، ثم فوض اليه بالتدريس فى مدارس دمشق ، فلمـا توفى نورالدين ذهب الى الموصـل حيث مرض بها مرضا شـديدا وبقى بهـا الى ان عـاد ثانية الى دمشق ورحل منها الى حلب واتصل بخدمة صلاح الدين يوسف فحاز ثقته وعاد الى دمشق بعد وفاة صلاح الدين وكرس بقية حياته للادب حتى توفى سنة ٥٩٧هـ • ويحوى كتابه « خريدة القصر » تراجم مستفيضة للشعراء ورجال الادب الذين عاشوا فى عهده ومما يجعل لهذه التراجم أهمية خاصة أن عماد الدين قابل معظم هؤلاء الشعراء والادباء وأخذ عنهم تاريخ حيـــاتهم وشيئا كثيرا من شعرهم • ومن كتاب خريدة القصر الذى يقـــع فى ستة مجلدات : مجلد يحتوى على محاسن شعراء العراق فى بغـــداد وواسط والبصرة ، ومجلد يحتوى على محاســـن شعراء مصر ، ومجلدان آخران متتابعان يحتويان على محاسن شعراء الشام وفلسطين والموصل والحجـــاز واليمن ، ومجلدان آخران فى محاسن شعراء صقلية وجماعة من شعراء القيروان وافريقية وجماعة من المغرب أتوا الشام •

ثانيا ـ الرحالة والجغرافيون

مصادر الرحالة هى المصادر التى وضعها أولئك الذين جابوا الاقطار ووضعها كل منهم كشاهد عيان لما دونه أثناء رحلته من معلومات ، استقاها

---

(٦) هذا المخطوط محفوظ بدار الـكتب بالقاهرة ، مأخوذ عن نسخة خطية بالمكتبة الاهلية بباريس •

من أفواه أعيان العصر أو عامتهم • ولتلك المصادر قيمة عظيمة فى وصف ما شاهدوه من أزياء طبقات الشعب وبلاط الحكام الذين زاروا قصورهم ، واستعراض الجيوش وجلسات المحاكم •

ومن أشهر الرحالة والجغرافيين الذين لهم آثار عظيمة ذات قيمة وفائدة لدراسة التاريخ الاسلامى : اليعقوبى والاصطخرى والمسعودى والمقدسى وابن حوقل والبيرونى وناصر خسرو والبكرى •

قام اليعقوبى برحلات طويلة فى أرمينية وايران والهند ومصر وبلاد المغرب • ويعد كتابه « تأريخ البلدان[٧] من أهم المؤلفات التى وضعها الرحالة ، لمن يريد أن يقف على أوصاف وأخبار الممالك التى زارها اليعقوبى ، لانه دوّن فى كتابه ما شاهده بنفسه ، فقد قال : انى عنيت فى شبابى ، وعند احتيال سنى وحدة ذهنى ، يعلم أخبار البلدان والمسافة ما بين كل بلد وبلد ، لانى سافرت حديث السن ، واتصلت أخبارى ودام تغربى » • وقد ذكر فى هذا الكتاب مَنْ تغلب على كل اقليم من اقاليم العرب ومن فتحه من قواد الاسلام ومقدار خراجه • و « تاريخ اليعقوبى »[٨] من أقدم الكتب التى تناولت بوجه عام ، التاريخ من آدم الى ظهور الاسلام ، ثم من ظهوره الى زمن المعتمد على الله الخليفة العباسى (٢٩٢هـ) •

ويحوى كتاب « مسالك الممالك »[٩] للرحالة الفارسى الاصطخرى وصفا دقيقا لكل جزء من أجزاء العالم الاسسلامى وأشهر مدنه ووضح ما أثبته فى كتابه بالخرائط ، واعتمد فيما دونه على رحلاته فى الممالك

---

(٧) طبعة دى غوية (ليدن ١٨٩٢ م)

(٨) جزءان ، طبعة هوتسما (ليدن ١٨٦٠ م) ومطبعة الغرى (النجف ١٣٥١ م)

(٩) ليدن ١٨٧٠ ـ ١٨٩٣ م ـ المجلد الاول من المكتبة الجغرافية •

الاسلامية ، وتكلم على بلاد العرب وبلاد المغرب ومصر والشام والجزيرة والعراق وفارس والهند الى بلاد ما وراء النهر •

وينسب الرحالة المسعودى الى عبدالله بن مسعود أحد أصحاب الرسول عليه السلام ولذا عرف باسم المسعودى • ونشأ المسعودى فى بغداد وزار كل أرجاء آسيا وقضى أواخر أيامه فى سوريا ومصر • وأهم كتبه « مروج الذهب » وهو عبارة عن دراسة تاريخية وجغرافية معا • وهو ليس تاريخا متصل الحلقات بعضه ببعض ، ولكنه عبارة عن مجموعة حوادث وأخبار ويتكلم عن الفرق الدينية والخلافة ويصف الحيوانات والمناظر الغريبة • ويقع فى جزأين ، وصف فى الجزء الاول منهما الخليقة وتناول قصص الانبياء وتواريخ الامم القديمة من القدس واليونان والرومان والعرب القدماء وأديانهم وعاداتهم ومذاهبهم وتكلم على الدولة العربية منذ ظهور النبى عليه الصلاة السلام الى مقتل عثمان • وتناول فى الجزء الثانى تاريخ الاسلام من خلافة علي الى سنة ٣٤٥هـ • ولاهمية هذا الكتاب طبع مرارا ونقله المستشرقون الى اللغتين الفرنسية[١٠] والانجليزية[١١] • وليس لكتابيه « التنبيه والاشراف » و « أخبار الزمان » من الاهمية ما لكتابه « مروج الذهب » •

ووضع المقدسى كتاب : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم[١٢] قال المقدسى فى وصف محاسن كتابه : « وما تم لى جمعه الا بعد جولاتى فى البلدان ودخولى أقاليم الاسلام ولقائى العلماء وخدمتى الملوك ومجالستى القضاة ودرسى على الفقهاء واختلافى الى الادباء ومخالطة الزهاد والمتصوفين » •

---

(١٠) باريس ١٨٧٢ فى ٩ مجلدات
(١١) لندن ١٨٤١
(١٢) طبعة دى غوية ـ المجلد الثانى من المكتبة الجغرافية ، ليدن ١٨٧٠ ـ ١٨٩٣ م •

وشاد بذكر مبلغ ما أفاده فى رحلاته فقال : « خطبت على المنابر وأذنت على المآذن وأممت فى المساجد » •

اما ابن حوقل فكان من الرحالة الذين جابوا الامصار الاسلامية واستمر فى تجواله ثلاثين عاما • غادر بغداد سنة ٣٣١هـ وطاف العالم الاسلامى من شرقيه الى غربيه ، ووصف مدينة بلرم عاصمة صقلية وصفا يعد أدق وصف اسلامى لهذه المدينة واتصل ابن حوقل بالفاطميين حتى اتهم بالتجسس لحساب الفاطميين فى الاندلس • وما أبدع ما دونه ابن حوقل ، وصفه لمدينة القسطاط العاصمة الاولى لمصر الاسلامية ، وذلك فى كتابه « المسالك والممالك »(١٣) •

ونشر الرحالة ناصر خسرو كتابه « سفر نامه » أو زاد المسافر • كان ناصر خسرو وزيرا فى خراسان ثم اعتزل الوزارة وحج بيت الله واعتنق مذهب الاسماعيلية ، مذهب الفاطميين • واعتبر الفاطميين الائمة حقا ، حتى جاءت كتابته عن مصر فى ذلك العصر أحسن ما فى كتابيه فقد وصف القاهرة المركز الرئيسى للمذهب الشيعى وأطنب فى وصف الصناعة المصرية فى العصر الفاطمى كما أبدع فى وصف الاحتفال بوفاء النيل أو جبر الخليج الذى كان من أعظم الاحتفالات التى كانت تقام فى مصر فى كل عام •

أما الرحالة البكرى ، فقد وضع لنا الكتاب المشهور : « المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب » • وبه معلومات جليلة الشأن عن شمالى افريقية وهو يعد جزء من أجزاء كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة الفارسى الذى عاش فى النصف الاول من القرن الثالث الهجرى • اما كتابه : « معجم ما استعجم » فقد فصل فيه القول فى الاحاديث والاخبار والتواريخ والاشعار

---

(١٣) المجلد الثانى من المكتبة الجغرافية ـ ليدن ١٨٧٠ ـ ١٨٩٣م •

والامصار والقرى والجبال والآثار ، فيصف جزيرة العرب ويتتبع هجرة القبائل العربية من أوطانها •

وأوضح الرحالة الادريسى فى كتابه « نزهة المشتـــاق فى اختراق الآفاق » صورة الارض وهيئتها ومقدار المسكون منها وذكر البحار ومبادئها• وقد اختصره مؤلف لم يعرف اسمه بعد ووضـــع كتـــابه اسمه « المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس • وجاءت شهرة الادريسى ، لا عن طريق كتبه بل لرسمه خريطة للعالم فى العصر الذى عاش فيه[١٤] • والادريسى مولود فى سبته ودرس فى جامعة قرطبة وجاب الاندلس وشمال افريقيـة وآسيا الصغرى •

ووضع السمعانى كتابه الانساب وهو جليل الفائدة فى ناحيتى النسب والجغرافية ، واختصره فى كتاب طبعته لجنة احياء ذكرى جيب (١٩٢٢م)•

وكان اسامة بن منقذ من أكابر بنى منقذ أصحاب قلعة سيزر فى الشام ويعد من شجعانهم وعلمائهم الذين اشتهروا بمؤلفاتهم ، وضع لنـــا « كتاب الاعتبار » أو « حياة أسامة » ، دون فيه رحلاته فى مصر والشام وبلاد الجزيرة وبلاد العرب •

أما ابن جبير صاحب « رحلة ابن جبير » فقد ولد فى مدينة بلنسية عام ٥٤٠ هـ ودرس على علماء عصره فى سبته وغرناطه ، درس فى خدمة أبى سعيد بن عبدالمؤمن صاحب غرناطه ثم بدأ رحلاته فخرج من ثغر سبتـه الواقع على شاطىء مراكش فى مواجهة جبل طارق وسارت السفينة محاذية لشاطىء الاندلس واتجهت شرقا مارة بجزائر البليار ووصل الى سردانية وأقلعت به السفينة بعد ذلك الى صقلية • وبعد شهر من بدء رحلته استقر به المقام فى الاسكندرية فى عهد السلطان صلاح‌الدين يوسف بن ايوب الذى

---

(١٤) قام كنراد ملر بطبع خريطة الادريسى

امتدحه ابن جبير • وزار ابن جبير مدينة الاسكندرية ووصفها وصفا دقيقا وقام ابن جبير برحلة ثانية سنة ٥٨٥هـ الى الشرق ، ويعد كتابه على أعظم جانب من الاهمية فى دراسة التاريخ الاسلامى •

وعرف ياقوت صاحب كتاب معجم البلدان باسم « ياقوت الحموى » و « ياقوت الرومى » • وكان ياقوت رقيقا لاحد أهالى بغداد فعنى بتربيته وبعث به الى بلاد الشرق وخاصة الى سواحل الخليج الفارسى ثم اعتنقه • وعاش بعد ذلك من بيع الكتب ونسخها • وأخذ يعمل فى التأليف فوضع كتابيه المشهورين : معجم البلدان[١٥] وارشاد الاريب الى معرفة الاديب[١٦] •

ومن أشهر الرحالة المسلمين فى العصور الوسطى عبداللطيف البغدادى صاحب كتاب « الافادة والاعتبار[١٧] الذى وصف لنا فيه رحلته الى مصر ودون خلال رحلته أحوال مصر اثناء المجاعة التى انتابتها فى عهد السلطان العادل الاول الايوبى (٥٩٦ ÷ ٦١٥هـ)• وكان عبداللطيف دقيقا فى وصف ما تناوله من الموضوعات حتى يمكن القول انه اعطانا صورة واضحة عن كل ما كتب • وولد عبداللطيف فى بغداد عام ٥٥٧هـ ودرس الطب والفلسفة وعلوم اللغة وزار مصر والشام والعراق واتصل بصلاح الدين الايوبى وقدم مصر ثانية بعد وفاة صلاح الدين واشتغل بالتدريس فى الازهر •

وصدر ابن بطوطه الرحالة كتابه « تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار »[١٨] بمقدمة أوضح فيها سير رحلته منذ خرج

---

(١٥) معجم البلدان فى معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر من كل مكان ، ١٢ جزءا

(١٦) يطلق عليه أيضا معجم الادباء أو طبقات الادباء ، فى ٧ أجزاء •

(١٧) يطلق على كتابه اسم « الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر •

(١٨) ترجمه الى اللغة الفرنسية ديفريميرى Deferemery وسانجينتى Sanguinetti (باريس ١٩٥٣ ـ ١٨٥٨ و ١٨٦٩ ـ ١٨٧٩م)•

من طنجه مسقط رأسه فى ٢ رجب عام ٧٢٥هـ معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه السلام • ثم جاب بلاد المغرب ومصر وفلسطين والشـام والحجـاز والعراق ومنهـا الى بلاد اليمن فالقسطنطينية فخوارزم ومنها الى الهند فالصين فبلاد جاوه ثم عاد الصين فالهند فبغداد فالقاهرة فتونس فالسودان ومنها الى بلاده •

ثالثا ـ مصادر الاقدمين :

تعد مصادر الاقدمين ، أهم أنواع المصادر للباحث فى التاريخ الاسلامى فهى الواسطة بين الماضى والحاضر ، وعن طريقها يمكن الوصول الى المعلومات التى دوّنهـا مؤرخون معظمهم من المعاصرين لهذه الحوادث • ولذا تلزم العناية بدراستها قبل غيرها من المصادر التاريخية الحديثة أو مصادر الآثار أو مصادر الادب ، سواء كانت تلك المصادر القديمة ، منشورة أو مخطوطة، فان الالتجاء اليها فى سبيل البحث التاريخى الدقيق ، من ألزم الامور لدراسة التاريخ الاسلامى على أسس سليمة • وقد يكون مؤلفوها من الذين عاشوا فى العصر الذى يكتبون عنه ، فتزداد الفائدة المرجوة من دراسة مصادرهم• ولذا يجب معرفة سنة وفاة كل مؤلف • وقد تحوى تلك المصادر أحاديث منقولة بواسطة شخص غير معاصر تماما من مصدر معاصر ضاع أو لا يعرف مكان وجوده • وتنحصر فائدة مصادر الاقدمين فى انها تتيح للباحث تتبع أصل العقائد والافكار والنظريات •

وبجانب كتب المؤرخين الاقدميين المنشورة ، توجد كتب لم يتم طبعها بعد ، ولا تزال بخط المؤلف ، أو أخذت عنها صور شمسية لتودع كـل صورة منها احدى المـكتبات العامة التى تحرص على اقتناء المخطوط • ومعظم هذه المخطوطات نادر الوجود ، وقد يفقد الـكثير منها أو تضيع بعض أجزائه الهامة ، لسوء الحالة الاقتصادية فى عصر من العصور أو انتشار المجاعـات

والاوبئة فى العصر الذى وضعت فيه تلك المؤلفات • كذلك قد توجد بعض صفحات المخطوط متآكلة بفعل الزمن أو رداءة المكان المحفوظ فيه المخطوط ، ولذا نستعمل نظارات خاصة لقراءاتها • وقد تصل المخطوطات الينا عن طريق مباشر اى نستخدمها نفسها أو عن طريق مؤرخين نقلوامن تلك المخطوطات قبل ضياعها كثيرا مما حوته ، فيبقى لدينا منها ما دونه هؤلاء المؤرخون فى كتبهم • وتوجد هذه المخطوطات فى المتاحف والمكتبات العامة والاراشيف والمصالح الحكومية • وقد اصبح استخدام المخطوطات فى البحوث العلمية شائعا ، وخاصة ان كثيرا من الكتب الهامة لم ينشر بعد ، ولذا لا يكون البحث عميقا دون استخدام المخطوطات •

والى جانب مصادر الاقدمين المنشورة والمخطوطة ومصادر الرحالة ومصادر الادب لايصح اهمال المصادر الحديثة سواء كانت عربية أم افرنجية ، متعلقة بالتاريخ أو بالآثار • وعلى الباحث تتبع قائمة محتوياتها وفهارسها وصفحاتها المرتبطة بموضوع البحث • وعلى الباحث دراسة الوثائق الرسمية، المطبوعة والمخطوطة ودراسة القرآن الكريم والحديث الشريف والموسوعات التاريخية ودوائر المعارف وخاصة دائرة المعارف الاسلامية وكتب الفقه ومصادر الملل والنحل والنظم لاننا نستقى منها معلوماتنا عن شكل الحكومة الاسلامية ونظام المعاملات بين الافراد •

ولا يمكن حصر تلك المصادر فى ذلك البحث ، ولكننا نقتصر على ذكر بعض المؤرخين الاقدمين الذى صاروا عمد التاريخ الاسلامى بلا منازع • وأشهرهم الطبرى والمقريزى •

(أ) الطبرى(١٩)

ولد ابو جعفر بن جرير بن يزيد الطبرى فى طبرستان الواقعة جنوب بحر قزوين سنة ٢٢٤ هـ (٨٣٨ م) ورحل فى حداثة سنه الى بغداد

---

(١٩) يشمل الكلام على الطبرى تناول المؤرخين الذين أتموا مؤلفاته وعنوا بأمرها من أمثال : عريب بن سعد ومسكويه وأبو شجاع وابن الاثير •

وتلقى العلم بها ثم عهد اليه عبيدالله بن يحي وزير المتوكل العباسى تعليم ابنه • فظل يباشر هذه المهمة الى ان اعتزل هذا الوزير الحكم ، فسافر الطبرى الى الشام وفلسطين ومصر وقضى فى رحلته زهاء خمس عشرة سنة ، ثم عاد الى بغداد وقضى بقية حياته فى التعليم والتأليف وعكف الطبرى على كتابة التاريخ ، فكان مثلا للعالم المنكب على عمله ، وكان يكتب فى اليوم الواحد ما لا يقل عن أربعين صفحة •

ويعد كتابه : « الامم والملوك » ، أقدم وأهم المراجع التى يعتمد عليها فى دراسة التاريخ الاسلامى عامة • ويمتاز بدقة ما ورد فيه من المعلومات الكثيرة وبالدقة فى تحرى تلك المعلومات مما يدل على ما اتصف به هذا المؤلف من علم غزير •

ويكتب الطبرى تاريخه « سنة فسنة ، وهذا ما يسمى بالسنويات ويبتدىء هذا التاريخ من خلق الانسان فيتكلم عن آدم والجنة كما ورد فى الكتب الدينية ثم يسرد الاخبار الخاصة بالدولة الرومانية • ويصف العرب فى الجاهلية وفى صدر الاسلام ويتكلم عن البعثة النبوية فالخلافة وامتدادها وينتهى بها الى سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) مع أنه توفى فى بغداد سنة ٣١٠هـ •

والكتاب كما تركه مؤلفه غير موجود ، اذ انه للأسف سرق ، ونقل فى عدة كتب اخرى • ولاهميته ساح بعض علماء الهولنديين على الممالك الاسلامية واستخرجوا من المؤلفات الملخصة المسروقة التى نقلت عنه لنسخة أقرب ما تكون الى الحقيقة[٢٠] •

وقد عمد بعض المؤرخين الى اكمال كتاب تاريخ الامم والملوك للطبرى :

---

(٢٠) اقرأ تاريخ حياة الطبرى وأهميته العلمية فى
Nicholson: Literary History of the Arabs, pp. 349 - 352.

١ ـ أكمل هذا الكتاب الى سنة ٣١٠هـ ، عريب بن سعد القرطبى المتوفى سنة ٣٦٦هـ (٩٧٦ - ٩٧٧م) والذى شغل منصب الكتابة فى بلاط الحكم الثانى فى قرطبه (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) واطلق على كتابه : صلة تاريخ الطبرى • وهو ذيل لتاريخ الطبرى ابتدأه من سنة ٢٩١هـ وانتهى فيه الى سنة٣٢٠هـ • وتنحصر أهمية هذا الكتاب فى أنه أحاط بتاريخ شمال افريقية ومصر ، فى الوقت الذى يهتم فيه الطبرى بأن يمدنا بشىء ذى غناء عن تاريخ هذه البلاد •

٢ ـ وتناول مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ هـ ، الحوادث التى أعقبت ما دونه الطبرى فى تاريخه ، وينتهى الى سنة ٣٧٢هـ ، ووضع من أجل ذلك كتابه : تجارب الامم وتعاقب الهمم • وهو من أهم الكتب العلمية ، فقد كان لمسكوية ضلع كبير فى الحوادث الهامة التى تناولها فى كتابه ، مما يجعل لمعلوماته قيمة كبيرة ، كما أن المناصب التى تقلدها كانت تلقى على عاتقه كثيرا من المسئولية اذ مكنته من الوقوف على أسرار الدولة •

وأخذ مسكويه كتابه : تجارب الامم ، بما نقل اليه من الاخبار بعد الطوفان ، ثم سيرة الرسول عليه السلام وتاريخ الخلفاء الراشدين والولاة والملوك والسلاطين الى اوائل سنة ٣٧٢هـ ورتبه على السنين الهجرية ويقع فى ثلاثة مجلدات ، عنى بتصحيحها المتشرق الانجليزى أمدروز ووضع لها فهرسين لاسماء الرجال والاماكن • وقد اختلف المؤرخون فى صحة ثبوت لقب مسكويه له أو لابيه •

٣ ـ ووصل ظهير الدين محمد بن الحسين الروذراورى الاصل ، الاهوازى المولد ، المتوفى سنة ٤٨٨ هـ ، وزير الخليفة العباسى المقتدى (٤٧٦ - ٤٨٧هـ) المعروف بأبى شجاع ، تاريخ مسكويه بتاريخه وعرف كتابه باسم : ذيل تجارب الامم ، وتناول فيه الكلام على المدة الواقعة بين سنتى ٣٧٢ هـ ، ٣٨٩ ورتبه على السنين •

٤ ـ وكتب ابن الاثير ، المتوفى سنة ٦٣٠هـ (٢٣٨م) كتاب «الكامل في التاريخ » • وجاء في ١٢ جزءا ويبدأ فيه من خلق الانسان ووصل الى سنة ٦٣٠هـ أى لما بعد الطبرى بثلاثمائة سنة ، كتبه بطريقة السنويات على نسق الطبرى • ولابن الاثير كتاب آخر يعرف باسم : « أسـد الغابة في معرفة الصحابة » ، وهو في خمسة أجزاء •

(ب) أشهر كتاب الملل والنحل والنظم(٢١)

كتب البغدادى (المنصور عبدالقاهر بن طاهر المتوفى سنة ٤٢٦هـ) كتابه « الفرق بين الفرق » •

وكتب الماوردى(٢٢) (أبو الحسن على بن حبيب المصـرى ـ الفقيه الشافعى البغدادى) المتوفى سنة ٤٥٠هـ (١٥٠٨م) كتاب الاحكام السلطانية والولايات الدينية • وهو أول كتاب وضع باللغة العربية عن نظم الحـكم في الاسلام • على أن الغموض الذى يحيط بأسلوب الماوردى ، لمما يزيد في قيمة ما كتبه المتأخرون عن هذا الموضوع أمثال ابن طباطبـا وابن خلدون والقلقشندى والمقريزى • وللماوردى مخطوط « قوانين الوزارة » ويبحث في قوانين الوازرة ومعناها واشتقاقها وما يتبعها من تقليد وعزل وما يجب على من يتولاها من الدفاع عن الدولة والرعية •

ووضع ابن حزم (ابو على محمد بن احمد) المتوفى في سنة ٤٥٦هـ كتابه « الفصل في الملل والاهواء والنحل » (في ثلاثة أجزاء)•

كذلك كتب الطوسى (محمد بن الحسن) المتوفى سنة ٤٦٠هـ كتابه فهرست كتب الشيعة •

---

(٢١) يشـمل الـكلام على كتاب الملل والنحـل والنظم : البغدادى ـ الماوردى ـ ابن حزم ـ الطوسى ـ الشهرستانى •

(٢٢) كان الماوردى يبيع ماء الورد ، ولذا عرف بهذا اللقب • ياقوت : ارشاد الاريب ج ٥ ص ١٠٧ •

ووضع الشهرستانى (أبو الفتح محمد بن عبدالكريم) المتوفى سنة ٥٤٨هـ كتابه « الملل والنحل » (فى خمسة أجزاء) •

والنظم جمع نظام ، وهى كلمة تطلق على كل شىء يراعى فيه الترتيب والانسجام • وهى ـ بهذا الاعتبار ـ تشبه العقد من حيث انتظام أحجاره بعضها مع بعض • ونظم أية دولة تتكون من مجموعات القوانين والمبادىء والتقاليد التى تقوم عليها الحياة فى هذه الدولة • ومن هذه النظم : النظام الادارى والنظام المالى والنظام القضائى • وهناك نظم أخرى كالحج والصلاة والصوم ، ونظريات الفرق الدينية التى ظهرت فى الاسلام ، وهى تتصل فى الواقع بالدين اكثر من اتصالها بالتاريخ ، وهناك نوع آخر من النظم هو النظم الاجتماعية التى تعنى بدراسة حالة الشعوب كنظام الرق لما كان له من أثر كبير فى حياة المجتمع الاسلامى •

(ج) ابن خلكان وابن طباطبا

ولد ابن خلكان فى مدينة اربل قرب الموصل فى العراق سنة ٦٠٧هـ وكان قاضياً فقيهاً سنياً على المذهب الشافعى • ويعد ما كتبه فى كتابه « وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان » (جزءان) من تراجم ، أحسن ما كتب فى هذا الصدد • وتتبين لنا قيمة هذا الكتاب مما كتبه مؤلفه ابن خلكان فى صدر كتابه ، قال : « هذا مختصر فى علم التاريخ ، دعانى الى جمعه أنى كنت مولعا بالاطلاع على أخبار المتقدمين من أولى النباهة وتاريخ وفياتهم وموالدهم ••• ولم أذكر فى هذا المختصر أحدا من الصحابة رضوان الله عليهم ولا من التابعين رضى الله عنهم الا جماعة يسيرة ، تدعو حاجة كثير من الناس الى معرفة أحوالهم وكذلك الخلفاء ولم أذكر أحدا منهم اكتفاء بالمصنفات الكثيرة فى هذا الباب • لكن ذكرت جماعة من الافاضل الذين عاصرتهم ونقلت عنهم أو كانوا فى زمنى ولم أرهم ليطلع على حالهم من يأتى

بعدى • ولم أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة مثل العلماء أو الملوك أو الامراء أو الوزراء أو الشعراء ، بل كل من له شهرة بين الناس ويقع السؤال عنه ، ذكرته وأتيت من أقواله بما وقفت عليه مع الايجاز كى لا يطول الكتاب ، وأثبت وفاته ومولده ان قدرت عليه ورفعت نسبه على ما ظفرت به »[٢٣] • وتوفى ابن خلكان عام ٦٨١هـ •

ووضع المؤرخ ابن شاكر الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤هـ كتاب فوات الوفيات (فى جزءين) تتمة لكتاب وفيات الاعيان •

ووضع ابن طباطبا كتابه المعروف باسم « الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية » • وهو كتاب ممتع عن السياسة الاسلامية ، يمتاز بسهولة أسلوبه وامتاع عباراته ، ولا يوجد كتاب أصلح منه لان يكون مقدمة للادب العربى ، فهو كتاب أدبى تاريخى سياسى ، صدره ببيان فضل العلم ، موضحا أن أفضل ما نظر فيه الملوك ما اشتمل على الآداب السلطانية والسير التاريخية • وقسم كتابه قسمين : القسم الاول تكلم فيه على ما استسنه من سير الملوك والخلفاء والوزراء ، مبينا ما يقول بالآيات القرآنية والاحاديث الشريفة والحكم والاشعار • وتناول فى القسم الثانى مشاهير الدول مبتدئا بدولة الخلفاء الراشدين ثم الدولة الاموية فالدولة العباسية ودولة البويهيين والسلاجقة والدولة الفاطمية وذكر مع كل خليفة وزراءه الى نهاية وزراء الدولة العباسية •

(د) ابن خلدون

قاضى القضاة ولى الدين عبدالرحمن ، المتوفى سنة ٨٠٦هـ وهو مؤرخ فيلسوف ، يرجع اليه الفضل فى وضع قواعد علم العمران ، أو علم الاجتماع • وظل طول حياته يشرح أصول الاخلاق ويهدى الناس الى

---

(٢٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٢ ـ ٣

سواء السبيل ، وله أسلوبان : كل له نعته الخاص ، أسلوب ردىء لازمه فى كتابة « المقدمة » ، تأثر فيه بحالة اللغة العربية فى تونس والجزائر ومراكش والاندلس ، وأسلوب جيد لازمه فى مصر بعد أن تعلم وعلم فى الازهر الشريف وبعد رحلته الى شبه جزيرة العرب •

كتب ابن خلدون مقدمته فى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاشارة الى اخطاء المؤرخين • ولذا حذر ابن خلدون الكتاب من الوقوع تحت تأثير النقل عن الاقدمين دون مراعاة أصول البحث التاريخى ، فقال : كثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط فى الحكايات والوقائع ، لاعتمادهم على مجرد النقل غثا أو سمينا ، لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولاسيروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة ، فضلوا عن الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط » •

وتعد « المقدمة » أهم كتب ابن خلدون[٢٤] وقد وصف المقريزى مقدمة ابن خلدون بأنها « لم يعمل مثالها ، وانه لعزيز أن ينال مجتهد منالها ، اذ هى زبدة المعارف والعلوم ، ونتيجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنه الاشياء وتعرف حقيقة الحوادث والانباء ، وتعبر عن حال الوجود ،وتنبىء أصل كل موجود » • وكانت هناك صلة عظيمة وصداقة مينة بين ابن خلدون والمقريزى •

اما كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » فتناول فيه الكلام عن الملك والسلطان والصنائع والعلوم ، وهى ما تعرض له فى المقدمة ، ثم تكلم عن تاريخ العرب منذ بدء الخليقة الى عصره وعمن عاصرهم من الامم الشهيرة

---

(٢٤) ترجمت مقدمة خلدون الى اللغة التركية مرتين ، كما ترجمت الى اللغة الفرنسية على يد البارون دى سلار أو دى سلين •

مثل المسريانيين والفرس وبنى اسرائيـــل والقبط واليونان والروم والترك والأفرنج والبربر •

(هـ) المقريزى :

تقى الدين ابو العباس احمد ، المتوفى سنة ٨٤٥هـ •

سمى المقريزى بهذا الاسم ، لان جده لابيه يكنى بالمقريزى ، نسبة الى مقريز من أعمال بعلبك فى سوريا •

وضع المقريزى عـدة كتب ، لا غنى لنا عنهـا فى دراسـة التاريخ الاسلامى :

١ ـ وضع كتـابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار وهو المعروف باسم الخطط[٢٥] • بدأه بذكر الارض ثم تكلم عن موضع مصر من الاقاليم الاخرى وحدودها وجهاتها وبحارها وجبالها وأنهارها • ووصف المدن المصرية مثل الفسطاط والعسكر والقطائع والقـــاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد وأسوان والفيوم ، والآثار المصرية القديمة والوسيطة ، وعنى بدراسة تاريخ مصر السياسى والاقتصادى والفكرى والنظم الحكومية والمذاهب الدينية وسير الولاة والخلفاء والسلاطين وأحوال مصر الاجتماعية اذ تكلم عن المواسم والمواكب والملابس •

ونظرا لاهمية « الخطط » تصدى بعض كتاب القرن الحـــادى عشر الهجرى لاختصارها ، فقـد اختصرها : أحمـد الحنفى البوح فى مجلد واحد[٢٦] واطلق عليها اسم« الروضة البهية تلخيص كتاب المواعظ والاعتبار المقريزية » وهى تلخص نحو ربع كتاب الخطط • ولخصها ايضا شمس الدين

---

(٢٥) هذا الـكتاب مطبوع فى المطبعة الأميرية فى بولاق بالقاهرة ويقع فى جزأين •

(٢٦) توجد نسخة خطية من هذا المجلد فى مكتبتى لندن وباريس •

محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى المتوفى سنة ١٠٨٧هـ فى مجلد واحد وأطلق عليها « قطف الازهار من الخطط والآثار »[٢٧] .

٢ ـ ويشمل كتاب « جواهر الاسفاط فى أخبار مدينة الفسطاط » تاريخ مصر منذ الفتح العربى سنة ٢٠هـ الى سقوط الاخشيديين سنة ٣٥٨هـ .

٣ ـ أما كتاب « اتعاظ الحنفا » للمقريزى ، فهو تاريخ العصر الفاطمى بأكمله . على أنه لم يظهر منه الا الجزء الخاص بالدولة الفاطمية منذ نشأتها فى المغرب الى عصر المعز لدين الله ، أما الاجزاء فقد ضاعت . وبذا يكون ما وصلنا من هذا الكتاب هو قسم صغير من الكتاب الاصلى[٢٨] . بدأ المقريزى كتابه بذكر ثبت كامل واف يشمل لاولاد على بن أبى طالب من نسل الحسن والحسين وعرض لمشكلة النسب الفاطمى التى عدت من أعقد المشاكل من تاريخ العصور الوسطى وأرخ بعد هذا لقيام الدولة الفاطمية فى المغرب وجهود الدعاة الاوائل . ورحلة أبى عبدالله الشيعى من اليمن الى المغرب وانتقال عبيدالله المهدى من سلمية بالشام الى المغرب ، وتناول تاريخ حياة الخلفاء الفاطميين الاربعة الذين حكموا فى المغرب . وتحدث بعد هذا عن الفتح الفاطمى لمصر وتأسيس مدينة القاهرة وخطر القرامطة وتهديدهم الديار . وكان المقريزى ينتسب الى الفاطميين فهو من أحفادهم ، وذلك من العوامل التى دفعته الى الكتابة عنهم وتمجيد أعمالهم والاهتمام الكبير بتاريخهم .

٤ ـ ويحوى كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » تاريخا مفصلا لدولتى الايوبيين والمماليك فى مصر منذ سنة ٥٧٧هـ الى سنة ٨٤٤هـ[٢٩] .

---

(٢٧) توجد نسخة خطية بدار الكتب بالقاهرة .
(٢٨) تم نشر هذا الكتاب .
(٢٩) تم نشر معظم اجزاء هذا الكتاب .

كتبه بطريقة السنويات مثل الطبرى • وذكر المقريزى فى مقدمة كتاب السلوك : أنه ألفه ليكون تاريخا لمن ملك مصر بعد الفاطميين من الملوك الاكراد والايوبية والسلاطين والمماليك التركية والبرجية ، فى كتاب يحصر أخبارهم الشائعة ، ويستقصى أعلامهم الذائعة ، ويحوى اكثر ما فى أيامهم من الحوادث والماجريات ، غير معتنٍ فيه بالتراجم والوفيات ، لانى أفردت لها تأليفا بديع المثل ، بعيد المنال ، فألفت هذا الديوان ، وسلكت فيه التوسط بين الاكثار الممل والاختصار المنحل •

وهنا يلاحظ أن المقريزى قد وضع تاريخ مصر من الفتح العربى الى سقوط الاخشيديين فى كتابه : « عقد جواهر الاسفاط فى أخبار مدينة الفسطاط » ، كما وضع تاريخ مصر فى عصر الفاطميين فى كتابه : « اتعاظ الحنفا » ، وأكمل تاريخ مصر فى العصور الوسطى بكتابة : تاريخ الايوبيين والمماليك فى السلوك •

٥ ـ ويتناول « التاريخ الكبير المقفى » تراجم مستوفاة لمشاهير الرجال والنساء من المسلمين والنصارى ، رتبت على حروف المعجم ، ويقع فى ستة عشر مجلدا ، توجد فى مكتبات أوربا ، وعلى الاخص فى مكتبة المتحف البريطانى فى لندن وفى المكتبة الاهلية فى باريس ومكتبة الجامعة فى هولندا • ومما هو جدير بالذكر أن المقريزى قدمات قبل أن يتم هذا الكتاب •

٦ ـ وكتاب اغاثة الامة بكشف الغمة[٣٠] هو تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور الى سنة ٨٠٨هـ وهى السنة التى وضع فيها المقريزى كتابه هذا • وعنى مؤلفه باستقصاء الناحية الاقتصادية والاجتماعية من تاريخ مصر فى ذلك العصر •

---

(٣٠) تم نشر هذا المخطوط •

رابعا ـ ملحق بالمصادر الاصلية

١ ـ أبو الفرج الاصبهانى (٣٥٦هـ = ٩٦٧م)
أبو الفرج على بن الحسين بن محمد
كتاب الاغانى ٢١ جزءاً (القاهرة ١٢٨٥هـ)

٢ ـ ابن هانىء الاندلسى (٣٦٢هـ = ٩٧٣م)
أبو القاسم المكنى بأبى الحسن محمد

٣ ـ الشريف الرضى (٤٠٦هـ = ١٠١٥م)

٤ ـ عمارة اليمنى (٥٦٩هـ = ١١٧٤م)
القاضى الفقيه أبو محمد عمارة بن أبى الحسن زيدان الحكمى القحطانى ٠
النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ٠
طبعة Hartwig Derenbourg (شالون ١٨٩٧م)

٥ ـ القاضى الفاضل (٥٩٦هـ)
ديوان القاضى الفاضل

٦ ـ عمادالدين الاصفهانى (٥٩٧هـ = ١٢٠١م)
أبو عبدالله محمد بن محمد أبى الرجاء
خريدة القصر وجريدة أهل العصر

٧ ـ اليعقوبى (٢٩٢هـ = ٨٩٥م)
تاريخ البلدان ٠ طبعة دى غويا (ليدن ١٨٩٢م)
تاريخ اليعقوبى ٠ جزءان ٠ طبعة هوتسما (ليدن ١٨٦٠م)

٨ ـ الاصطخرى (من علماء النصف الاول من القرن الرابع الهجرى)
مسالك الممالك (ليدن ١٨٧٠ – ١٨٩٣م – المجلد الاول من المكتبة الجغرافية)

٩ ـ المسعودى (٣٤٦هـ = ٩٥٦م)
أبو االحسن علي بن الحسين بن علي الحسينى الشافعى
(أ) مروج الذهب ومعادن الجوهر ٠ جزءان (القاهرة ١٣٩٣هـ)
(ب) كتاب التنبيه والاشراف ٠ طبعة دى غويا (المجلد الثامن من المكتبة الجغرافية ـ ليدن ١٨٩٣م)
(ج) أخبار الزمان ، ومن ابادة الحدثان وعجائب البلدان ٠٠
مخطوط بدار الكتب بالقاهرة وبالمكتبة الاهلية فى باريس ٠

١٠ـ المقدسى (٣٨٧هـ = ٩٩٧م)
أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم
طبعة دى غويه ـ المجلد الثانى من المكتبة الجغرافية ـ ليدن ١٨٧٠م

١١ـ ابن حوقل (عاش فى القرن الرابع الهجرى)
أبو القاسم أحمد البغدادى
المسالك والممالك ٠ المجلد الثانى من المكتبة الجغرافية ـ ليدن ١٨٧٠

١٢ـ البيرونى (٤٤٠هـ = ١٠٤٨م)
ابو الريحان محمد بن احمد الخوارزمى
الآثار الباقية عن عن القرون الخالية (ليبسك ١٨٧٨م)

١٣ـ ناصر خسرو (٤٨١هـ = ١٠٨٨م)
سفرنامة أو زاد المسافر
طبع المسيو Schefer متنه بالفارسية وترجمته بالفرنسى مع الحواشى والتعليقات ٠

١٤ـ البكرى (٤٨٧هـ ـ ١٠٩٧م)
(أ) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ٠
(طبعة دى سلين ٠ باريس ١٩١١م)
(ب) معجم ما استعجم
(طبعة جوتنجن ١٨٧٦ ـ ١٨٧٧م)

١٥ ـ الادريسى (٥٦٠هـ)
كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (روما ١٥٩٢م) ٠

١٦ـ السمعانى (٥٦١هـ = ١٠٦٦ ـ ١٠٦٧م)
كتاب الانساب ٠ طبعته لجنة احياء ذكرى جب سنة ١٩٢٢ م

١٧ـ أسامة بن منقذ (٥٨٤هـ = ١١٨٨م)
كتاب الاعتبار أو حياة أسامة

١٨ـ ابن جبير (٦١٤هـ = ١٢١٧م)
رحلة بن جبير (ليدن ١٨٥٢م) ٠

١٩ـ ياقوت (٦٢٦هـ = ١٢٢٩م)
(أ) معجم لبلدان ، فى معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر من كل مكان
(ب) ارشاد الاريب الى معرفة الاديب أو معجم الادباء أو طبقات الادباء ٠

٢٠ـ عبداللطيف البغدادى (٦٢٩هـ = ١٢٣١م)
الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ٠

٢١ـ ابن بطوطة (٧٧٩هـ = ١٣٣٧م)
رحلة ابن بطوطة المسماة
تحفة النظار وغرائب الامصار وعجائب الاسفار

٢٢ـ الطبرى (٣١٠هـ)
تاريخ الامم والملوك

٢٣ـ عريب بن سعد القرطبى (٣٦٦هـ)
صلة تاريخ الطبرى

٢٤ـ مسكويه (٤٢١هـ)
تجارب الامم وتعاقب الهمم

٢٥ـ أبو شجاع (٤٨٨هـ)
ذيل تجارب الامم

٢٦ـ ابن الاثير (٦٣٠هـ)
(أ) الـكامل فى التاريخ
(ب) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ٠

٢٧ـ البغدادى (٤٢٦هـ)
الفرق بين الفرق

٢٨ـ الماوردى (٤٥٠هـ)
الاحكام السلطانية والولايات الدينية ٠

٢٩ـ ابن حزم (٤٥٦هـ)
الفصل فى الملل والاهواء والنحل ٠

٣٠ـ الطوسى (٤٦٠هـ)
فهرست كتب الشيعة ٠

٣١ـ الشهرستانى (٥٤٨هـ)
الملل والنحل

٣٢ـ ابن خلـكان (٦٨١هـ)
وفيات الاعيان ، وأنباء أبناء الزمان ٠

٣٣ـ ابن طباطبا (وضع كتابه سنة ٧٠١هـ)
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ٠

٣٤ـ ابن خلدون (٨٠٦هـ)
(أ) مقدمة ابن خلدون
(ب) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى النفوذ الاكبر ، المعروف باسم « تاريخ ابن خلدون • »

٣٥ـ المقريزى (٨٤٥هـ)
(أ) المواعظ والاعتبار ، بذكر الخطط والآثار •
(ب) جواهر الاسفاط ، فى أخبار مدينة الفسطاط •
(ج) اتعاظ الحنفا ، بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا •
(د) السلوك ، لمعرفة دول الملوك •
(هـ) التاريخ الكبير المقفى •
(و) اغاثة الأمة ، بكشف الغمة •

بغداد ١٤ـ٢ـ١٩٥٩

دكتور علي ابراهيم حسن
أستاذ التاريخ الاسلامى
بكلية الآداب بجامعة بغداد

أبو حامد الغزالى
ومعارضوه من أهل السنة

للدكتور على سامى النشار
استاذ الفلسفة بكلية الآداب
بجامعة بغـــداد

لم يشغل مفكر من مفكرى الاسلام العالم الاسلامى أكثر مما شغله أبو حامد الغزالى • ولم يثر عالم من علماء المسلمين أكثر مما أثار من تأييد وتمجيد ومهاجمة واستنكار ، ومدح وقدح • فقد شغل الرجل جميـــع دوائر الفكر الاسلامى بلا استثناء ، فلسفية أو كلامية أو أصولية أو فقهية أو صوفية • وقد كتب الغزالى فى كل ميادينها ونبع عن عبقرية فياضة • داخلية وخارجية فيه ـ وشغل ـ كما قلت الاجيال من بعده • وأثر فيها أكبر تأثير ، حتى أيامنا هذه • وقد وقف له بالمرصاد الـكثيرون من أعدائه ، يحاولون تحطيم هذا الصرح الاكبر الذى أقامه • وكتبت المؤلفات المتعددة فى نقد كتبه وتعرض لاكبر نقد تعرض له مفكر من المفكرين ، وحاول البعض من الاقدمين أن يسلب عنه أصالته ، وحاول البعض الآخر أن يبين تهافت كتاباته • وذهب الناس فيه كل مذهب • ولسنا هنا فى مجال الاحاطة بكل هذا • ولـكننا سنعرض لموقف معارضيه من أهل السنة والجماعة • ومن العجب أن يتصـدى له من بينهم معارضون وقـد كان « عالم أهل السنة الكبير » والمنافح الاكبر عن عقيدتهم • قضى على « الفلسفة المشائية » لاجلهم ، وهاجم أعداءهم من المتكلمين من مختلف الفرق فى سبيلهم ، ثم كتب لهم فى علومهم أعمق الـكتب ، وما زال كتابه (المستصفى فى اصول الفقه)

نسقا بديعا لكتبهم • ثم توج هذا المجهود الضخم المتنوع المتعدد النواحى يوضع الاخلاق العملية على أساس من عقيدة أهل السنة فى كتابه العظيم « احياء علوم الدين » • ووضع بهذا أساس التصوف السني العملى فى أدق صوره • وما زال « الاحياء » حتى الآن الملهم العميق لدوائر أهل السنة والجماعة • ثم مات •• وأعظم كتب الحديث « صحيح البخارى » على صدره، معلنا للوجود كله أن « عقيدة أهل الحديث » هى العقيدة الناجية فى الاسلام • وينقسم أهل السنة والجماعة فى موقفهم من الغزالى الى طوائف ثلاث • الطائفة الاولى ـ ذهبت الى اعتباره أكبر علماء المسلمين ونسبوا له الصديقية العظمى • والطائفة الثانية هاجمته هجوماً ليناً ليس فيه قسوة ولا شدة • والطائفة الثالثة ـ تناولته بالذم والتجريح ـ وذهبت الى اعتباره مبتدعا كبيرا ، ظهر بما ضمنه بعض كتبه من مذاهب فلسفية ونزعات غامضة ورموز تخفى وراءها مذاهب تخالف الدين فى جوهره أشد مخالفة •

وما زال « الغزالى » مشكلة حية من مشاكل العالم الاسلامى • بل ومن مشاغل الفكر الانسانى عامة • وما زالت كتبه مدرسة كبرى للعدد العديد من المسلمين فى أرجاء العالم الاسلامى • وقد تنبه المستشرقون الى أهميته الكبرى فى العالم الاسلامى المعاصر • فكتب Carra de Vaux كتابه Al Ghazali [1] تناوله فيه من الناحية التاريخية • ثم كتب Asin Palacious(2) المستشرق الاسبانى المشهور كتاب Al Ghazali ايضا • وقد تناوله من الناحية الموضوعية ثم كتب كتابا آخر عن معنى كلمة « تهافت » فى الفلسفة الغزالية • وتتابعت الكتب المختلفة عن الغزالى فى اللغات الاوربية • ثم كتب المبشر المتعصب « زويمر » عن الغزالى كتاب « الغواص عن اللالىء »

(1) Carra de Vanx: Al Ghazali: Introduction: 1 - 15.
(2) Asin Placious, Al Ghazali 1 - 25.

وحاول أن يثبت أن الغزالى قد تأثر بالمسيحية • ومع أن « زويمر » لم تتوفر له الحيدة العلمية فى كتاباته ، بل كان يسيطر عليه دائما اتجاهه الدينى فى البحث ، فلم ينتج فى كل ما كتب سوى أكاذيب صارخة ، الا أنه كان يشعر بما للغزالى من أهمية كبرى فى العالم الاسلامى الحديث ، فكتب كتابه محاولا أن يصبغ كتابات الغزالى بصورة مسيحية ، كان الغزالى أبعد الناس عنها ، بل حاربها أشد المحاربة •

ومما لاشك فيه أن الغزالى خاض فى كل المسالك العقلية ، واقتحمها واحدا فواحدا • وأصاب من عاصروه ومن بعده من أجيال البهر مما كتب • وانسابوا وراءه اما اتباعا وراءه مصدقين واما اعداءً منقبين عن سقطات كبرى ، أو هنات صغرى وسنعرض الآن لصور من نقد علماء أهل السنة والجماعة له ، لنرى هل تقوم تلك الانتقادات على أسس صحيحة من تفهم لفلسفة الغزالى أو لفكره ، أم تقوم على تفهم خاطىء لهذا الفكر •

١ ـ الفقيه المالكى أبو عبدالله المازرى والغزالى : كان من فقهاء المغرب العظماء ، مالكى المذهب ، أشعرى العقيدة • وكان على علم فياض بحيث يذكر السبكى أنه « كان من أذكى المغاربة قريحة وأحدهم ذهنا[٣] » وقد قام المالكى بشرح « البرهان » لامام الحرمين • والبرهان كتاب خطير مستعص على الكثيرين من العلماء • ولكن المازرى استطاع بعلمه العميق أن يفتح مغاليقه • يقول السبكى « اجترأ على شرح البرهان لامام الحرمين • وهو لغز الامة الذى لا يحوم نحو حماه ولا يدندن حول مغزاه الا غواص على المعانى ، ثاقب الذهن مبرز فى العلم »[٤] أما اشعريته فقد عرف بها فى المغرب وكان أحد المدافعين الكبار عنها • ولعل مالكيته وأشعريته هى التى دفعته الى مهاجمة الغزالى • وسنرى أن السبكى سيذكر هذا تعليلا لهجوم المازرى على الغزالى •

---

(٣) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى حـ ٤ ص ١٢٤ ـ ١٢٥
(٤) السبكى : طبقات الشافعية حـ ٤ ص ١٢٢ ـ ١٢٣

هاجم المازرى الغزالى فى مسألة من أهم المسائل التى شغلت الباحثين ـ فيما بعد ـ فى فكر الغزالى • وهى مزج الغزالى لعلوم المسلمين ومذاهبهم الاصولية والكلامية بعلوم اليونان • والغزالى حقيقة قد قام بنوع من هذا المزج بين علوم المسلمين وعلوم اليونان • وخاصة فى علمى أصول الفقه وأصول الدين • ولذلك نرى المازرى ـ وهو فقيه نفاذ فى علوم المسلمين يحترم ما كتب الغزالى فى الفقه ، ويرى أن الغزالى عرف الفقه معرفة تامة • ولكنه شعر بقلق لكتبه من أصول الفقه فقال « هو أعرف بالفقه منه بأصوله » فلما وصل ابى ما كتب الغزالى فى علم الكلام ، أدرك تماما أن الغزالى خالف مشيخة المتكلمين جميعا فى محاولته مزجه بعلوم اليونان يقول « انه قرأ علم الفلسفة قبل استبحاره فى فن أصول الدين ، فأكسبته قراءة الفلسفة جراءة على المعانى ، وتسهيلا للهجوم على الحقائق ، لان الفلاسفة تمر مع خواطرها وليس لها حكم شرعى ترعاه ، ولا تخاف من مخالفة اثمة تتبعها[٥] » ثم يذكر أن بعض أصحاب الغزالى قد أخبره أن الغزالى كان يدرس رسائل اخوان الصفا • ثم ان الغزالى أخذ أيضا من ابن سينا • وفى فقرة أخرى يقول عن كتابه الاحياء أنه ذكر فيه جملا من مذاهب الموحدين والفلاسفة والمتصوفة وأصحاب الاشارات وانه متردد بين هذه الطرايق لا يعدوها • ثم أوهى أحاديث الاحياء • وانتهى الى ان مصدر كتابات الغزالى الصوفية هى أبو حيان التوحيدى • وانتهى ان جملة هذه الاعتراضات نقدها السبكى نقداً علمياً بارعاً ولكننا نقف نحن عند واحد منها • وهو مزج الغزالى لعلوم المسلمين بالمنطق والفلسفة اليونانية • هذا نقد هام وجه الى الغزالى لا من أعدائه فحسب ، بل من تلامذته ، فقد ذكر القاضى ابو بكر بن العربى أن الغزالى « دخل فى قلوب الفلاسفة ولم يستطع أن يخرج منها[٦] واذا نحن لجأنا الى النقد الباطن ، لوجدنا أن كتب

(٥) نفس المصدر ص ١٢٣ ـ ١٢٤

(٦) ابن تيمية : موافقة صريح المعقول لصريح المنقول • [على هامش منهاج السنة] • (طبعة القاهرة) ص٣

الغزالى مليئة بالمعانى الفلسفية • وأنه فى بعض كتبه أضفى على المعانى الاسلامية صبغة فلسفية ، ولكن ليس معنى هذا أنه أخذ من تلك الفلسفة ما يخالف عقائد الاسلام ••

٢ ـ **ابو الوليد الطرشوش** : وقد كان معاصرا للغزالى مالكياً أيضا وقد قابله وناقشه وانتهى به الامر الى أن يحكم عليه بانه « رجل من أهل العلم ، قد نهضت به فضائله واجتمع فيه العقل والفهم وممارسة العلوم طول زمانه • ثم بدا له الانصراف عن طريق العلماء ، ودخل فى غمار العمال ، ثم تصوف • فهجر العلوم وأصلها ودخل فى علوم الخواطر وأرباب القلوب ووساوس الشيطان ، ثم شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج ، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين • ولقد كاد ينسلخ من الدين • فلما عمل الاحياء ، عمد يتكلم فى علوم الاحوال ومرامز الصوفية • وكان غير أنيس بها ولا خبير بمعرفتها ، فسقط على أم رأسه وشحن كتاباته بالموضوعات »[٧] •

قام السبكى ـ هذا العالم المنهجى الممتاز ـ وبطريقة لا تقل أصالة عن أى منهج تاريخى معاصر ـ بمناقشة هذين العالمين المالكيين ، مطبقا فى مناقشته ونقده ما يعرف فى عصورنا الحديثة بمنهج النقد الخارجى والباطنى للنصوص •

يرى السبكى ـ مطبقا منهج النقد الخارجى ـ أن المازرى مالكى المذهب شديد الميل الى مذهبه كثير المناضلة عنه • لا يطيق أن يخالف المذهب عالم من العلماء • فنفر من الغزالى نفورا واضحا كما نفر من شيخه امام الحرمين من قبل ، لان امام الحرمين والغزالى ضعفا مذهب مالك فى كثير من المسائل

---

(٧) السبكى : طبقات الشافعية حـ ٤ ص ١٢٣

وعلى الأخص فى « مسألة المصالح المرسلة » وكذلك فى الترجيح بين المذاهب • يضاف الى هذا أن طريق المازرى وطريق الغزالى مختلفان « ما رأيت سالك طريق الا ويستقبح الطريق التى لم يسلكها ولم يفتح عليه من قبلها أو يضع عند ذلك من غيره ، لا ينجو من ذلك الا القليل من أهل المعرفة والتمكين » وهذا حق يلاحظه السبكى • فاذا ما وصل الى المازرى والغزالى يقول « وطريقة المازرى الجمود على العبارات الظاهرة والوقوف معها • وطريقة الغزالى التصوف والتعمق فى الحقائق ومحبة اشارات القوم والكل حسن ولله الحمد »[٨] •

فالمازرى اذن فقيه من أهل الظاهر ، التزم بظاهر الشرع ولم يتعداه ، والغزالى صوفى من أهل الباطن ، اتخذ الذوق والكشف منهجا له • والطريقان حق عند السبكى ولكن الامر اختلف بين الرجلين • وكما كره المازرى امام الحرمين والغزالى لانهما ضعفا مذهب مالك ، كرههما ايضا لانهما اختلفا مع أبى الحسين الاشعرى فى بعض المواضع •وكان يرى أن « من خطأ شيخ السنة أبا الحسن الاشعرى فهو المخطىء »[٩] •

ويرد السبكى على هذا برد يستند فيه على النقد الداخلى للنص فيقول « وقد وقفنا نحن على غالب كلام الغزالى وتأملنا كتب أصحابه الذين شاهدوه ، وتناقلوا أخباره • وهم له أعرف من المازرى » وانتهى به الأمر الى أن « الغزالى رجل أشعرى المعتقد خاص فى كلام الصوفية »[١٠] •

والرأى الصحيح فى المناقشة بين السبكى والمازرى أن الغزالى أشعرى المعتقد ، لم يخرج عن عقيدة الاشاعرة ، ولم يختلف مع الشيخ الا فى

---

(٨) السبكى : طبقات الشافعية حـ ٤ ص ١٢٤
(٩) : طبقات الشافعية حـ ٤ ص ١٢٤
(١٠) السبكى : نفس المصدر ج ٤ ص ١٢٥

مواضع جزئية • وكتب الغزالى الكلامية بين أيدينا ليس فيها اختلاف جوهرى مع كتب الاشعرى • بل ان الخلاف فى الرأى بين امام الحرمين والاشعرى مثلا أكثر بكثير من اختلاف الغزالى والاشعرى •

ثم يذكر السبكى قول المازرى بأن الغزالى ضمن كتبه جملا من مذاهب الموحدين والفلاسفة والمتصوفة وأصحاب الاشارات • فيقول « ان عنى بالموحدين الذين يوحدون الله فالمسلمون أول داخل فيهم • ثم عطف الصوفية عليهم ، يوهم انهم ليسوا مسلمين وحاشا لله • وان عنى به أهل التوكل على الله ، فهم من خير فرق الصوفية الذين هم من خير المسلمين ، فما وجه عطف الصوفية عليهم بعد ذلك ـ وان آراء أهل الوحدة المطلقة المنسوب كثير منهم الى الالحاد والحلول ، فمعاذ الله ليس الرجل من هذا الصوب وهو مصرح بتكفير هذه الفئة ، وليس فى كتابه شىء من معتقداتهم »[١١] •

والسبكى يعلم تمام العلم أن هذا الاخير هو ما قصده المازرى ، وهو أن الغزالى انتهى الى مذهب الوحدة الصوفية • وهو ينكر تمام الانكار أن يكون الغزالى قد فعل • والحقيقة أن الغزالى لم يعتنق هذه العقيدة ولم يأخذ بها • وحقا قد وردت اشارات غامضة أحيانا فى بعض كتبه التى قد توحى للقارىء بأن الغزالى يضمن فيها مذهب وحدة الوجود • وهذا خطأ كبير فى فهم المذهب • ان مذهب الغزالى ـ كوحدة كاملة ـ مذهب ينبثق من القرآن والسنة ولا يحيد عنهما •

أما عن عدم تمكن الغزالى من الكلام فالسبكى يقول ان قدم الغزالى راسخ فيها ولكن لا بالنسبة الى رسوخ قدمه فى بقية علومه • ثم يرد ردا بديعا على المازرى فى قوله « ان الغزالى اشتغل فى الفلسفة قبل استبحاره فى

---

(١١) السبكى : نفس المصدر ج ٤ ص ١٢٥

فن الاصول » يعود السبكى الى منهجه التاريخى البديع ، مطبقا أولا كما قلت طريقة النقد الخارجى للنص • يلجأ السبكى الى كتاب الغزالى ـ المنقذ من الضلال ـ أكبر وثيقة فريدة تركها الغزالى عن حياته الروحية ، فيرى فيها السبكى قول الغزالى « انه توغل فى علم الكلام قبل الفلسفة » • ثم يذكر هذا النص البديع « ثم قول المازرى أنه قرأ علم الفلسفة قبل استبحاره فى علم الاصول ، بعد قوله انه لم يكن بالمستبحر فى الاصول كلام يناقض أوله آخره »[١٢] • وهذه محاولة نقدية داخلية لكلام المازرى • ثم يتابع النقد الداخلى لنصوص الغزالى فيقرر أن الغزالى لم يتجرأ على المعانى الا حيث دله المشرع « ويدعى خلاف ذلك من لا يعرف الغزالى » •

أما أن الغزالى أخذ من أبى حيان التوحيدى ، فهذا خطأ • ان مصادر الغزالى فى تصوفه الرسالة القشيرية وكتاب قوت القلوب لابى طالب المكى • ثم استدرك السبكى على مصادر الغزالى فى التصوف بأنه أضاف الى ما أخذه من القشيرى ومن أبى طالب المكى كلام مشايخه هو ثم « ما زاده من قبل نفسه بفكره ونظره وما فتح به عليه ، وهو عندى أغلب ما فى الكتاب ، وليس فى الكتاب للفلاسفة مدخل ، ولم يصنعه الا بعد ما ازدرى علومهم ونهى عن النظر فى كتبهم »[١٣] •

وكل ما ذكره السبكى حق واضح ، فان احياء علوم الدين استند على أقوال مشيخة أهل السنة القدماء من الصوفية مع تفكير غزالى خاص فى جوهره • ان نقطة الضعف الوحيدة فى الاحياء هى ضعف وتوهية الاحاديث • والسبكى لا ينكر هذا ويرى أنه لم يكن للغزالى « يد باسطة فى الاحاديث »[١٤] • غير أنه يتلمس العذر للغزالى بأن عامة ما فى الاحياء من

---

(١٢) السبكى : نفس المصدر ج ٤ ص ١٢٥
(١٣) السبكى : طبقات الشافعية حـ ٤ ص ١٢٦
(١٤) السبكى : طبقات الشافعية حـ ٤ ص ١٢٦

الاخبار والآثار مبدد فى كتب من سبقه من الصوفية والفقهاء .

وحين ينتهى السبكى من مناقشة المازرى ينتقل الى مناقشة الطرشوش. ويرى أن الطرشوش أخطأ خطأ بالغا بقوله ان الغزالى دخل فى وساوس الشيطان . ويتحداه أن يثبت كلامه ببينة من كلام الغزالى . أما أن الغزالى بيّن آراءه بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج فينكرها السبكى ، فيقول انه لم ير هذه الرموز فى كتب الغزالى . أما أن الغزالى كما يدعى الطرشوش لم يكن انيساً بعلوم الصوفية فانه « كلام بارد »[١٥] . وان لم يكن الغزالى يدرى التصوف فمن يدريه ؟ ويبدو أنه قد وصل الى الطرشوش كتب من المنسوبة الى الغزالى ، وأن أعداءه كانوا يكيدون له حتى فى حياته ويزورون عليه الكتب . ولا يعقل أن يكتب الطرشوش ما كتب بدون حجة يستند عليها . ويبدو أن السبكى . وكان أكبر عالم مؤرخ ناقد فى العالم الاسلامى قام بتحقيق كل هذا ووصل الى النتائج الصحيحة التى أوردها فى مناقشاته للمازرى وللطرشوش .

والسبكى مؤرخ عادل نزيه . لم يرض أن يهاجم من هاجموا الغزالى فى عقيدته . أن يرد لهم الكيل ، بل فى استلام الصوفى شبه آخر الامر معارضى الغزالى ، وعلى الخصوص عالم الاسلام الكبير الشيخ تقى الدين بن الصلاح الذى هاجم الغزالى أيضا كما سنرى فيما بعد ـ بقوم متعبدين سليمة قلوبهم قد ركنوا الى الهوينا ، فرأوا فارسا عظيما من المسلمين ، رأى عدوا عظيما لاهل الاسلام ، فلم ينثنِ ، بل حمل عليهم ، وانغمس فى صفوفهم ، وما زال فى غمرتهم ، حتى قضى عليهم . ومن المؤكد أن دما قليلا من دمائهم قد أصابه ، وعاد سالما ، فرأوه وهو يغسل الدم ، ثم دخل فى زمرة هؤلاء القوم المتعبدين ، يصلى صلاتهم ويتعبد عبادتهم ، فتوهموا أثر الدم عليه ، فأنكروا عليه . وينتهى السبكى بأن يقول « هـــذا حال

---

(١٥) السبكى : طبقات الشافعية حـ ٤ ص ١٢٧

الغزالى[١٦] • وحالهم ، والكل مجتمعون فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ••

٣ ـ علي بن محمد الكعال الطبرى :

كان من مريدى امام الحرمين وتلامذته • ومن زملاء الغزالى • وقد هاجم الغزالى فى فتواه بعدم لعن يزيد بن معاوية • وقد أثارت مسألة لعن يزيد وعدم لعنه ضجة كبرى حول الغزالى • ولم ترض دوائر أهل السنة والجماعة ، كما لم يرض الشيعة عن موقف الغزالى[١٧] •

٤ ـ ابن الصلاح الشهرزورى :

ان هذا العالم العظيم الذى أثر فى العالم الاسلامى أثرا كبيرا أدلى أيضا بدلوه فى « مشكلة الغزالى » كما اسميها • دافع عن الغزالى دفاعا مجيدا من ناحية ، وهاجمه من ناحية أخرى هجوما عنيفا •

أما دفاعه عن الغزالى فكان فى نطاق فلسفة الغزالى • وقد حفظ السبكى لنا عنه هذا النص « ان كتاب المضنون المنسوب اليه معاذ الله أن يكون له ، وبين سبب كونه مختلقاً موضوعا عليه • والامر كما قال « وقد اشتمل المضنون على التصريح بقدم العالم ونفى العلم بالجزئيات ونفى الصفات • وكل واحدة من هذه يكفر الغزالى قائلها هو وأهل السنة أجمعون • وكيف يتصور أنه يقولها »[١٨] •

وهذا الموقف « الحاسم من ابن الصلاح ينهى المناقشات العديدة حول كتاب « المضنون » • وهو كتاب فلسفى اختلف فيه كثيرا وفى حقيقته • وذهب المؤرخون مذاهب شتى منه هل هو للغزالى أم ليس له • وهل هناك كتابان باسم المضنون به على غير أهله « كتاب كبير وكتاب صغير • فأتى

---

(١٦) السبكى : طبقات الشافعية حـ ٤ ص ١٢٨
(١٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان حـ ٣ ص ١٦٥
(١٨) السبكى : طبقات الشافعية ج ٤ ص ١٣١

ابن الصلاح وأنكر ان يكون هذا الكتاب الملىء بالفلسفة والذى نهج فلاسفة الاسلام للغزالى • وهذا هو الرأى الصحيح •

أما هجومه على الغزالى ، فهو فى محاولة الغزالى المشهورة فى مزج المنطق اليونانى بعلوم المسلمين •

ان الغزالى يعلن فى مقدمة المستصفى المنطقية « ان من لا يحيط بالمنطق ، فلا ثقة بعلومه أصلا »[١٩] وجعل معرفة المنطق شرطا من شروط الاجتهاد • وقد تابع كثيرون من علماء أصول الدين وعلماء أصول الفقه ما دعا اليه أبو حامد الغزالى فى كتبه العديدة المتقدمة من مزج المنطق الارسطاليسى بالاصول والكلام • فحل محل أدلة النظر الكلامية الاولى أدلة النظر الارسطاليسية • وتغلغل المنطق الارسطاليسى فى صميم المسائل الكلامية والاصولية نفسها • ونشأت عن هذا حركة فكرية شديدة الاثر فى الفكر الاسلامى[٢٠] • يقول ابن تيمية « وبسبب ما وقع فيه الغزالى فى اثناء عمره وغير ذلك • صار كثير من النظار يدخلون المنطق اليونانى فى علومهم ، حتى صار من يسلك طريق هؤلاء المتأخرين ، يظن أنه لا طريق الا هذا • وأن ما ادعوه من الحد والبرهان هو أمر صحيح عند العقلاء • »[٢١]

كان من أثر هذه الحركة فى العالم الاسلامى ان ذهب كثير من مفكرى الاصوليين أن تعلم المنطق فرض كفاية على المسلمين ، على أن طائفة من الفقهاء من لم يوافق على هذه الحركة المنطقية الاخيرة • ووقف منها موقف العداء الشديد وهوجم الغزالى هجوما شديدا من علماء المسلمين أمثال أبى اسحق المرغينانى وأبى الوفاء بن عقيل والفوارى وابن الصلاح وأقوال ابن الصلاح هى التى تهمنا الآن •

---

(١٩) الغزالى : المستصفى ج ١ ص ١٠
(٢٠) على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ص ١٣٩
(٢١) ابن تيمية : جهد القريحة ص ٢٨٧

كتب ابن الصلاح فصلا فى بيان أشياء مهمة أنكرت على الامام الغزالى فى مصنفاته • ولم يرتضها أهل مذهبه وغيرهم من الشذوذ فى تصرفاته • ويذكر ابن الصلاح من هذه المسائل قول الغزالى فى مقدمة المنطق فى أول المستصفى « هذه مقدمة العلوم ومن لا يحيط بها فلا ثقة فى علومه أصلا • ويقول ابن الصلاح سمعت الشيخ العماد بن يونس يحكى عن يوسف الدمشقى مدرس النظامية ببغداد ، وكان من النظار المعروفين : أنه كان ينكر هذا الكلام ويقول فأبو بكر وعمر وفلان وفلان فهؤلاء وصلوا الى الغاية من اليقين ولم يكن أحد منهم يعرف المنطق[٢٢] وقد أطلق ابن الصلاح بعد ذلك فتواه المشهورة فى تحريم المنطق • والفتوى تمس الغزالى بلا شك اذ أن الفتوى تحرم كل كتاب أصولى ممزوج بالمنطق[٢٣] • وقد أحرقت كتب الغزالى فى المغرب • ويبدو أن الغزالى كان نفسه يشعر ، كما يقول ابن طملوس الاندلسى ، بأنه أخطأ فيما كتب من منطق ، ولذلك لم يدع كتبه باسم المنطق بل بالمعيار والمحك والميزان[٢٤] •

ولكن الرد على كل هذا • أن الغزالى قد أدرك نهاية الامر أخطار المنطق الارسطاطاليسى على العالم الاسلامى وعلى المسلمين فقال ان هناك علتين تهدمانه من أساسه أما أولاهما : فهى قصور البرهان الفلسفى عن أن يصل بالانسان ـ حين يطبقه فى الالهيات الى درجة اليقين يقول الغزالى « لهم نوع من الظلم فى هذا العلم ، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطا يعلم أنها تورث اليقين لا محالة • ولكنهم عند الانتهاء الى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط • بل تساهلوا غاية التساهل ، ولذلك كان

(٢٢) ابن تيمية : شرح العقيدة الاصفهانية ـ ص ١١٤ ـ ١١٥
(٢٣) ابن الصلاح : فتاوى ابن الصلاح فى التفسير والحديث والاصل والعقائد (طبع القاهرة ١٣٤٨) ص ٤٣
(٢٤) ابن طملوس : المدخل الى صناعة المنطق (طبع مدريد) ص ٨ـ١٤

من أهم الاسباب التى دعت المسلمين الى نقد المنطق الارسطاليسى اتصاله بالهيات أرسطو • وكانت هذه الالهيات مخالفة لعقائد المسلمين • واعتبرت العلة فى هـذه المخالفة اخراجهـا على قواعـد ناقصـة هى قواعـد المنطق الارسطاليسى • أما ثانيهما فيفسرها الغزالى بقوله « اذ ربما ينظر فى المنطق من يستحسنه ويراه واضحا ، فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين • فاستعجل بالـكفر قبل الانتهاء الى العلوم الالهية »[٢٥] ولهاتين العلتين هدم الغزالى فكرته الاولى عن المنطق باعتباره منهجا من مناهج البحث الموصلة الى اليقين فى جميـع فروع المعرفة الانسانيـة • فالغزالى اذن تبين له آخر الامر ما ينتجه تطبيق منطق آرسطو على المسائل الاسلامية وخاصة الالهية من تناقض ، بل اننا نرى ابن تيمية ـ أعدى عدو للغزالى فى فكرته عن مزج المنطق بعلوم المسلمين • ويقول « وبين فى آخر كتبه ـ أن طريقتهم فاسدة لا توصل الى يقين • وذمها أكثر مما ذم طريقة المتكلمين وكان أولا يذكر فى كتبه كثيرا من كلامهم اما بعبارتهم واما بعبارة أخرى • ثم فى آخر أمره بالغ فى ذمهم وبين أن طريقهم متضمنة من الجهل والكفر ما يوجب ذمها وفسادها أعظم من طريقة المتكلمين »[٢٦]•

٥ ـ ابن تيمية :

يكاد يكـون ابن تيمية من أكثـر الناس مهاجمـة للغـزالى • انه يحترم الغزالى احتراما كاملا فى كثير من كتاباته وخاصة الاخلاقية • ولـكنه يهاجمه هجوما عنيفا فى مسائل متعددة • هاجمه أولا فى موقفه من الفلسفة • وهاجمه ثانيا فى تصوفه وهاجمه ثالثا فى موقفه من المنطق •

أما عن موقفه من الفلسفة فابن تيمية يرى أن الغزالى مزج كثيرا من مذاهبه بالفلسفة • ففى كتابه المضنون به على غير أهله يصرح بقدم العالم

---

(٢٥) الغزالى : المنقذ من الضلال (طبعة دمشق ١٣٥٣هـ) ص ٧٦
(٢٦) ابن تيمية : جهد القريحة ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧

ونفى العلم بالجزئيات ونفى الصفات • وهذه تهم خطيرة أتهم بها الغزالى ـ وكانت مثار جدل كبير ـ كما قلنا • ولم يستطع هذا الناقد الممتاز أن يتبين أن الكتاب مدسوس عليه •

وفى فقرة أخرى يرى ابن تيمية أن الغزالى أخذ بطرق الفلاسفة فى اثبات النبوة وان النبوة قوة مكتسبة وهيئة واستعداد يتصل بواسطته النبى بالنور الاعلى ، ويرى ان الغزالى فى الكتب المضافة اليه قد يوافق بعض تلك الاصول بل فى الكتب التى يقال انها مضنون بها على غير أهلها ما هو فلسفة محضة مخالفة لدين المسلمين واليهود والنصارى وان كان قد عبر عنها بعبارات اسلامية « ويرى ابن تيمية ـ انصافا للغزالى ـ ان الناس اختلفوا فى أمر هذه الكتب ـ فالبعض يقول انها مكذوبة ، والبعض يقول انه رجع عنها ولكن ابن تيمية يقرر « ولا ريب أنه صرح فى بعض كتبه ببعض ما قاله فى هذه الكتب »[٢٧] وقد أخطأ ابن تيمية هنا • فان من ينسب هذه الكتب الى الغزالى ويزورها عليه رجل بارع ، سيضمنها فقرات من كتبه الاخرى •

وأتهم الغزالى أيضا بأنه مزج علم الكلام بالفلسفة • وهاجمه الغزالى فى كتابه « جهد القريحة » هجوما عنيفا وذكر أن الغزالى هو أول من مزج علم الكلام بالفلسفة • وأن علم الكلام كان ينبثق قبله عن فكر اسلامى خالص •[٢٨]

والغزالى حقيقة هو أول من حاول اقامة علم الكلام على قواعد فلسفية يونانية • ولكنه لم يقصد بهذا ادخال المذاهب اليونانية كعقائد اسلامية بحته • بل ان الامر على العكس تماما فقد هاجم الغزالى الفلسفة وكفر أصحابها باسم الاسلام نفسه •

---

(٢٧) أنظر مجموعة الفتاوى الكبرى وخاصة السبعينية والتسعينية وكذلك موافقة صريح المعقول لصريح المنقول • من ص ١ الى ١٥

(٢٨) ابن تيمية : جهد القريحة ـ من ٢٠١ الى ٣٠٠

الغزالى والتصوف :

ابن تيمية أعدى مفكرى الاسلام للتصوف الفلسفى القائم على مذهب الاتحاد أو وحدة الوجود • وقد هاجم محى‌الدين بن عربى وابن سبعين والششترى وغيرهم ثم حاول أن يتلمس فى كتابات الصوفية من أهل السنة بعض تلك العقائد المخالفة للاسلام • فاذا تبين له هذا هاجم أصحابها هجوما عنيفا ولم يسلم الغزالى من قلمه : يقول « وأما التى يسميها الغزالى علوم المكاشفة ، ويرمز اليها فى الاحياء وغيره ، ففيها يستمد كلامه من كلام المتفلسفة وغيرهم ، كما فى مشكاة الانوار والمضنون به على غير أهله وغير ذلك • وبسبب خلطه التصوف بالفلسفة ، كما خلط الاصول بالفلسفة ، صار ينسب الى التصوف من ليس هو موافقا للمشايخ المقبولين الذين لهم فى الامة لسان صدق بل يكون مباينا لهم فى أصول الايمان كالايمان بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر »[٢٩] •

فابن تيمية اذن يهاجم تصوف الغزالى لنفس العلة التى هاجم فلسفته بها • وتناسى ابن تيمية أن المضنون به على غ يرأهله ليس للغزالى قطعا • وأما المشكاة فهى بين أيدينا وليس فيها ما يخالف الاسلام أو السنة •

وسبب آخر هو أنه يرى أن الغزالى سلك مسالك أهل التصوف ، لان التصوف كان محببا عند أهل الثروة والجاه • ولذلك يكثر من تأليف الكتب للوزراء والعظماء • بل ونرى بعض المؤرخين يذهبون الى أن الغزالى انما خرج من بغداد متصوفا لحسده لعالم كبير ، وكانت له شهرة عظيمة جذبت تلامذة الغزالى اليه •

وهذا خطأ وتجنٍ على التاريخ الحقيقى لحياة الرجل • لقد وصل الغزالى الى أكبر جاه دنيوى • فلم يكن فى حاجة الى لباس التصوف ليزيد علوا ورفعة • وشهادة معاصره عبدالغفار بن اسماعيل الخطيب

---

(٢٩) ابن تيمية · موافقة صريح المعقول من ١ الى ١٥

الفارسى ـ خطيب نيسابور أكبر دليل على هذا • وقد نقل السبكى حديث عبدالغفار بن اسماعيل عن تصوف الغزالى وانتهى بتلك العبارة « انه ثار على الاضداد ، وتصفى من الكدورات وكنت أظن أنه متلفح بجلبات التكلف ،متيمن بما صار اليه ، فتحققت بعد التروى والتقدير أن الامر على خلاف المظنون وأن الرجل أفاق بعد الجنون »(٣٠) وفى صحراء الاسكندرية قابله أيضا القاضى أبو بكر العربى تلميذه ورآه وقد تمزقت ملابسه ـ وفى يده عكاز وعلى عاتقه ركوه • وكان يراه من قبل فى بغداد ، وقد أقبلت عليه الدنيا ، ووقف ببابه العظماء والكبراء والعلماء، ويتنافس الامراء فى طاعته فلما اقترب منه ، قال له أيها الامام أليس تدريس العلم ببغداد خيراً من هذا • ولكن لم يأبه ، وأخذ يردد « لما بزغ بدر السعادة من فلك الارادة وقربت شمس الوصول ، الى مغارب الوصول

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل
وعدت الى مصحوب أول منزل

ونادتنى الاشواق مهلا فهذه
منازل من تهوى رويدك فانزل

غزلت لهم غزلا رقيقا فلم أجد
لغزلى نساجا فكسرت مغزلى

ثم مضى فى سبيله •(٣١)

ومشكلة تصوف الغزالى مشكلة كبرى ، ذهب بعض المؤرخين الى أن الغزالى لم يبدع فى التصوف ، وانما أخذ تصوفه من قوت القلوب لابى طالب المكى ومن الرسالة للقشيرى ، واعتبره صوفية وحدة الوجود ـ

---

(٣٠) السبكى : طبقات الشافعية حـ ٤ ص ١٠٣
(٣١) الغزالى : معيار العلم ٠٠ المقدمة

كمحى الدين بن عربى مثلا ـ متصوفا أميا لم يدرك الكنه الرائع للتصوف، وذهب بعض المؤرخين الى أن أخاه أحمد الغزالى ـ الصوفى الحقيقى والذى لم يدرك بعد ، هو الذى أثر على أخيه وأشعل فيه نارا محرقة من الحب والحنان ، دفعته الى الخروج من بغداد .

وقد وجه الخوانسارى صاحب روضات الجنات نقدا الى طريقة الغزالى فى التصوف ـ ويقول ان هذه الطريقة تقوم على كثرة السماع ـ سماع الانغام والرقص . ثم استباحته للمريد أن يسرق وأن يرتكب بعض الآثام . وهاجمه ابن الجوزى فى تلبيس أبليس فى فكرته عن أن الصوفى لا يصل الى الحقيقة الا بالخلوة فى مكان مظلم . واذا استعصى عليه هذا ، فعليه أن يلف رأسه بعباءة سوداء .

والغزالى لم يبح كثرة السماع ، كما أنه لم يبح للمريد أن يسرق وأن يرتكب بعض الاثام . هناك حقا آثار ملامية فى تصوف الغزالى ـ ولكن هذه الملاميات انما هى فى باطن الشرع ـ أما الخلوة فى مكان مظلم ، فهى تجربة شخصية ، لم يلزم الغزالى بها أحدا .

* * *

تلك هى المطاعن التى وجهت الى الغزالى ، وجهت بقسوة وعنف الى أكبر شخصية ظهرت فى الاسلام ، لا تقوم فى جوهرها ـ على أساس حقيقى . دفع أصحابها الى وضعها ـ اما مذهب ظاهرى ، واما غيرة مذهبية، واما حدة فى الطبع . ولعل ابن تيمية وبعض الباحثين المحدثين من شباب العلماء المسلمين اذا راجعوا ما كتبوا ـ بعد دراسة أعمق وأشمل بكتب الغزالى ـ يعودون الي نظرة عادلة لحياة أكبر متكلم واكبر فيلسوف وأكبر صوفى فى تاريخ الاسلام كله .

شعر الطغرائى

للدكتور علي جواد الطاهر

الاستاذ المساعد فى قسم اللغة العربية

طرق الطغرائى[1] كل أغراض الشعر العربى التقليدى من مديح وفخر ورثاء •• وغزل •• ووصف وحكمة • وله فى كل منها مشاركة بالاتجاهات العامة التى كانت تسير عليها ، واختلاف يميزه عن الآخرين بما يعتمده من عناصر ذاتية •••

وقد جهز الطغرائى نفسه بالمواد الاولية للشاعر ، وطفق يعدها اعدادا عاما فتعلم ودرس وقرأ وحفظ •• وعمل اذ زاول النظم منذ صباه وبدا متمكنا من اللغة والعروض والرصف ، وطرق هذا الغرض أو ذاك من مدح وأخوانيات ونسيب •• كمن ينتظر حادثة تهزه وتجرى الدماء فى الشرايين •• ويحب ، ويعترض ذووه هذا الحب ، ولكنه استمر وثابر واجتهد حتى تزوج الفتاة التى ملكت عليه أقطار نفسه فيعيش معها أسعد عيش •

ولكن ، ما يكاد يمر عام حتى تموت الزوجة الشابة فيبكى الزوج الشاب ، ويحزن أشد الحزن ، ويفعل ما يلام عليه رجل أن يفعله من جزع وبكاء ولطم وتمزيق ثياب •• رثاء •

---

(١) هو أبو اسماعيل الحسين بن علي ••• مؤيدالدين الطغرائى ولد عام ٤٥٣هـ وتوفى عام ٥١٥هـ • ينظر عنه وعن ديوانه ومصادر دراسته كتاب « الشعر العربى فى العراق وبلاد العجم فى العصر السلجوقى » ص ٧٤ ــ ١٠٥ • وفى العدد السابع من مجلة « الاستاذ » دراسة عامة عن اغراض الشعر فى العصر السلجوقى •

وتظل صورتها وهى تصارع الموت قائمـــة فى نفسه بتفصيلاتهـا وبموجعات مشاهدها :

ولم أنسهـــا والمـــوت يقبض كفهـــا
ويبسطهـــا والعـــين ترنـــو وتطرق

وقـــد دمعت أجفانهـــا فوق خدهـــا
جنى نرجس فيـــه النـــدى يترقرق

وحـــل مـــن المقـــدور ما كنت أتقي
وحم من المحـــذور مـــا كنت أفـــرق

وقيـــل فراق لا تـــلاقى بعـــده
ولا زاد الا حســـرة وتحـــرق

فلـــو أن نفســـاً قبـــل محتـــوم يومهـــا
قضت حســـرات كـــانت النفس تزهق

هـــلال ثـــوى من قبـــل أن تـــم نوره
وغصن ذوى فينـــانه وهـــو مـــورق

يسليه الناس فلا يسلو ، ولا يجد العزاء الا بقبرها ، يزوره ويبكى عنده ويقبله ويلصقه بصدره فينسى الدنيا ويجد نفسه فى حضرة حبيبته : يكلمها وتكلمه :

ولم يبق ممـــا بيننـــا غـــير حشـــوة
على العـــين تحشى أو على العـــين تطبق

أحن اليهـــا ان تراخى مزارهـــا
وأبكى عليهـــا ان تـــدانى واشـــهق

وأبلس حتى مـــا أبـــين كأنمـــا
تـــدور بي الارض الفضـــاء وأصعق

وألصقهـــا طورا بصـــدرى فـــأشتفى
وأمسحهـــــا حينـــــا بـكفى فتعبـــق

ومـــا زرتهـــــا الا تـوهمت أنهـــــا
بثـــوبي من وجـــدى بهـــا تتعـــلق

وأحسبهـــــا والحجب بينـــى وبينهـــــا
تعي مـــن وراء التـــرب قـولى فتنطق

وهذا وفاء وانسانية أدى فيهما صدق العاطفة الى صدق التصور •

ويظل الشاعر يعيد ويبدى فى افكاره وأخباره ، وهى تتوارد عليـه بين لحظة ولحظة مفردة حينا ، ومجتمعة حينا ، فـلا غرو فى أن تحتـــوى القصيدة الواحدة أكثر من معنى ، ولا غرو فى أن يتكرر هذا المعنى فى أكثر من قصيدة ومقطوعة •

وفى رائية رائعة يبكى ويبكى حتى يستقل الدموع :

••• أعيني جودا بالدمـــــاء وأسعـــدا
فقـــد جلّ قدر الرزء عن عبرة تجرى

أذم جفـــــونى أن تضـــن بذخرهـــــا
وأمقت قلبى وهـــو يهـــدأ فى صدرى

لقد وقع الموت عليه وقع الصاعقة ، وما كان لمثله بد من البكاء ، وما كان لمثله بد من أن يرى المصاب أسمى وأجل من أن توفيه الدموع • اما اذا غفلت الجفون ، وهـدأ الصدر لحظـة ، ثار وغضب وطرد رُسلَ السلو شر طردة ، وتعاوده الذكريات ـ لانه لم يفقد زوجة حسب ، انما فقد زوجة و « حبيبة » هى المثل الاعلى للجمال والـكمال :

بنفســى مـــن غـــاليت فيهـــا بمهجتى
وجاهى ومـــا حازت يـــداى من الوفـــر

وغايظت فيهـــا أهـــل بيتى فكلهم
بعيـــد الرضى يطوى الضلوع على غمر

وفزت بهـــا من بـــين يأس وخيبـة
كمـــا استخرج الغـواص لؤلؤة البحر

فجاءت كمـا جـاء المنى واشتهى الهوى
كمـالا ونبـــلا فى عفـــاف وفى ستر

فصارت يـدى مـــلأى وعينى قريـــرة
بهـــا كيفمـا أصبحت فى اليسر والعسر

وفى هذه الابيات الخمسة خلاصة وافيـــة كافية لقصة ختمتها يـــد الاقدار فجأة فكانت مأساة روعت قلب الشاعر وأبكته دما •• وينتهى به الحزن والسخط الى أن يقول :

ألا ليتنـــا لـــم نصطحب عمر ليـــلة
ولم نجتمـــع من قبـل هـذا على قـدر

وهذه أمنية عجيبة من رجل حزين كل الحزن ، محب كل الحب •• فكيف يجتمع الحب وتمنى البعاد ، وكيف يجتمع حبه وتمنيه ألا يكون ؟! الجواب سهل • فالامنية ساذجة ، وعمقها فى سذاجتها ، وهى حالة تعترى الاطفال ، وتعترى الامهات ، وتعترى الاحبة ، ويقع التمنى عفوا ، ولا يقصد به الى الحقيقة ، ومن البلادة أن يفهم على ظاهره ، وأقل ما يكذبه أبيات قبله وأبيات بعده ، فهو تمن يخرج الى اقرار جسامة المصاب وشدة البلاء ••• وشدة السعادة التى كان عليها يوم هيأتها زوجة صالحة ، طيبة •• محبة محبوبة :

بنا أنت مـــن مهجورة لم أرد لهـــا
فراقا ولم تطو الضـــلوع على هجـــر

طلعت طلـــوع البـــدر ليـــلة تمه
وفقت كمـــا أربى عـلى الانجم الزهر
وآنستنـــا حتى اذا مـــا بهرتنـــا
ســـنىً وســـناءً ، غبت غيبوبة البدر
وقـــد كـان ربعى آهـــلا بك مـــدة
أحن اليـــه حنـــة الطـــير للوكـــر
وآوي اليـــه وهـــو روضـــة جنـــة
بدائعهـــا يختـــلن فى حـــلل حمـــر
فمذبنت عنـــه صار أوحش مـــن لظـى
وأضيق مـــن قبر واجـدب مـن قفـــر

ويجن جنونه ، ويبحث فى الاسباب والعلل ، ويسأل لماذا ؟ وكيف ؟ فيجد الجواب حاضرا :

ومـــا كنت الاّ نعمـــة الله لم تدم علىّ لعجزى عن قيـــامى بالشكر

وهو تعليل أدبى شعرى ، ولـكنه يرضى صاحبه ويرضى حـــيرته الطاغية • ولا سيما ان غيابها عن العين لم يمنع حضورها فى القلب :

برغمى خلا ربعى وأسكنت خاطرى
وغيبت عن عينى وأحضرت فى فـــكرى

ثم انه ان فقدها فى الدار الدنيا فانه ليدعو الله مخلصا ان يجمع الشمل ويجعلها من نصيبه فى الدار الآخرة •

وهكذا تـكون هذه الرائية تسجيلا شعريا للحالات النفسيـــة التى اعترت الشاعر المفجوع • وكان طابع الحزن العميق مسيطرا •• بدأ عنيفا ، وكاد يغير المجرى عندما تذكر الشاعر أيام ما قبل الزواج وأيام ما بعـده ، ولو استمر فى هذه الذكريات العذاب لنسي مصابه ، وهيهات ، ولا أدل على بعد ذلك من عودته الى البكاء والسهر ، ومن تمنيه الجهل بها وتمنيه الموت من

أجلها ، وكاد اليأس يقتله لو لم تأخذ ذكرى أيام الحياة الزوجية السعيدة طريقها الى مخيلته فتشغله لحظات أخرى عن حاضره وتعمل على الرجوع به الى الماضى القريب ، ولكن هذا الماضى لم يلبث حتى جسم له فداحة الحاضر وفداحة الخسارة ، وكاد يبدأ مناحة جديدة لو لم تكن الموجة قد قاربت الشاطىء فهدأ عنفوانها فنهض العقل يعزى ويخفف ، حتى أحس الشاعر أنه يقترب من السلو ، ورأى نفسه ملزما بتبرير هذا السلو ، وقد وجده فى الضرورات :

فان سكنت نفسى الى سكن لها
سواك مدى عمرى فقد بؤت بالكفر
وان أسل يوما عنك ، أسل ضرورة
والافانى عن قريب على الاثر •

وما ان مرت الايام حتى انتصر العقل ، وانتصرت المبررات ، فاذا بصاحبنا يتزوج •

اى والله ! تزوج وأنجب الولد ! ولا يكاد المرء يسمع هذه النتيجة حتى يأسف ، وقد يضحك ، وقد يتهم الرجل بالكذب وافتعال الحزن •• وهذا المرء الذى يضحك ويتهم ، يعتقد أنه خير من الطغرائى ، ويريد من الطغرائى ما يريده للرجل المثالى فى الثبات على الحب والدوام على الذكرى ، ويتصور أن حالات النفس الانسانية مطردة •• ولا اخاله مصيبا فى كل ذلك • بل ان زواج الطغرائى لا يعنى حتما السلو التام والنسيان المطلق •

ان زواجه فى هذه المرة زواج فقط ، بينما كان فى المرة الاولى زواجا وحبا ـ والفرق بيّن"(٢) •

---

(٢) ثم كم هم الشعراء الذين رثوا زوجاتهم فى الادب العربى ؟! قليلون ، وقد يكون أشهرهم جرير صاحب :

لولا الحياء لها جني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

وها أنت ذا تراها مبدوءة بـ « لولا » ، أما الطغرائى فقد هاجه الاستعبار =

ولهذا الزواج ضروراته ، ولنا أن نتصور من هـــذه الضرورات : البيت الذى لا بد لمثله وهو على ما كان عليه ، وعلى ما يود أن يكون عليـه ، فهو رجل مجتمع يزور ويزار ، او انه ـ فى أقل تقدير ـ يريد أن يزور ويزار ، ويريد أن يشغل مكانا فى سياسة عصره ، وقد حدثته نفسه بأشياء كثيرة فى شؤون المجد ، فلابد له من أن يشغل ديوانا ، ولابد من أن ينال وزارة •• أو أكثر • ومن المحتمل أن يكون هذا الطموح وهذه الاشياء الـكثيرة التى ستلقى به فى خضم الحياة السياسية بعض ما أنساه وقع مصابه بوفاة زوجه •

ولئن كان المديح مذهبا بارزا فى الشعر العربى ، ومذهبا سائدا فى العصر السلجوقى ، ان دواعيه أشد لدى شاعر يتخذه وسيلة لغاية أبعد ، هى طموحه الى التقدم فى مدراج مناصب الدولة ، وقد كان هـــذا الطموح مفتاح شخصية الشاعر ، وانك اذا تصفحت الديوان لا تكاد تجد مدحا من أجل المال او اللباس او الارض كمـــا تجد فى أكثر دواوين معاصريه • واذا دل هذا على « الحال الحسنة » فانه ليدل كذلك ، وأكثر من ذلك ، على أن مطلب الطغرائى فى الحياة أكبر من الشبع والرى •

= فبكى وزار القبر ••• ثم ما الذى دفع جريرا الى ان ينسى زوجته بعد الابيات القليلة الاولى من قصيدته ليخصص الباقى ـ وهو كثير ـ لشتم الفرزدق وشتم جعثن !

اما الفرزدق فموقفه أمرّ وأدهى ويكفى ان النساء بكت امرأته بشعر جرير • وقد اجاد مسلم بن الوليد البكاء وأخلص فيه الاّ انه لم يختص اختصاص الطغرائى ، وانه فقد زوجته فى شيخوخته وأخريات أيامه ••• اما ابن الزيات فلا يبلغ مبلغ الطغرائى وكان المه « للطفل » أكثر من المه للفقيد •

ويطلـــع العصر الحديث ، عصر انصاف المرأة وتحريرها ، ويقول الشعراء رثاء : فللبارودى قصيدة ، وللجواهرى قصيدة • ولعزيز أباظه ديوان ولعبدالرحمن صدقى ديوان ••• والعواطف فى كل هذه الاشعار صادقة نبيلة ، ولـكن الطغرائى يحتفظ بمكانه المرموق فى بكاء الزوجات •

ومما يذكر أن أكثر الشعراء المعاصرين لم يلبثوا أن تزوجوا ثانية ••

أحس « الحسين » هذه الرغبة ملحة فى نفسه ، وآمن بأن له مـــا يحققها ، من علم و « بيت » ، يساعـــده فى ذلك عصـــر ـ على أضطرابه ولاضطرابه ـ يفتح صدره لمن يسعى فى الدخول الى قلبه ، ويسهل مهمته كونه من أصبهان ، وأصبهان مقر خطير من مواطن السلطة ، حتى لتكاد تكون عاصمة السلطنة ـ ان لم تكنها ـ واذن فهو قريب من مبتغاه •

وها هو ذا يبدأ ـ كما يجب أن يبدأ أمثاله ـ بالتقرب من معين الملك فضل الله ، ويفلح ، ويقدمه معين الملك الى نظـام الملك ـ أكبر صـدور العصر • فيمدح المعين ويمدح النظام ، وعندما سجن معين الملك أخلص له حينا ثم نسيه حين يئس من قدرته على النفع ، فلزم نظام الملك •

ونظام الملك فى شعر الطغرائى : أبيض أخـــلاقه ثغر ، رهطه من صيابة الفرس ، يقول ويفعل ، شجاع حازم ••• ، فاتح :

رمى بنـواصيهـــا الفـــرات فأقبلت
مغيبـــة الاعطـــاف قلـــع المنـــاكب
وخـاض بهـا جيحـان يلطم موجـه
ملاطمـــة الخصـم الألـــد المشـاغب
خميس أقـــاصى الشرق ترزم تحتـه
وترتج منـــه أخـــريات المغـــارب

ويتكرر خبر الفتح :

وما راع أهل الشـــام الا اطلاعهـــا
رقـاق الظبى والمقـــربات السلاهيب
ولمـــا رأتهـا الروم أيقـــن أنهـــا
سحاب لها ودق من الـــدم مسكوب

وما طلعت الا وفى كل نزعة
بها منبر الدين الحنيفى منصوب
وكم لك فيهم وقعة بعد وقعة
جمعت بها الاهواء وهى أساليب

ولئن جاء هذا الكلام بأسلوب الشعراء انه فى خلاصته حقيقة يؤيدها التاريخ ، ولئن اتسعت رقعة المملكة فى عهد السلطانين : ألب ارسلان وملكشاه فان مرد ذلك الى أسباب من أهمها حزم نظام الملك وشجاعته وتدبير نظام الملك ودهاؤه .

ولم ينس الطغرائى أن يسجل هذا ، ولم ينس أن ينص على الكيد فقال :

خفي مدب الكيد يكتم سخطه
رضاه ويسقى السم فى مجة النحل

وهذا الكيد شرط فى السياسة وشرط فى النجاح ، وهو صفة من صفات أخرى توفرت لنظام الملك فأسند الملك وحفظه ، ولم يكن الشاعر كاذبا حين قال :

به اعتدل الملك الذى مال ركنه
ومادت غصون العيش موقرة الحمل

فذلك ما يؤيده التاريخ ، وما كان يحسه الوزير نفسه ، وما لا يجهله السلاطين أنفسهم ، انما الذى يجدر علمه هو أن الطغرائى لم يقرر هذه الحقيقة لذاتها ، لانه رجل لا يمدح للمدح ... انما يمدح من أجل غايته، فهو بين شاكر على فضل ، وراج لفضل ، ولا غرو فقد كان نظام الملك كل شىء فى عصره ، وكان أكثر من ذلك برأى الشاعر الذى خاطبه بقوله :

بك اقتدت الايام فى حسناتها
وسيمتها لولاك هم وتكريب

فـــلا رزق الا من نوالك مجتنى
ولا عمر الا من عطاياك محسوب

وكان لنظام الملك ـ فى من له ـ ابن هو مؤيد الملك ، وهو كبير ايام حياة أبيه ، وكبير بعد حياة أبيه، ومثله لا يخفى على الطغرائى ، فهو وسيلة أخرى يستعين بها على « قضاء حوائجه » واذن فليمدحه ، ولا بأس بشىء من المبالغة • ولـكن الذى « لا يمدح للمدح » لا ينجو من التناقض ، ولا ينجو من أن يقع فى فخ لم يرد لنفسه أن تقع فيه •

وهذا ما حدث لابى اسماعيل ، فانه بعد اطرائه مؤيد الملك ، أبصر صدرا جديدا يعلو نجمه فيزحم نجم مؤيـد الملك ويكاد يكســـفه • وفى نظرة من الطغرائى الى « مصلحتـه » والى « الظرف الراهـن » حسب أن الدنيا اصبحت فى قبضة « مجد الملك » ، فانصرف اليه يمدحه ويثنى عليه بما هو أهله ، وبما يحتمل أن يكونه من تدبير الملك وقمع البغى وسياســة الأنـــام :

ذاك الـــذى خضـــعت لطاعتـــه
صيـــد المـــلوك وأذعـــن القـــلب

فى فتـــرة تنســـى الحـــلوم بـــها
وتشـــابه المـــربوب والـــرب

ولهذا شىء من ظل فى التاريخ ، ولـكن الطغرائى يزيد :

فى راحتيـــك الـــرزق والاجـــل
وبعزمتيـــك الامـــن والوجـــل

يزيد ، لانه يشكر ، ويشكر لانه حصل على شىء ، ويطمع بأشياء •
وتقع الواقعة ، ويقتل مجد الملك ، ولم يبق أمام الطغرائى الا الرجوع الى مؤيد الملك ، ولئن كان الطريق شائكا ، فهناك الاعتراف بخطل رأيه ثم

الاعتذار بما روج الواشى واختلق ثم العتاب بما كان له من الخدمة وما له من الفضل •

ويبدو أن الشاعر نجح فى مسعاه بدليل رثائه الوزير وقد قتل عام ٤٩٤ فبكاه بكاء فيه جرأة وصدق واخلاص :

ما بعـــد يـــومك للحزين الموجـــع
غـــير العـــويل وأنـــة المتفجـــع

وسجل من دقائق المعركة ومشاهدها ما لم يحفظه التاريخ :

••• هـذا « عبيد الله » أســـلمه الاولى
ضمنوا الثبـــات لـكل خطب مظلـــع

خاضـــوا به الغمرات ثـــم تخـــاذلوا
وتقاعســـوا عنـــه دوين المصـــرع

وتسرعوا نحـــو اللقـــاء وخلفـــوا
فى النقـع ثبت الجأش لـم يتسرع •••

ويضم ديوان الطغرائى من مديح الصدور أكثر مما يضم من مديح السلاطين ، ومن اسباب هذا ، أن الطغرائى بدأ فى سعيه الى المنصب منهجيا متدرجا من الـكتابة الى نيابة الطغراء الى الطغراء والانشاء •• ولم يكن السلطان العامل المباشر لمثل هذه الرتب ، انما هى من « صلاحيات » معـين الملك ونظام الملك ومؤيد الملك ومجد الملك •••اما السلطان فأكثر ما يعنى بكبار الامور كالوزارة ، وهى ـ وان كانت مبتغى أبى اسماعيل الا انها ما زالت بعيدة ، فلا يصح أن ينافس فيها نظام الملك أو مؤيد الملك ••• على أنه لا مانع لديه من أن يزرع عند هذا السلطان أو ذاك مقدمات تنفعه فى حاضره وتعينه فى مستقبله ، ولا سيما بعد أن أصبح أصيلا فى الديوان • وها هوذا قريب من السلطان يتقلب فى ديوان الطغراء والانشاء وفى « نعم » أخرى •

لقد حقق ذلك بالمدح وبالشكر وبانتهاز المناسبة للمدح والشكر ، وما دام الزمن زمن مبالغة ، وما دام الممدوحون يرتاحون للمبالغة ، فليبالغ ما شاءت له المبالغة ، حتى لو استهل قصيدة بمدح ملكشاه بمثل :

لجلال قدرك تخضع الاقدار
وبيمن جدك يحكم المقدار

والدهر كيف أمرته لك طائع
والله حيث حللته لك جار

* * *

والفيلق الجرار بين يديه من
سطوات بأسك فيلق جرار

* * *

هذا هو العصر الذى سبقت به الـ
ـبشرى وجاء بذكره الآثار

* * *

واذا هممت جرى القضاء بما ترى
فكأنك المتحكم المختار

* * *

جردت عزمك للجهاد فقبل ان
جردت سيفك زلزل الكفار

ليقل هذا ، وما هو أكثر منه ، ما دام ذلك يقربه خطوة من الحكم ، وقد يكون للطغرائى فى « مبالغاته » مبرر تاريخى من « عظمة » السلطان وكثرة فتوحاته وسعة ملكه ، ولكن ما عسى مبرره أن يكون حين يقف على عتبة ملك « طفل » فى الحادية عشرة من عمره ، هو الملك مسعود الذى

يحكم أتابكه « جيوش بك » الموصل وأذربيجان ... يقف ويقول : انه ملك الملوك وانه :

تمشى الملـوك الصيـــد تحت ركابـــه
ويظـــله بجنـــــاحه جبـــرين

★ ★ ★

يـا أيهـــا المـــلك الـــذى بجـلاله
قضي القضـــاء وكـــون التـــكوين

مرضـــاته تحيي ويـــردى ســـخطه
فهما حيـــاة للـــورى ومنـــون ...

أيقال مثل هذا لمثل مسعود ؟ ام انه كفر وبهتـــان ؟ ان الطغرائى لا يجهل قصر الملك ولا يجهل عجزه ، ولـكنه لا ينظر اليه خلال عقله ، انما خلال هواه ، ولا أعظم لديه ـ ولا سيما بعد أن خيبته بغداد[٣] وخيبته اصبهان ـ من امرىء يسير به خطوة نحو غايته • وهو اذ قصد مسعودا عام ٥١٣ ، انما قصده من أجل وزارة لم يحققها له السلطان محمود •

أما الخلفاء فطبيعى ان لا يكون لهم حظ من ديوان ابى اسماعيل ، ولم يستعين بهم وقد « عرف من أين تؤكل الـكتف » والدنيا كلها ـ بما فيها الخليفة ـ بيد السلطان ووزيره • وهوى الشاعر أكبر من أن يحققه خليفة ، وأكبر من يحد بدينار أو ضيعة •

على اننا قد رأينا الطغرائى ـ فى عامة مديحه وفى أحسنه ـ لا يخرج عن القصد والارادة والهدف الى ما هو أبعد من المدح والممدوح ، وعمل هذا شأنه ، ان سلم ـ لدرجة ما ـ من مجانبة التاريخ فانه لا يمكن أن يكون مجال عاطفة صادقة وخيال أصيل • انما هو مهارة وصناعة يؤيدها التمكن

---

(٣) عام ٥٠٥ ، تنظر أدناه ص ٢٢٧

من اللغة وتراكيبها وبلاغتها وتسندها الاستفادة من خبرات السابقين من أمثال النابغة والبحترى وابن هانى والمتنبى •

وليس من اليسير على شاعر كالطغرائى أن يهب نفسه لممدوحيه ، وليس من الممكن ان يخرج عن ذاته ، وهذا واضح بين لكل من عرف رأى الطغرائى فى نفسه ، ووقف على فخره ورآه كيف يشيد فيه بكفاياته ومواهبه • ورآه كيف يطلق لنفسه العنان لتقول كل ما تريد وبكل صراحة دون احتياط (أو خجل) • وهو « عريق » فى هذا الفن فقد طرقه منذ صباه (ديوانه ، ص١٣١) • ولئن كان الفخر قديما فى الشعر العربى ، ولئن كان شائعا فى مختلف عصوره فان ذلك لا يحول دون الاجادة ، لان الطغرائى انما يفخر ـ مخلصاً ـ بما لديه وبما يحسه فى أعماق نفسه ، ولانه يعتمد رصيدا من الحقيقة لا يقول معه سامعه : كذبت •

وقد يفخر بأسرته وكرم محتدها الا أن ذلك لايؤلف اتجاها بينا فى شعره ، ان الاتجاه البين انما نلمسه فى فخره بعلمه ، ولا يشك امرؤ فى علم الطغرائى وسعته وعمقه ، ولكن الشاعر يؤكد علما بعينه هو الكيمياء ، وهذا علم شهد له به الناس وشهدت له به مؤلفاته ، ولا يريد الطغرائى أن يقف منه عند حد ، انه ليسمح لنفسه أن تنطلق كما تريد ، وهل من ادعاء بعد قوله :

أما العلوم فقد ظفرت ببغيتى
منها فما أحتاج أن أتعلما
وعرفت أسرار الخليقة كلها
علما أنار لى البهيم المظلما
وورثت « هرمس » سر حكمته الذى
ما زال ظناً فى الغيوب مرجما
وملكت مفتاح الكنوز بحكمة
كشفت لى السر الخفى المبهما

لولا التقيـــة كنت أظهـــر معجـــزاً
مـــن حـكمتى تشفي القلوب من العمى

أهـوى التـكرم والتظـاهر بالـذى
علمـــته والعقـــل ينهى عنهمـا ...

وفى باب هذا العلم وهذا الفخر يقول كذلك :

ألا ان علمـــا بـــين جنّبى مودعـــا
يضـــىء ورائـــى نـــوره وأمـــامى

انـــارة علـــم الصادقين ومـــا أتت
به الرســـل فيـــه ، برء كل ســـقام

مفـــاتيح علم الله فى الارض من تفز
بهـــا يـــده يظفـــر بـكل مـــرام

فـان عشت أحـوِ الملك لم تحـو مثـله
يدا ملك فى العـــالمين همـــام

وان مت مـــن قبـــل الوصول بحسـرة
فـــكم حســـرات فى نفوس كـــرام

والادعاء واضح ، وقد تؤاخذه عليه ولا ترتضيه من رجل يجب ان يكون متزنا ، ولـكنك لا تنكر على الابيات شاعريتها ، ولا تنكر أن الانسان قد يخرج عن سمته ولا سيما اذا كان شاعرا • ويبدو أن الطغرائى قال هذه الابيات لينفس بها عن ضيق ألم به ، وليهرب خلالها من واقع مر ، وليعوض بما يعتقده فى نفسه عما سلبه الناس اياه من انصاف فى الرأى والمال •

وانك لو استقريت ديوان الطغرائى لاحظت أن الشاعر انما يفخر ويكثر من الفخر عندما يؤذى ، فاذا أساء اليه الاعداء وألبوا عليه قال معلنا قدرته وحلمه وسمو منزلته ، ناشرا فى قوله اصداء القلب المـكلوم :

قالوا صبرت على المكروه من نفـــر
لو شئت حـكمت فيهـم كفّ منتصر

تعـدو عليك رجال لو هممت بهـم
صاروا فرائس بـين النـاب والظفر

تغضى الى أن يقـال : العجز ألزمـه
ذلا ، وتصبـر حتـى لات مصطـبر

حتى م تحلم عنهـم غـير منتقـم
الحـلم ينـزع أحيـانا الى الخـور

* * *

فقلت انهـم عنـدى وكيـدهم
كالـكلب اذ بـات يعوى صفحة القمر

انـى أبت لي أخـلاق مهـذبة
أن أسلب الحـلم بـين الحقـد والضجر

واذا بالغوا فى العداء ، جعل من نفسه الشمس سموا والنسر ارتفاعا ، فكيف يبلغون مناطه •

ويلج بالفخر فى الحالات التى يضام فيها وتضيع عليه حقوقه وتغمط خدماته ويزهد فى كفايته ، أو بكلمة أدق عندما يمس طموحه بسوء ، ولا غرو فى أن تتمخض حالات مثل هذه عن جياد قصائده • ويبدو أن أكبر مصاب حل بآماله كان عام ٥٠٥ هـ بمدينة السلام عندما عزل عن منصبه • والمصاب الجسيم يدفعه الى الفخر الزائد فكأنه يتكىء عليه ويؤكد به وجوده • ولئن قال :

أصالة الرأى صانتنى عـن الخطـل
وحليـة الفضل زانتنى لدى العطـل

مجـــدى أخـــيرا ومجدى أولا شرع
والشمس رأد الضحى كالشمس فى الطفل

* * *

غـــالى بنفسى عـــــرفانى بقيمتهـــــا
فصنتهـــــا عن رخيص القـــدر مبتذل

لئن قالهـــا ، فقـــد قالهـا ليشـد من صـبره بعـــد أن خـــذله الآخرون ، وليدفع عن نفسه بعد ان أصبح موضع تهمة ، وقالها أكثر من ذلك ليملأ الفراغ الذى أحدثه ذهاب المنصب • ولئن بدا مبالغا ، فان مبالغته صادقة تقوم على ثقة بالنفس ولم تخرج عن عمود الاجادة والتأثير الى ميدان المخاريق والخرافات •

ومن هذا الضرب من الفخر « المقبول » الذى يدل على الصدق والايمان قوله فى هذه الفترة (او فى فترة مشابهة) :

أبى الله أن أسمـــو بغـــير فضـــائلى
اذا ما سمـــا بالمـــال كـــل مســـود

وان كـــرمت قبـــلى أوائـــل أسرتى
فـــانى بحمـــد الله مبـــدأ ســـؤدد

الا انه لا يلبث حتى يفقد وقاره ويوغل ويقول :

ومـــا منصب الا وقـــدرى فوقـــه
ولو حـــط رحلى فوق نســـر وفرقد

ولـكنه حتى فى هذا ، لا يفارق دنيا الشعر • ثم يحس بعض ما يحسه الناس عندما يسمعون مثل هذا البيت فيبرهن ويبرر :

اذا شرفت نفس الفتـى زاد قـــدره
على كـل أسى منـه ذكـــرا وأمجـــد

ثم يشير الى سبب من الاسباب المباشرة فى استفزازه :

يـــكاثرنى مـــن لا يقـــاس نجـــاده
بشسعي اذا ما ضمنى صـــدر مشهد

والحقيقة أن شكوى الطغرائى من المـكاثرين والمنافسين والاعداء ... كثيرة وشديدة حتى ليبدو وكأن الشكوى جزء لا يتجزأ من خلقه ، وهذا صحيح ، ولـكنه لم يشك لمجرد الشكوى ، ولم يتألم من الاعداء من كل نوع ... وانما كانت الشكوى عنده ضربا من الفخر وهى تصدر عنيفـة و « رائعة » لانها تتصل بطماحه وتعرب عن أهم مكونات نفسيته وأبرز مبررات وجوده ، أعنى المنصب . فاذا تزعزع هذا المنصب وأوشك أن ينقض صاح معتزا شاكيا :

اذا لم يـــكن لى فى الولاية بســـطة
يطول بهـــا بـاعى وتسطو بهـــا يدى

ولا كـان لى حـــكم مطـــاع أجيـــزه
فارغـــم أعـــدائى وأكبت حســـــدى

ولـــم يغش بابى موكب بعـــــد موكب
مخافـــة ايعـــاد وتأميـــل موعـــــد

فـأروح من هـــــذا اعتـــزال يصوننى
صيانـــــة مطـرور الغرارين مغمـــــد

فأعـــذر ان قصرت فى حق مجتـــــد
وآمـــن أن يعتـادنى كيـــد معتـــدى

أأكفى ولا أكفى وتلـــك غضاضـــــة
أرى دونهـا وقع الحســام المهـند ...

ان همه ، كل همه من الدنيا ولاية وبسطة فى الولاية ، ومتى ما أحس ببعد هذا وابتعاده ساوره الغم وانتابه الاسى • وعليه ، فلا غرو ان أثارت فيه مصيبة عام ٥٠٥ أعنف الابيات •

ومذ فقد المنصب تذكر (لاول مرة) أنه غريب فى بغداد وأن له وطنا فى غيرها ، وأن عليه أن يأوى الى الراحة :

فيـــم الاقامـــة بالزوراء ، لاســـكنى
بهـــا ولا نـــاقتى فيهـــا ولا جمـــلى
طـــال اغتـــرابى حتى حـــنّ راحلتى
ورحلهـــا وقرى العسالة الذبـــل •••

وتثقل عليه الاقامة ببغداد ، ويثقل عليه أهل العراق فيبدون لناظره وكلهم مساوىء :

مللت ثـــوائى بالعـــراق وملنـــى
رفاقى وكانـــوا بالعـــراق طرابـــا

ويبعثه فقـــد المنصب على الايغال فى التشاؤم من البشر فيعمم الخاص

أعـــدى عـــدوك أدنى من وثقت بـــه
فحـــاذر النـــاس واصحبهم على دخل

★ ★ ★

غاض الوفـــاء وفاض الغـــدر واتسعت
مسافة الخلف بـــين القـــول والعمـــل

وهذا منتهى التشاؤم • وقد يؤاخذه عليه مؤاخذ ممن يدعون للتفاؤل وتحسين الرأى بالانسان ولـكن هذا لا يغـير من الحقيقة برأى الطغرائى أيام المصاب ، اما فى غيرها فقد يعتدل ويعلل ويقول :

ومـــن تطـــامن للدنيـــا غـــواربه
لم يخـــل من نصب فيـــها ومـــن رغب

او يقول :

والعيش كالمـــاء قـــد يصفو لشـــاربه
حينـــا ، ويشرب أحيانـا عـلى الـكدر

حمنـــا عليـــه فلمـــا طـــاب موردنا
أقامنـــا الخوف بـــين الورد والصدر

او انه يعزى نفسه ويطمعها بالمستقبل :

كأن لم يـكن بالمرء مـــن قبـــل عثرة
اذا انتعشت تلـــك الجـــدود العـــواثر

او انه يكل أمره الى الله الذى بيده كل شيء :

تفرد الله بالتـــدبير مـــا اشتـــركت
فيـــه نجوم ولا شـــمس ولا قمـــر

فـــكل الى الله مـــا أعيـــاك مطلبـــه
فسوف يأتى بمـــا لا تأمـــل القـــدر

والخـــير والشـــر منـــه جاريان على
ما شـاء : لا حيـــلة تغنى ولا حـــذر

وكلمـا ضاقت به الاحوال وكلما نظر فيمـا حوله ازداد ايمـانا بأن لا حيلة تغنى ولا حذر ، ولـكنه يعوّل فى هذه المرة على الحظ وسلطان الحظ :

أو مـــا ترى الارزاق تطلب غافـــلا
وتصـد عـــن لهفـــان وهـــو طلوب

وأرى الجـــدود هى الحواكـــم للورى
وبهـــن يخفـــق طـــالب ويصيب

فـــاذا قطعنـــك فالقريب مبعـــــد
واذا وصلنـــــك فالبعيـــد قـــريب

وقد تخالفه وانت فى حالتك الهادئة ، ولك الحق ، الا انه يرى الدنيا من زاوية مصابه ويأسه :

فأيـــن مفـــرى ومـــا حيـــلتى
وجـــدى فى كـــل صـــوب أمـــامى

ولا يرده الى التفـــاؤل الامـــر والنصـــح ، وانمـــا أمله فى تغير الاحوال : « ما أضيق العيش لولا فسحة الامل » ، وبالصبر انتظارا للطالع السعيد :

لا تجـــــزعن ان فـات مـــا رمتـــه
واشـــدد عـــرى عـــزمك بالصبـــر
فالجـــــد ان ســـــاعد نـــال الفتى
بغيتـــــه مـــــن حيث لا يـــــدرى

وهكذا تتصل « فلسفته » فى الحياة بالمنصب وتتصل أكثر من ذلك بفقد المنصب وما يسبب ذلك من ضيق وألم وشكوى يعممها على النـــاس ونواميس العيش ، ولا غرو فى أن يقول فى مثل هذه المواقف مثل ما سمعنا ، ومثـــل :

ألم تر أن النـــاس أبنـــاء دهـــرهم
وكلهـــم فـــى فعـــله كأبيـــه
فـــان غـــدرت بالحـــر يوما بنـــاته
فـــذاك قليـــل مـــن كثـــير بنيـــه
هى الـــدار ينبـــو بالقطـــين جنابهـا
فمـــن خامـــل ينتابـــه ونبيـــه

تخبرنـــا عمـــن تقـــدم قبلنـــا
وان لـــم نســـائلها بكيف وايـــه

ومثـــل :

ولقـــد بلوت الدهـــر أعجم صرفـه
حتى اســـتوى المـــكروه والمحبـــوب

ســـل بى بنـــات الدهـــر فهى خبـيرة
انى عـــن المـرعى الذميـــم عـــزوب

تبـــاً لمـــن يمســـى ويصبـــح لاهيـا
ومرامـــــه المـــأكول والمشـــروب

ومثـــل :

والعيش كالمـــاء قـــد يصفـو لشـــاربه
حينـــــا ويشرب أحيـــانا على الـكدر

حمنـــا عليـــــه فلمـــا طـــاب موردنا
أقامنـــــا الخوف بـــين الورد والصـدر

* * *

واكثر النـــــاس من تشقى بصحبتـــــه
ومصطلى النـار لا يخلو مـــن الشـــرر

تشابهوا فى طبـــــاع الشر بينهـــــم
على اختـــلاف من الاهـــواء والصـور

* * *

فلا ترومن انصـــافا وقـــد شـــهدت
مخـــالب الليث أن الظـــلم فى الفطر

هذه هى « فلسفة » الطغرائى ، وفيها كثير من الحرارة والشدة لانها تعبير عن وخزات الالم واعراب عن الساعات السود • واذا أضفت الى هذه الساعات ما لقى الشاعر فى حياته من تجارب ، علمت أن الرجل أصبح أهلا لان ينصح ويعظ ، وهذا ما حدث فعلا ، فقـــد أسدى ثمرات خبراته الى الاخرين مبتدئا بالاقرب فالاقرب داعيا الى الاحتمال من الاعداء ، والمجاملة ، والقناعة بمسيور العيش ، واطاعة الآباء ، والصبر على تصاريف الزمان ، والمصافاة والشكر والتعاون ، وهو صاحب :

كونوا جميعـــاً يا بَنيَّ اذا اعترى خطب ولا تتفـــرقوا آحـــادا
تأبى القداح اذا اجتمعن تكســراً واذا افترقن تكســـرت أفـــرادا

وصاحب :

أخاك أخـاك فهـو أجـلُّ ذخرٍ اذا نابتـــك نائبـــة الزمـــان
وان رابت اســـــاءته فهبهـــا لمـا فيـه من الشـيم الحسـان ••

ونصـائحه لا تكاد تزيد عن فكرة شـائعة رصفت فى كلام موزون مقفى يسهل سماعها ، ويسهل حفظها دون أن يرتفع بها كثيرا عن النثر •

ويبدو الطغرائى فى النصائح والخطرات الفلسفية ••• والشـكوى والفخـر والمـديح •• مهمـوما مغـرقا فى الجـد ، منصـرفا الى جانب واحد لا يعنيه غيره من الحياة ، مما يبعث على التساؤل ، ويزيد التساؤل وجاهة اذا تذكرنا انه مر بأيام سعادة حققت له بعض ما كان يصبو اليه • ونعود الى الديوان بنية جديدة نستجلى بها الجانب الضاحك من حياته فنرى هذا الجانب ضيقا يتمثل فى هذه الرسالة التى كتبها الى عزالدين بن حامد المستوفى يدعوه ليشاركه النشوة :

فديتك قـــد تنبهنـــا لدهـــر عيون صـــروفه عنـا نيام
وجـاد لنا الزمـان بجميع شـمل تألف بعـــد ما انقطع النظـــام

مدام يشبه التفاح ذوبا وتفاح كما جمد المدام
ومن نسج الربيع محبرات تأنق فى حواشيها الغمام
وأصوات المثالث والمثانى كما سجعت على الايك الحمام
وريان الصبا للحسن فيه بدائع لا يحيط بها الكلام
له من فتك صدغيه نجاد ومن ألحاظ عينيه حسام
ومجلسنا على ما فيه يرمى بنقصان وأنت له تمام
فلا تعتل بالاشغال واحضر على عجل والا فالسلام

والرسالة طريفه . وله رسالة أخرى يدعو بها الى مائدة « ثرية » بكل ثرى :

فديتك قد حان وقت السحور ولاح الصباح ولم تحضر
وجاء الطهاة بما عندهم وحث السقاة على المسكر
ومد القباطى فوق الخوا ن يلمع كالنشر المزهر
وحان الصلاة على ابن الشهيد فحي على دفنه تؤجر
وفوق المنصة مجلوة علينا عرائس من سكر
بنات المؤذن ذاك الذى يؤذن والصبح لم يسفر
سبين وعرين من بعد ما ذبحن فيالك من منكر
فلما سلبن الثياب ابتلين بسوداء موحشة المنظر
أصابعها الحجن مسنونة نواشب منهن فى المنخر
فزارت بهن سواء الجحيم تريح بالملهب المسعر
فمصلوبة سمّرت كفها الى جيدها وهى لم تشعر
ومثقوبة البطن فى جوفها كرات من الذهب الاحمر
وأخرجن منها الينا يسقـ ن سوق العصاة الى المحشر ..
فبادر الينا فدتك النفوس ولا تتوقف ولا تعتذر
وشارك بأفعالك الاقدمي ن فى العزف والخمر والميسر

والقصيدة مثل على ترف الشاعر وترف عصره ، وهناك أمثلة أخرى يمكن أن نراها فى وصف الغدران والرياض ووصف مظاهر الطبيعة الاخرى من سماء ونجوم وكروم وورود ... وقد زخرت هذه الاوصاف بالزبرجد والياقوت والمسك والحرير و « حقاق تبر بطنت بفضة » ..

وترى شقائقها خلال رياضها أوفت مطارفها على أزهارها
فكأنها والريح يصقل خدها والسحب تملؤها بصوب قطارها
أقداح ياقوت لطاف اترعت راحا فبات المسك سؤر قرارها

وهذه مسميات وتشابيه لا تتهيأ الا لاهل النعمة والثراء الذين عرفوها وألفوها ، وهو فى ذلك اقرب الى ابن المعتز الذى وصف ما رأى وما ملك. وهو اذ يقترب منه بذلك ، يقترب كذلك بفنه الذى جاء ماديا وعرضا من الخارج ، وبأسلوبه الجاف الذى يكاد يستحيل نثرا .

والطغرائى الى جوار هذا الترف الاجتماعى الذى بدا فى وصف الطبيعة ووصف الموائد ، ترف فنى يبدو فى غزله الذى كان يقوله ليرضى المفاهيم الفنية فى عصره وليزجى فيه طرفا من أوقات الفراغ .

ويقوم هذا الغزل على المهارة قبل كل شىء ، وتتلخص هذه المهارة فى القدرة على الظهور بمظهر العاشق ـ والعاشق الكبير دون معاناة لعشق ودون وقوع فى حب ، وكل ما فى الامر نظم لمعان شائعة ذائعة فيه الغرام والوله ، والموعد واللقاء ، والعاذل والواشى ، وسهر الليالى ، ونحول البدن .. والدموع .معان هى معانى كل الناس ،ولو قرأها قارىء وهو خالى ذهن من تاريخ الغزل فى الادب العربى وجاهل بأسرار الكذب ... لحسبها صدقا ولبنى عليها أحكاما لا تمت الى الواقع بسبب متين وقد يستنبط أن الطغرائى عاش فى جزيرة العرب ومثل أطواره الكثر على مسارح الجرعاء ، الحمى ، نجد ، الحجاز ، الغور ، العذيب ، وادى العقيق ...

الاجرع الفرد ، ويروح يبحث فى كتب الجغرافية والبلدان ليستكمل البحث • وفى ذلك ضلال كبير ، لان الطغرائى لم ير شيئا مما ذكر ولم يعش يوما فى هذه الاماكن التى طال حنينه اليها وتعددت مغامراته فى اركانها ، وأخذ من بيئتها تشابيهه ومن أهلها مظاهر حياتهم •

وليست المسألة مسألة قول ، لان هذا القول ابن المهارة اولا وقبل أى شىء ، وقد اوتى الطغرائى كل الادوات اللازمة للنجاح فى هذا الفن من لغة وحفظ ومران واعجاب بالشريف وجميل والبحترى وابن أبى ربيعة وأضرابهم • وتقليده للشريف الرضى واضح لاغبار عليه ، وقد نص هو نفسه على المعارضة(٤) •

وقد بلغت مهارة الطغرائى من الدقة بحيث جلت هذا الشعر الذى لا يمت الى حقيقة بصلة تجتذب القارىء وتستثير اعجابه وقد تخدعه أحيانا عن نفسه فيخال صدقا ما لم يكن بصدق •

ومن جملة ما يقصه علينا ابو اسماعيل من أوطار هذا « الحب » وأطواره أن « حبيبته » كانت توافيه فيتطارحان الاسرار :

أتت وهى أحلى للفؤاد من المنى
وأطيب من تهويمة الفجر فى جفنى

* * *

فرشت لها خدى وقبلت كفها
خضوعا ولا تقبيل مستلم الركن
ولما تطارحنا الاحاديث بيننا
وبحنا بأسرار القلوب ولم نكن

---

(٤) ننظر ص ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ من ديوان الطغرائى ، وتقابل بـ ص ، ٥١٦ ، ٤٦١ ، ٥١٧ ، ١١٩ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢ ، ١٥٣ ، من ديوان الشريف الرضى ، طبعة دار الاخبار •

حلفت لهـــا بالبـــدن تـدمى نحـــورها
اليـــة بـــر صـــادق ليس يستثنى :
لانت صميـــم القـــاب فى النفس والذى
اذا رمت حبـــا غـــيره فهـــو مـــا أعنى
ومـــا اقتسم العشـاق مذصرت بينهـــم
ســوى ســؤر وجدى والبقية من حزنى

وتستزيده عن أخبار اللقاء فيقول :

فلـم أر الا مـــــا ألـــذ وأشتهـــى
ولـم يك الا مـــا أود ومـــــا أرضـى

وتستزيده وتستوضحه ، فينبئك حديث القبل :

وافت وفـوق لآلى الثغـــر مـــن لعس
ختـــام مســـك ففضت ختمها القبـــل

ثم حديث التقى والعفاف :

بتنـــا وبات التقى يقظـــان يحرسنا
ودينـــا فى الهـــوى قـول ولا عمـــل
ثم انثنينـــا وجيبـى ليس يعلقـــه
غـــير العفـــاف وردنى من دمى خضل

وليست هذه المرة الاولى أو الاخيرة فلطالما عف وهو قادر :

وليـــلة وصل قـــد قـــدرت فصدنى
حيـــــائى الا ان الحيـــــاء رقيب

ولـكن ، ليس الحب وصالا فقط ، كيف لا ، وهناك البعد والفراق وما يعقبان من جزع وحزن :

هـم نزعوا من طـــاعة الصبر بعـــدهم
يـدىّ وأغـــروا ناجـــذى بنـــانى

وسهر ونحول

هنـــاك الـكرى ياراقـــد الليـــل اننى
ألفت سهـــادا طـــاب لى وهنـــانى

* * *

فيـــا صاحبى سرى وجهرى أسعـــدا
فلـــم يبـــق منى غـــير مـــا تريـــان

واذا حالت الحوائل دون الوصل واخفق الوشاة فى عبثهم صاح :

هم أرجفـــوا بالوصـــل بينى وبينـكم
وظـــن بنـــا فيمـــا حـــكوه ظنـون

فليت أراجيف الوشـــاة حقيقـــة
وليت ظنـــون الـــكاشحين يقـــين

وكان بوده لو كتم حبه وعفى على أشواقه ـ ولـكنه يحاول عبثا :

سرى حيث لا يـدرى الضمـــير مكانـه
ولا يهتـــدى يومـــا اليه الهـــواجس

اذا قلت هـــذا يوم أســـلو تراجعت
عقابيـــل مـــن أسقـــامه ووســاوس

يحاول ، ولا يستطيع :

ومن لى بكتمان الهـــوى ومـــدامعى
تنـــم وأنفـــاسى الحـــرار تشيـــع

وينحى باللائمة على قلبه :

ياقلب مالك والهـــوى مـــن بعـــدما
طـــاب الســـلو وأقصـــر العشـــاق
أو مـــا بـــدا لك فى الاقامـة والاولى
نازعنهـــم كـــأس الغـــرام أفاقـــوا
مرض النسيـم وصح ، والـــداء الـذى
أشـــكوه لا يرجى لـــه افـــراق
وهـــدا خفوق البـرق والقلب الـذى
تطـــوى عليـــه جوانحى خفـــاق

* * *

وانـــا الفـــداء لمـــن تصرم حبـــله
عنـــى ولـــم تتصـــرم الاعـــلاق
يـــا حبـــذا نجـــد وأعـــراق الثرى
لـــدن ، وأنفـــاس النعيـــم رقـــاق

والغالب على نسيب أبى اسماعيل فخامة اللفظ وفخامة التراكيب ، الا انه قد يسهل حتى يقرب من منهج العباس ابن الاحنف فيقول :

ظـــاوم ليســـ ينصفنـى يواعـــدنى ويخلفنـــى
يضـــن بمـــا أكلفـــه وأبـــذل مـــا يكلفنـــى
يقـــول ـ وقـد شكوت اليـ ـه مـــا ألقى ـ أتعرفنـــى :
فقلت لـــه أأنـــكر مـــن يعـــذبنى ويتلفنـــى

وقد ذكرنا اسباب نجاح الطغرائى فى مزاولة الغزل التقليدى ، وكان علينا أن نضيف سببا آخر هو استفادة الشاعر من تجاربه الخاصة فلقد رأيناه فى مطلع حياته محبا صادق الحب وقد فجعه الزمان بحبه ذاك فكان الرثاء

الذى رأيناه على أحسن ما يكون عليه الغزل ، ثم سار الزمان وأراد أن ينظم كما نظم الآخرون ان فى المقطعات وان فى مطالع قصائد المديح فنهل من معانى القدامى ومن تراكيبهم وقد اجاد فى ذاك اجادة ملحوظة ، ولكنه كان يفيد أيضا ـ بقصد أو بغير قصد ـ من رصيده القديم • فاذا تحدث عن الاشواق والوصل والعذال والكتمان والاطياف ••• لم يبدأ من صفر ، بل ان بين الصفحات التى كرسها الديوان للغزل التقليدى أبياتا يطغى فيها الرصيد الاول حتى لتخالها مما قاله فى حبيبة بعينها • ومن ذلك هذه الابيات :

خبرّوها أنى مرضت فقالت ... أضنى طارفا شكا أم تليدا
وأشاروا بأن تعود وسادى ... فأبت وهى تشتهى أن تعودا
وأتتنى فى خفية وهى تشكو ... رقبة الحى والمزار البعيدا
ورأتنى كذا فلم تتمالك ... أن أمالت على عطفا وجيدا
ثم قالت لتربها وهى تبكى ... ويح هذا الشباب غضا جديدا
زورة ما شفت عليلا ولكن ... علمت جمرة الفؤاد وقودا
وتولت بحسرة البين تخفى ... زفرات أبين الا صعودا

ومنه هذان البيتان :

أجمّا البكا يا مقلتى فاننى ... على موعد البين المبدد واقع
اذا جمع العشاق موعدهم غدا ... فوا خجلتا ان لم تعنى المدامع

خاتمة

طرق الطغرائى كل أغراض الشعر المعروفة فى عصره ، وكان مجيدا فى رثائه لزوجته اذ أعرب عن حزنه بشعر هو البكاء والدموع ، وكان أصيلا مجيدا فى فخره بفضله وطماحه الى المجد اذ جلا ثقته بنفسه وجلا صورة الطغرائى ، ولئن بدا مغاليا ، فان نصيب الواقع من أقواله غير قليل ، والمنصب ـ على اية حال ـ مفتاح شخصية الشاعر وسر الصدق فى

فخره وشكواه ، لان الشكوى فى شعره ضرب من الفخر ، وتبدو على أعنف ما يمكن عندما يمس منصبه بسوء ، ومثل الشكوى مامت اليها بصلة من حكم ووجهات نظر •

ولئن كان حظ العاطفة كبيرا من أكثر ما قال فى هذه الاغراض ،وكان حظ الصور والاخيلة مرتبطا بهذه العاطفة فان للتراكيب وما فيها من الفاظ وصلة اللفظة باللفظة بحيث تأتى الابيات محكمة السبك،صلة واضحة بالعاطفة والخيال وقد تماسكت الابيات وترابطت الوحدات الفكرية الصغيرة ضمن اطار فكرة سائدة فبدت القصيدة بعيدة عن التكليف والتصنيع ، وبدا الشاعر وكأن همه الاول الاعراب عما ينتاب قلبه من ألم وأمل ولا يهمه بعد ذلك ان يرضى عنه الآخرون أو أن يسخطوا •

أما أغراضه الاخرى فى المديح والغزل والاخوانيات والوصف فتقوم أول ما تقوم على المهارة وارادة النظم والقصد اليه من اجل غاية خارجة عن طبيعة نفسه وخارجة عن طبيعة الشعر ،فهو انما يمدح ويعدد الصفات المعروفة فى الشجاعة والكرم انما يريد أن يرضى أناسا بعينهم من أجل نفوذهم ثم هو يعلم أن مثل هذا الشعر فى المديح وغيره ينشد فى المجالس ، وللمجالس ذوق خاص فهى تعجب بغرابة اللفظ وغرابة الجناس والطباق ، والكناية والاستعارة ••• كما انها تعجب بمعان وموضوعات وتراكيب مكررة معادة ولكنها من مخلفات السلف الصالح ••• وهذه مطالب كثيرة ينوء بها الشعر ولا يمكنه النهوض معها سليما متدفقا ، وهذا الذى حدث للطغرائى ولغيره ، ولكن الشاعر المتمكن يستطيع أن يعوض بالمهارة عن الصدق والعاطفة والخيال ـ تعويضا ما ، وهذا الذى اضفى على اشعار الطغرائى فى هذه الاغراض شيئا من الطرافة والرونق • دون أن يسلم من الوقوع بين الحين والحين فى سخف التراكيب وسخف الافكار ، وقد توهمه المهارة الزائدة باختيار قوافى صعبة كالحاء والضاد والصاد ، وبالنظم على قافيتين

وبمعارضة الشريف الرضى والبحترى ... فيوقعه توهمه فى وهن شعرى جديد .

ولئن كان لشعر المهارة قيمة تاريخية ولبعضه طرافة تجتذب القارئين فان أهمية الطغرائى الاولى تأتى من شعره الاصيل فى الرثاء والفخر والشكوى حيث يجد القارىء العاطفة والخيال والبناء ويجد أسراراً من طوايا نفس الشاعر ونفس الانسان فيقرأ الاثر اعجابا وتقديرا ويرى فى الطغرائى شاعرا هو أكبر شعراء العربية فى « العصر السلجوقى فى العراق وبلاد العجم » وقد يفسح له المجال فى كتاب المختار من الشعر العربى ومن اشعار الموهوبين .

علي جواد الطاهر

العلاقات الالمانية ـ السوفيتية

١٩٣٩ ـ ١٩٤١

للدكتور محمود علي الداود
المدرس فى قسم التاريخ

ان التجارب التى مر بها فردريك الكبير فى قتاله مع الروس فى حرب السبع سنوات جعلته يوصى وهو على فراش الموت باهمية الصداقة الروسية ، وقد اتبعت هذه الوصية بنجاح بعد وفاته لمدة قرن ونصف قرن • فان الانتصار الروسى على نابليون كان مقدمة لتحرير بروسيا ، كما ان موقف الحياد الودى الذى اتخذته روسيا كان من عوامل الانتصار البروسى على النمسا فى ١٨٦٦ وعلى فرنسا ١٨٧٠ • ومن المعروف ان الصداقة الروسية كانت حجر الاساس فى نظام بسمارك وقد ذكر بسمارك وصية القيصر وليم الاول الذى قال له مرة « حافظ على الاتصال مع امبراطور روسيا ولا تدع مجالا للصراع معه » • لقد أهملت هذه الوصايا من قبل وليم الثانى فى١٩١٤ و أدولف هتلر فى ١٩٤١ ـ وفى كلتا الحالتين استهدفت المانيا لكوارث خطيرة جدا • وفى خلال تلك المدة كانت الصداقة الالمانية أمرا ضروريا لروسيا أيضا فكانت الدماء الالمانية تجرى فى عروق سلالة رومانوف كما أحتل الالمان أماكن رفيعة فى الخدمة الامبراطورية•ان روسيا لم تكن تهدف الى الحرب مع المانيا فى ١٩١٤ وفى ١٩٤١ • وعلى وجه الاجمال فان العلاقات الالمانية ـ الروسية كانت فى خلال القرنين السابقين نقطة الارتكاز فى السياسة الدولية للقارة الاوربية •

وقعت بعد انهيار المانيا أطنان من الوثائق الخطيرة بايدى الحلفاء ، وقد استعملت قسما منها فى محاكمات نورمبرغ "Nuremberg" أما البقية فقد

حفظت للطبع فى المستقبل • وقد صورت الدوائر المسؤولة فى الولايات المتحدة وفرنسا وانكلترة معظم هذه الوثائق وتجرى حاليا مفاوضات مع حكومة المانيا الغربية بشأن اعادة هذه المستندات الى دور الوثائق الالمانية لاهميتها التاريخية العظيمة • ان الوثائق الخاصة بالعلاقات الالمانية ـ السوفييتة فى الفترة آذار ١٩٣٩ ـ حزيران ١٩٤١ هى معروفة فى الوقت الحاضر وقد قامت الدول الغربية كما قام الاتحاد السوفيتى بطبع معظمها ولم تخل هذه العملية من المناورات الدبلوماسية التى تمتاز بها الحرب الباردة بين المعسكرين •

ان دراسة العلاقات بين المانيا وروسيا السوفيتية فى هذه الفترة تجعل من الضرورى الرجوع الى سنة ١٩١٧ ، ومن ثم تتبع تلك العلاقات الى مؤتمر مونيخ "Munich" • ولكن هذه المحاولة لا تدخل ضمن نطاق موضوعنا هنا ولذلك سأحاول باختصار ذكر بعض الحقائق المهمة •

منذ سنة ١٩١٧ اعتبر لينين "Lenin" والبلاشفة المانيا الحجر الاساسى فى استراتيجيتهم العالمية وقد سيطرت هذه الفكرة على اذهان رساموا السياسة الخارجية للعهد الجديد فى موسكو • ان المعاهدة التى وقعت فى راپالو "Rapallo"[1] فى ١٦ نيسان ١٩٢٢ وحدت الدولتين فى فى معارضة واحدة ضد معاهدة فرساى "Versailles" • وقد قامت المانيا فيما بعد تنفيذ المواد العسكرية من تلك المعاهدة فى الاراضى السوفيتية نفسها حيث قامت بانشاء مصانع لعمل المواد الحربية وخاصة أجزاء الطائرات • أما اتجاه السياسة الخارجية السوفيتية فلم يطرأ عليه تغيير على أثر وصول هتلر الى الحكم فى نهاية كانون الثانى ١٩٣٣ ولم يقم ستالين فى تلك الفترة أو

---

(1) E. H. Carr, German-Soviet Reletions Between the Two World Wars 1919-1939, Oxford University Press, 1952, pp. 48-67.

الفترة التى تلتها بالابتعاد من سياسة راپالو • كما أن هتلر نفسه لم يشجب المعاهدة الالمانية ـ السوفيتية الخاصة بالصداقة والحياد التى وقعت فى عهد جمهورية وايمر[٢] "Weimar Republic" ٢٤ نيسان ١٩٢٦ • لقد كان هتلر ، وهتلر وحده ، هو الذى أظهر اول علامة للعداء مع الشريك القوى فى الشرق • وفى الوقت نفسه لم يترك ستالين محاولاته للمحافظة على السلم مع المانية ولـكنه أجبر على اتخاذ تدابير طارئة فى وجه الخطر المتزايد • لذا فان دخول الاتحاد السوفيتى فى عصبة الامم ومحاولة عقد مواثيق اقليمية وأحلاف لتبادل المساعدات مع فرنسا وجيكوسلوفاكيا كان نتيجة حتمية للميثاق الثنائى الذى عقد بين المانيا واليابان فى ٢٦ تشرين الثانى ١٩٣٦ والذى عرف بـ "Anti Comintern Pact" والذى أدى الى تردى العلاقات السوفيتية ـ الالمانية التى وصلت الى ضعفها الشديد فى فترة مؤتمر مونيخ • وبعد مونيخ شاهد محرار العلاقات هذه تغييرا شديدا فى درجة الحرارة ، ذلك التغيير الذى قد يؤدى الى قطع العلاقات بين البلدين أو تقويتها •

وكان الاحتمال الاخير هو الذى سيطر فى الشهور الستة الاولى لسنة ١٩٣٩ على أثر التقسيم الرابع لبولندا • ولقد ذكر مسيو روسو "M. Augusto Rosso" السفير الايطالى فى موسكو بان الدوائر المختصة فى الحكومة السوفيتية كانت تتنبأ بهذا الاحتمال فى الايام الاولى من تشرين الاول سنة ١٩٣٨ • والمعروف ان العلاقات الالمانية ـ السوفيتية لم تكن ترسم من قبل وزارة الخارجية فى كل من البلدين فقط وانما تدخلت الجهات العليا وبصورة منفردة ايضا • اذا درسنا الوثائق الخاصة بهذا الموضوع

(2) See Arthur Rosenberg, A History of the German Republii (Translated into English) 1936.

رأينا ان السفراء السوفييت الذين تعاقبوا فى برلين من ١٩٣٩ الى ١٩٤١[٢] وهم Dekanozov و Skvortzev و Merekalov لعبوا دورا ضئيلا فى تلك العلاقات فى الوقت الذى كان المفاوضات تجرى على أيدى وكلاء ستالين الخاصيين مثل Astakhov .

وكان الالمان يتبعون نفس الطريقة فكان Schnurre الملحق التجارى فى السفارة الالمانية فى موسكو و Gustav Hilger المستشار فى نفس السفارة والذى ولد فى روسيا من أبوين المانيين يسيران المباحثات المهمة . لقد أخبر هتلر ووزير خارجية Ribbentorp السفير الالمانى المعروف فى موسكو Schulenburg [٤] ما ارادو معرفة من الحقائق وفى ١٩٤١ تركوه جاهلا للخطط الحقيقية تجاه السوفييت . ولما كان كـــل من هتلر وستالين يخشيان الـكشف عن اوراقهما فى المفاوضات فقد استعان الطرفان بممثلى الدول المحايدة أو الصديقة ، وقـــد قام الروس بعرض اقتراحاتهم لالمانيا فيما يتعلق بعقد حلف عدم الاعتداء عن طريق M. Draganov الوزير البلغارى فى برلين ، كما أن الـكونت Ciano قام فى حزيران ١٩٣٩ (وكان حينئذ وزيرا للخارجية لايطالية) بتقديم المقترحات الالمـانية عن نفس الموضوع الى الممثل الدبلوماسى السوفيتى فى روما .

يظهر من وثائق وزارة الخارجية الالمانية ومن مـذكرات الـكونت Ciano ان التقارب أو "Rapprochement" بـين المانيـا والاتحاد السوفيتى

---

(3) Documents Diplomatiques Francais, 1938, Paris, 1939, p. 46

(4) Gordon A. Graig And Felix Gilbert, The Diplomats 1919-1939. Princeton University Press, 1953. See Chapterxv, Two German Ambassadors: Dirksen And Schulenberg. By Carl E. Schorske, pp 477-512.

حدث مباشرة بعد مؤتمر مونيخ وخاصة بعد كانون الاول ١٩٣٨ •

لقد تحادث هتلر فى جلسة طويلة نسبيا ، مع السفير السوفيتى فى حفلة استقبال عقدها الفوهرر لاعضاء السلك الدبلوماسى فى ١٢ كانون الثانى ١٩٣٩ • وفى شباط قابل الجنرال "Keitel" فى بيت أحد الصناعيين المعروفين ، الملحق السوفييتى العسكرى وتباحث معه حول مستقبل بولندا فى حالة قيام ثورة فيها وقد أكد الملحق العسكرى أنه اذا حدث هذا فان روسيا سوف لا تقف مكتوفة الايدى بل ستتدخل لاعادة تنظيم تلك المقاطعات المتاخمة لحدودها • لقد تردد الالمان فى فتح المفاوضات وقد رجع أول وفد تجارى المانى من وارشو كان فى طريقه الى موسكو فى ٢٥ كانون الثانى الى العاصمة الالمانية قبل وصوله الى الحدود الروسية • ان السبب الرئيسى فى هذا التردد هو ان هتلر لم يقرر سياسته بعد وكان حتى اذار يعتقد ان مهمته الاولى هو حل قضية "Danzig and the Corridor" بالاتفاق مع البولنديين بوعدهم جزء فى الصراع المقبل من اجل تقسيم مقاطعة اليوكرين "Ukraine" السوفيتية • ان هذا العرض قدم وجدد الى بولندا فى تشرين الاول ١٩٣٨ وفى كانون الثانى ١٩٣٩ • ولما ظهر ان بولندا لم تقم بتقديم اى جواب واضح على العرض السابق بدأ هتلر يفكر بان بولندا لا ترضى بتضحية دانزج ، وأخذ جزء من اليوكرين على حساب روسيا ورأى من الافضل الوصول الى اتفاق معاكس على حساب بولندا(٥) •

ليس هناك اى شىء بان المانيا كان لها مطامع فيما يتعلق باليوكرين وان مثل هذه الاقتراحات قدمت الى بولندا •وبالرغم من عزم الشيوعية العالمية

---

(5) Maurice Baumont, The Role of Foreign Policy in the Success of the National Socialists, pp. 456-479, From the Third Reich. Weidenfield and Nichilson, London 1955.

على فضح هذه المؤامرات ، ولـكن صوت سلطة عليا بدأ يصرح علنا بـان مهمة الوكلاء الانكليز والفرنسيين والامريكان هى خلق المشاكل بين الاتحاد السوفيتى والمانيا • لقد كان ذلك الصوت هو صوت ستالين الذى اعلن فى خطابه عن الشؤون الخارجية السوفيتية أمام المؤتمر الثامن عشـر للحزب الشيوعى بان المانيا لا تملك اى خطط معادية فيما يتعلق بمقاطعة اليوكرين ، وكان ذلك فى ١٠ آذار ١٩٣٩ • ما هو سبب تفائل ستالين ؟ لماذا كـذب وجود خطط ظل يهاجمها منذ مدة طويلة ؟ هل أعطى تأكيدات جديدة بشأن نوايا المانيا ؟ كلا • لقد كان ستالين يعلم نوايا المانيا أكثر من أى أحد ولـكنه شعر بالخطر فحاول تجنبه وحتى يحاول تجنبه تجاهل وجوده بالمرة • وبذلك اخذ يحاول افهام المانيا بانه على استعداد لبحث اتفاق معها وقرر :

"not to allow our country to be drawn into conflicts by warmongers who are accustomed to get others to pull the chestnuts out of the fire for them".(6)

لقد كان هذ التصريح طلبا مباشرا الى هتلر وقادته ، كمـا ان الخطاب باكمله كان قد وضع لمنفعتهم • واذا حدث ان تفهموه فى برلين فسيكون ذلك دليلا على خلق جو جديد بين البلدين • أما برلين فقد فهمت خطاب ستالين جيدا وفسرت بعض فقرات الخطاب السابق كقاعدة للتقارب المحتمل مع روسيا • وقد لعبت المانيا هذا النغم جيدا فقد أكد وزير الخارجية الالمانية ، روبنتروب ، فى مذكرته التى ارسلها الى رؤساء البعثات الدبلوماسية الالمانية فى اوربا بتأريخ ١٢ نيسان على هذا التقارب • وفى رسالة بعث بها هتلر الى سفيره فى موسكو "Von Schulenburg" بتاريخ ٢٦ مايس ١٩٣٩ أكـد

---

(6) J. Stalin, Report on the Work of the Central Committee to the XVIIIth Congree of the Coomunist Party of the Soviet Union, London, Modern Books, P. 16.

بوضوح احتمال حصول تغيير فى بعض أوجه السياسة الخارجية السوفيتية وأردف قائلا :

" ... the German leaders believe they could discern in Stalins' speech of March certain signs of a new orientation."(7)

عندما عقد « حلف عدم الاعتداء » و « البروتوكول السرى » الملحق به فى موسكو فى ٢٣ آب ١٩٣٩ اشار روبنتروب الى خطاب ستالين فى ١٠ آذار ١٩٣٩ • وقد اعاد مولوتوف ، فى خطابه الذى القاه فى ٢١ آب ١٩٣٩ أمام المجلس السوفيتى الاعلى ، الى الاذهان الدور الذى لعبه ستالين فى تحسين العلاقات الالمانية ـ السوفيتية ومما قاله : « اننا نرى الان كيف فهمت المانيا تصريح الرفيق ستالين وأنه أدى الى نتائج عملية » • وقد صرح روبنتروب فى معرض محاكمته فى نورمبرغ ما نصه : « لقد خطب المارشال ستالين فى آذار ١٩٣٩ الذى عبر فيه عن رغبته لتقوية العلاقات مع المانيا • لقد أخبرت ادولف هتلر •• وسرعانما علمت فى مباحثاتى مع الوزير Schnurre بان ستالين كان يعنى ما يقوله »(٨) • لذلك يمكن القول بصحة هذه النقطة ، فقد كان ستالين يرغب شخصيا فى الوصول الى تفاهم مع هتلر وكان خطابه فى ١٠ اذار خطوة حاسمة للوصول الى هذا الهدف • وقد لاقت هذه الدعوة آذانا صاغية وقد أخبر السفير اليابانى فى برلين الجنرال Oshima حكومته بحقيقة الموقف فى برلين واتجاه العلاقات الجديدة بين موسكو وبرلين(٩) •

---

(7) Documents concerning the history of the origins of the War, Auswaetiges Ampt, No. 2, Berlin 1939, No. 287, P. 113.

(8) Bulletin perodique de la presse russe, No. 289, P. 5 (Ministry of Foreign Affaires, Paris.).

(9) Trial of the Major War Criminals, ets., vol. X, Po 267

كان هتلر قد أخبر جنرالاته فى ٢٢ آب ١٩٣٩ بانه يزمع الهجوم فى الغرب اولا وبذلك كان عليه ان يعزل بولندا ، ولـكن هذه الفكرة لم يصبها النجاح وذلك لرفض بولندا العروض النازية فيما يتعلق بالمسـاومة حول الدانزج • وقد ادرك هتلر صعوبة مباحثاته مع بولندا فى نهاية شهر آذار على أثر الاجتماع الذى عقده وزير خارجيته ، روبنتروب ، مع المسيو Lipski السفير البولندى فى برلين[١٠] • وكان رئيس الوزراء البريطانى قد اعلن فى مجلس العموم البريطانى يوم ٦ نيسان عن عقد ميثاق صداقة وتبـادل المساعدة مع بولندا ان تصريح المستر Chamberlain هذا أتى بعد التصريح البريطانى ـ الفرنسى المؤرخ فى ٣١ آذار الذى ضمن استقلال كل من رومانيا واليونان • ان جميع هذه الحركات كان الغرض منها تحذير هتـلر ضد مغامرات جديدة وكان لها تأثير بالغ على السياسة السوفيتية وعلى العلاقات بين موسكو وبرلين • لقد كان الالمان يزمعون حل المشلة البولندية بقـوة السلاح ولـكنهم أملوا ان يـكون ذلك عـن طريق الاعتراف بالحقوق السوفيتية ، وقد كان روبنتروب يعتقد باستحالة اتفاق روسيا مع انكلترا وذلك لعدم مقدرة الاخيرة على تقديم منافع آنية للسوفييت • لقد أقنع التصريح الانـكليزى ـ الفرنسى الرفيق ستالين بقرب وقوع الحرب وقد اعتقد الاخير بان انكلترا وفرنسا ستكونان تحت رحمة اول حادثة فى الدانزج او البلقان بينما تقوم روسيا بالدفاع عن مصالحها الخاصة دون الخضوع الى تعهـدات دولية • وهذا كان السبب فى فشل المفاوضات التى بدأتها الحكومة البريطانية فى ١٥ نيسان بين لندن وباريس وموسكو • لم تكن تلك المفاوضات تقود

---

(10) Nazi Conspiracy And Aggression. Documents produced at the Nuremberg trial, a large selection of which has been published by Messrs. R. W. Barrett and W. E. Jackson at the instigation of the American Chief Counsel for the Prosection, Mr. Rebert H. Jackon, Washington, Vol. III, PP. 581-2.

الى شيء وذلك لان ستالين رغب فى البقاء خارج دائرة الحرب مهما كلفه ذلك من ثمن ، ما لم يضطر الى ذلك ، كما ان الانكليز والفرنسيين فقدوا حرية المناورات السياسية ولم يكن لديهم ما يراهنون عليه • ان كل ما كان الغرب يستطيع تقديمه الى ستالين هو ان على الاخير محاربة هتلر « لاجل الحرية » فى الوقت الذى كان ستالين يحاول « جر البلوطة من النار » عن طريق عقد اتفاق مع هتلر • لقد صرح السفير السوفييتى فى برلين بان :

« ان السياسة السوفيتية تسير دوما فى خط مستقيم • ان الخلافات العقائدية تكاد لم تؤثر فى العلاقات السوفيتية ـ الايطالية ، كما انه من غير المتوقع ن تكون حجر عثرة بالنسبة لالمانيا كذلك • ان روسيا السوفيتية لم تستغل الخلافات الحالية بين المانيا والديمقراطيات الغربية ضد مصلحة المانيا ، ولا رغبة لها فى ذلك وبالنسبة لروسيا ليس هنالك سبب يمنعها من ان تعيش مع المانيا على قدم المساواة •••• وبذلك تتحسن العلاقات شيئا فشيئا بين البلدين »[11] •

« ميثاق ٢٣ آب ١٩٣٩ بين الاتحاد السوفياتى والمانيا »

فى ١٧ نيسان ١٩٣٩ بدأت موسكو بصورة رسمية الاعتراف بضرورة التقارب مع المانيا • وفى ٤ ماس أقيل Litvinov وزير خارجية الاتحاد السوفيتى وبذلك أفهم ستالين المسؤولين الالمان رغبته فى الوصول الى اتفاق مع

---

(11) Nazi-Soviet Relations, 1939-1941 : Documents from the Archives of the German Foreign Office, Deparment of State, Washington, 1948. Report by Weizsaucker on his conversation with Meregaov, the Soviet Anbassador, P. 2.

المانيا • وقد خلف ليتفينوف الرفيق مولوتوف كوزير الخارجية[١٢] الذى بدأ مباحثاته الرسمية مع المانيا فى ٢٠ مايس ، ومن المعروف أن السوفييت هم الذين اقترحوا اتفاق عدم الاعتداء والاتفاق السرى الذى اعتبر جزء لايتجزأ من الاتفاق الاصلى • لقد رحب هتلر بهذه الخطوة الدبلوماسية من موسكو وأخبر قادته العسكريين فى ٢٢ آب ، قبل الهجوم على بولندا ، بان التغيير الذى حصل فى وزارة الخارجية السوفيتية يعتبر أمرا حاسما[١٣] •

وبذلك اصبح من المتوقع بان حل المشكلة البولندية سوف لا يكون عمليا ما لم يحصل التقسيم الرابع وتحترم رغبات موسكو • وفى نفس اليوم كان روبنتروب فى ميلان يوقع مع شيانو ، وزير الخارجية الايطالية ، ميثاق الفولاذ "Pact of Eteel" ، وقد صرح الطرفان بانه يجب ان تقوم جميع المحاولات لمنع روسيا من الانضمام الى الجبهة المعادية للفاشيـــة[١٤] • ان الظروف تمهدت للدخول فى مباحثاته سرية بين موسكو وبرلين بغية الوصول الى اتفاق وفي ١٧ مايس أخبر القائم باعمال السفارة السوفيتية فى برلـين وزير الدولة الالمانى "Schnurre" بانه لا مجال للخوف من صراع مـــع روسيا وأن الوقت قد حان للدخول فى مباحثاته تجارية بين البلدين[١٥] • وبعد ثلاثة أيام كان السفير الالمانى فى موسكو فون شولنبرك يباحث وزير الخرجية السوفيتية الجديد الذى صرح له بان الوصول الى نتائـج اقتصادية للمباحثات يجب ان يكون عن طريق قواعد سياسية رصينة • وقد رحبت برلين بشرط مولوتوف السياسى بقناعة بالغة بالرغم من ان المفاوضيين الروس

---

(12) Litvinov s'resignation as Foreign Minister struck Hitler like a cannon-ball. Raeder Documents, Nazi Conspracy And Aggression. Supplement, A, P. 1012.

(13) Nazi Conspiracy And Aggression, Vol III, P. 585.

(14) The Freuch Yellow Book, London, Hutchinson, 1940; Colondre s'dispath of 7th May, 1939.

(15) Cianos' Diplomatic Papers, P. 286.

طالبوا باعطاء العلاقات السياسية الافضلية فى السبق[16] •

وفى ٣٠ مايس أكد وزير الدولة الالمانى ، الهر Weizsaecker للقائم بالاعمال السوفيتى فى برلين بان المانيا مستعدة للبدأ فى مفاوضات مع الاتحاد السوفيتى ، وفى ٢٥ حزيران قام Astakhov بخطوة حاسمة كانت الاولى التى أدت الى مباحثات أكيدة • فقد أخبر الوزير البلغارى المفوض فى برلين بان الاتحاد السوفيتى يحاول اختيار أحد السبل الثلاثة الآتية :

"The conclusion of the pact with England and a France: a further dilatory treatment of the pact negotiations: or a rappachement with Germany would declare that she would not attack the Soviet Union, or better still, conclude a non-aggression pact with hor, the Soviet Union will probably refrain from concluding a treaty with England."(17)

وفى نفس اليوم قابل المسيو مولوتوف سفراء بريطانية وفرنسا فى موسكو بالاضافة الى المستر Strang المبعوث الخاص لوزارة الخارجية البريطانية الذى كان قد وصل موسكو فى ذلك اليوم • وكانت الحكومة البريطانية قد قررت ، تحت ضغط فرنسا ، ادخال دول البلطيق ضمن مشاريع الضمان[18] •

لقد قبلت المانيا فكرة المفاوضات مع روسيا وأخبر روبنتروب فى ٢٦ حزيران السفير اليابانى فى روما ، "Shiratori" بان المانيا عازمة على التوقيع على حلف عدم الاعتداء مع الاتحاد السوفيتى • كما ان الكونت

---

(16) Nazi-Soviet Relations, P. 6: Von Schuleburgs' Memorandum of 20th May. 1939.

(17) Nazi-Soviet Relations., pp. 20-1. Astakhov raised the question of Bessarabia in the same conversation.

(18) Nazi-Soviet Relations., P. 31. Ribbentrop later confirmed at Nuremberg that "the first move was made by the Russians". See G.M. Gilbert, Nuremberg Diary, London, Eyre and Spottiswoode, 1948, p. 103.

شيانو أبلغ القائم بالاعمال السوفيتى فى روما بمقترحات المانية مبينة على ثلاثة أسس : ١ ـ ان المانيا ستعمل على تحسين العلاقات بين روسيا واليابان ٢ ـ ان المانيا ستوقع ميثاق عدم اعداء مع الاتحـــاد الســوفيتى ، ويحتوى ذلك الميثاق على ضمان لدول البلطيق ، ٣ ـ سيكون هناك اتفاقيات تجارية عـلى نطاق واســـع[١٩] .

وقد أمتاز شهر تموز ١٩٣٩ بالاحداث المهمة . ففى نهاية ذلك الشهر قدمت هيئة اركان الحرب الالمانية تقريرها الى هتلر حول الهجوم على بولندا وقد عين يوم ٢٦ آب موعـدا للبدأ فى العمليات العسكرية . ان نتـــائج هذا القرار بالنسبة الى هتلر كانت تشـــبه الظروف التى تحيط بالضمانات التى قدمتها انـكلترا وفرنسا الى كل من بولندا ورومانيا واليونان . وقـــد اراد هتلر اشراك ستالين عن طريق تحديد موعد لدخول القوات السوفيتية المقاطعات الشرقية لبولندا ، وان كان من المفروض ان يقدم الديكتاتور الالمانى ثمنـاً غاليا المساعدة الروسية . وفى ٣١ من ذلك الشهر اعلن المستر شمبرلن ، رئيس الوزراء البريطانى ، فى مجلس العموم عزم حكومته على ارسال بعثة عسكرية الى موسكو كان غرضها الاول امكانية الحصول على فوائد اكثر من المفاوضات الالمانية . وقد فشلت المباحثات بين موسكو والديمقراطيات الغربية وذلك لان الاتحاد السوفيتى رفض ضمان الدفاع عن سويسرا وهولندا فى نفس الوقت الذى رفضت فيه انـكلترا وفرنسا مشروع السوفييت لتشكيل منظمة دفاعية بين تركيا وبولندا روسيا[٢٠] .

---

(19) This fact was reported by Mr. Shiratori himself a little later in a conversation in Rome with Von Plessen, who incororated the gist of it in a note which he sent to Berlin on september 4th, 1939 (Not Published in Nazi-Soviet Relations).

(20) George Bonnet, "Fun d'une Europe: De Munich a' la guerre", Geneva, Editions du Cheval Aile,' 1948, PP. 403-3.

وقد سارت المفاوضات بين برلين وموسكو على أساس « الدبلوماسية السرية Secret Diplomacy » وكان وزير الدولة الالمانى ، "Schnurre" قد دعى فى ٢٦ من تموز « استاخوف » وبمعيته « باربابين » الى مأدبة عشاء فى فندق برلين ، وقد فعل ذلك بموافقة وزير خارجية الرايخ • وكانت المناقشات صريحة للغاية وقد ذكر استاخوف المتفاوضين بالتعاون الشديد والمصانع المتبادلة فى السياسة الخارجية التى وجدت فى السابق بين المانيا والاتحاد السوفيتى • أما ممثل هتلر فقد عرض على المتفاوضين فكرة امكانية اعادة معاهدة برلين لسنة ١٩٢٦ وأكد على المصالح السياسية المتبادلة بين الطرفين • وأضاف المندوب الالمانى :

« ان مصالح المانيا والاتحاد السوفيتى تتضارب فى جميع المناطق الممتدة من البلطيق البحر الاسود ، كما انهما متشابكتان فى معارضة الرأسمالية »[٢١] •

وقد وافق استاخوف على أن تقارب المصالح الالمانية ـ السوفيتية هى اهم دليل على ضرورة تحسين العلاقات بين البلدين ولكن هذا يحتاج الى وقت تشفى خلاله الجروح التى خلفتها أحلاف معادية للشيوعية العالمية مثل الميثاق الالمانى ـ الايطالى ـ اليابانى وميثاق مؤتمر مونيخ • وقد ظهر من دراسة مناقشات المفاوضات ان الوفد الالمانى كان يريد الاستعجال فى الوصول الى تسوية حول المصالح المتبادلة وفسح المجال ، تدريجيا لمعاهدة يرضاها الطرفان شريطة عدم توقيع الاتحد السوفيتى على أى معاهدة مع الدول الغربية وحذر روسيا بصراحة أن على موسكو ان تختار بين برلين أو لندن • رفض استاخوف الدخول فى مناقشة حول البعثة العسكرية البريطانية وطلب الكلام حول المشاكل الاقليمية فى أوربا الشرقية فاعلن عزم الاتحاد السوفيتى على الاعتراف بميناء الدانزج الالمانى ضمن الرايخ الالمانى ولكنه أشترط على

---

(21) Nazi-Soviet Relations, P. 36.

المانيا تخليها عن اطماعها السابقة فى غاليسيا واليوكرين • وعلى هذا فان تقسيم أوربا الشرقية الذى كان يرجى تقريب الشقة بين الاتحاد السوفيتى والمانيا اصبح حقيقة واقعة • وفى ٢٩ تموز ١٩٣٩ اخبرت وزارة الخارجية السوفييت بان المانيا على استعداد لضمان جميع المصالح السوفيتية فيما يتعلق بالمشكلة البولندية • وقد قابل روبنتروب القائم باعمال السفارة السوفيتية فى برلين يوم ٢ آب وأخبره بان دول البلطيق تتسع لمصالح الطرفين وأن أى عمل استفزازى من جانب بولندا سيؤدى الى أنهيار تلك الدولة فى خلال اسبوع لان المانيا على استعداد للوصول الى اتفاق مع الاتحاد السوفيتى حول مستقبل بولندا •

لقد كان المباحثات والتصريحات السابقة أساسا لميثاق ٢٣ آب والبروتكول السرى الموقع فى نفس اليوم •

ميثاق ٢٣ آب ١٩٣٩ بين الاتحاد السوفيتى والمانيا

فى بداية آب ١٩٣٩ لم تعد قضية المحافظة على السلم بين المانيا والاتحاد السوفيتى أمرا مهما ، بل ظهرت قضية مهمة جدا وهى رغبة الطرفين فى الوصول الى تسوية حول الموقف فى أوربا الشرقية • لقد كان مولوتوف يعلم حق العلم رغبة المانيا فى الوصول الى تسوية بشأن المصالح السوفيتية فى بلاد البلطيق ولكنه كان يرغب فى معرفة عما اذا كانت « دول البلطيق» تشمل ليثوانيا ''Lithuania'' كذلك • أما هتلر فلم يكن يرغب فى التخلى عن هذا القطر وبذلك لم يوصى بوضعه ضمن مناطق النفوذ السوفيتية فى اتفاقية ٢٣ آب • وعلى العموم فد تقدمت المباحثات بنجاح فى كل من برلين وموسكو بصورة مرضية وقد صرح الالمان أن أهدافهم فى بولندا محدودة •

وبعد هذا اصبح مفهوما وحدة الهدف لدى الطرفين ، وقد ذكر لنا الرئيس Benés [٢٢] ان المطاليب السوفيتية قبلت من قبل زعماء النازية في ليلة ٣ـ٤ آب وقد كتب في مذكراته ما يلي :

« لقد اخبرني كل من الجنرال Ingr والكولونيل Moravec بان معلومات قد وصلت من برلين تقول بان مفاوضات واسعة تجرى بين المانيا والاتحاد السوفيتي • لقد أخبرنا في ١٠ آب من قبل نفس الدوائر بتفصيلات مهمة عن تلك المباحثات • لقد جرت مقابلة مهمة بين روبنتروب والقادة العسكريين من أمثال جورنج وكيتل وجودي بالاضافة الى غوبلز وزير الدعاية وكان هتلر على اتصال مباشر مع غرفة الاجتماع • لقد استمر الاجتماع عن ساعة مبكرة من صباح ٤ آب مع هتلر على اتصال مباشر مع المجتمعين • لقد وافق الفوهرر أخيرا وطار رسول خاص الى موسكو يحمل معه قرار المباحثات » •

وفي روما ذعر الكونت شيانو [٢٣] من الاشاعات الدائرة حول احتمال الهجوم على بولندا فطار وزير الخارجية الايطالي الى سالزبرك Salzburg للاجتماع بوزير خارجية الرايخ الذي أفهمه بان المانيا ستعارض أي مساومة وأنها تريد الحرب • لقد كانت تلك الحادثة ضربة قاضية على سياسة الكونت شيانو الخارجية الذي كان قد وقع قبل مدة قصيرة الاتفاق الفولاذي المعروف مع المانيا ، ذلك الاتفاق الذي صرح بان الطرفين سيتجنبان الدخول في مغامرات جديدة لمدة ثلاث سنوات • لقد كان من

(22) Extract published in the Gazette de Lausanne, 14th March, 1948.

(23) Cianos' Diary, 1939-1943, P. 124. Also Ciano Diplomatic Papers, P. 299.

المعلوم أن ايطاليا ليست مستعدة لحرب أوربية ومن المحتمل جدا أن تنقلب الى صراع دولى يشترك فيه العـــالم باكمله • لقد عارض شيانو بشـــدة الدبلوماسية النازية وطلب من زميله الوزير الالمـــانى أن ينشر على الفور بلاغا يذكر فيه ان للباب لا يزال مفتوحا أمام بولندا للدخول فى المفاوضات• أما روبنتروب فقد أودع صاحبه اذناً صاغية وان لـم يتردد فى اعطـــاء التأكيدات حول الموضوع • لقد كان النازيون يعتقدون باستحالة دخول فرنسا وانـكلترا فى الحرب ، وحتى فى حالة انتشار الصراع العسكرى فان المانيا تعتمد على حياد روسيا • وفى اليوم التالى ذهب الـكونت شيانو لمقـابلة هتلر فى Obersalzburg وأكد له عدم استعداد ايطاليا العسكرى للدخول فى أى حرب شاملة وأن ايطاليا ترحب بعقـــد مؤتمر دولى لمناقشة القضيـة البولندية • ومن الطبيعى أن الفوهرر الذى كان يهمد لغزو بولندا رفض هذا العرض ولأنه اعتقد بعدم وجود مجال لمونيخ جديدة • لقد ظهر بان من المستحيل ابعاد روسيا من القضية البولندية وفى خلال المباحثات السابقة لم يتردد الروس ذكر مؤتمر مونيخ والمؤتمرات الدوليـــة الاخرى التى أبعدت عنها موسكو وصرحوا بوضوح أنهم سوف لا يرضون بحالة كهـذه فى المستقبل •

حاول هتلر تقوية معنوية ايطاليا عن طريق وعود تتعلق بامكانية السلاح الجوى النازى حماية الاراضى الايطالية ، وكان يمهد لسحق المقاومة البولندية بسرعة قبل دخول الدول الغربية فى الحرب • ومن الناحية الاستراتيجية كان هتلر يعتمد على خط دفاعه الغربى المسماة بخط Blit z Kreig الذى سيعزل الغرب عن بولندا • ان اى هجوم تقوم به انكلترا أو فرنسـا يجب أن يكون خلال هولندا التى تحترم الدول الغربية حيادها • أمـــا فى الشرق فقد حاول هتلر عزل بولندا من ر وسيا وقد فسر الفوهرر موقفه الى

الـكونت شيانو[٢٤] مؤكدا بان روسيا سوف لا تأتى الى نجدة بولندا لانها كانت تكره بوندا وان العامل الوحيد لارسال بعثة عسكرية بريطانيـــة ـ فرنسية الى موسكو هو انهيار المباحثات السياسية • وكان هتلر يعتقد أن هدف رسيا هو التوسع نحو البلطيق وانها ليست راغبة فى « جر البـــلوطة مـــن النار » لخاطر الدول الغربية •

ارسل مولوتوف فى ١٤ آب معلومات جديدة الى استاخوف أكـدت عزم موسكو للوصول الى اتفاق مع المانيا • لقد سعت روسيا الى عقد حلف عدم الاعتداء مع المانيا وذلك لاعتقادها بان الاخيرة تهددها • وقـــد بدأت روسيا فى ايجاد جو للتقارب بين البلدين ثم طلبت عقد ميثاق عـدم الاعتـداء واخيرا انتاج « البروتوكول الخاص » الذى يحـدد المصـالح السياسيـــة والاقليمية للبلدين فى أوربا الشرقية • وفى ١٧ آب أصر المارشال فورشيلوف "Voroshilov" على تأخير المباحثات العسكرية حتى ٢١ آب وذلك لرغبـــة القادة السوفييت انهاء مناورات عسكرية كانت تدو ر منذ شهر آذار • أكد هتلر على سفيره فى موسكو وجوب الاسراع فى عقـد ميثاق مع الاتحـــاد السوفيتى ودعا أول الامر الى الابتعاد عن الطرق الدبلوماسية المعتادة وقـــد أخبرت سفارة الرايخ فى موسكو وجوب افهـــام الـكرملين بان السياسة الخارجية الالمانية تجتاز مرحلة حاسمة وان وزير الخارجية الالمانية سيطير الى موسكو • لقـــد وقعت الاتفاقيـــة التجالية فى برلـــين فى ليـــلة ١٩ـ٢٠ آب وهـــذا معناه ان الوصول الى اتفاقيـــة سياسية قـــد اصبـــح مضمونا وفى ١٩ آب قدم مولوتوف مسودة ميثاق عدم الاعتداء الى سفير المانيا شولنبرك ، وقد اقترح الروس مهلة أسبوع للتوقيع عليـه • كان هتلر قد حدد يوم ٢٦ آب موعدا للهجوم على بولندا فطار صبره من برودة السوفييت

(24) Ciano Diplomatic Papers. P. 303.

وأرسل رسالة خاصة الى الرفيق ستالين يرجوه فيها استقبال روبنتروب فى ٢٢ آب او ٢٣ آب على الاكثر • وفى جو من القلق والخوف والذعر والاستعداد للحرب وصلت برقية ستالين الى هتلر بالايجاب فى مساء ٢١ آب وقد التفت هتلر الى جماعته بعد ان طوى البرقية ووضعها فى جيبه ، وعلى وجه علت ابتسامة شاحبة ، قائلا « انى املك العالم ••• هنا فى جيبى !! »

وصل روبنتروب مطار موسكو فى ظهر ٢٣ آب وبمعيته رسالة جديدة من هتلر الى ستالين قالت بان جميع مشاكل اوربا الشرقية هى من اختصاص الاتحاد السوفييتى والمانديا وحدهما • وقد بدأت المباحثات فى حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر بين ستالين ومولوتوف من جهة وبين روبنتروب وشولنبرك من جهة أخرى • وعلى الفور طالب ستالين بوجوب اعطاء روسيا موانىء « لاتفيا » على البلطيق وهى Windaw , Libau وبسرعة متناهية خابر وزير الخارجية الالمانية هتلر يطلب الاذن له بالتوقيع على « البروتوكول السرى » لتوزيع مناطق النفوذ ، وقد أجاب هتلر وهو يرمق خريطة البلطيق المعلقة أمامه ••• نعم !• لقد وقع الطرفان ميثاق عدم الاعتداء والبروتوكول السرى فى مساء ٢٣ آب ورفع ستالين كأسه وهو يقول : « انى اعلم عظم حب الشعب الالمانى الفوهور •• ولذلك أحب أن اشرب نخب صحته » • لقد أعلنت نصوص ميثاق عدم الاعتداء على الفور وصرحت الفقرة الرابعة فيه تعهد الطرفان بعدم انضمام اى منهما الى اى مجموعة من القوى المتحالفة ضد أى من الطرفين • وبذلك قطع أى احتمال للعلاقات بين روسيا وفرنسا وانكلترا • وبالاضافة الى ذلك تقرر اعتبار الميثاق ناقد المفعول مباشرة بعد توقيعه ولما كان البروتوكول السرى يعتبر جزء لا يتجزأ من الميثاق فقد أصبح نافذ المفعول أيضا • وبذلك صفى الجو لهتلر للهجوم على بولندا • وقد تقرر أن تكون مدة الميثاق ١٠ سنوات • ولاهمية البروتوكول السرى [٢٥]

(25) A. Rossi, "The German-Russian Alliance: 1939-1941:" London. Chapman And Hall. 1950. PP. 40-1

أدرج نصه بالانكليزية أدناه :ـ

"On the ocassion of the signature of the Non-aggreesion Pact between the German Reich and the Union of the Socialists Republics the undersigned plenipotentiaries of each of the two parties discussed in strictly confidential conversations the question of the boundary of their respective spheres of influence in Eastern Europe. The conversations led to the following conclusions; (1) In the event of a territorial and political arrangement in the areas belonging to the Baltic States (Finland, Estonia, Lathuania), the northern boundary of Lithuania shall represent the boundary of the spheres of influence of Germany and the U.S.S.R. In this connection the interest of Lithuania in the Vilna area is recognised by each party. (2) In the event of a territorial and poltical arrangement of the areas belonging to the Polish State the spheres of influence of Germany and the U.S.S.R. shall be bounded approximately by the line of the rivers Narew, Vistula and San. The question whether the interests of both parties make desirable the maintenance of an independent Polish state and how such a state should be bounded can only be definitely determined in the course of further political devvopments. In any event both Governments will resolve this question by means of a friendly agreement. (3) With regard to South-Eastern Europe attention is called by the Soviet side to its interests in Bessarabia. The German side declares its complete political disinterness in these arcas. (4) This protocol shall be treated by both parties as strictly secret.

For the Government of the German Reich:	Plenipotentiary of the Government of the U.S.S.R.:
V. Ribbentrop	V. Molotov

ان ميثاق عدم الاعتداء كان فى الواقع ميثاق اعتداء على بولندا كما ان الاتفاقيات الالمانية ـ السوفيية فى الفترة آب ـ ايلول ١٩٣٩ كانت تهـدف الى تقسيم اوربا الشرقية • لقد قسمت بولندا بصورة رسمية نتيجة الى ثلاث بروتوكولات : بروتوكول ٢٣ آب الذى اعتمـدت عليـه البروتوكولات الاخرى والذى اعطى ايستونيا ولاتفيا وباسارابيا الى روسيا وبقية بولندا الى المانيا • ثم بروتوكول ٢٨ ايلول الذى اعطيت بموجبه ليثوانيا الى روسيا ثم بروتوكول ١٠ كانون ١٩٤١ الذى اعطت المانيا الى روسيا بموجبـه جزءا

صغيرا من مقاطعة ليتوانيا مقابل بعض المنافع الاقتصادية • ان نصوص هذه البروتوكولات السرية قد اكتشفت وطبعت[٢٦] •

لقد بدأ الهجوم على بولندا فى ١ ايلول ١٩٣٩ نتيجة لخطة عسكرية وكان هتلر يؤمل تحقيقها قبل الوقت المعين • ولـكن المهم هنا هو ان الهجوم لم يكن أمرا غير متوقعا للرفيق ستالين الذى عرف بان التوقيع على ميثاق عدم الاعتداء سيخلق حالة حرب بين المانيا وبولندا • وقد أخبر روبنتروب قضاة محكمة نورمبرغ بان المانيا وروسيا اعتبرتا انه من حقهما استعادة المقاطعات التى خسروها بعـد الحرب العالميـة الاولى • ان جميـع الوثائق العسكرية الالمانية لا تشير الى اشتراك الروس فى وضع خطط الهجوم العسكرية على بولندا • والواقع ان اشاعات دارت حول دخول القوات السوفيتية الاراضى البولندية بعد ٢٧ آب وقد طلبت الحـكومة الالمانية من سفيرها فى موسكو اعلام الـكرملين بوجوب سحب القوات الروسيـة (اذا كانت قـد دخلت بولندا فعلا) وذلك لان التمهيدات السياسية لاشتراك الروس فى العمليات العسكرية لم تكن منتهية بعد[٢٧] • ولـكن اعلان فرنسا وانكلترا الحرب على المانيا فى ٣ ايلول غير موقف الالمان بسرعة فقد أخبر روبنتروب الحكومة السوفيتية بأن تحرك قطعاتها المسلحة داخل بولندا لتحتل المقـاطعات التى اعطيت لها حسب ما جاء فى البروتوكول السرى ٢٣ آب لسـنة ١٩٣٩ • وقد دعت جميع الاحزاب الشيوعية فى اوربا لمناصرة الخطوة السوفيتية بحجة ان احتلال بولندا الشرقية أمرا استراتيجيا اقتضته مشكلة الدفاع عن الحدود السوفيتية • وقد أجاب مولوتوف على رسالة وزارة الخارجية الالمانية بان الاتحاد السوفيتى يوافق على ارسال جيشه الى بولندا ولـكن الفرصة لاتزال مبكرة • وفى مناسبة أخرى صرح وزير الخارجية السوفيتية :ـ

(26) Trials of the Major War Criminals., Vol. IX. P. 345.
(27) Telegram from Berlin, No. 218, 27 August (Nazi-Soviet Relations)

"The Soviet Government had intended to take the occasion of the further advance of German troops to declare that Poland was falling apart and that it was necessary for the Soviet Union, in consequence, to come to the aid of the Ukrainians and the White Russians threatened by Germany. This argument was to make the intervention of the Soviet plausible to the masses and at the same time avoid giving the Soviet Uniion the appearance of an aggressor."(28)

وفى ١٠ ايلول ١٩٣٩ أخبر مولوتوف السفير الالمانى فى موسكو بانه متعجب من سرعة الانتصارات الالمانية فى بولندا وان الاتحـــاد السوفيتى سيرسل جيوشه الى بولندا بعد سقوط العاصمة ، وارشو(٢٩) • وقد حدثت اتصالات بين الاتحاد السوفيتى وحكومة المانيا حول نشر بلاغ مشترك لاعلان دخول الجيش الاحمر الى بولندا •وقد تجاهل الطرفان هذا البلاغ بعدحدوث اختلاف حول صيغته • وفى الساعة السادسة من صباح ١٧ ايلول اخترقت القوات السوفيتية الحدود البولندية ولم تلاقى مقاومة قوية وقد كان الجيش الاحمر قد أبدى ماهرة فائقة فى العمليات الارضية والجوية مما قوى معنوية الزعماء السوفييت(٣٠) •

لقد دعا موسوليني زميله الديكتاتور هتلر الى خلق دولة بولندية صغيرة ينزع سلاحها وتكون حجة لالمانيا للابتعاد عن حرب عالمية شاملة ، ولـــكن موسوليني كان لايدرى أن المانيا لاتستطيع معالجة القضية البولندية بعد الآن دون الرجوع الى آراء موسكو • وكان القائد الالمانى المعروف Von Moltke السفير الالمانى السابق فى وارشو ، يميل الى رأى موسوليني(٣١) •

لقد اصبح ثابتا الآن من دراسة وثائق الحرب ان روسيـــا هاجمت بولندا فى ايلول ١٩٣٩ وذلك بناء على الدعوة الالمانية واحتلوا المقاطعـــات

---

(28) Telegram from Von Schulenburg, 10th September, Nazi-Soviet Relaions, P. 91.

(29) Nazi Soviet Relations, P. 94.

(30) Bulletin periodique de la presse russe, No. 290. P. 20 (Foreign Office. Paris)

(31) A. Rossi, German-Russian Alliance 1939-1941, P. 61.

البولندية نتيجة للتعاون التام مع الحكومة الالمانية والجيش الالمانى ، وأنه لا صحة للادعاء السوفيتى بان الجيش الاحمر دخل تلك المقاطعات للدفاع عنها فى وجه التقدم الالمانى • وقد تركت الحكومة الالمانية ، بناء على ضغط من ستالين ، فكرة لسماح ببقاء دولة بولندية صغيرة مستقلة ، وقد أدى هذا الى أن قام الرايخ الالمانى يخلق ما يعرف بالحكومة العامة لبولندا "Government General of Poland" وقد تقرر مستقبل البلاد فى خلال « تقسيم رابع » •

ان التعاون السياسى بين الاتحاد السوفيتى والمانيا كان متينا بين نهاية آب ١٩٣٩ وصيف ١٩٤٠ وقد بان ذلك التعاون خلال الموقف الذى اتخذته الاحزاب التابعة للشيوعية العالمية • فقد كانت حملات الاخيرة موجهة على الاخص ضد فرنسا وانكلترا • ومن المعروف أن أهم مظاهر التعاون بين الدولتين كانت فى الحقول الآتية : (١) الدعوة الى عقد صلح مستعجل Immediate Peace التى بدأت بصورة رسمية مع اتفاقيات المانيا والاتحاد السوفيتى المؤرخة ٢٨ ايلول ١٩٣٩ • وكان اهم الاحداث فى السياسة الداخلية الاوربية هى الرسالة التى بعث بها الحزب الشيوعى الفرنسى الى الرئيس هيريوت Herriot دعا فيه الى قبول مقترحات هتلر والرضوخ الى مونيخ أخرى • (٢) الاحتجاج السوفيتى ضد الحصار البريطانى • (٣) الضغط السوفيتى على تركيا لعقدها معاهدة لتبادل المساعدة مع انكلترا وفرنسا • (٤) الحملة التى قامت بها الصحافة والحكومة السوفيتية ضد المساعدة التى اقترحها الرئيس روزفلت والمسماة Lend - Lease الى بريطانية • ان « الواقعية » هى العامل الوحيد الذى ساهم فى الصداقة الجديدة بين الاتحاد السوفيتى والمانيا • ولا أدل على ذلك مما قاله هتلر نفسه مستشهدا برأى بسمارك وذلك فى مؤتمر عسكرى عقده مع هيئة اركان حربه فى ٢٣ تشرين الثانى ١٩٣٩ حيث قال : « تتلاشى المواثيق حالما تنتهى الاهداف

التى وضعت من أجلها ... وبالنسبة لروسيا فانها ستحترمها مـــا دامت تعتبرها فى اطار مصالحها » وفى الواقع كان هتلر يكن الاحترام لخصمـــه وصديقه الجديد الرفيق ستالين ويحترمه وموسولينى كعظماء العالم الثلاثة • واذا كان هتلر مدفوعا بصداقته فى ضم موسولينى الى عظماء العالم فانه كان محقا بالنسبة لستالين • وقد عبر هتلر عن أراءه فى ستالين أثناء محادثاتـه مع الاميرال ريدر Reader فى مؤتمر ٢٥ تشرين الثانى ١٩٣٩ وقـال « ما دام ستالين قويا فى روسيا فان من الاكيد ان تبقى روسيـــا متحمسة للميثاق • ان اتجاهاته السياسية قد تتغير على ممر السنين نتيجة تقوية مركزه فى الداخل • ان اهم ما كسبه الالمان من الاتفاقات التى وقعوها مع السوفييت كان فى الناحية الاستراتيجية فى الدرجة الاولى ، فقد كانوا منذ مدة طويلة يؤملون حرية الهجوم على جبهة واحدة • وقد حاول هتلر اقناع موسولينى باهمية هذه النقطة بعد التردد الذى أبـــداه موسولينى وخاصة على أثـر رسالته المؤرخة ٤ كانون الثانى ١٩٤٠ الى هتلر التى حـذر فيهـــا زعيـم الرايخ من الدخول فى السياسة الجديدة • لقد كان القـــادة العسكريين النازيون يعتقدون أن التحالف مع روسيا هو الذى سيضمن الانتصار فى الغرب وأن هتلر مستعد للمخاطرة فى حرب مع الغرب شريطة ان تقف روسيا موقف المحايد الودى • ان حياد روسيا كان عاملا أساسيا فى الانهيار العسكرى السريع لبولندا وكذلك لنجاح الخطة العسكرية الالمانية (خطة Blit z Rieg) لغزو فرنسا ، فى مايس ١٩٤٠ ، ولو لم توجد مثل هذه الاتفاقية مع روسيا لـكان على المانيا ان ترسل خمسين فرقة من جنودها الى الحدود الشرقية بدلا من الفرق السبعة التى كانت تعسكر على الحـــدود الشرقية ايام استمرار الزحف على فرنسا[٣٢] • أما الروس فلم يترددوا فى

(32) Statement by Goering. See D.G. Poole, Light on Nazi Foreign Policy, in Foreign Affairs, October, 1946, P. 17.

التصريح بأهمية موقفهم الحماية بالنسبة للانتصارات الالمانية فى الغرب • وقد حاول الطرفان الاستفادة من الموقف لمصالحهما الخاصة وخاصة فيما يتعلق باستمرار التعاون العسكرى بين البلدين • وقد نظرت الدوائر العسكرية الالمانية فى امكانية الوصول الى برنامج تبادل المساعدة مع الاتحاد السوفيتى ، وكانت الخطط التى وضعتها البحرية الالمانية تشمل شراء الغواصات من روسيا وارسال السفن الحربية الالمانية لتصليحها فى الموانىء الروسية مقابل تزويد الاتحاد السوفيتى بتصاميم الطرادات الالمانية الجديدة النوع من أمثال « بسمارك » • ومن المعروف أن الاتحاد السوفيتى عرض ميناء Murmansk لاستعماله كقاعدة للاسطول الالمانى وقد شكر الالمان ستالين هذا العرض واعتذروا عن قبوله بحجة أنهم بدأوا بوضع تصاميم لاستعماله الموانىء النتروتيجية • كما أن من الواضح أن موسكو طلبت الالمان بتقديم مدافع مضادة للطائرات لحاجة الجيش الاحمر ، وكانت هذه قد اعتبرت بصورة عامة جزءا من المفاوضات الاقتصادية مباشرة بعد اتفاقيات أيلول من قبل بعثة المانية تحت رئاسة Von Ritter • وفى ٦ شباط ١٩٤٠ اعلن الملحق البحرى فى السفارة الالمانية فى موسكو أن الاتحاد السوفيتى يرغب فى السماح للطراد الالمانى « رقم ٤٥ » لاستعمال طريق سيبريا الى الشرق الاقصى وبذلك يبتعد عن عيون البحرية الانكليزية • وفى تشرين الثانى سنة ١٩٤٠ اقتنع الاميرال « ريدر » بان روسيا لاتستطيع الهجوم على المانيا لان الاخيرة تساعدها على اعادة اسطولها الحربى •

ان المنفعة الاولى التى حصل عليها هتلر فى تحالفه مع روسيا كانت استراتيجية ، فقد ساعدته على القتال فى جبهة واحدة • أما المنفعة الثانية فقد كانت فى الميدان الاقتصادى ، حيث تمكنت المانيا التخلص من اى حصار عليها معتمدة على المواد الاولية الروسية • لابل شجعت المانيا الاتحاد السوفيتى

عقد معاهدة تبادل تجارى[٣٣] مع بريطانية تقدم الاخيرة بموجبه كميات من معدن التصدير مقابل الاخشاب الروسية ، ومعنى ذلك سهولة حصول المانيا على التصدير الانكليزى وقد تعهدت روسيا حسب الاتفاقية الجديدة تقديم ٩٠٠ر٠٠٠ طن من النفط الخام و ١٠٠ر٠٠٠ طن من القطن و ٥٠٠ر٠٠٠ من الحديد الخام وكميات من الاخشاب والمنغنيز الى المانيا مقابل منتوجات صناعية • ولما كانت المانيا مشغولة بالحرب فقد تواطئت فى تقديم حصتها من المواد الصناعية الى روسيا حسب الاتفاقيات السابقة مما أدى الى بعض الصعوبات فى العلاقات السوفيتية ـ الالمانية • وقد صرح وزير الخارجية الالمانية فى اجتماع سرى مع موسولينى فى ١١ آذار ١٩٤٠ بان الاتحاد السوفيتى يستعمل احتياطه من الذهب لشراء المواد الاولية للمجهودات العسكرية الالمانية • وقد تعاهد الامريكان والانكليز فى هذه الفترة على توحيد سياستهما التجارية مع روسيا التى طلبوا منها تعهدات بشأن عدم انتقال المواد العادية اليها من تلك البلدين الى المانيا • وقد أدت المساعدات التى قدمتها روسيا للتجارة الالمانية عبر ايران وافغانستان ورومانيا والشرق الاقصى الى اضعاف الحصار الاقتصادى البريطانى على المانيا • وقد وصف وزير الدولة الالمانى « الهر شنور » الموقف بقوله :

"Our sole economic connection with Iran, Afghanistan, Manchukuo, Japan, and also, With South America, is the route Across Russia, which is being used to an increasing extent for German raw material imports."(34)

« تلبد الغيوم »

ان الخلاف بين الاتحاد السوفيتى والمانيا بدأ فى خلال صيف ١٩٤٠، الفترة عدم السماح لروسيا للتوسع فيما وراء دول البلطيق وباسارابيا التى

(33) Schnurres' report 26th Februray, 1940; Nazi Sovite Relations.. PP. 131-3.

(34) Nazi-Soviet Reiations., p. 201 (September, 1940).

مباشرة بعد الانتصار الساحق فى الغرب ، وكان هتلر قـــد قرر فى تلك احتلتها قوات الجيش الاحمر ، ومن ثم منع السوفييت من السيطرة عـــلى البلقان والدردنيل •

ان الغاية الاساسية من عقد التحالف الثلاثى بين المانيا وايطاليا واليابان فى ٢٧ ايلول ١٩٤٠ كانت لعزل بريطانية واضعا فها • لقد كان التحالف قد اعاد توزيع مناطق النفوذ فى كل من اسبانيا وافريقيا واوربا ، وقد اعطيت اوربا وأفريقيا الى المانيا وايطاليا واعترف بالشـــرق الاقصى كمنطقة نفوذ يابانية • لقد ظن روبنتروب أن روسيا سوف لاتتدخل فى أمر هذه التحالف وذلك لعدم مقدرتها على شن حرب ضد المانيا وذلك لوجود الخطر اليابانى على حدودها الشرقية فى آسيا ، والواقع ان بريطانية الضعيفة ظلت تقاوم لعلمها أن هذا التحالف سيقضى على التعاون الروسى ـ الالمانى • لقـد قدم القـائد العـام للاسطول الالمانى[٣٥] الاميرال ريدر ، اقتراحـات مهمـة الى هتلر فى ٢ ايلول ١٩٤٠ ، قبيل التوقيع على الميثاق الثلاثى ، وقد دعت تلك الاقتراحات الى عمليات عسكرية واسعة للاستيلاء على شـرق البحر الابيض المتوسط والشرق الادنى وبذلك يوجه الالمان ضربة قاضية عـــلى الامبراطورية البريطانية • وقد وافق هتلر على فكرة تشجيع روسيا للتقدم جنوبا نحو ايران والهند حتى تجد لها منفذا على المحيط الهندى الذى كان أكثر اهمية من بحر البلطق • وكان الالمان يهدفون من جراء ذلك توجيـه التوسعات الروسية نحو غرب وجنوب غرب آسيا ، حيث المصالح الالمانية ليست متداخلة بصورة مباشرة ، من ثم احتلال وقوع اصطدام مسلح بين روسيا وانكلترا فى تلك الاصقاع • وعندما وصل مولوتوف برلين فى ١٢ تشرين الثانى كانت هناك ثلاثة نقاط للمناقشة : (١) انضمـام روسيـا الى

(35) Fuehrer Conferences on Naval Affairs, 1940, P. 106. See also Raeders' statement at Nnremberg, Trial ot The Major War Criminals, tec., Vol. XIV, PP. 103-5.

التحالف الثلاثى ، (٢) تعيين مناطق النفوذ بين الدول المتعاقدة ، (٣) تعديل اتفاقيات مونترو Montreux(36) [٣٦] • وقد اقترح روبنتروب أن تعطى روسيا جنوب آسيا عبر الخليج العربى والبحر العربى • وقـــد أشترط مولوتوف فى ٢٥ تشرين الثانى ١٩٤٠ أن تعترف المانيا بان مناطق باطوم وباكو ى الاتجاه العام للخليج الفارسى يجب ان تعتبر مناطق نفوذ سوفيتية، وان تعترف المانيا كذلك بحق الاتحاد السوفيتى لتأسيس قواعد برية وبحرية على ضفاف الدردنيل • وقد نصح مولوتوف دعوة تركيا للدخول فى الحلف الثلاثى (الذى يعتبر بعد دخول الاتحاد السوفيتى حلفا رباعيا) واذا وافقت تركيا على هذا الطلب فان استقلالها يجب ضمانه من قبل المانيا وايطاليـــا والاتحاد السوفيتى ، ولـكن اذا ما رفضت تركيا المساهمة فى الحلف فعلى بقية الاتحاد استعمال جميع الوسائل الدبلوماسية والعسرية لاجبارها عـــلى ذلك • وقد اقترح مولوتوف كذلك وجوب سحب القوات الالمانيـة فورا من فنلندا ووجوب اقناع اليابان على التخلى من امتيازاتها من النفط والفحم فى القسم الشمالى من جزيرة سخالين • أما فيما يتعلق باوروبا الشرقية فقد طالب وزير الخارجية السوفيتية بوجوب الاعتراف ببلغاريا ضمن السلامة السوفيتية[٣٧] ومن المعروف ان وزارة الخارجية المانيا تعجبت من مدى اتساع المطامع السوفيتية السابقة وبذلك رفضت الايجابة عـلى اقتراحـات مولوتوف بالرغم من ان الاخير استمر يتصل بالسفارة الالمانية فى موسكو بغية الحصول على جواب • لقد أظهر القادة النازيون عدم استعدادهم لدفع ثمن باهض كهذا مقابل دخول الاتحاد السوفيتى فى الحلف الثلاثى وبذلك اصبح امكانية وقوع حرب بين الاتحاد السوفيتى أمرا متوقعا • ان الخلاف

(36) Nazi-Soviet Relations., pp. 217-25.

(37) Nazi-Soviet Relations., pp. 258-9; and also Ribbentrops' statements at Nuremberg (Trial of The Major War Criminals, etc., Vol. X, P. 314).

بين المانيا الهتلرية وستالين كان فى الواقع خلافا بين الاطماع التوسعية لكل من الطرفين ، وترجع اصول هذا الخلاف الى الصراع الذى نشب بين القيصر الروسى والامبراطور وليم الثانى • كما أن الميثاق الروسى- اليابانى الذى عقد فى ١٣ نيسان ١٩٤١ كان فى الواقعة مساومة وغرضه ابعاد خطر اليابان عن الحدود ايلسوفيتية فى الشرق الاقصى[٣٨] ومن ثم ارغامها على محاربة الاساطيل الامريكية فى المحيط الهادى والانكليزية فى سنغافورة والهند • لقد حاول الاتحاد السوفيتى ارضاء المانيا قدر الامكان ففى ٣ مايس اعترفوا بحكومة ثورة ١٩٤١ فى العراق ضد الانكليز وفى ٦ مايس اعلن ستالين نفسه رئيسا للحكومة السوفيتية وقد حاول ستالين افهام هتلر انه على استعداد لعمل اى شىء حتى يحفظ الصداقة الالمانية • وقد فسر القادة البحرون الالمان[٣٩] هذه الخطوة من جانب ستالين عزم الاخير على تركيز السلطات العليا بيده حتى يتجنت الحرب مع المانيا ، كما أن الملحق البحرى الالمانى فى موسكو لم يتردد باعتبار ستالين محورا للتعاون السوفيتى الالمانى • وفى اليوم التالى دعا فيشسنكى Vyshinsky ممثلى يوغوسلافيا وبلجيكا والنرويج واليونان وطلب اليهم مغادرة موسكو • وقد استمرت المساعدات الاقتصادية السوفيتية للمجهود العسكرى الالمانى وخاصة ارسالهم المقادير المخصصة من مئات الالوف من الاطنان من الحنطة مقدما وقد وعدوا المانيا مقدار خمسة ملايين طن من الحنطة للسنة القادمة • وقد ساعدت السلطات السوفيتية الواردات الالمانية من المطاط الآتى من الشرق الاقصى عبر سيبريا بالاضافة الى ارسال ٩٠٫٠٠٠ طن من النفط الخام فى تلك السنة[٤٠] •

وفى برلين كان هتلر قد سبق له ان توصل الى قرار اعلان الحرب

---

(38) Nazi-Soviet Relations., pp. 335-9.

(39) Nazi Conspiracy And Aggression., Vol. VI, p. 998.

(40) Nazi-Soviet Relations., p. 332.

على الاتحاد السوفيتى قبل عـــدة شهور ، بالرغم من معـــارضة السفـــير شولنبرك ووزير الدولة شنور والمستشار هينـكر لفكرة الحرب مع الاتحاد السوفيتى فى خطابه فى ٤ مايس كما انه أرسل Rudolf Hess فى رحلة غامضة الى انكلترا غايتها التمهيد لفتح باب المفاوضات السرية مع انكلترا • وقد أمر هتلر فى ١٢ حزيران جميع السفن الالمانيـــة وجوب مغادرة الموانىء الروسية وفى ١٥ منه عقد هتلر مؤتمرا عسكريا مهما تقرر فيه القيام بغارات واسعة على الغواصات السوفيتية مباشرة فى خط يسير الى الشمال من بولندا • وقد شعر الروس بحراجة الموقف وقامت مناورات للجيش الاحمر على طول خط لينغراد ، كيف ، أوديسا ، روسيا البيضاء ، موسكو والقرم[٤١] ، ولاجل ابقاء تلك المنـاورات ســـرية طلبت وزارة الخارجية السوفيتية من اعضاء السلك الدبلوماسى الاجنبى عـــدم التجول فى مناطق معينة من البلاد • وبالرغم من المناورات العسكرية كانت التدابير السوفيتية دفاعية فقط ، وقد نقلت المصانع الواقعة على الحدود الغربية الى أماكن شرقية بعيدة • لقد وصلت اشـــاعات الى موسكو مصدرها لنـــدن وواشنطن حول احتمال هجوم المانيا على الاتحاد السوفيتى • وكان الوكيل العام لوزارة الخارجية الامريكية قد اعلم فى كانون الثانى ١٩٤١ السفير الروسى فى واشنطن حول الانباء المتوفرة لدى حكومته بشـأن استعـداد الجيش الالمانى للهجووم على الاتحاد السوفيتى[٤٢] •

وفى الساعات الاولى من يوم ٢٢حزيران ١٩٤١ كانت القوات الالمانية قد عبرت الحدود السوفيتية بينما كان السفير الالمانى فى موسكو يقرأ أمـام

---

(41) D.G. Poole, Foreign Policy., P. 24.

(42) Peace and War: United States Foreign Policy, 1931-1941, Washington, 1942, P. 105; Sumner Welles, The Time For Decision, London, Hamish Hamilton, 1944, P. 251.

مولوتوف قرار اعـــلان الحرب على الاتحـاد السوفيتى • ومـــا ان فرغ شولنبرك من قراءة ذلك القرار حتى رفع مولوتوف رأسه متسائلا ••• هل تعتقد اننا انستحق هذا[٤٣] ؟؟

منذ بداية مايس ١٩٤١ حاولت الحـكومة السوفيتية بمساعى كثيرة لاقناع المانيا بحسن نيتها ورغبتها فى السلم والتعاون مع المانيا فى الحقلـين السياسى والاقتصادى ولـكن منذ بداية الحرب الى الاخير لم تستطع الحكومة السوفيتية الاتصال بالحـكومة الالمانية الى تجنبت اى نوع من المحادثات •

والخلاصة ان الحرب السوفيتية ـ الالمانية كانت نتيجة لقرار المانيا وحدها • وقد عملت حكومة الاتحاد السوفيتى كل ما فى وسعها لتجنب تلك الحرب • كما ان انضمام ستالين فى حزيران ١٩٤١ الى الجبهة الغربية كان نتيجة حتمية لقيام المانيا باستعمال السيف لاتخاذ هذا الموقف ليس لسبب آخـــر •

لقد أضرت السياسة الشخصية التى اتبعها مولوتوف وستالين بشأن المانيا بمصالح الاتحاد السوفيتى السلمية ضررا بالغا • وقد انتقـــد الرفيق خروشوف هذه السياسة نقدا مراً بالرغم من الخدمات والتضحيات التى قدمها كل من الرفيق ستالين والرفيق مولوتوف للاتحاد الســوفيتى • ان السياسة الخارجيةالسوفيتية اليوم تسير على اساس دراسةشاملة من قبلاللجنة المركزية للحزب الشيوعى وليس على اساس شخصى كما حدث فى عهـــد مولوتوف ، وانها تستهدف السلم للشعب السوفيتىوالسلاممع شعوب العالم •

---

(43) G. Gafencu, Prelude to the Russian Campaign, P. 212.

علماء المستنصرية

الاستاذ ناجي معروف
رئيس قسم التاريخ في كلية الآداب

قبل أن نبحث فى علماء المستنصرية لابـد من القول بأن المدرسـة المستنصرية كانت أول جامعة فى العراق ، بل وفى العالم الاسلامى اجمع ، جمعت فيها المذاهب الاسلامية الاربعة فى آن واحد ، كما أشرنا الى ذلك فى مقالنا « مقدمة فى تاريخ المستنصرية وعلمائها »[1] .

ومما لا شك فيه أن جمع المذاهب الفقهية الاربعة ، فى بناية واحدة كالمستنصرية دون غيرها ، يدل دلالة واضحة على حرية الرأى ، والبحث ، وتسامح العلماء فى ذلك العصر . كما تدل على ان المستنصر بالذات كان فوق الميول ، والنزعات ، والاهواء .

ويمكننا ان نلمس هذه الحقائق فى الحرية التى كان يتمتع بها العلماء والفقهاء فى الدراسة والبحث وعند اتباعهم المذهب الذى يريدونه ، مع انهم كانوا خاضعين للحكومة ، والحكومة تؤيدهم ، وتساعدهم ، وتمدهم بكل شىء . وتهيىء لهم كل الامور الضرورية بحيث كانوا مرفهين ، محترمين كحرمـة علماء الغرب اليوم . وقبل ان نبدأ بذكر مشاهير هؤلاء العلماء لابد مـن كلمة موجزة عن المستوى العلمى الذى كانت عليه المستنصرية يومئذ .

ويمكننا ان نؤكد ان هذا المستوى العلمى يتبين لنا من أمرين اثنين :

اولهما : نوعية الطلاب الذين كانوا يقبلون فى هذه الجامعة . وقـد عثرنا على تراجم طائفة كبيرة منهم ساعدتنا الى حد كبير على معرفة المستوى العلمى الذى كان عليه طلاب المستنصرية . وقد كان هؤلاء الطلاب يتخيرون من

---

(١) نشر فى العدد الثالث من هذه المجلة فى حزيران سنة ١٩٥٨

بين الفقها ءالمشهورين ليكونوا طلابا بالمستنصرية أى بعد أن تكون لهم شهرة علمية فى التأليف أو التدريس او غير ذلك •

وثانيهما : المستوى العلمى للشيوخ ، والمدرسين ، والمعيدين : وقد كانوا يتخيرون من بين كبار المدرسين ، والشيوخ فى العراق ، والشام ، ومصر وغيرها من البلاد الاسلامية[٢] ممن حصلوا على اسناد عال ، أو انتهت اليهم رئاسة العلم ، او عرفوا بالبحث والتحري عن الحقائق العلمية فى البلاد التى رحلوا اليها • وبما ألفوا من الكتب القيمة التى ما تزال تعد من المصادر الهامة للثقافة الاسلامية ، عدا ما أتلف منها ، اوضاع فى اثناء الكوارث التى حلت ببغداد عند سقوط الخلافة العباسية فى ٦٥٦هـ • وبوجه خاص عند تدمير تيمورلنك لها مرتين الاولى فى سنة ٧٩٥هـ والثانية فى سنة ٨٠٣هـ •

وحسبنا ان نذكر ـ للدلالة على الجو العلمى الذى امتازت بهالمستنصرية ان بعض المدرسين كانوا ينقلون احيانا من التدريس فى المدارس الاخرى الى الاعادة بها[٣] وان بعض المعيدين فيها كانوا يعينون مدرسين فى غيرها من المدارس • وان خزائن الكتب فى مكتبتها كانوا يتصفون بصفات علمية ممتازة • بل انك تجد حتى بين الفراشين فى هذه المدرسة من كان يجيد نسخ الكتب بقلم نسخ جيد • وسنحاول فى هذا البحث ان نذكر بايجاز تام علماء كل قسم من الاقسام العلمية فى باب خاص ليقف القارىء على صورة صحيحة للاقسام العلمية المختلفة فى هذه الجامعة • وعلى العلماء الذين كان لهم نصيب وافر فى خدمة التراث العربى والثقافة الاسلامية •

---

(٢) كابن الانصارى الحلبى وظهيرالدين النوجاباذى وهما من مدرسى الحنفية بالمستنصرية • وابى الحسن على المغربى • وسراج الدين الشرمساحى ، وعلم الدين الشرمساحى من مدرسى المالكية • وشرف الدين الجيلى مدرس الحنابلة ••• الخ •

(٣) تلخيص مجمع الاداب ج ٤ الورقة ١٥١

الباب الأول
رجال الادارة في المستنصرية

كان يتولى مصالح المستنصرية ناظر[٤] أو والٍ يختار من بين كبار موظفى الدولة • واذا دققنا فى تراجم النظار الذين وقفنا على اخبارهم ظهر لنا ان بين هؤلاء النظار من اشتهر فى الادارة ، والرياسة ، والقضاء ، وولاية الاعمال[٥] كما انه كانت لبعضهم مكانة علمية ممتازة[٦] • ويظهر لنا من دراسة رواتب النظار وجراياتهم أنهم كانوا يتقاضون بقدر ما كان يتقاضاه المدرسون فى المستنصرية من الرواتب والجرايات • وانهم كانوا أرفه حالا من شيوخ دار السنة ، ودار القرآن فى المدرسة نفسها • ولكن مما يؤسف له ألا نرى فيما بين ايدينا من الكتب العربية المخطوطة ، أو المطبوعة ثبتا باسماء رؤساء الادارة والعلم فى المستنصرية ، وجل ما عثرنا عليه اخبار صغيرة ، ونتف متفرقة ، وجدناها فى المخطوطات العربية وفى بعض الكتب التى طبعت حديثا • وبالرغم من البحث الطويل ، والتحرى ، والتنقيب عن هؤلاء النظار ، لم نستطع ان نجد اكثر من ثمانية نظار او ولاة تولوا النظر فى مصالح المستنصرية فى فترات مختلفة من الزمن ، ومشرف واحد • وكاتب ، وخازن •

الفصل الاول ـ النظار او الولاة •

١ ـ القاضى ابو النجيب عبدالرحمن ابن القاضى تاج الدين يحى بن

---

(٤) الحوادث الجامعة ص ٥٩ • والخزرجى فى حوادث سنة ٦٣١ هـ •
(٥) تلخيص مجمع الآداب ج ٤ الورقة ٧٤ و٩٦ من مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق •
(٦) تلخيص مجمع الآداب ج ٤ الورقة ١٨٢ •

ابى القاسم عبدالله بن الفرج بن درع الثغلبى التكريتى المتوفى سنة ٦٤١هـ (١٢٤٣م)[٧]

٢ ـ فخرالدين ابو على الحسين بن نصر اليازرى المتوفى سنة ٦٤١هـ (١٢٤٣)[٨] .

٣ ـ كمال‌الدين الحموى ـ ابو الحسن على بن ابى عسكر بن ابى نصر بن ابراهيم ، نزيل بغداد الحموى ثم البغدادى العارض .[٩] الذى استشهد فى واقعة بغداد سنة ٦٥٦هـ .

٤ ـ على ابن النيار ـ شيخ الشيوخ صدرالدين أبو المظفر وشمس‌الدين على بن محمد ابن النيار وقد ذبح بدار الخلافة سنة ٦٥٦هـ فى واقعة بغداد[١٠] .

٥ ـ عمادالدين النيلي المتوفى بعد سنة ٦٤٦هـ ـ ابو المعالى يحى بن المرتضى بن يوسف النيلى ثم الحلى[١١] .

٦ ـ كمال‌الدين العبادى العقرقوفى ـ ابو الحسن على بن محمود بن مظفر المتوفى سنة ٦٨٥هـ[١٢] .

٧ ـ عزالدين الهاشمى المتوفى بعد سنة ٧١٢هـ ـ أبو الفضل محمد

---

(٧) الوافى للصفدى ج ١٦ الورقة ٢٤٩ من مخطوطة لندن وفيها يرد يحى بن القاسم ويحى بن ابى قاسم . كما يرد الثعلبى . وقد جاءت ترجمته فى الحوادث الجامعة ، وفى الوافى بالوفيات ج ١٦ الرقة ٢٤٩ . وفى تلخيص معجم الالقاب ج ٥ الترجمة ٢٢٥ ذكر لكمال‌الدين ابى بكر أحمد ابن عبدالرحمن بن يحى التكريتى الفقيه المقرىء وهو ابنه كما يبدو . ويرد فى ابن الفوطى (ابن المفرج) فى ج ٥ الترجمة ١٤٠ .

(٨) نسبة الى (يزر) رستاق فى خراسان وقد ذكره ابن الفوطى ج ٤ الورقة ١٨ .

(٩) ابن الفوطى ج ٥ الترجمة ٤٥٦ .

(١٠) وردت ترجمته واخباره فى الحوادث الجامعة . وفى تلخيص معجم الالقاب ج ٥ الترجمة ٣٦٨ وفى الترجمة ٤٨٩ .

(١١) ورد ذكره فى الحوادث الجامعة . وتلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ٩٦ .

(١٢) تلخيص معجم الالقاب ج ٥ الترجمة ٤٦٤ .

بن جلال الدين محمد بن فخر الدين بن عبدالله بن نقيب النقباء مجدالدين بن هبةالله المنصورى الهاشمى المعدل[١٣] •

٨ ـ سنجر البغدادى المتوفى سنة ٧١٥هـ ولى نظر المستنصرية • وكان طبيبا ماهرا •[١٤]

الفصل الثانى : الخزان والمشرفون ، والكتاب •

وكان يرتب مع الناظر مشرف ، وكاتب ، وخازن • وجاء فى الحوادث الجامعة[١٥] ان عبدالله بن ثامر وهو أحد عدول بغداد رتب أول مشرف على أول ناظر فى مصالح المستنصرية وهو القاضى أبو النجيب التكريتى • ورتب معه أبو منصور الفاضل بن محمد كاتبا • وهو من عدول بغداد أيضا • ورتب معهما العدل ابن ابى البدر خازنا • ولم نعرف غير هؤلاء الثلاثة الذين عينوا عند افتاح المستنصرية •

الفصل الثالث : الموظفون الآخرون :

وقد رتب فيها : معمارية ، وعشرة فراشين ، وثلاثة بوابين ، وحمامى ، ومزين وقيّم ، وطباخ ، وغلام ، وخازن الآلات ، وخزنة الديوان ، وغلمان الديوان ، ومزملاتى ، ونفاط • ولم نعرف من بين هؤلاء الا فراشا واحدا هو عبدالله بن سليمان بن خمرتاش وكان فراشا فيها سنة ٦٤٣هـ وكان من النساخين الماهرين بقلم النسخ • وقرر لهؤلاء كلهم جرايات ومشاهرات • قال الخزرجى : كل ذلك اختراع من الواقف رحمة الله عليه[١٦] • وقال أحمد بن عبدالله البغدادى : « وهو أمر لم يسبق اليه »[١٧] •

ورتب المستنصر لجميع ارباب المشاهرات حماما يدخلون اليها متى احتاجوا • وفيها من يقوم بخدمتهم • وشرط ان تضاعف المشاهرات فى شهر رمضان من كل سنة لكل ارباب المشاهرات •

---

(١٣) الحوادث الجامعة وابن الفوطى ج ٤ الورقة ٧٤ •
(١٤) راجع ترجمته فى مدرسى مدرسة الطب المستنصرية •
(١٥) ص : ٥٩ •
(١٦) فى حوادث سنة ٦٣١ هـ •
(١٧) عيون اخبار الاعيان الورقة ١٥٩ من مخطوطة باريس •

الباب الثانى

علماء مدرسه الفقه

ان اهم الاقسام العلمية فى المستنصرية : مدرسة الفقه ، ولا يزال القسم الاعظم منها ماثلا حتى اليوم • وكانت هذه المدرسة فيما مضى تتكون من أربعة ارباع • وقد قسمت هذه الارباع كما جاء فى الحوادث الجامعة بين أهل المذاهب الاربعة « فسلم ربع القبلة الايمن للشافعية • والربع الثانى يسرة القبلة للحنفية • والربع الثالث يمنة الداخل للحنابلة • والربع الرابع يسرة الداخل للمالكية » • أى ان الشافعية اخذوا الربع الجنوبى الغربى المطل على النهر من جهة جامع الآصفية • وهو القسم الواقع فى يمين جامع المستنصرية الذى سيأتى ذكره • وفى هذا الربع مقهى آل المميز • وأخذ الحنفية الربع الجنوبى الشرقى من جهة جامع الخفافين ، وهو القسم الواقع فى يسار جامع المستنصرية ، وهو يطل على النهر كذلك • اما الحنابلة فقد اعطيى لهم الربع الشمالى الغربى المجاور لسوق الهرج من جهة جامع الآصفية • وكان ربع المالكية فى القسم الشمالى الشرقى منها من جهة جامع الخفافين الحالى أى يسرة الداخل من باب المستنصرية الكائن فى الضلع الشمالية منها[١٨] والذى يقع اليوم وسط سوق الهرج الكبير الذى كان يعرف بسوق السلحدار[١٩] •

والجدير بالملاحظة هو أن كل ربع من الارباع المنوه بها كان يتكون من طابقين • وكان فى الطابق الثانى من كل ربع رواق لا يزال كله تقريبا

---

(١٨) لقد استعملنا الجهات بالنسبة للقبلة •

(١٩) سوق الهرج : تعود ملكيته للاوقاف ورقبته لآل مناحيم دانيال من يهود بغداد اعطى لهم فى العهد العثمانى بالمقاطعة بثمن بخس لا يزيد اجار الدكان على ٣٧٥ فلسا فى السنة ! ولا يزال بأيديهم •

فى ربع الحنفية • ونحو نصفه فى كل من ربعى المالكية ، والحنابلة ، غير أن اكثره قد زال فى ربع الشافعية • وفى كل ربع ايضا حجرات عديدة للطلبة فوقها غرف بعددها وسعتها • وهى تبلغ نحو العشرين فى كل قسم من هذه الاقسام • كما ان فى المدرسة بعض الاواوين • ومن هذه الاواوين ايوانان عظيمان لا يزالان حتى اليوم قائمين فى الضلعين الشرقية والغربية• وفى بعضها زخارف آجرية رائعة • ويبلغ ارتفاع الاواوين ارتفاع الطابقين• وعلى باب المدرسة ايوان كبير مزخرف ايضا[١٧] يقع فى وسط الضلع الشمالية • وهو بارتفاع الايوانين المذكورين آنفا وقبالة هذا الباب عقد كبير يشبه تماما الاواوين المنوه بها آنفا • وعلى جانبى هذا العقد عقدان آخران كالعقد المتوسط تماما غير ان سقوف العقود الثلاثة قد زالت • وهذه العقود الثلاثة فى رأينا تكون جامع المدرسة المستنصرية •

---

(٢٠) تمتاز بغداد بزخارفها الآجرية الرائعة وهى زخارف هندسية مجردة ، أو مورقة • كماتشتهرسامراء بزخارفها الجبسية أو الجصية • ويشتهر شمالى العراق بالزخارف الرخامية والخشبية والنحاسية • ويلاحظ ان كثيرا من الزخارف العباسية قد اختفت تحت طبقة من الجص اما لتساقط بعضها • أو لاخفاء التشويه الحاصل من تساقطها • واما لعدم استطاعة البنائين اعادة هذه الزخارف الى ما كانت عليه • ولذلك نجد ان اكثر الزخارف فى المستنصرية قد سترت بطبقة من الجص كما نجد ذلك واضحا فى ايوان المدخل والايوان الغربى والعمودين اللذين على طرفى الباب الرئيس • وبعض الزخارف الكائنة على أبواب الحجرات ، والآواوين ، والحنايا المختلفة فى هذه المدرسة • كما نجد ان كثيرا من الزخارف فى مصلى المدرسة المرجانية التى بنيت بعد سقوط الدولة العباسية فى عهد الدولة الجلايرية قد سترت بالجص أيضا • وقد كشفت عنها مديرية الآثار القديمة العامة سنة ١٩٤٨ م ، عندما نقلت أمانة العاصمة هذا المصلى من محله الاصلى الى مكان قريب منه • وقد اشرنا الى ذلك فى مقال كتبناه سنة ١٩٤٨ م فى جريدة (النداء) العراقية • ويظهر أن هذه الزخارف قد سترت فى زمن العثمانيين للاسباب المارة الذكر أو لاسباب دينية تتصل بتحريم الزخرفة فى المساجد ! فستروها فى مصلى المدرسة المرجانية وفى أيا صوفيا باستنبول حين اتخذوا منها جامعا • وفى الجامع الاموى بدمشق ••• الخ •

ويلاحظ ان ايوان الجامع الاوسط الذى يتوسط الضلع الشمالية من الجامع فى الجهة القبلية المطلة على النهر يقابل ايوان الباب • كما يتقابل الايوانان اللذان على جانبى ايوان الباب مع الايوانين الجانبيين اللذين فى الجامع على أساس التناظر ، لان التناظر من شرائط الفن المعمارى القديم عند المسلمين •

ومما تقدم يعلم ان فى مدرسة الفقه اربعة اواوين متقابلة تشرف على ساحة المدرسة • وهنا تتكون لدينا مشكلة تتلخص فيما يأتى : هل ان هذه الاواوين هى التى ذكر المؤرخون انها كانت للتدريس يجلس فيها مدرسو المذاهب الاربعة لتدريس الفقه ؟ وعلى يمينهم ويسارهم المعيـــدون الذين يعيدون دروسهم على الطلاب • وفى كل ايوان مسجد او قبة خشب صغيرة يجلس فيها المدرس على كرسى عليه البسط كما يقول ابن بطوطة عند زيارته بغداد سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٦م) • اننا نستبعد ان يكون التدريس فى ايوان البـاب لاتخاذه للمرور كمـــا نستبعد ان تجرى التدريسات فى ايوان الجامـــع الاوسط • وربما اتخذ الايوانان الجانبيان اللذان فى الجامع للتدريس اضافة الى الايوانين الشرقى والغربى • وعلى هذا يمكن ان نقرر ان التدريس لم يكن فى اواوين متقابلة أو متصالبة Cruciforme كما يذهب الى ذلك بعض العلماء لأن اواوين المستنصرية لم تكن كأواوين مدرسة السلطان حسن الباقية بمصر حتى اليوم • وتعود المشكلة التى نوهنا بها الى الظهور مرة أخرى عنـــدما نذكر ان التدريس كان فى الاواوين ، اذ أن الاواوين المذكورة لا يمكن ان تكون فيها مساجد نظرا لوجود جامع فى المدرسة نفسها ذكره ثقـــات المؤرخين ، الا اذا اردنا بالمسجد موضع السجود • ومن ناحية أخرى يمكننا ان نذكر ان التدريس فى هذه الاواوين لا يمكن ان يكون الا فى غير فصل الشتاء • هذا علاوة على ان الايوان الواحد لا يكفى لاستيعاب ٦٢ طالباً وهو العدد المقرر لـكل طائفة من الطوائف الاربع • وعلى هذا فاننا نرجح ان التدريس كان يجرى شتاءً فى القاعات الـكبيرة التى لا تزال قائمـــة فى

الضلع الشرقية من المدرسة • وفى الفصول الاخرى كان التدريس يجرى فى الاواوين المذكورة • وفى رأينا ان بعض القاعات الكبيرة كانت محلا لخزائن الكتب وبعضها لتدريس الحديث • وان هذه القاعات ربما كانت الاواوين التى نوه بها المؤرخون • ونستطيع ان نبرهن على ذلك بالسلم الصغير الموجود حتى اليوم فى احدى هذه القاعات ، وهو الذى كان يصعد منه الخليفة المستنصر الى مقصورة اعدت له لسماع محى‌الدين ابن الجوزى الحنبلى • قال ابن رجب فى طبقاته : « كان المستنصر له شباك على ايوان الحنابلة يسمع الدرس منهم دون غيرهم وأثره باق »[١٨] • وتسهيلا للبحث سنقسم هذا الباب الى الفصول التالية :

الفصل الاول : مدرسو الفقه الحنفى •

لم نستطع العثور على اكثر من عشرة من المدرسين للمذهب الحنفى فى اثناء المدة التى استمر فيها التدريس بالمستنصرية أى منذ افتتاحها سنة ٦٣١هـ حتى سنة ١٠٣٠هـ (١٢٣٣م ـ ١٦٢٠م) وهى السنة التى قتل فيها آخر مدرس من مدرسى المستنصرية الذين وصلت أخبارهم الينا وهم كما يلى :ـ

١ ـ عمر الفرغانى ٥٦٢هـ × ١٠ـ٧ـ٦٣٢هـ وقد وردت اخباره فى تاريخ ابن النجار فى الورقة ١١٤ و ١١٩ من مخطوطة باريس وفى الحوادث الجامعة • وفى طبقات النحاة للسيوطى نقلا عن الصفدى • وفى الجواهر المضنية •

٢ ـ احمد ابن الانصارى الحلبى المتوفى بعد سنة ٦٣٧هـ • وترد اخباره فى الحوادث الجامعة ، وفى تلخيص معجم الالقاب لابن الفوطى ج ٤ الورقة ٢٠١ وفى الجواهر المضية •

٣ ـ عبدالرحمن ابن اللمغانى ٥٦٤هـ × ؟ـ٧ـ٦٤٩هـ

---

(١٨) ج ٢ هى : ٢٦٠ •

وترجمته فى الوافى للصفدى ج ١٠٦ كما ورد ذكره فى الحوادث الجامعة والجواهر المضية • وفى البداية والنهاية • وفى عقد الجمان • وذكره ابن الفوطى فى ج ٤ •

٤ ـ ابن الابرى كمال‌الدين البغدادى المتوفى فى ٣ـ٨ـ٦٦٧هـ واخباره فى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ٤٣ و ج ٥ الترجمة ٥٥٤ من حرف الكاف • وفى الحوادث الجامعة وفى الجواهر المضية ج ٢ •

٥ ـ ظهيرالدين البخارى أو النوجاباذى أو النوشاباذى المتوفى بعد سنة ٦٨٣هـ وقد جاء ذكره فى الحوادث الجامعة فى اخبار سنة ٦٨٣هـ وفى ابن الفوطى ج ٥ الترجمة ١١٧٥ • وفوات الوفيات ج ٢ • وفى ابن الفوطى ج ٥ • والجواهر المضية ، وكذلك فى الفوائد البهية •

٦ ـ مظفرالدين ابن الساعاتى ١٠ـ١١ـ٦٥١هـ ـ ٦٩٤هـ وردت ترجمته فى ابن الفوطى ج ٥ الترجمة ١١٧٥ والترجمة ٢١٧ • وفى الجواهر المضية • وفى بروكلمن • وفى الفوائد البهية وطبقات الفقهاء لطاش كبرى زاده •

٧ ـ ابن المحيا العباسى المتوفى ١٢ـ٣ـ٧٠٣هـ اورد ابن الفوطى ترجمة له فى ج ٥ الترجمة ٨٦٨ كما ورد ذكره فى الجواهر المضية ج ٢ •

٨ ـ تاج‌الدين ابن السباك ؟ـ٨ـ٦٦٠هـ أو ٦٦١هـ × ٧٥٠هـ وترجمته فى منتخب المختار • والدور الكامنة ج ٣ • وفى الغرف العلية الورقة ٥٨ وفى تاريخ ابن شهبة الورقة ١٥ • وفى ذيله الورقة ١١٥ • والمنهل الصافى لابن تغرى بردى • والجواهر المضية • وابن الفوطى ج ٥ الترجمة ٢٤٩ • وطبقات القراء للذهبى • وذكره الصفدى فى اعيان العصر واعوان النصر الورقة ١٩٩ •

٩ ـ حيدرة العباسى المتوفى ؟ـ٦ـ٧٦٧هـ وقد جاء ذكره فى الدرر الكامنة ج ١ ، و ج ٣ وفى الحوادث الجامعة • وبغية الوعاة ، والفوائد

البهية • وذيل ابن شهبة الورقة ١٧٩ من مخطوطة باريس • واعيان العصر للصفدى الورقة ١٩٩ •

١٠ ـ غانم البغدادى المتوفى سنة ١٠٣٠هـ

وترجمته فى فذلكة كاتب جلبى ٥١٢ طبع الاستانة سنة ١٢٨٧ وفى مختصر سجل عثمانى • وفى كشف الظنون •

وقد عددنا هذا المدرس الاخير من مدرسى الحنفية ولو لم ينص على ذلك لما هو معروف من شدة ميل العثمانيين الى الحنفية • وهناك مدرس آخر هو ابن الفصيح الكوفى الحنفى المتوفى سنة ٧٥٥هـ وهو بالرغم من كونه قد شغل التلاميذ بالفقه ، وانتهت اليه رئاسة الحنفية ببغداد ، وتصدر للافتاء فى الفقه الحنفى بدمشق الا ان المؤرخين ينصون على انه اقرأ العربية بالمستنصرية ولذلك لم نعده من مدرسى الفقه الحنفى فيها وانما عددناه من شيوخ العربية فيها •

ويظهر لنا من دراسة هؤلاء العلماء ان اخبار مدرسى الحنفية تتسلسل بانتظام نحو ربع قرن أى منذ افتتاح المستنصرية سنة ٦٣١هـ حتى سقوط الخلافة العباسية ببغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) على أيدى المغول • ومنذ ذلك التأريخ تنقطع اخبارهم نحو قرن من الزمن نجد فى آخره اخبار اثنين من المدرسين هما : ابن السباك الحنفى المتوفى حوالى منتصف القرن الثامن الهجرى • وحيدرة العباسى المتوفى سنة ٧٦٧هـ بالرغم من استئناف الدراسة بعد سقوط بغداد بمدة وجيزة ، وبوجه خاص بالمستنصرية حيث تتوافر لدينا اخبار كثير من مدرسى المذاهب الاخرى فيها • وبعد هذين المدرسين تنقطع اخبار علماء الحنفية مرة أخرى نحو قرنين ونصف القرن أى حتى سنة ٩٨٨هـ عندما عين غانم البغدادى للتدريس فيها • وكانت المستنصرية يومئذ أجل المدارس ببغداد كما جاء فى فذلكة كاتب جلبى • وبعد مقتل غانم البغدادى سنة ١٠٣٠هـ لا نقف لمدرسى الحنفية على أثر •

الفصل الثانى : مدرسو الفقه الحنبلى :

لقد استطعنا ان نعثر على ١٥ ترجمة من تراجم مدرسى المذهب الحنبلى فى المستنصرية للمدة الواقعة بين سنة ٦٣١هـ وسنة ٧٧٠هـ • ويتضح لنا من دراسة سير هؤلاء العلماء واحوالهم ان اخبار مدرسى الحنابلة فى المستنصرية تتسلسل بشىء من الانتظام نحو مئة واربعين عاما منذ افتتاح المستنصرية ٦٣١هـ حتى سنة ٧٧٠هـ • وبعد هذا التأريخ تنقطع اخبارهم نهائيا • ويمكننا ان نذكر هؤلاء العلماء كما يلى :

١ ـ محى‌الدين ابن الجوزى ١٧ـ١٢ـ٥٨٠هـ × ؟ـ٢ـ٦٥٦هـ

وترد اخباره فى طبقات ابن رجب ج٢ • وفى تلخيص معجم الالقاب ج ٥ الترجمة ٩٠١ و ٤٤٤ وفى الشذرات ج ٥ • ومختصر ابن الساعى ج ٩ • ودول الاسلام للذهبى ج ٢ • والوافى بالوفيات للصفدى ج ١٦ الورقة ٢١٨ من مخطوطة لندن • وتذكرة الحفاظ للذهبى ج ٤ • وفوات الوفيات ج ١ • ورحلة ابن جبير ، والحوادث الجامعة •

٢ ـ جمال‌الدين ابن الجوزى ٦٠٦هـ + ؟ـ٢ـ٦٥٦هـ

وقد وردت اخباره فى الوافى للصفدى ج ١٦ الورقة ٢٥١ من مخطوطة لندن • وفى الشذرات ج ٥ • والحوادث الجامعة • وفى طبقات ابن رجب ج ٢ •

٣ ـ ابن وضاح الشهراباتى ؟ـ٧ـ٩٥٠هـ أو ٥٩١هـ × ٣ـ٢ـ٦٧٢هـ

وقد ذكره ابن رجب ج ٢ • وابن الفوطى ج ٥ الترجمة ٢٣٩ والحوادث الجامعة • ومنتخب المختار • وكشف الغمة لعلي بن عيسى الاربلى • وبهجة الاسرار •

٤ ـ ابن عكبر الكبرى ٦١٩هـ أو ٦٢٠هـ × ؟ـ٨ـ٦٨١هـ

ذكره الصفدى ج ١٦ الورقة ١٨٢ و ١٨٣ من مخطوطة لندن • وابن رجب ج ٢ • وجاء ذكره فى الحوادث الجامعة ايضا •

٥ ـ نورالدين العبدليانى ١٢ـ٣ـ٥٦٤هـ × ١ـ١٠ـ٦٨٤هـ
وردت اخباره فى منتخب المختار • ونكت الهميان • وفى الوافى للصفدى ج ١٦ الورقة ١٩٢ • وفى طبقات ابن رجب •

٦ ـ شرف‌الدين الجيلى المتوفى بعد سنة ٦٩٠هـ •
وردت له ترجمة موجزة فى طبقات ابن رجب ج ٢ والخزرجى •

٧ ـ ابن الكواز المتوفى بعد سنة ٦٨٧هـ
وله ترجمة مختصرة فى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ٤٧

٨ ـ زين‌الدين العابر المتوفى بعد سنة ٧١٢هـ
وقد جاءت اخباره فى ابن الفوطى ج ٤ الورقة ٤٧ • وفى نكت الهميان • والدرر الكامنة ج ١ و٣ والحوادث الجامعة • والفخرى •

٩ ـ تقى‌الدين الزريرانى ١٢ـ٦ـ٦٦٨هـ × ٢١ـ٥ـ٧٢٩هـ
وردت اخباره فى الشذرات • والدرر الكامنة • وابن رجب ومنتخب المختار • واعيان العصر للصفدى الورقة ٤٩ من مخطوطة باريس •

١٠ ـ ابن الجحيش المتوفى سنة ٧٤٤هـ ذكره ابن رجب • وابن قاضى شهبة فى ذيله الورقة ٥٤ من مخطوطة باريس •

١١ ـ شمس‌الدين البرزبى ؟ـ١٠ـ٦٨١ × ؟ـ١٠ـ٧٣٥هـ
ذكره ابن رجب فى‌طبقاته ج٢ • والصفدى فى وفياته ج١ •وابن‌العماد فى شذراته ج ٦ • وابن حجر فى درره ج ٤ •

١٢ ـ صفى‌الدين بن عبدالحق ١٧ـ٦ـ٦٥٨هـ × ١٥ـ٢ـ٧٣٩هـ
ذكره ابن رجب ج ٢ • وابن رافع • والعسقلانى ج ٢ •وابن‌العماد •

١٣ ـ نجم‌الدين الشيبانى المتوفى ؟ـ٦ـ٧٤٨هـ
ورد ذكره فى طبقات الحنابلة لابن رجب ج ٢ • والدرر الكامنة ج ٢ • كما ذكره ابن شهبة •

١٤ ـ البلالى الاموى ٦٨٥هـ × ٧٥٤هـ

وردت ترجمته فى الدرر الـكامنة ج ٣ •

١٥ ـ شمس‌الدين الشيبانى المتوفى سنة ٧٧٠هـ

ورد ذكره فى طبقات الحنابلة ج ٢ • وفى الضوء اللامع ج٢ و ٧ و ١٠ والدرر الـكامنة ج ٢ و ج ٤ •

الفصل الثالث : مدرسو الفقه المالـكى :

لقد وقفنا على ست تراجم لمدرسى المذهب المالـكى فى المستنصرية ، فى المدة المحصورة بـين سنتى ٦٣١هـ و ٧٣٢هـ • ويظهر للبـاحث فى سيرة هؤلاء المدرسين ان تدريس المذهب المالـكى استمر بانتظام اكثر من قرن ثم لا نجد للمدرسين بعد ذلك اثرا يذكر • ويظهر انه بعد سنة ٧٣٢هـ تولى شرف‌الدين بن عسكر بعد وفاة والده تدريس المالـكية بالمستنصرية ، غير اننا لانعلم الى‌أى وقت استمر فى‌التدريس ! ولا فى أى‌سنة توفى • وبعد هذه الحقبة تنقطع اخبار مدرسى المالـكية انقطاعا تاما • واليك أسماء هؤلاء المدرسين ، وسنى وفاتهم ، والمراجع التى ذكروا فيها :ـ

١ ـ ابو الحسن على المغربى المتوفى بعد سنة ٦٣٣هـ
وقد ورد ذكره فى الحوادث الجامعة •

٢ ـ سراج‌الدين الشرمساحى المتوفى سنة ٦٦٩هـ
وقد جاءت اخباره فى الحوادث الجامعة • وفى منتخب المختار •

٣ ـ علم‌الدين الشرمساحى المتوفى سنة ٦٧٣هـ

وقد جاء ذكره فى الحوادث الجامعة • وفى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ٢٧ •

٤ ـ عزالدين التغلبى المتوفى فى ؟ـ٨ـ٧١٢هـ
ذكره ابن الفوطى فى ج ٤ الورقة ١١ •

٥ ـ شهاب‌الدين بن عسكر ؟ـ١ـ٦٤٤هـ × ٢١ـ١٠ـ٧٣٢هـ

وردت اخباره فى منتخب المختار • والشذرات ج ٦ • والدرر الكامنة ج ٢ • وذكره ابو الفداء ج ٤ • والصفدى ج ١٦ الورقة ٢٣٧ من مخطوطة لندن • وفى عمدة السالك والناسك • وفى اعيان العصر الورقة ٦٦ •

٦ ـ شرف الدين بن عسكر المولود فى ١٠ـ١ـ٦٩٧هـ

جاء ذكره فى الوافى ج ١٦ الورقة ٢٣٧ وفى الدرر الكامنة ج ٢ •

الفصل الرابع : مدرسو الفقه الشافعى :

لم نقف على أخبار أكثر من أحد عشر مدرسا من مدرسى الفقه الشافعى فى المستنصرية فى المدة التى تبتدىء بسنة ٦٣١هـ وتنتهى فى سنة ٧٩٧هـ وبعد هذه السنة لا نجد للشافعية ذكرا فى المستنصرية • ويظهر من دراسة مدرسى الفقه الشافعى ان تدريس المذهب الشافعى استمر بانتظام اكثر من قرن ونصف القرن ثم تنقطع اخبار الشوافع انقطاعا تاما • اما المدرسون فهم :

١ ـ محمد بن فضلان البغدادى ٥٦٨هـ ـ ٦٣١هـ •

وقد ترجم له السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى • وابن شهبة فى الورقة ٩٦ من مخطوطة لندن ، والورقة ٦٣ من مخطوطة باريس نقلا عن ابن النجار ، والذهبى • واقتبس هذه الترجمة عبدالحى الحنبلى فى شذراته • وترجم له ابن الفوطى فى ج ٥ الترجمة ٨٦٤ من تلخيص معجم الالقاب • ووردت اخباره ايضا فى الحوادث الجامعة •

٢ ـ عبدالرحمن بن مقبل الواسطى ٥٧٠هـ × ؟ـ١١ـ٦٣٩هـ

جاء ذكره بايجاز فى الحوادث الجامعة • وترجم له الصفدى فى الوافى ج ١٦ الورقة ٢٤٤ من مخطوطة لندن • والسبكى فى طبقات الشافعية الكبرى الورقة ٢٠٠ من المخطوطة و ص ٧١ ج ٥ من المطبوعة • وقد نقل السبكى هذه الترجمة عن ابن النجار • وترجم له ايضا ابن العماد فى شذراته ج ٥ • والخزرجى فى عسجده • الورقة ١٥٩ •

٣ ـ محمود الزنجابى ٥٧٣هـ × ٦٥٦هـ

ترجمته فى طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ج ٥ وفى طبقات ابن شهبة بباريس الورقة ٧٠ • وبلندن الورقة ٢٦٤ • وقد ذكره صاحب الغرف العلية من بين علماء الحنفية مع انه شافعى المذهب : الورقة ٢٢٥ من مخطوطة لندن • وجاء ذكره فى الحوادث الجامعة • وتجد ترجمته فى عقد الجمان •

٤ ـ عمادالدين الحسنى المرندى أبو ذى الفقار ، ٥٩٦هـ × ؟ـ٨ـ٦٨٠هـ

ورد ذكره فى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ٨٨ • وفى منتخب المختار • وفى الحوادث الجامعة •

٥ ـ ذو الفقار القرشى ؟ـ٢ـ٦٢٣هـ + ٢٧ـ٨ـ٦٨٥هـ

وردت ترجمته فى بغية الوعاة الورقة ٢١٣ من مخطوطة لندن وفى منتخب المختار • والحوادث الجامعة • وتلخيص معجم الالقاب •

٦ ـ ابن ابى العز البصرى المتوفى بعد سنة ٦٨٥هـ

وقد جاء ذكره فى الحوادث الجامعة •

٧ ـ ابو بكر الفاروثى المتوفى سنة ٧٠٦هـ

وترجمته فى الدرر الكامنة ج ٢ • وفى الشذرات ج ٦ • وفى الوافى بالوفيات ج ١٥ الورقة ٩ من مخطوطة لندن • وورد ذكره فى الحوادث الجامعة • وفى طبقات القراء للذهبى الورقة ٢١٧ • وابن الفوطى ج ٥ الترجمة ٧٢٩ ، وطبقات ج ٥ • وفى اعيان العصر الورقة ٤٥

٨ ـ جمال الدين العاقولى اللخمى ١٠ـ٧ـ٦٣٨هـ × ٢٤ـ١٠ـ٧٢٨هـ

وردت ترجمته فى منتخب المختار • وفى الوافى ج ١٦ الورقة ١٤٨ من مخطوطة لندن • وفى طبقات السبكى ، الورقة ١٩٠ • وفى طبقات ابن شهبة بباريس ولندن • وفى تذكرة الحفاظ للذهبى ج ٤ • وفى ذيل دول الاسلام للذهبى ج ٢ • وفى الدرر الكامنة ج ٢ • وفى الشذرات ج ٦ •

وورد ذكره فى الحوادث الجامعة • وفى الفخرى • وفى الاعلام بتاريخ الاسلام لابن شهبة الورقة ١٢٤ من مخطوطة لندن ووردت ترجمتـــه فى منتخب المختار • وذكره الصفدى فى اعيـان العصر الورقة ٤٥ • وذكره أيضـا القاضى شمس الدين العثمانى فى طبقات الفقهاء الورقة ١٥٥ من مخطوطة باريس •

٩ ـ محى الدين ابن العاقولى • ؟ـ١ـ٧٠٤هـ × ١٤ـ٩ـ٧٦٨هـ

لقـد ذكر جميع الذين ترجموا له انه شافعى المذهب كأبيه جمـال الدين الا صاحب الغرف العلية فانه عده من شيوخ الحنفية راجع الورقة ١٤٨ • وراجع المصادر التى كتبت عنه فى ترجمته فى شيوخ دار السنة المستنصرية •

١٠ ـ شمس الدين الحَجْرِي المتوفى بعد سنة ٧٥٥هـ

جاء ذكره فى الدرر الـكامنة ج ٣

١١ ـ غياث الدين العاقولى ؟ـ٧ـ٧٣٣هـ × ؟ـ٢ـ٧٩٧هـ

وردت ترجمته فى الدرر الـكامنة ج ٤ • وفى الشذرات ج ٦ وفى ابن الفرات المجلد التاسع ج ٢ • وفى بغية الوعاة الورقة ٨٣ من مخطوطة لندن • وفى الورقة ١٣٢ من طبقات ابن شهبة مخطوطة باريس • والورقة ١٨١ من مخطوطة لندن • وفى انباء الغمر فى وفيات ســـنة ٧٩٧هـ • وفى السلوك للمقريزى ج ٧ فى حوادث ٧٩٧ •

الفصل الخامس : المعيدون فى مدرسة الفقه على المذاهب الاربعة :

ان المعيدين الذين عثرنا على اخبارهم فى المظان المختلفة لا يزيـد عددهم على ٣٨ معيدا • وكان ينبغى ان نعثر على اضعاف هذا العدد • وبعبارة أخرى كان ينبغى ان نعثر على عدد منهم لا يقل عن اربعة اضعاف عـــدد المدرسين باعتبار انه كان لـكل مدرس أربعة معيدين • على اننا لم نجـد

اربعة معيدين معروفين الا للشيخ تقى الدين الزريرانى كما يذكر ابن رجب • وقد المحنا قبلا الى ان عدد المدرسين الذى عثرنا على اخبارهم قد بلغ ٤٢ مدرسا • وهذا يدل بدون شك على عظم الخسارة التى منيت بها المستنصرية من ورجال العلم فيها • وليس أدل على ذلك من أننا لم نجد بين هؤلاء المعيدين الا ثلاثة معيدين للشافعية وثلاثة من المالكية وأربعة من الحنفية وثلاثة وعشرين من الحنابلة وخمسة معيدين لم تذكر مذاهبهم • ولعل احدهم وهو شمس الاصبهانى كان من معيدى الحنابلة ايضا لانه نقل الى المدرسة البشيرية بدلا من ابن الكواز • وابن الكواز هذا كان من مدرسى الحنابلة كما مر معنا فى بحث مدرسى الحنابلة •

ومما تجدر الاشارة اليه ان هؤلاء المعيدين يتسلسلون بانتظام نحو ١٢٠ سنة اى منذ افتتاح ابواب المستنصرية للتدريس حتى منتصف القرن الثامن الهجرى • ثم تنقطع اخبار المعيدين نحو ثلث القرن نسمع فى نهايته اخباراً عن المعيد ابن نصرالله البغدادى الذى ولي الاعادة بالمستنصرية فى سنة ٧٨٣هـ الى ان رحل الى حلب سنة ٧٨٦هـ فالقاهرة سنة ٧٨٧هـ وظل يتردد الى بغداد بعد ذهابه الى القاهرة •

وبعد هذا التاريخ تنقطع اخبار المعيدين نهائيا بالرغم من استمرار التدريس فيها فترة اخرى من الزمن كما اسلفنا قبلا • ولعل السبب فى ذلك ضياع اخبار المعيدين فى الكتب التى ضاعت • أو أن التدريسات اقتصرت على المدرسين فقط دون المعيدين لاسباب اقتصادية نتجت عن تخريب مستغلات المدرسة التى اوقفت عليها ، يؤيد ذلك ما ذكره ابن شهبة فى منتقى معجم الذهبى عن نقصان واردات المستنصرية • وها نحن اولاء نذكر اسماء هؤلاء المعيدين مع المراجع التى رجعنا اليها لاستقصاء اخبارهم :

١ ـ ابن أبى السعادات ٥٦٨هـ ـ ٢١-٨-٦٤٨هـ

ذكره ابن رجب فى طبقاته ج ٢

٢ ـ سيف‌الدين النهروانى ٥ـ٧ـ٥٦٧هـ أو ٥٦٩هـ × ٧ـ٦ـ٦٤٩هـ

ذكره ابن رجب ج ٢

٣ ـ موفق‌الدين البابصرى المتوفى ٢ـ٨ـ٦٥١هـ

جاء ذكره فى طبقات ابن رجب ج ٢ • وفى الشذرات ج ٥ • وفى تلخيص معجم الالقاب ج ٥ الترجمة ٢٠١٣ من حرف الميم •

٤ ـ نظام‌الدين البندنيجي المتوفى ٦٦٧هـ

وردت اخباره فى الحوادث الجامعة •

٥ ـ علم‌الدين الشرمساحى المتوفى سنة ٦٧٣هـ

راجعه فى مدرسى المالكية •

٦ ـ تقى‌الدين الجورانى المتوفى ؟ـ٧ـ٦٧٦هـ

جاء ذكره فى منتخب المختار •

٧ ـ ابن الصياد المتوفى ؟ـ٧ـ٦٨٥هـ

طبقات الحنابلة ج ٢ • وابن الفوطى ج ٥ الترجمة ٢٠٠٤ • ونكت الهميان •

٨ ـ نورالدين الواسطى المتوفى ؟ـ١١ـ٦٨٧هـ • ورد ذكره فى منتخب المختار •

٩ ـ عزالدين الموصلى ١٢ـ١ـ٦٢٨هـ × ؟ـ١٢ـ٦٩٦هـ :

ذكره ابن رجب ج ٢ : وابن الفوطى ج ٤ الورقة ١١

١٠ ـ ركن‌الدين الكوفى

وقد جاء ذكره فى منتخب المختار بصدد ترجمة عبدالمؤمن بن عبدالحق ولم نجد له ذكرا فى غير هذا المكان •

١١ ـ ابن المجلخ المتوفى سنة ٧٠٠هـ

ورد ذكره فى الشذرات ج ٥ وفى طبقات ابن رجب ٢ ٠وفى تلخيص معجم الالقاب ج ٥ الترجمة ٢٠٦ ٠ وفى الترجمة ١٥٨٣ ٠ وفى الدرر الكامنة ج ٢ ٠

١٢ ـ ابن عبدالمحمود المتوفى فى ١١ـ١٠ـ٧٢٣هـ

ورد ذكره فى الشذرات ج ٦ وفى طبقات الحنابلة ج ٢ وفى الدرر الكامنة ج ٤ ٠

١٣ ـ شافع الجيلى المتوفى فى ١٢ـ١٠ـ٧٤١هـ

ذكره ابن حجر فى الجزء الثانى من درره وابن العماد فى الجزء السادس من شذراته ٠ وابن رجب فى الجزء الثانى من طبقاته ٠

١٤ ـ شهاب الدين الشيرجى ٦٩١هـ × ٧٦٥هـ

جاء ذكره فى الشذرات ج ٦ ٠ وفى الدرر ج ١ ٠ وذكره ابن شهبة فى ذيله فى الورقة ١٧٣ وذكر وفاته فى سنة ٧٦٦هـ ٠

١٥ ـ عمر بن دويرة :

ذكره ابن رجب فى طبقاته ج ٢ وكان قد رآه فى صباه ٠ (ولد ابن رجب فى ٧٣٦هـ وتوفى سنة ٧٩٥هـ) ٠

١٦ ـ سراج الدين الازجى ٦٨٨هـ × ١١ـ١١ـ٧٤٩هـ

ورد ذكره فى الشذرات وفى طبقات الحنابلة ج ٢ وفى ابن شهبة

١٧ ـ جمال الدين القِيْلَوِي المتوفى فى ؟ـ٥ـ٧٦١هـ وهو منسوب الى قِيْلَوَيْه من قرى النيل بالعراق ٠ ورد ذكره فى طبقات الحنابلة ج ٢ ٠

١٨ ـ ابن زريق الكوفى ٠ ذكره ابن الفوطى فى الجزء الرابع من تلخيص معجم الالقاب ٠

١٩ ـ حمزة الضرير المتوفى سنة ٧٦٤هـ

ذكره ابن رجب فى الجزء الثانى من طبقات الحنابلة ٠

٢٠ ـ جمال‌الدين الخضرى المتوفى ؟ـ٩ـ٧٦٥هـ
ورد ذكره فى طبقات ابن رجب ج ٢ •

٢١ ـ قوام‌الدين ابن الجوزى • جاء ذكره فى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ٢٣٨ • وفى منتخب المختار •

٢٢ ـ ابو بكر الدرزى • ذكره ابن الفوطى فى الجزء الرابع من تلخيص معجم الالقاب •

٢٣ ـ ابن الخفاجى المتوفى بعد سنة ٦٥٦هـ
تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ١٧٢ •

٢٤ ـ فخرالدين الطبسى • ذكره ابن الفوطى ج ٤ الورقة ١٦٧ •

٢٥ ـ المحب البغدادى ١٧ـ٧ـ٧٦٥هـ
ورد ذكره فى الضوء اللامع ج ٢ و ٧ و ١٠ • وفى الشذرات • وانباء الغمر • والمنهل الصافى •

٢٦ ـ شمس‌الدين الاصبهانى • ابن الفوطى ج ٤ الورقة ٤٧ •

٢٧ ـ جمال‌الدين البابصرى ٧٠٧هـ × ٧٥٠هـ
طبقات الحنابلة ج ٢ •

٢٨ ـ احمد التماشكى • ابن رجب ج ٢ •

٢٩ ـ ابن عكبر العكبرى ٦١٩هـ أو ٦٢٠هـ × ٥ـ١١ـ٦٨١هـ
راجعه فى مدرسى الحنابلة •

٣٠ ـ مجدالدين ابن الساعاتى التغلبى • ابن الفوطى ج ٥ الترجمة ٤٤٧ •

٣١ ـ كمال‌الدين البغدادى المتوفى سنة ٦٦٧هـ
راجعه فى مدرسى الحنفية •

٣٢ ـ ابن الكسار المتوفى ؟ـ٨ـ٦٩٨هـ وقد اقرأ او اعاد بالمستنصرية •
راجعه فى دار السنة •

٣٣ ـ مظفرالدين ابن الساعاتى المتوفى بعد سنة ٦٨٦هـ
راجعه فى مدرسى الحنفية •

٣٤ ـ فخرالدين الآمدى المتوفى سنة ٦٥٦هـ
تلخيص معجم الالقاب ج٤

٣٥ ـ ابن الكتبى الشافعى المتوفى سنة ٧٥٥هـ
ذكره ابن رجب • وابن رافع •

٣٦ ـ ابن الآدمى المتوفى سنة ٧٤٠هـ ذكره ابن شهبة فى ذيله الورقة ١٠٧ من مخطوطة باريس •

٣٧ ـ ابو محمد البغدادى المتوفى سنة ٧٥٧هـ لقد اقرأ او اعاد بالمستنصرية • راجعه فى دار القرآن المستنصرية •

٣٨ ـ ركن الدين الكوفى • جاء ذكره فى منتخب المختار •

الفصل السادس : طلاب مدرسة الفقه •

يطلق على طلاب مدرسة الفقه كلمة « الفقهاء » فيقال : رتب فقيهاً • أو أثبت فقيهاً أو أثبت فى جملة فقهائها ، أو تفقه فيها • ويظهر ان اطلاق كلمة الفقهاء على الطلاب على هذا الوجه هو باعتبار ما سيكون أى باعتبار ان الطالب سيكون فقيهاً •

وكان عدد الطلاب فى مدرسة الفقه وحدها عند افتتاح المستنصرية ٢٤٨ طالبا • وحيث ان الدراسة فى المستنصرية قد استمرت نحو قرنين على الاقل فقد كان يجب ان يكون بين ايدينا عدد كبير من هؤلاء الفقهاء الذين درسوا فى المستنصرية ، غير أننا مع الاسف الشديد لم نستطع العثور الا عدد يسير جدا منهم لا يزيدون على ٣٦ طالبا فقط • وهذا العدد الضئيل يوضح لنا عظم الخسارة التى منى بها تاريخ التعليم ببغداد بوجه عام وبالمستنصرية بوجه خاص • ولو عثرنا على عدد كبير منهم اذن لاستطعنا معرفة

المستوى العلمى الذى كان عليه طلاب هذه الجامعة ، وما اسداه علماؤهـا من خدمات جليلة للعلم • ومع ذلك فقد تبين لنا من دراستنا لاحوال هؤلاء الفقهاء ما يلى :

١ ـ انهم كانوا يُتَخَيَّرون من المدارس المختلفة ، أو من الذين اشتهروا فى التأليف ، والتصنيف ، والتدريس فيثبتون طلابا فيها •

٢ ـ انهم كانوا يفدون اليها من مختلف المدن العراقية ، أو البـــلاد الاسلامية فنجد بينهم طلابا جاءوا من تكريت ، والمزرفة ، والموصل • ومن الاندلس ، ومصر ، وقونية ، واصفهان ، وخراسان ، ودستجرد ، ونوشاباذ اونوجاباذ •

٣ ـ كما يظهر أن بعضهم كان يسمع فى المستنصرية الحديث ، أو يقرأ بالقرآات المختلفة أو يدرس العربية والعلوم الاخرى على بعض أساتذتها بالاضافة الى دراستهم للفقه •

٤ ـ ونلاحظ ان منهـــم من تولى مشيخة دار القرآن بباب الازج كفخرالدين بن أبى حنيفة البغدادى • أو أصبح مدرسا فيها كذى الفقار القرشى ، ونورالدين العبدليانى • أو تولى الاعادة بهـــا كابن القواس الموصلى ، وفخرالدين الطبسى • او تولى الاعادة بها ثم انتقل الى التدريس فيها كابن عكبر العكبرى • ومنهم من تولى الخطابة أو الامامة فى جامعها او فى الجوامع الاخرى المشهورة • أو اصبحوا من الائمة الفضلاء العارفين بفنون العلم ، والآداب • ومنهم من صار من محاسن الشيوخ علما وعملا • ومنهم من صار من المعدلين فشهد عند قاضى القضاة • أو من العلماء الذين يمنحون الاجازات • ولم ينج بعض مشهوريهم من القتل فى واقعة بغداد • هذا وقد عرفنا من بين هؤلاء الطلاب ٣٦ فقيهاً منهم : فقيهان شافعيان ، وأربعة من المالـكية ، وتسعة من الحنابلة ، واحد منهم لم ينص على أنه حنبلى وانما

اعتبرناه كذلك لأنه دفن بباب حرب حيث مقبرة الحنابلة • وثلاثة عشر من الحنفية : اربعة منهم بالنص ، وثلاثة يظهر انهم سمعوا بالمستنصرية من ابى الحسن الانصارى المدرس بالمستنصرية وواحد نعتقد أنه حنفى المذهب لانه دفن فى مشهد أبى حنيفة • واثنان يظهر أنهما كانا من فقهاء الحنفية لان أساتذتهما فيها كانوا جميعا من الحنفية • وأما كمال الدين النميرى فقد رتب فقيها لطائفة الحنفية • ولم يذكر ابن الفوطى انه رتب فى المستنصرية غير اننا نستطيع ان ندرك ذلك من طريقة تعبيره وفقيه عباسى اسرته حنفية • والفقيه الثالث عشر من قونية ولعله حنفى أيضا • وسبعة فقهاء لم تذكر مذاهبهم • وهناك فقيه ثامن لم يذكر اسمه وانما جاءت ترجمته فى مجمع الآداب غفلا من ذكر اسمه • واليك أسماء هؤلاء الفقهاء وسنى وفياتهم والمصادر التى ذكرتهم أو ترجمت لهم •

١ ـ ابن القصاب المتوفى سنة ٦٥٦هـ
تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ٢٦ •

٢ ـ عزالدين الاصفهانى المتوفى ٦٦١هـ
ابن الفوطى ج ٤ الورقة ١٣ •

٣ ـ نجم الدين خواجه امام المتوفى ٦٧٠هـ
الحوادث الجامعة •

٤ ـ معاوية الموصلى المتوفى ٦٨٣هـ
ابن الفوطى ج ٤ الورقة ٢ •

٥ ـ عفيف الدين الدستجردانى المتوفى ٦٨٤هـ
ابن الفوطى ج ٤ الورقة ٦٦ •

٦ ـ عزالدين القرشى • ابن الفوطى ج ٤ الورقة ١١ •

٧ ـ ابن مزروع ـ ١٠ـ٦٢٥هـ × ٢٣ـ٢ـ٦٩٦هـ
ورد ذكره فى منتخب المختار • وطبقات ابن رجب ج ٢ • وتلخيص معجم الالقاب ج ٥ • والشذرات ج ٥ •والمنهل الصافى •

٨ ـ ابو عمارة البرزبى
ابن الفوطى ج ٤ الورقة ٤٢ •
٩ ـ المجلخ المتوفى سنة ٧٠٠هـ
راجعه فى المعيدين •
١٠ ـ مجدالدين الدامغانى
ابن الفوطى ج ٥ الترجمة ٢٤٩ •
١١ ـ مجدالدين الواسطى
ابن الفوطى ج ٥ الترجمة ٥٧٤ •
١٢ ـ عفيف‌الدين المزرفى المتوفى بعد سنة ٧٠١هـ
ابن الفوطى ج ٤ الورقة ٦٠ •
١٣ ـ ابن محيا العباسى
ابن الفوطى ج ٤ الورقة ٧٤ والدرر الكامنة ج ١ •
١٤ ـ ابن الدوامى
الحوادث الجامعة • وابن الفوطى ج ٥ الترجمة ٤٤٦ •
١٥ ـ مجدالدين المراغى
ابن الفوطى ج ٥ الترجمة ٤١٢ •
١٦ ـ ذو الفقار القرشى • راجعه فى مدرسى الشافعية •
١٧ ـ علاءالدين الكنكرى المتوفى بعد سنة ٧٠٨هـ
ابن الفوطى ج ٤ الورقة ١٢١ •
١٨ ـ فخرالدين العراقى المتوفى سنة ٦٥٠هـ
ابن الفوطى ج ٤ الورقة ١٧٩ •
١٩ ـ ابن البديع التكريتى المتوفى سنة ٦٥٦هـ
ابن الفوطى ج ٤ •
٢٠ ـ ابن أبى حنيفة

ابن الفوطى ج ٤ الورقة ١٩٧ •

٢١ ـ فلك‌الدين الرومى

ابن الفوطى ج ٤ •

٢٢ ـ فخرالدين الطبرى : ابن الفوطى •

٢٣ ـ ابو القاسم على بن بليان الناصرى
٢٤ ـ جمال‌الدين محمد بن احمد الشربتى
٢٥ ـ ابو بكر بن حناء بن محمود بن الرقى
} منتخب المختار فى ترجمة ابى الحسن الانصارى

٢٦ ـ فخرالدين الطبسى • راجعه فى المعيدين •

٢٧ ـ عمادالدين البغدادى

ابن الفوطى ج ٤ الورقة ٩٠ • منتخب المختار •

٢٨ ـ ابن قتلغ التركى

ابن الفوطى ج ٤ الورقة ٢٤٥ •

٢٩ ـ كمال‌الدين النميرى

ابن الفوطى ج ٥ الترجمة ٣٤٦ •

٣٠ ـ كمال‌الدين الربعى

ابن الفوطى ج ٥ الترجمة ٤٩٤ •

٣١ ـ قوام‌الدين السلامى

ابن الفوطى ج ٤ الورقة ٢٤٣ •

٣٢ ـ نورالدين العبدليانى ١٢ـ٣ـ٦٢٤هـ × ١ـ١٠ـ٦٨٤هـ

راجعه فى مدرسى الحنابلة •

٣٣ ـ ابن عكبر العكبرى

راجعه فى مدرسى الحنابلة •

٣٤ ـ مصدق البغدادى ٢٢ـ٩ـ٦٧٧هـ

ابن الفوطى ج ٥ الترجمة ٦٥٥ •

٣٥ ـ صفى الدين عبدالمؤمن بن فاخر الارموى المتوفى ١٨ـ٢ـ٦٩٣هـ الوافى بالوفيات للصفدى الورقة ٢٧٨ من مخطوطة باريس وفوات الوفيات لابن شاكر ج ٢ • والفخرى لابن الطقطقى •

٣٦ ـ فقيه حنفى لم يذكر اسمه توفى سنة ٧١٢هـ

جاءت ترجمته فى ابن الفوطى ج ٤ •

الفصل السابع : نزلاء المستنصرية والمقيمون بها •

يمكننا ان نعتبر بعضهم بمنزلة الطلاب لانهم كانوا يسمعون على بعض علمائها • والبعض الآخر بمنزلة الضيوف كانوا يتيمون بها ردحا من الزمن• ويمكننا ان نذكر منهم •

١ ـ شرف الدين المرسى الاندلسى ٥٧٠هـ × ٦٥٥هـ : طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ •

٢ ـ الوادى آشى نسبة الى وادى آش بالاندلس ٦١٠هـ × ؟ـ٣ـ٦٩٤هـ وقد ذكره الذهبى فى كتابه معرفة القراء الكبار •

٣ ـ مجدالدين الشيرازى : وقد ذكره ابن الفوطى فى ج ٥ الترجمة ٢٢١ •

٣ ـ مجدالدين ابن كاسو : وقد ذكره ابن الفوطى فى ج ٥ الترجمة ٦٤٠ •

٥ ـ فخرالدين بن ابى الفرج وهو أحد المتصرفين المصريين كان يقيم ببغداد فى المستنصرية سنة ٨١١هـ • ويظهر انه هرب من القاهرة الى بغداد خوفا على نفسه • وقد ورد ذكره فى كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى فى حوادث سنة ٨١٨هـ • وانباء الغمر لابن حجر •

الفصل الثامن : المرتبون وهم كمديرى الاقسام الداخلية فى الوقت الحاضر • وهم :ـ

١ ـ فخرالدين البغدادى المتوفى بعد سنة ٧٦٨هـ وكان مرتب الحنفية بالمستنصرية ذكره ابن الفوطى ج ٤ •

٢ ـ كمال‌الدين السَمْرِجى رآه ابن الفوطى عندما قدم الى بغداد وهو مرتب الشافعية بالمستنصرية • وذكره فى ج ٥ الترجمة ٥٨٢ •

٣ ـ ويرد فى ترجمة جمال‌الدين البابصرى المعيد بالمستنصرية اسم الشيخ شمس‌الدين بن محمد بن الشيخ احمد السقا (مربى) الطائفة ومدرس المجاهدية ، ولعله (مرتب) الحنابلة بالمستنصرية •

راجع طبقات الحنابلة ج ٢ ص : ٤٤٥ ـ ٤٤٦ •

الباب الثالث

علماء دار القرآن المستنصرية

لقد استطعنا ان نعثر على عدد ضئيل جدا من شيوخ المقرئين ، ومن علماء القرآآت السبع ، أو العشر الذين ولوا مشيخة دار القرآن المستنصرية لا يتجاوز عددهم الثلاثة • اما الذين اقرأوا بهذه الدار ، دون أن يذكر احد من المؤرخين انهم ولوا مشيختها فهم ثلاثة أيضا • كما أننا لم نجد الا معيدا واحدا • اما الذين قرأوا القرآن فى هذه الدار فلم نعثر على اكثر من ثلاثة طلاب منهم • هذا مع العلم أننا عثرنا على هذا العدد الضئيل من رجال دار القرآن خلال قرن وربع القرن منذ افتتاح المستنصرية حتى منتصف القرن الثامن الهجرى • اذ أن اخبار دار القرآن تنقطع نهائيا بعد هذا التاريخ •

الفصل الاول : شيوخ دار القرآن

١ ـ فخرالدين البعقوبى

ذكره ابن الفوطى فى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ١٧٣ •

٢ ـ ابن المريمى المتوفى ؟ـ٧ـ٦٦٧هـ

ذكره ابن الفوطى فى تلخيص معجم الالقاب ج ٥ الترجمة ٥٢٢ •

٣ ـ ابن الدامغانى المتوفى بعد سنة ٦٨٠هـ

ذكره ابن الفوطى فى تلخيص معجم الالقاب ج ٥ الترجمة ١٢٥٢ •

الفصل الثانى : المقرؤن

١ ـ ابن المحروق الواسطى

جاء ذكره فى الوافى بالوفيات • وفى منتخب المختار • وفى طبقات القراء للذهبى الورقة ٢٠٥ و ٢١٥ •

٢ ـ نجم‌الدين الواسطى ٦٧١هـ × ١٠ أو ١١ـ٧٤٠هـ أو ٧٤١هـ
ذكره الذهبى فى طبقات القراء الورقة ٢١٦ و ٢٣٧ • وابن حجر فى الجزء الثانى من درره • وفى منتخب المختار •

٣ ـ ابو محمد البغدادى المتوفى ؟ـ١ـ٧٥٧هـ
جاء ذكره فى الدرر الكامنة ج ١ • وذيل ابن شهبة الورقة ١٤٠ •

الفصل الثالث : المعيدون

١ ـ ابن سُكينة المتوفى فى ؟ـ١٢ـ٦٥٢هـ
ورد ذكره فى تلخيص معجم الالقاب ج ٥ الترجمة ١٨٥ • وذكره ابن شهبة فى الورقة ١٠٤ من مخطوطة لندن •

الفصل الرابع : الطلاب

١ ـ عبدالمولى الواسطى
جاء ذكره فى منتخب المختار •

٢ ـ عزالدين حسن العسكرى
جاء ذكره فى المنتخب • والدرر ج ٢ •

٣ ـ عزالدين اليمانى الهاشمى ٦٨٠هـ ـ بعد ٧٤٩هـ
جاء ذكره فى الوافى بالوفيات ج ٢٥ الورقة ٣٥٥ •

الباب الرابع

علماء دار السنة المستنصرية

لقد وجدنا اخبار اثنين وعشرين عالما من شيوخ دار الحديث والمسمعين فيها • واخبار أربعة من المعيدين ، وقراء الحديث • واثنين من الطلبة • اما الشيوخ فنصفهم تقريبا من الحنابلة • والنصف الثانى منهم موزعون على المذاهب الاخرى • وأكثرهم لم تذكر مذاهبهم • ومن الغريب أننا لم نجد منهم من ينتمى للمذهب الحنفى • ولعل ذلك راجع الى أن الحنفية لا يهتمون بالحديث اهتمام سائر المذاهب الاخرى به ، أو لعل المصادر التى تشير الى ذلك قد ضاعت فى أثناء الكوارث التى حلت ببغداد • وقد رتبنا رجال الحديث فى دار السنة بحسب تسلسلهم فى مشيخة الحديث وليس بحسب سنى وفاتهم كما فعلنا ذلك مع المدرسين والمعيدين وغيرهم • وذلك فى مدة تزيد على قرن ونصف القرن أى منذ سنة ٦٣١هـ حتى سنة ٧٩٠هـ وهى السنة التى رحل فيها نصرالله البغدادى شيخ المستنصرية الى القاهرة بدعوة من ابنه محب الدين • وتولى بها مشيخة الحديث بمدرسة الملك الظاهر برقوق • ومنذ ذلك التاريخ تنقطع اخبار شيوخ المستنصرية انقطاعا تاما •

ويظهر ان شيوخ دار السنة فى المستنصرية قد حظوا بعناية كبيرة من المؤلفين اكثر من غيرهم من رجال الفقه ، والآداب العربية ، والطب ...الخ• وهذا شأن المؤلفين دوما مع شيوخ الاسماع ، والمسندين ، ورجال الحديث • وهذا يوضح لنا مدى اهتمام الناس بالحديث • فقد رووا أن غياث الدين العاقولى كان شيخ الحديث فى الدنيا • والمزى بدمشق قد انتهت اليه رياسة المحدثين فى الدنيا • ولهذا نجد بين ايدينا تراجم لشيوخ الحديث فيها شىء من التفصيل من جهة • وعدم وجود فترات طويلة خالية منهم من جهة

أخرى ، وذلك منذ افتتاح المستنصرية ، حتى أواخر القرن الثامن الهجرى • ومع هذا فاننا نجد لبعضهم تراجم مقتضبة جدا • وقد اشتهر هؤلاء الشيوخ بالرحلة الى مختلف البلاد الاسلامية لطلب الحديث ، والاجازات من علماء الرجال ، ومن النساء العالمات • كما اشتهروا فى تأليف الكتب الهامة التى تعتبر من المراجع الكبرى فى الحديث والفقه وغيرهما • واليك اسماء هؤلاء الرجال مع المصادر التى ذكروا فيها •

الفصل الاول : شيوخ دار السنة

١ ـ أبو الحسن القطيعى ؟ـ٧ـ٥٤٦هـ × ٤ـ٤ـ٦٣٤هـ

ترجم له ابن رجب فى طبقاته ج ٢ • وابن العماد فى شذراته ج ٥ • والذهبى فى دول الاسلام ج ٢ • وفى طبقات القراء الورقة ٢١٧ • وورد ذكره فى منتخب المختار ولم يرد ذكره فى الحوادث الجامعة بالرغم من كونه أول شيوخ دار السنة بالمستنصرية •

٢ ـ أبو طالب القُبَّيْطِي المتوفى سنة ٦٤١هـ

جاء ذكره فى تذكرة الحفاظ للذهبى ج ٤ ولم يذكره ابن رافع الا عند ذكر العلماء الذين درسوا عليه •

٣ ـ ابن جُزَيْرَة الحَريمى المتوفى سنة ٣ـ٥ـ٦٤٣هـ

ترجم له مؤلف الشذرات ج ٥ نقلا عن ابن نقطة • كما ترجم له ابن الساعى ، وابن رجب • وورد ذكره فى طبقات الحنابلة ج ٢ •

٤ ـ محب الدين ابن النجار ؟ـ١١ـ٥٧٨هـ × ٥ـ٨ـ٦٤٣هـ

ذكره ابن الساعى ، ونقل عنه الذهبى ترجمته فى تذكرة الحفاظ ج ٤ ونقل ابن شهبة عن الذهبى ، وترجم له فى الورقة ١٠٤ من مخطوطة لندن • وترجم له السبكى فى طبقات الشافعية ج ٥ وترجم له ابن العماد فى الشذرات ج ٥ وجاءت اخباره فى الحوادث الجامعة وفى فوات الوفيات ج ٢

٥ ـ أبو اسحق الكاشغرى ٥٥٦هـ × ١١ـ٦ـ٦٤٥هـ

ترجمته فى الشذرات ج ٥ • ويرد ذكره فى منتخب المختار عند ذكره العلماء الذين درسوا عليه •

٦ ـ ابو الحسن الانصارى ١٣ـ١ـ٥٧٧هـ ـ بعد سنة ٦٥٠هـ
ورد ذكره فى منتخب المختار •

٧ ـ ابراهيم بن آزاريق
ورد ذكره فى المجلد الرابع من تلخيص معجم الالقاب الورقة ٦٦ •

٨ ـ ابن أبى الدينة ٢٧ـ١٢ـ٥٨٩هـ × ١٨ـ٧ـ٦٨٠هـ
ترجمته فى تذكرة الحفاظ ج٤ والشذرات ج ٥ ومنتخب المختار نقلا عن الدمياطى وابن الفوطى • وفى معجم الالقاب ج ٥ الترجمة ٣٩٣ •

٩ ـ ابن الفُوَيْرِه أو ابن وَرَّيدة ٥٩٨هـ × ٢٥ـ١١ أو ١٢ـ٦٩٧هـ
ترجمته فى دول الاسلام للذهبى ج ٢ فى حوادث سنة ٦٩٧هـ • وفى الشذرات ج ٥ • وفى منتخب المختار • وفى غاية النهاية • والوافى للصفدى ج١٦ الورقة ٢١١ و ج٥ الورقة ٤٣ من مخطوطة لندن • وابن رجب ج٢ • وتلخيص معجم الالقاب ج ٥ الترجمة ٣٩٣ من حرف الكاف • وطبقات القراء للذهبى الورقة ١٦٠ و١٦١ و٢١٧ و٢١٨ • واعيان العصر الورقة ٦٣ •

١٠ ـ الرشيد السلامى ٢٣ـ١٢ـ٦٢٣هـ × ٩ـ٦ أو ٧ـ٧٠٧هـ
وردت ترجمته فى الدرر الكامنة ج ٤ • وفى منتخب المختار • وورد ذكره فى طبقات القراء للذهبى الورقة ٢١٨ من مخطوطة باريس وفى تلخيص معجم الالقاب لابن الفوطى ج ٤ الورقة ١٦ و ٧٤ من مخطوطة المكتبة الظاهرية و ج ٥ ص ٢٥٩ الترجمة ٥٣٩ و ص ٢٧٦ الترجمة٥٧٦ و ص ٣٩٩ الترجمة ٨٢٤ والحوادث الجامعة • وابن رجب ٢ •

١١ ـ ابن الطبال ـ٢ـ٦٢١هـ + ـ٨ـ٧٠٨هـ

وردت ترجمته فى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ٤ • وفى الدرر الـكامنة ج ١ • وفى الشذرات ج ٦ • وفى منتخب المختار • وفى عقد الجمان • والمنهل الصافى •

١٢ ـ نجم‌الدين البابصرى ٩ـ٥ـ٦٢٨هـ × ٢٢ـ٩ـ٧١٠هـ

وردت ترجمته فى الدرر الـكامنة ج ٢ • وفى الشذرات ج ٦ • وفى منتخب المختار • وفى الوافى بالوفيات ج ١٥ الورقة ٥٣ • واعيان العصر الورقة ٣٣ •

١٣ ـ ابن حَصِين : ذكره ابن رجب ج٢ •وجاء ذكره فى‌الشذرات ج ٦ • والدرر ج ٤ • وفى ذيل ابن شهبة الورقة ١٧٣ •

١٤ـ ابن الخرّاط الدواليبى ١٣ أو ١٤ـ٣ـ٦٣٧هـ أو ٦٣٨هـ + ٢٤ او ٢٥ـ٥ـ٧٢٨هـ

ترجمته فى تذكرة الحفاظ ج ٤• ودول الاسلام ج ٢ • والدرر الكامنة ج٤ • ومنتخب المختار • والشذرات ج٦ • وطبقات ابن رجب ج٢ وفى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ •

١٥ ـ تقى‌الدين الدقوقى ٢٦ـ٥ـ٦٦٣ هـ + ٢٠ـ١ـ٧٣٣ هـ •

ترجمته فى منتخب المختار • والدرر الـكامنة ج ٤ • والشذرات ج ٦ • وفى أبى الفداء • وابن الوردى ٢ : ٣٠١ •

١٦ ـ أبو هاشم الهاشمى ؟ ـ٩ـ٦٦٣ هـ + ؟ ـ٧ـ٧٤٧ هـ

ذكره ابن شهبة • ووردت ترجمته فى الدرر الـكامنة ج٤

١٧ ـ عفيف‌الدين الرصافى : وكان معاصرا لابن الفوطى سمع عليه وذكره فى الجزء الرابع من تلخيص معجم الالقاب الورقة ٤٠ •

١٨ ـ على ابن أبى الجيش ٦ـ٤ـ٩٥٦ هـ + ١٥ـ٢ـ٧٤٢ هـ

ترجمته فى الدرر ج ٣ • وفى منتخب المختار • والحوادث الجامعة•

١٩ ـ ابن السابق ٦٨٠ هـ + ٧٥٨ هـ •
وترجمته فى الدرر الكامنة ج ١ • ويرد ذكره فى طبقات الحنابلة •

٢٠ ـ محى‌الدين ابن العاقولى ؟ـ١ـ٧٠٤ هـ + ١٤ـ٩ـ٧٦٨ هـ
وردت ترجمته فى منتخب المختار • وفى الدر الكامنة ج ٣ • وطبقات ابن شهبة الورقة ١٢٢ من مخطوطة باريس • وفى الاعلام بتاريخ الاسلام لابن شهبة الورقة ١٦٣ من مخطوطة لندن • وفى الغرف العلية فى تراجم متأخرى الحنفية الورقة ١٤٨ من مخطوطة لندن •

٢١ ـ الغزنوى المشرقى المتوفى بعد سنة ٧٨٠هـ
ورد ذكره فى الضوء اللامع ج ٢ و ٧ و ١٠ •

٢٢ ـ نصرالله البغدادى ٨١٢هـ
ذكره ابن الفرات فى ج ١ وجاء ذكره فى الضوء اللامع •

الفصل الثانى : المعيدون والمفيدون وقارئو الحديث بدار السنة المستنصرية •

١ ـ ابن جُزَيْرة الحَرِيْمى المتوفى فى ٢ـ٥ـ٦٤٣هـ
ذكره ابن الفوطى فى‌تلخيص معجم الالقاب ج٥ الترجمة ١٩٧٠ •

٢ ـ عفيف‌الدين الزركشى المتوفى بعد سنة ٦٥٦ هـ
وردت ترجمته فى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ٦٧ •

٣ ـ ابن الكسار ٦٢٦هـ + ؟ـ٧ـ٦٩٨هـ
وردت ترجمته فى طبقات الحنابلة ج ٢ •

٤ ـ أبو بكر البابصرى ؟ـ٦ـ٦٤٠ هـ + ؟ـ٧ـ٧٠٤ هـ
ترجمته فى طبقات ابن رجب ج ٢ •

٥ ـ صفى‌الدين البابصرى ٩ـ١٢ـ٧١٢هـ × ١٧ـ٩ـ٧٤٩هـ
وردت ترجمته فى الشذرات ج٦ والدرر الكامنة ج٢ • وفى

طبقات ابن رجب ج ٢ • وذكره ابن شهبة ايضا •

٦ ـ ابن النيار الاسدى ٦٧٤هـ + ٧٥٩ أو ٧٦٧ هـ

ورد ذكره فى ذيل ابن شهبة الورقة ١٢١ و ١٧٩ من مخطوطة باريس •

الفصل الثالث : طلبة الحديث بدار السنة المستنصرية

١ ـ قطب الدين الرومى المتوفى ؟ـ٢ـ٦٩٥ هـ

ذكره ابن الفوطى فى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ٢٢٣ •

٢ ـ عزالدين النوشاباذى المتوفى بعد سنة ٧٠١هـ

ورد ذكره فى تلخيص معجم الالقاب ج٤ الورقة ١٦ والورقة١٨٨ •

الباب الخامس

علماء مدرسة الطب المستنصرية

كان علم الطب من العلوم التى تدرس بالمستنصرية فى بناية خاصة تقع مقابل المدرسة وهى صُفّة تحت الايوان الذى تكامل سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٥م)• وقد اتخذت هذه الصفة مكانا لتدريس الطب ، ومداواة مرضى المستنصرية •

ومما يؤسف له أننا لم نجد الا أخبارا مقتضبة عن ثلاثة من هؤلاء الاطباء وآخر لازم الطب واعاد بالمستنصرية للشافعية ، وناظر واحد • أما الطلاب الذين كانوا يدرسون الطب عليهم فلم نقف الا على ترجمتين لاثنين منهم فقط •

الفصل الاول : الاطباء

١ ـ شمس الدين ابن الصباغ ٥٧٧ هـ + ؟ـ١ـ٦٧٣ هـ

جاء ذكره فى منتخب المختار • والحوادث الجامعة • والذهبى فى حوادث سنة ٦٨٣هـ

٢ ـ مجدالدين ابن الصباغ المعروف بسنجر المتوفى فى١ـ٨ـ٧١٥ هـ

ورد ذكره فى تلخيص معجم الالقاب ج ٥ الترجمة ٦٤٠ و ٣٤٤ و ج ٤ الورقة ١٢١ •

٣ ـ علاءالدين الاربلى المتوفى بعد سنة ٧١٥هـ

ورد ذكره فى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ١٢١ •

٤ ـ ابن الكتبى الشافعى المتوفى سنة ٧٥٥هـ : ذكره ابن رجب • وابن رافع •

الفصل الثانى : النظار

١ ـ ابن أبى السعادات الدباس المتوفى فى ٢١ـ٨ـ٦٤٨هـ
ذكره ابن رجب فى ج ٢ • راجع ترجمته فى معيدى الحنابلة •

الفصل الثالث : الطلاب

١ ـ مجيرالدين بن كاسو
ورد ذكره فى تلخيص معجم الالقاب ج ٥ الترجمة ٦٤٠ •
٢ ـ كمال‌الدين النميرى
ورد ذكره فى تلخيص معجم الالقاب ج ٥ الترجمة ٣٤٦ •

الباب السادس

علماء مشيخة الادب العربي

يمكننا أن نذكر أن العربية كانت تدرس بالمستنصرية على أيدى علماء مشهورين • ويظهر أن رواق المستنصرية كان يتخذ أحيانا لتدريس الآداب العربية وذلك بعقد المجالس فيه • ويظهر للباحث أنه كان هناك مشيخة للنحو أو العربية وكان لشيوخها من الاهمية ما لشيوخ دار الحديث • فقد كانوا يتمتعون بالحقوق التى يتمتع بهـا شيوخ دار الحديث • ومع عنـاية القوم بالعربية ، واستمرار الدراسة بالمستنصرية مدة طويلة من الزمن، فاننا لم نستطع العثور على أكثر من سبعة علماء درّسوا فيها النحو والآداب العربية • كما عثرنا على معيد واحد بالرغم من ان شروط المستنصرية لم ينص فيها عـلى ترتيب المعيدين فى النحو • ومع ذلك يجوز انه صار فى قسم العربية معيدون أسوة بما كان فى بقية الاقسام العلمية بالمستنصرية ، ولم ينص على ذلك فى شروط مشيخة النحو • كذلك كانت الحال فى دار السنة اذ لم تنص الشروط على وجود المعيدين للحديث ومع ذلك فقد وجدنا معيدين كانوا يعيدون مـا يلقيه شيوخ الحديث على طلابهم من المحدثين • كما أننا وجدنا واحدا ممن سمع بالمستنصرية مقامات شيخ الادب العربى الوزير ابن الصيقل الجزرى • وآخر كان اديبا له عدة مصنفات منها كتاب من الادبيات نحو العشرين مجلدا كان بخطه وقفا بالمستنصرية وهو أبو بكر البخارى المتوفى فى حدود ٦٥٠هـ ولم نعرف علاقته بالمستنصرية •

الفصل الاول : علماء العربية

لقد أقرأ العربية بالمستنصرية ، وتولى مشيخة النحو فيها العلماء الآتى ذكرهـــم :ـ

١ ـ يعقوب الانصارى الخزرجى المتوفى ؟ـ١٢ـ٦٤١هـ

جاءت ترجمته فى طبقات النحاة للسيوطى الورقة ٣٦٢ من مخطوطة لنـــــدن •

٢ ـ عزالدين ابن القواس الموصلى ١٢ـ١ـ٦٢٨هـ + ؟ـ١٢ـ٦٩٦هـ

ذكره ابن الفوطى فى تلخيص معجم الالقاب ج٤ الورقة ١١ • وابن رجب ج ٢ •

٣ ـ هبةالله الذهلى الشهرابانى المتوفى بعد سنة ٦٨٢هـ

ذكره ابن الفوطى فى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ٢٥٣ •

٤ ـ ابن الصيقل الجزرى المتوفى بعد سنة ٦٧٧هـ

ترجمته فى منتخب المختـــار • وتلخيص معجـــم الالقـاب ج ٤ الورقة ١٣٠ •

٥ ـ ابن اياز المتوفى فى ١٣ـ١٢ـ٦٨١هـ

ورد ذكره فى طبقات النحاة فى الورقة ٢٠١ من مخطوطة لنـــدن والحوادث الجامعة • وتلخيص معجم الالقاب ج٤ الورقة ١٩ •

٦ ـ ذو الفقار ٦٢٣هـ × ٦٨٥هـ

وردت ترجمته فى طبقات النحاة فى الورقة ٢١٣ من مخطوطـة لندن • وفى منتخب المختار

٧ ـ ابن الفصيح الـكوفى ٦٨٠هـ أو ٦٧٩هـ + ؟ـ٨ـ٧٥٥هـ

ترجمته فى منتخب المختار • والدرر ج ١ • والجواهر المضية ج ١ وتاج التراجم • والمنهل الصافى • والنجوم الزاهرة • والفوائد البهية • وبغية الوعاة ، والوافى للصفدى ج ١ •

الفصل الثانى : المعيدون

١ ـ فخرالدين الآمدى سنة ٦٥٦هـ
ذكره ابن الفوطى فى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ١٥١ .

الفصل الثالث : طلاب العربية

١ ـ نجم‌الدين البغدادى المتوفى بعد سنة ٦٧٦هـ
ورد ذكره فى منتخب المختار ، وفى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ٩٠ .

الباب السابع

علماء العلوم الاخرى

لقد وصف الاربلى فى كتابه خلاصة الذهب المسبوك[٢٠] المدرسة المستنصرية فقال : « هى مجمع سائر الدين ومذاهب المسلمين ، وعلم الاصول والفروع ، المتفرق منها والمجموع ، وعلم الفرائض ، وأحاديث الرسول ، ومعرفة الحلال والحرام .. » وقد ألمحنا الى أكثر هذه العلوم سواء كانت من الاصول او الفروع وذكرنا علماءها وفقهاءها فى اثناء البحوث التى مرت فى الابواب الستة السابقة من هذا البحث . ويظهر لنا ان علوما أخرى غير التى ذكرناها كانت تدرس بالمستنصرية أيضا وهى كما يذكر الاربلى ، الحساب ، وعلم المساحات ، ومنافع الحيوان . وحفظ قوام الصحة ، وتقويم الأبدان .

ويظهر أنه لم يكن لهذه العلوم اجنحة خاصة لتدريسها كما كان الامر بالنسبة للمبانى الخاصة بمدرسة الفقه ، ودار السنة ، ودار القرآن ، والطب .. كما يظهر أيضا أن هذه ، العلوم كانت كالنحو والادب العربى لم يكن لها مبان خاصة بها . وكان يقوم بتدريسها رياضيون ومدرسون معروفون . غير أن أخبارهم لم تصل الينا .

ومما يؤيد تدريس هذه العلوم أن المستنصر شرط أن يكون بالمستنصرية شيخ فرائض[٢١] يشتغل بعلم الفرائض أى ان يكون فى جملة الفقهاء فيها فرضى عالم بالحساب والفرائض . وكان يعطى فى كل شهر ثلاثة

---

(٢٠) ص ٢١٢ .

(٢١) عيون اخبار الاعيان لاحمد بن عبدالله البغدادى الورقة ١٥٩ من مخطوطة باريس .

عشر قيراطاً وحبة زيادة على مشاهرته •

ولم نعرف من بين الذين اشتغلوا بالحساب والفرائض بالمستنصرية غير قمرالدين الحاسب الذى رتب عند افتتاح المستنصرية مدرسا للحساب والفرائض فيها • وهو الرياضى الوحيد الذى عثرنا له على ترجمة موجزة •

قال ابن الفوطى :[٢٢] ذكره شيخنا تاج‌الدين أبو طالب علي بن انجب ابن الساعى فى كتابه انتاريخ فقال : قمرالدين ابو عبدالله محمد بن على المعروف بالمحل البغدادى الحاسب وقال : كان يعرف بالقمر ، وكان أسود اللون ، تفقه بالمدرسة النظامية ، واشتغل بالحساب والفرائض حتى برع فى ذلك وكان آية فى الذكاء •

ولما فتحت المدرسة المستنصرية رتب مدرس الحساب والفرائض بها • وتوفي فى شعبان سنة ثلاث وأربعين وستمئة • ومع أننا لم نعثر الا على‌ترجمة لفرضى واحد بالمستنصرية ، فاننا نجد أحيانا ذكرا لبعض رجال المستنصرية الذين كانوا ماهرين فى‌فن الرياضيات علما وعملا كهبة الله الذهلى‌الشهرابانى المهندس مدرس النحو بالمستنصرية • وعبدالمؤمن بن عبدالحق مدرس الحنابلة فيها الذى تفرد فى وقته ببغداد فى علم الفرائض والحساب والجبر والمقابلة وكذلك كان تقى‌الدين الزريرانى مدرس الحنابلة بالمستنصرية • وكان الزريرانى على فضله يراجع عبدالمؤمن ويستفيد منه كما يقول ابن رجب[٢٣] •

أما حفظ قوام الصحة وتقويم الابدان فقد عددناها من الامور التى تتصل بالطب ، ومدرسة الطب • وأما منافع الحيوان وعلم المساحات فلم نعثر على ترجمة واحدة للعلماء الذين كانوا يقومون بتدريسها ، ولا لأحد من الطلاب الذين كانوا يتلقون هذه العلوم عليهم أو يسمعونها منهم •

---

(٢٢) تلخيص مجمع الآداب ج ٤ الورقة ٢٣٧ •
(٢٣) طبعات الحنابلة ج ٢ : ٤٣٠ •

الباب الثامن

الساعاتيون

لقد أقام العرب وخلفاء المسلمين وامراؤهم الســـاعات فى المساجد ، والمدارس ، ومعاهد العلم لمعرفة أوقات الصلوات ، وأوقات الصيام والافطار، ولمعرفة ما مضى من النهار او الليل وما بقى منهما • وقد عينوا لها المهندسين للاشراف عليها والعناية بها • ومن هذه الساعات ساعة المستنصرية العجيبة • وقد جاء ذكرها فى خلاصة الذهب المسبوك[٢٤] للاربلى والحوادث الجامعة[٢٥] وآثار البلاد للقزوينى[٢٦] ، والعسجد المسبوك للخزرجى • ومن أشهر الساعاتيين بالمدرسة المستنصرية :ـ

نورالدين الساعاتى ٦٠١هـ × ٦٨٣هـ وكان مشتهرا بالهيئة والنجوم وعمل الساعات •

ورد ذكره فى الحوادث الجامعة • وفى منتخب المختار • وعقدالجمان • وفى كشف الظنون ، وابن الفوطى ج ٥ • وفى الشـــذرات • وجاء فى طبقات الحنفية الورقة ٤٣ من مخطوطة لندن فى صدد ترجمة ابنه أبى العباس أحمد ابن الساعاتى قوله : « أبوه هو الشيخ الذى يعمل الساعات المشهورة على باب المستنصرية ببغداد » •

---

(٢٤) ص ٢١٢ •
(٢٥) ص ٨٢ ـ ٨٤ •
(٢٦) ص ٢١١ طبعة وستنفلد •

الباب التاسع

مكتبة المستنصرية

لقد استطعنا ان نعثر على (١٩) ترجمة من تراجم موظفى خزانة المستنصرية منهم ثلاثة عشر خازناً ، وثلاثة مشرفين وثلاثة من المناولين • كما استطعنا ان نقف على ذكر لستة عشـــر رجلا ممن زارها من الخلفـاء ، والملوك ، والافراد ، والعلماء •

الفصل الاول : الخزان فى دار الـكتب المستنصرية

١ ـ شمس الدين على ابن الـكتبى وهو أول خازن عين للخدمة فى خزانة الـكتب بالمدرسة المستنصرية عندما فتحت فى الخامس من شهر رجب سنة ٦٣١ الهجرية •

ورد ذكره فى الحوادث الجامعة •

٢ ـ عبدالعزيز بن دلف ٥٥١ أو ٥٥٢هـ + ؟ـ٢ـ٦٣٧هـ

وردت ترجمته فى طبقات ابن رجب ج ٢ • والحوادث الجامعة • وابن دقماق الورقة ٤٣ • والوافى بالوفيات للصفدى ج ٩ الورقة ١١ من مخطوطة لندن •

٣ ـ احمد بن عبدالعزيز بن دلف

ورد ذكره فى الحوادث الجامعة فى حوادث ٦٣١هـ •

٤ ـ ابن الحظيرى الـكتبى

ورد ذكره فى التاريخ المجدد لمدينة السلام لابن النجار الورقة ٧٧ من مخطوطة باريس • وابن دقماق فى الورقة ٤٣ والوافى بالوفيات للصفدى ج ٩ الورقة ١١ من مخطوطة لندن •

٥ ـ ابن الساعى

ترجمته فى تذكرة الحفاظ ج ٤ • وفى خلاصة تذهب • ومنتخب المختار • والشذرات ج ٥ • وفى الغرف العلية • وفى معجم الالقاب ج ٤ • وفى طبقات ابن شهبة الورقة ١٠٧ من مخطوطة لندن • وفى كشف الظنون •

٦ ـ محى الدين المخزومى

ذكره ابن الفوطى ج ٥ الرقم ٨٨٠ •

٧ ـ ياقوت المستعصمى المتوفى سنة ٦٩٨هـ

ورد ذكره فى الحوادث الجامعة • والشذرات ج ٥ • وتلخيص معجم الالقاب ج ٤و٥ • ومنتخب المختار • والنجوم الزاهرة • وفى كتاب«الخطاط البغدادى على بن هلال » • والمقريزى ج ٤ •

٨ ـ ابن الفوطى ١٧ـ١ـ٤٢هـ + ٣ـ١ـ٧٢٣هـ

اخباره فى الوافى بالوفيات ج ١٦ الورقة ٢٨٣ من مخطوطة لندن • وفى طبقات الحنابلة ج ٢ • والدرر ج ٢ • والشذرات ج ٦ • وتذكرة الحفاظ ج ٤ • ودول الاسلام ج ٢ • وعقد الجمان • وكشف الظنون • وفى فوات الوفيات ج ١ • والحوادث الجامعة • وتلخيص معجم الالقاب ج ٤ و٥ •

٩ ـ فخرالدين التفتازانى المتوفى بعد سنة ٧٠١هـ

ورد ذكره فى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ١٨٤ •

١٠ ـ سنجر الطبيب راجع ترجمته فى مدرسة الطب المستنصرية وفى النظار •

١١ ـ مجدالدين ابن الساعاتى

راجع ترجمته فى معيدى الحنفية •

١٢ ـ الامير عبدالله بن يوسف

ذكره ابن الفوطى فى تلخيص مجمع الآداب ج ٥ الترجمة ٤٤٧ •

١٣ ـ جمال‌الدين مسافر بن ابراهيم الخالدى

ذكره ابن الفوطى ايضا فى تلخيص معجم الالقاب ج ٥ الترجمة ٤٤٧ •

الفصل الثانى : المشرفون على الخزان

١ ـ على ابن الدباس
ورد ذكره فى الحوادث الجامعة •
٢ ـ محى‌الدين ابن العاقولى
راجع ترجمته فى شيوخ دار السنة المستنصرية •
٣ ـ ابن الفوطى • راجعه فى الفصل الاول من هذا الباب •

الفصل الثالث : المناولون بخزانة الكتب

١ ـ ابراهيم بن حذيفة وهو اول مناول عين للخدمة فيها
ورد ذكره فى الحوادث الجامعة •
٢ ـ محمد الحدادى وهو صاحب ابن الساعى ووصيه
ورد ذكره فى الدرر الكامنة ج ٢ •
٣ ـ عبدالرحيم الحدادى وقد سمع على بعض العلمـــاء المشهورين وأجازه عدد منهم
ورد ذكره فى الدرر الكامنة ج ٢ •

الفصل الرابع : زوار مكتبة المستنصرية منذ افتتاحها حتى أول القرن التاسع الهجرى

١ ـ الخليفة المستنصر بالله العباسى المتوفى سنة ٦٤٠هـ
٢ ـ الخليفة المستعصم بالله العباسى المقتول سنة ٦٥٦هـ
٣ ـ نورالدين بن عمادالدين زنكى : ورد ذكره فى الحوادث الجامعة
٤ ـ السلطان غازان : ورد ذكره فى الدرر ج ٣ • وفى الحوادث الجامعة • ونكت الهميان • والفخرى •
٥ ـ زيد بن على الحسنى : ورد ذكره فى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ٦ و١٠ •

٦ ـ ابو الحارث الحسنى : ورد ذكره فى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ١٠ •

٧ ـ قطب‌الدين الخالدى المتوفى فى سنة ٦٩٨هـ

ورد ذكره فى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ٢٢١ •

٨ ـ قوام‌الدين العكيكى : ورد ذكره فى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ٢٨٤ •

٩ ـ فخرالدين الهشتى الخوارزمى : ورد ذكره فى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ١٩٤ •

١٠ ـ هبةالله الذهلى الشهرابانى : ورد ذكـــره فى تلخيص معجم الالقاب ج ٤ الورقة ٢٥٣ • راجع ترجمته فى‌مدرسى مشيخة الادب‌العربى •

١١ ـ ابو بكر الدرزى : ذكره ابن الفوطى فى ج ٤ الورقة ٢٣٩ •

١٢ ـ علاءالدين الـكنكرى : ذكره ابن الفوطى فى ج٤ الورقة١٢١ •

١٣ ـ كمال‌الدين الخالنجانى : ذكره ابن الفوطى فى ج ٥ •

١٤ ـ كمال‌الدين الايجى ذكره‌ابن الفوطى فى ج ٥ الترجمة٢٨٩ •

١٥ ـ مجدالدين العجلى ٦١٣هـ × ٧٠٤هـ

ذكره ان الفوطى فى ج ٥ الترجمة ٥٢٨ •

الباب العاشر

الائمة والخطباء في جامع المستنصرية

كان جامع المستنصرية فى داخل مدرسة الفقه لان هـــذه المدرسة تتوسط أقسام المدرسة المختلفة ، ولأن عدد طلابها يفوق عدد طلاب الاقسام الاخرى • وكان يصلى فيه اساتذة المستنصرية وطلابها وغـيرهم • وكانت تقام فيه الخطبة ، وصلاة العيدين بالاضافة الى الاوقات الخمسة • وكـــان المستنصر قد اشترط ان يكون بالمستنصرية من كل طائفة امام يصـلى بهم ، وقارىء للسبعة • وداع يدعو • والا يخطب بجامع المستنصرية الا هاشمى عباسى • وقد كنا نتوقع ان نعثر على عدد كبير من الخطباء والائمة ، والقراء ، والداعين فى هذا الجامع • غير اننا لسوء الحظ لم نعثر الا على خطيب واحد ، ونائب واحد كان يخطب نيابة عنه • كما عثرنا على ثلاثة من الائمة ، وواعظ واحد كان يعقد مجالس الوعظ بالمستنصرية •

الفصل الاول : الخطباء

١ ـ ابن المحيا العباسى : راجع ترجمته فى مدرسى الحنفية •

٢ ـ مظفرالدين ابن الساعاتى : راجع ترجمته فى مدرسى الحنفية •

الفصل الثانى : الأئمة

١ ـ عزالدين العسكرى : ورد ذكره فى منتخب المختار •

٢ ـ عزالدين اليمانى الهـــاشمى : ورد ذكـــره فى الوافى ج ٢٥ الورقة ٣٥٥ •

٣ ـ ابن ابى السعادات الدباس : راجع ترجمته فى المعيدين •

الفصل الثالث : الوعاظ

١ ـ كهف‌الدين الخوزى : ذكره ابن الفوطى ج ٥ الترجمة ٦٣٨ •

الملحق الاول

أ ـ العلماء الذين تطاولوا للتدريس بالمستنصرية

١ ـ شمس‌الدين بن رمضان : ذكر ابن رجب[٢٧] ان شمس‌الدين ابن رمضان المرتب الفقيه الاصولى المعيد بالبشيرية تطاول فى زمن الزيرانى للتدريس بالمستنصرية •

٢ ـ عبدالمؤمن بن عبدالحق

وذكر ابن رجب ايضا : ان صفى‌الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق نهى اصحابه عن السعى له فى تدريس المستنصرية ، ولم يتعرض لها مع تمكنه من ذلك • ويظهر انه ولي التدريس بها بعد ذلك كما يذكر ابن رافع • هذا مع العلم ان المؤرخين الآخرين لم يذكروا ان عبدالمؤمن درس بالمستنصرية •[٢٨]

ب ـ العلماء الذين امتنعوا عن التدريس بالمستنصرية

١ ـ ابن الصباغ الأسدى المتوفى ٧٢٧هـ

صالح بن عبدالله بن جعفر بن على بن صالح الأسدى الكوفى الحنفى أبو التقي بن ابى محمد الفقيه النحوى الملقب محى‌الدين ابن الشيخ تقى‌الدين المعروف بابن الصباغ • عالم الكوفة ، وفاضلها ، وامامها فى زمانه • انتهت اليه رئاسة الحنفية بها •

عرض عليه تدريس المستنصرية فامتنع وتعفف • ولعل ذلك كان بسبب المعاليم التى كانت تدفع للمدرسين مقابل تدريسهم اذ أنهم كانوا يرون الا يؤخذ

---

(٢٧) طبقات الحنابلة ج ٢ ص ٤٣١ •
(٢٨) راجع ترجمته فى مدرسى الحنابلة •

معلوم أو مرتب على التدريس لأن ذلك ينقص من قيمة العلم ، ويحط من قدره .(٢٩)

ح ـ علماء المستنصرية الذين انعم عليهم بملابس الفتوة

١ ـ عبدالله الشرمساحى مدرس المالكية بالمستنصرية حضر سنة ٦٣٤هـ بالبدرية عند اقبال الشرابى فأنعم عليه بلباس الفتوة نيابة ووكالة عن المستنصر .(٣٠)

---

(٢٩) راجع الغرف العلية ، والدرر الكامنة ج ٢ ، والمنهل الصافى ، ومنتخب المختار .

(٣٠) الحوادث ٩٠ ، ٩١ .

الملحق الثانى

آ ـ مجالس المظالم بالمستنصرية

ذكر ابن رجب ان مجلسا للمظالم عقد بالمستنصرية • حضر فيـــه الاعيان • وتكلم فيه الجماعة فبرز عليهم بالبحث الشيخ نورالدن العبدليانى مدرس المستنصرية •

ب ـ الولائم فى المستنصرية

وكانت المستنصرية بالاضافة الى ما تقدم الجامعة العراقية الـكبرى التى كان العباسيون ومن جاء بعدهم يفخرون بها •وكانوا يحاولون انيطلعوا عليها كل قادم الى بغداد كما كان مشاهير القادمين الى بغداد يسألون الحـكومة ان يؤذن لهم بالحضور الى المستنصرية • وممن اقيمت لهم الولائم فيها :ـ

١ ـ الملك الناصر ناصر الدينالايوبى وقد سأل مدة اقامته ببغداد ان يحضر المدرسة المستنصرية فأمر الخليفة بعملدعوة ، واحضارفقهاء المدارس ، ثم حضر ناصرالدين فجلس على طرف ايوانها الشمالى ، ووقف مماليـكه واصحابه فى ربعى المالـكية والحنفية ، وانشد جماعة من الفقهاء قصائد • ثم قدم المشروب ، وبعده أنواع الاطعمة فتناول ناصرالدين من ذلك بعد أن قبل الارض مرارا • فلما فرغوا من ذلك انصرف الى داره[٣١] •

٢ ـ الامير ركنالدين اسماعيل بن بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل • وفى مدة اقامته ببغداد سنة ٦٣٣هـ عملت له عدة دعوات منها دعوة بالمستنصرية وقد حضر فيها وجلس على ايوانها • وقرأ القراء ، وذكر المدرسون الدروس

---

(٣١) الحوادث الجامعة : ٧٧ •

ثم طيف به فى رواقها •

٣ ـ وممن زارها بعد سقوط الدولة العباسية ببغـــداد « هولاكو » ويذكر ابن الطِقْطَقْى ان هولاكو أمر ان يستفتى العلمـاء : ايمـا افضل السلطان الـكافرَ العـادل أم السـلطان المسـلم الجائر ؟ ثم جمع العلمـاء بالمستنصرية لذلك فلمـا وقفوا على الفتيـا احجموا عن الجواب • وكان رضي الدين علي بن طاووس حاضرا هذا المجلس فلما رأى احجامهم تناول الفتيـا بتفضيل العـادل الـكافر على المسـلم الجائر فوضع الناس خطوطهم بعده[٣٢] • ويقول الصفدى : ان هولاكو كان لا يتقيد بدين ويقول « لـكن زوجته تنصرت »[٣٣] •

حـ ـ المآتم فى المستنصرية

وممن اقيم عزاؤهم بالمستنصرية أو صُلى عليهم فيها :ـ

١ ـ اقبال الشرابى • وهو صاحب الآثار الجليلة فى العراق ومكة • وصاحب المدارس الشرابية بواسط ومكة وبغداد • بنى المدرسة الشرابية بمكة ووقف عليها كتبا كثيرة • وجدد بمكة الرباط الذى اشتهر ذكره فى الدنيا ، وعين عرفة التى فى الموقف •

ولما مات صُلي عليه فى جامع القصر • وجلس الوزير وارباب المناصب فى العزاء بالمدرسة المستنصرية •[٣٤]

٢ ـ ابن حظيران الهمذانى الرئيس • عملت عزيته بالمستنصرية يوم الاحد العشرين من جمادى الاولى سنة ٦٦٦هـ • ورثاه شمس الدين ابو المناقب الهاشمى الواعظ بقصـيدة طويلة ذكرهـا ابن الفوطى فى تلخيص معجم الالقاب •[٣٥]

---

(٣٢) الفخرى ص ٢٠ •
(٣٣) الوافى ج ٢٥ الورقة ٢٣ من مخطوطة لندن •
(٣٤) الحوادث ٣٠٨ ـ ٣٠٩ ، ١٦٧ ، ١٧٠ و ١٩١ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٧٤ والاعلام باعلام بيت الله الحرام ص ٨٢ ، والفخرى ٢٢، ٢٤٣ •
(٣٥) حـ ٤ الورقة ٧٥ •

٣ ـ علاءالدين الجويني • شحنة[٣٦] تستر • ذكره الكازروني في تاريخه وقال : توفي يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٧٥هـ ودفن بمشهد الامام ابي حنيفة ، وعملت تعزيته بالمستنصرية • ورثاه شمس الدين الواعظ •[٣٧]

٤ ـ مجدالدين بن بُلْدُجي الموصلي مدرس مشهد ابي حنيفة • توفي ببغداد بكرة السبت ١٩ المحرم سنة ٦٨٣هـ وصلي على جنازته في يومه بجامع القصر ، وبالمدرسة المستنصرية • ودفن الى جانب قبر الامام ابي حنيفة • وكان يفتي ، ويدرس ، ويسمع الحديث الى آخر أيامه • وقصده طلاب الحديث من البلدان المختلفة • وقد وصفه المؤرخون بأنه كان صبورا على الاسماع ، ربما صلى الصبح واستند الى محرابه الى قريب العصر •[٣٨]

٥ ـ فخرالدين ابراهيم بن علي بن محمود • ذكره الكازروني في تاريخه وقال توفي في شهر رجب سنة ٦٧٦هـ وعملت تعزيته بالمستنصرية •[٣٩]

٦ ـ قوام الدين الجويني ، لطف الله بن محمد الجويني والي الحلة ذكره الكازروني في تاريخه وقال : كان شابا ، حسنا ، كيسا ، فطنا من اكابر اصحاب علاءالدين ونسيبه • وكان قد سافر الى الحلة فمرض بها ومات • ووصل نعيه الى بغداد في جمادى الآخرة سنة ٦٧٦هـ وعملت تعزيته بالمستنصرية •[٤٠]

٧ ـ عبدالصمد بن ابي الجيش • شيخ مسجد قمرية بالجانب الغربي

---

(٣٦) الشحنة : كالحاكم العسكري •
(٣٧) تلخيص مجمع الآداب ج ٤ الورقة ١٢٢ •
(٣٨) المنتخب ٧٥ ـ ٧٧ • الحوادث ٤٤٥ ، الفوائد البهية ١٠٦ ، وتاج التراجم ٢٣ وبحار الانوار للمجلسي ٢٥ ، ٣٥ ، ٣٩ •
(٣٩) ابن الفوطي ج ٤ الورقة ١٤٧ •
(٤٠) ابن الفوطي ج ٤ الورقة ٢٤٦ •

من بغداد• توفي سنة ٦٧٦هـ ودفن عند الامام احمد بن حنبل ، وعملت تعزيته بالمستنصرية • وتكلم فيه جلال‌الدين بن عكبر ورثاه بابيات اولها :

بكى الدين والقرآن والنسك والزهد
لفقـــدك مجدالدين وانتحب المجـــد

وكان اماما محققا بصيرا بالقراآت ، وعللها ، وغريبها •(٤١)

٨ ـ تقى‌الدين الزريرانى مدرس الحنابلة فى المستنصرية توفي ليـلة الجمعة او يوم الجمعة ٢١ او ٢٢ جمادى الاولى سنة ٧٢٩هـ وصلى عليه من الغد بالمستنصرية •ورثاه الدقوقى محدث بغداد وشيخ دار السنة المستنصرية •

---

(٤١) طبقات القراء للذهبى الورقة ٢٣٠ و٢٨٠ من مخطوطة باريس. وابن الفوطى ج ٥ ص ١٦٣ ـ ١٦٤ الترجمة ٣٢٢ •

شخصية المكدى عند الجاحظ

للدكتور وديعة طه النجم
المدرسة فى قسم اللغة العربية

يقول البيهقى فى كتاب المحاسن والمساوىء نقلا عن الجاحظ[1] :

« قال الجاحظ : سمعت شيخا من المكدين وقد التقى مع شاب منهم قريب العهد بالصناعة فسأله الشيخ عن حاله فقال : لعن الله الكدية ولعن اصحابها من صناعة ، ما أخسها وأقلها . انها ما علمت تخلق الوجه وتضع من الرجال وهل رأيت مكديا أفلح . قال فرأيت الشيخ قد غضب والتفت اليه فقال : يا هذا ، أقلل من الكلام فقد أكثرت ، مثلك لا يفلح لانك محروم ولم تستحكم بعد ، وان للكدية رجالا فمالك ولهذا الكلام ، ثم التفت فقال : اسمعوا بالله يجيئنا كل نبطى قرنان ، وكل حائك صفعان ، وكل ضراط كشخان يتكلم سبعا فى ثمان . اذا لم يصب احدهم يوما شيئا تلب الصناعة ووقع فيها أو ما علمت ان الكدية صناعة شريفة وهى محببة لذيذة ، صاحبها فى نعيم لا ينفذ فهو على بريد الدنيا ومساحة الارض ، وخليفة ذى القرنين الذى بلغ المشرق والمغرب ، حيثما حل لا يخاف البؤس ، يسير حيث شاء يأخذ أطايب كل بلدة ، فهو أيام النرسيان والهيرون بالكوفة ووقت الشبوط وقصب السكر بالبصرة ووقت البرنى والآزاذ والرازقى

---

(١) هذه قطعة لعلّ البيهقى نقلها عن كتاب للجاحظ لم يصلنا هو كتاب (حيل المكدّين) الذى يذكره البغدادى فى جملة كتب الجاحظ [الفرق بين الفرق (القاهرة ـ ١٩١٠) ، ص ١٦٢] . وهذه القطعة التى نقلها البيهقى هى اكثر ما وصلنا تفصيلا عن كتاب الجاحظ . وقد نقل الابشيهي بعض النوادر عن الجاحظ فيما يخص المكدّين ، لعلها ايضا من نفس الكتاب [المستطرف من كل فن مستظرف (القاهرة ـ ١٣٣١) ج ٢ ص ٢٢١] .

والرمان المرمر ببغداد وايام التين والجوز والرطب بحلوان ووقت اللـــوز الرطب والسختيان والطبرزذ بالجبـل يأكل طيبات الارض فهو رضى البـال حسن الحال لا يغتم لاهل ولا مال ولا دار ولا عقار حيثما حل فعلفه طبلى • اما والله لقد رأيتنى وقد دخلت بعض بلدان الجبل ووقفت فى مسجدها الاعظم وعلىّ فوطة قد أتزرت بها وتعممت بحبل من ليف وبيدى عكازة من خشب الدفلى ، وقد اجتمع الي عالم من الناس كأنى الحجاج بن يوسف على منبره وأنا أقول : ياقوم ، رجل من أهل الشام ثم من بلد يقال لها المصيصة من ابناء الغزاة والمرابطين فى سبيل الله من ابناء الركاضة وحرسة الاسلام ، غزوت مع والدى اربع عشرة غزوة : سبعا فى البحر وسبعا فى البر ، وغزوت مع الارمنى ، قولوا رحم الله ابا الحسن ومع عمرو بن عبيدالله ، قولوا رحم الله ابا حفص وغزوت مع البطال بن الحسين والزنرداق (؟) بن مدرك وحمدان بن أبى قطيفه • وآخر من غزوت معه يا زمان الخادم ودخلت قسطنطينيـة وصليت فى مسجد مسلمة بن عبدالملك ، من سمع باسمى فقد سمع ومن لم يسمع فأنا اعرفه نفسى : أنا ابن الغزيل بن الركان المصيصى المعروف المشهور فى جميع الثغور والضارب بالسيف والطاعن بالرمح ، سـد من أســداد الاسلام ، نازل الملك على باب طرسوس فقتل الذرارى وسبى النساء وأخذ لنا ابنان وحملوا (!) الى بلاد الروم فخرجت هاربا على وجهى ومعى كتب من التجار ، فقطع علىّ وقد استجرت بالله ثم بكم فان رأيتم ان تردوا ركنا من اركان الاسلام الى وطنه وبلده • فوالله ما اتممت الـكلام حتى انهالت علىّ الدراهم من كل جانب وانصرفت ومعى اكثر من مائة درهم • فوثب اليه الشاب وقبل رأسه وقال : انت والله معلم الخير ، فجزاك الله عن اخوانك خيراً »[1] •

---

(١) البيهقى : المحاسن والمساوىء (سنة ١٩٠٢) ج ٣ ص ٦٢٢ ـ ص ٦٢٤ •

يلفت نظر المتفحص فى وصف الجاحظ هذا ان الكدية تظهر ـ وأكاد أقول ـ لاول مرة فى تاريخ الادب العربى بشكل مهنة خاضعة لقواعد وأصول . وانها تنعت بأنها (صناعة) . وان المكدى نفسه لا يجد فى هذه المهنة غضاضة وانما هو يلذ بها ، يحترمها وينصح بممارستها . هذه ميزة تبرز فى كتابات الجاحظ فى هذه الطبقة . ومكدى الجاحظ هذا رجل قد خبر الكدية ومارسها واصبح شيخا فيها وهو يقر بأنه يحتال ويستجدى ، ويروى حديثه باسلوب قريب جدا من لهجة العامة . والجاحظ لا يتحرج من ان ينقل مثل هذا الكلام :

« ... يجيئنا كل نبطى قرنان ، وكل حائك صفعان ، وكل ضراط كشيخان ، يتكلم سبعا فى ثمان ... » .

اما هيئة هذا المكدى حين يمارس صنعته فتلفت النظر ، وهو يشير الى ذلك اشارة خاصة مفتخرا . فهو يتخذ فوطة يتزر بها ويعتم بحبل من ليف ويمسك بعكاز بيده من خشب الدفلى . أما علاقته بالشاب المكدى يقول فيه الجاحظ أنه كان (قريب العهد بالصناعة) ، فتبدو وكأنها علاقة شيخ مجرب بتلميذه المبتدىء . فهل يمكن ان نستدل من هذه الامور على ان هناك منظمة أو صنفا لاصحاب الكدية ـ كما كانت هناك أصناف للصناعات ـ فى هذا العصر ؟. ان هذا السؤال ـ على ما تبدو من غرابته ـ ليس غريبا فى الحقيقة اذا ما علمنا ان البغدادى الذى ألف كتابا خاصا بالمتطفلين يشير الى وجود منظمة للمتطفلين انفسهم فى البصرة ، يشرف عليها عريف له نواب وعيون ، والرواية تدل ـ من سندها ـ على انها لم تكن بعيدة عن عصر الجاحظ نفسه .[1]

سأهتم فى مقالى هذا بشخصيه المكدى كما يعرضها الجاحظ ،

---

(١) البغدادى : التطفيل وحكايات المتطفلين (سنة ١٩٢٧) ، ص ٨١ ـ ص ٨٢ .

وسأحاول ان أدرس عناصرها التى يؤلف بينها الجاحظ نفسه • وليس هدفى أن ادرس الكدية على التعميم ، لان مثل هذا البحث لا يتم فى صفحات قليلة •

قبل كل شىء نجد ان الجاحظ يختار مكديه من المصيصة ، ويصفه ـ على لسانه هو ـ بأنه كان من ابناء الغزاة الذين شاركوا فى حروب الجهاد الاسلامى ، الموجهة آنذاك على الامبراطورية البيزنطية • وانه صحب شخصيات بارزة من ابطال الجهاد • ولهذه الشخصيات ـ أو فى الاقل لاكثرها ـ صبغة تاريخية وواقعية[1] • ولعل من الطريف أن نشير هنا الى ان المسعودى يذكر أحد الغزاة الذين شاركوا فى هذه الحروب باسم يقرب من اسم مكدى الجاحظ نفسه • هذا الرجل ـ يذكر المسعودى انه ـ شارك فى الغزوات مع الابطال الذين يشير اليهم بطل الجاحظ ، ويسميه المسعودى العريل بن بكار)[2] ، ولعل الاختلاف فى التسمية ناتج عن تحريف فى الكتابة فقط •• وسواء أكان مكدى الجاحظ هذا شخصية تاريخية أم لم يكن ، فالمهم أنه يظهر عند الجاحظ فى هيئة مكدّ ممتهن ، يعرف حيل الكدية وطرقها ، ويقف فى المسجد محاولا ان يستفيد من عواطف الناس ، مذكرا اياهم ببطولاته ومشاركته فى الجهاد • ان احتياج هذا الرجل وفاقته لا يمكن أن يفسّرا لنا وحدهما طبيعة شخصيته مكديا يظهر فى أدب هذا العصر بقوة تكاد تأخذنا على حين غرة • فلابد اذن من التعرف الى ما يومىء اليه الجاحظ من عناصر هذه الشخصية •

لقد كان الميل نحو التوسع من مظاهر قوة الخلافة الاسلامية • وكان

---

(١) انظر فيما يخصّ الارمنىّ وعمرو بن عبيدالله ويازمان الخادم : الطبرى : تاريخ • (ليدن ـ ١٨٧٩ ـ ١٩٠١) حـ ٣ ص ١١٦٨ ، ص ٢٠٢٨ كذلك المسعودى : مروج (باريس : ١٨٦١ ـ ٧٧) حـ ٨ ص ٧٢ •

(٢) المسعودى : مروج • حـ ٨ ص ٧٣ •

الجهاد واجبا مقدسا على المسلم • وكانت الحروب وغزو البلدان المجاورة من واجبات هذا الجهاد • ومنذ الخلافة الاموية وجهت الحملات على الامبراطورية البيزنطية واستمرت هذه الحروب زمن العباسيين فقويت الحدود والجبهات • ومنذ خلافة المهدى ـ الخليفة لعباسى الثالث ـ انشئت الثغور على الحدود بين أراضى الدولة العباسية والامبراطورية البيزنطية • فبنيت المصيصة وطرسوس سنة ١٦٢ هـ[١] وعدتا من أهم المراكز الحربية لشن الغارات ضدالبيزنطيين• على أن الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى ولدتها هذه الحروب المستمرة عند سكان هذه الثغور تقف مثلا بارزا لما قاساه هؤلاء السكان نتيجة تلك الغارات المستمرة • ففى سنة ١٦٣هـ هاجم الرشيد السكان قرب المصيصة وطرسوس وأسر عددا كبيرا منهم ، وبيع الآخرون فى الاسواق[٢] • وقد عانى سكان هذه المنطقة من كلا الطرفين من المسلمين ومن الروم • فالروم ردوا هجمات المسلمين ، ففى سنة ١٩٠هـ ، يقول الطبرى :

« •• وقد خرجت الروم الى عين زربه ـ ثغر بناه الرشيد ـ وكنيسة السوداء فأغارت وأسرت فاستنفذ أهل المصيصة ما كان فى أيديهم • »[٣]

وفى السنة نفسها أعاد الرشيد الغارة وفتح هرقلة ، دمرها وأسر أهلها وفى سنة ٢١٦هـ وصلت الانباء المأمون ان الروم هاجموا طرسوس والمصيصه فهاجمهم هو • وقد أصبحت الغارات اكثر حدوثا بين ٢٣٧هـ ـ ٢٤٨هـ ، وأسر أناس أكثر واسترقوا أو قتلوا[٤] •

ما كان ليهمنا ان نبحث هنا هذه الغارات لو لم يكن لها أثر مباشـــر

---

(١) ياقوت : معجم البلدان (ليبزك = ١٨٦٦ ـ ٧٠) جـ٢ ص٢١٨ •
(٢) الطبرى : تاريخ • حـ ٣ ص ٧٠٩ •
(٣) نفس المصدر •
(٤) أنظر الصحائف التالية من تاريخ الطبرى : حـ ٣ ص : ١٤١٩ ، ١٤٢٠ ، ١٤٣٤ ، ١٤٤٧ ، ١٤٤٩ ، ١٥٠٨ •• الخ •

فى الحياة الاجتماعية فى المناطق المجاورة لها خاصة وفى الحياة فى الحاضرة الاسلامية على وجه العموم • أن هذه الصلة نفسها قد تفسر لنا لماذا يختار الجاحظ مثالا لمكديه من المصيصة بالذات ، فيجعله يقف وسط الناس فى المسجد يخبرهم عن اعماله العظيمة وعن ماضيه الجرىء ، وكيف انه شارك فى أكثر من ١٤ غارة على الروم وانه كان على معرفة جيدة بقواد هذه الحملات •

ان هذه الغارات ـ كما ذكرت ـ كانت جزءاً من الجهاد فى سبيل الاسلام • وكان الذين شاركوا فيها يعاملون باحترام كبير وتعظيم عند الخلفاء وفى العالم الاسلامى بأجمعه • أما عامة الناس فقد كانوا يعدون هؤلاء القواد ابطالا لنصر العقيدة الاسلامية ، وان موتهم يعنى شهادة فى سبيل الدين • والطبرى نفسه يعطينا صورة واضحة لذلك حين يصف موت اثنين من هؤلاء القواد ، فيقول :

« •• ان الخبر لما اتصل بمدينة السلام وسامراء وسائر ما قرب منها من مدن الاسلام بمقتل عمرو بن عبيدالله الاقطع وعلي بن يحيى الارمنى ، وكانا نابين من أنياب المسلمين شديدا بأسهما عظيما غناؤهما عنهم فى الثغور التى هما بها ، شق ذلك عليهم وعظم مقتلهما فى صدورهم مع قرب مقتل أحدهما من مقتل الآخر ، ومعما لحقهم من استفظاعهم من الاتراك قتل المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء واستخلافهم من أحبوا استخلافه من غير رجوع منهم الى ديانة ولا نظر للمسلمين • فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير وانضمت اليها الابناء والشاكرية تظهر أنها تطلب الارزاق ••• »[1] •

ولم تستطع الحكومة المركزية الضعيفة آنذاك ان تسيطر على الموقف ،

(١) الطبرى : حـ ٣ ص ١٥١٠ •

فانتشرت الفوضى فى جميع أنحاء القطر ، وفقد الناس ثقتهم بالخلافة ، ونجد بعض الأفراد يحاول ان يتخذ قرارا فيما يخص ارسال من يدافع عن الثغور فيقول الطبرى ايضا :

« ... ثم اخرج أهل اليسار من أهل بغداد وسامراء اموالا كثيرة من اموالهم فقودوا من خف للنهوض الى الثغور لحرب الروم بذلك ... »(١)

ان من المهم جدا ان نجد ان العامة انفسهم يظهرون هذا الاهتمام الكبير بالغارات على البيزنطيين ، وقد يدفعهم الى ذلك أمور كثيرة منها تذمرهم الذى صاروا يعبرون عنه بتمسكهم بالجهاد •

يقف مكدى لجاحظ فى المسجد الاسلامى مستجديا عطف الناس ، وهو يؤكد اعماله البطولية فى الدفاع عن الاسلام • فهو قد قاتل بنفسه ـ على ما يدعى ـ ملك الروم على ابواب طرسوس • وهو لا ينسى ان يذكرهم ايضا انه كان قد زار مراكز الاسلام المهمة فى القسطنطينية كمسجد مسلمة بن عبدالملك • ثم هو يفخر بشجاعته فى قتل الرجال وسبي النساء ، وهذه من الصفات البارزة لهذه الحروب •

لكن السؤال الذى يطرق ذهن الباحث هو انه بالرغم من هذا التاريخ البطولى لهذا الرجل ، وبالرغم من مشاركته الفعلية فى الجهاد يظهر لنا بمظهر المكدى المحترف ، بل هو شيخ من شيوخ الكديه الذين عرفوا هذا الفن ، فلماذا يظهر هذا المظهر ؟!

يبدو لي انه لابد ان نأخذ بعين الاعتبار المستوى الذى وصلت اليه حروب الجهاد هذه نتيجة ضعف الخلافة الاسلامية ، ثم ما نتج عنها ايضا من تدهور وانحطاط فى مستوى الحياة فى المراكز الاسلامية ولا سيما الثغور نفسها • فبالاضافة الى معاناة سكان هذه الثغور التشريد نتيجة الغارات

---

(١) الطبرى : حـ ٣ ص ١٥١٠ •

المستمرة بين الجانبين ، يبدو انهم لم يكونوا سكانا مدنيين مستقرين بالمعنى الصحيح ، فقد كانوا مزيجا من عناصر غير مرغوب فيها كانت الحكومة المركزية تبغى التخلص منهم ، فترسل جماعات منهم بين آن وآخر الى هناك ، كالزط الذين كانوا بالدرجة الاولى يعملون فى الاراضى الجنوبية لبلاد الرافدين والذين كانت احوالهم المعاشية سيئة جدا • فبعد اخفاق ثورتهم فى خلافة المعتصم ، نقل عدد كبير منهم الى الشمال الى عين زربه[1] • وبعد مدة قصيرة اكتسحتهم جيوش البيزنطيين هناك • اما الخراسانيون فقد استقروا فى عين زربه منذ خلافة الرشيد • وقد نمت بعض الفعاليات الزراعية والتجارية ، وبرز أيضا بعض العلماء من سكان هذه الثغور[2] لكن طابع الحياة لم يكن مستقرا نتيجة الهجمات المستمرة من كلا الطرفين ، والتى سببت تشريد كثير من السكان وقتلهم • ولعل من الطريف ان نشير هنا الى مثال معروف ، ذلك ان ياقوت نفسه كان قد أسر من الاراضى البيزنطية حين كان صبيا ثم بيع مع الرقيق فى بغداد[3] •

من الطريف ان الجاحظ يؤلف بين هذه العناصر كلها فى شخصية المكدى فشخصيته هذه تبدو وكأنها مثال لما كان عليه المجتمع العباسى فى بدء انحلاله السياسى والاجتماعى التدريجى • وفى الوقت ذاته نجد فى شخصه تعبيرا عن الروح البطولى والدينى لحروب الامبراطورية الاسلامية التى بدأت فى الواقع تعانى انفاقه والتدهور •

ولعل من المهم أن أشير فى هذا الصدد ايضا ، الى أن الحريرى صاحب المقامات فى القرن الخامس الهجرى ، يجىء ثانية فينتخب شخصيّة المكدى فى مقاماته ويجعلها منبثقة عن ظروف مشابهة لهذه التى نبحثها • يبدو لي

---

(١) الطبرى : حـ ٣ ص ١١٦٨ •
(٢) ياقوت : معجم البلدان : حـ ٣ ص ٧٦١ ، حـ ٢ ص ٥٥٧ •
(٣) أنظر : Ency. Isl. art. yäpüt

انه لم يكن من الصدف المحضة ان يختار الحريرى مكديه من سروج المدينة السورية التى تعرضت لهجمات الافرنج والتى شرد سكانها واضطروا الى الالتجاء ايضا فى سنة ٤٩٤هـ[1] •

الا انه مهم ايضا ان نجد مكدى الجاحظ يظهر بمظهر البطل الـــذى شارك فى حروب الجهاد ، على حين يظهر مكدى الحريرى بغير هذا المظهر • فهو قد فقد وطنه واضطرته الاحداث الى ان يلتجىء الى الـكدية التجاءاً • مع ذلك فان كلا المـكديين كانا من محترفى الـكدية ، بالاضافة الى كونهما محتالين وماهرين فى صناعتهما • ومكدى الجاحظ له كثير من صفات ابطال المقامات ، وفى شخصيته ايضا كثير من صفات اصحاب الـكدية فى الآداب العالمية الاخرى •

تبدو الصفة العالمية فى شخصية مكدى الجاحظ واضحة حين مقارنتها بجماعة الشعراء الجوالين الذين ظهروا فى انكلترا فى القرن السادس عشر • فالشبه عظيم بين الطرفين سواء فى المظهر أم الاساليب المبتدعة فى الاستجداء والـكدية فمن جهة يبدو لنا مكدى الجاحظ بكبريائه وماضيه المجيد الذى يشهد لعظمة اعماله ويبدو بطلاقة لسانه وجرأته التى هو محتاج اليها ليخاطب الناس • اما ظهوره فى المسجد بالذات فهو من مظاهر الحياة فى المجتمـــع الاسلامى الذى يقوم المسجد فيه مقام المكان العام للاجتماعات المختلفة الى جانب قيمته لاداء الواجبات الدينية • وهو ، فوق ذلك ، يستطيع ان يكسب عطف الناس فى المسجد اكثر مما لو وقف خارجه • فنجده بعد ان يفخر ويدعو اليه الناس ، يبدأ بتفصيل غايته فيقول :

« ••• وأخذ لنا ابنان وحملوا الى بلاد الروم فخرجت هاربا عـلى

---

(١) يقال ان السروجى التقى ، بالحريرى فى مسجد البصره واخبره عما حل ببلده من خراب • يصف الحريرى هذه الحادثة فى المقامة رقم (٤٨) من مقاماته •

وجهى ومعى كتب من التجار فقطع علىّ ، وقد استجرت بالله ثم بكم ، فان رأيتم ان تردوا ركنا من اركان الاسلام الى وطنه وبلده ... »[1] .

وفى انكلتر القرن السادس عشر يقف احد الشعراء الجوالين يدعو الناس بهذه اللهجة نفسها ، مبتدعا الطريقـــة نفسها فى الاحتيال بالـكدية . فيدعى انه بعد ان جمع كمية من المال تعرض له بعض قطاع الطريق فسلبوه ماله ، وينظم استجداءه شعرا فيقول :

"After my robbery my memory was so decayde,
That I could neather syng nore talk my wytte were so dismayde,
My awdacitie was gone and all my myrry tawks,
There is sum hear have sene me as myrry as a hawke."

لـكنه يحمد الله على ان الحاضرين سيعوضونه عما فقد ، وانه يحمل خطابات توصية من أناس ، وان كثيرا من الناس شاركوا فى انقاذه من حاله ، ويختتم شعره قائلا :

"Desyryng youe all to bear this tayle in minde,
That I among your pursis nowe sum frendshipe may fynde,
Every man a l'yttle wold satisfy my nede,
To helpe a poor man owt off det, it ys a gracious dede."(2)

هذه صورة خاطفة وسريعة لشخصية مكدى الجاحظ . وربما كشفت الدراسة المفصلة بعض الكشف ـ ولا سيما بالمقابلة بالآداب العالمية الاخرى ـ جوانب طريفة تستحق البحث والاهتمام .

---

(١) ارجع الى القطعة المنقولة سابقا عن البيهقى (المحاسن والمساوىء) فى مقدمة المقال .

(٢) انظر :
Frank Aydelotte, Elizabethan Rogues and Vagabonds, (Oxford - 1913)
ولعل من الطريف ان نشير هنا الى ان المراسيم التى يذكرها المؤلف لهذه الجماعات (ص٢٩ ـ ص٣٠) تشابه جدا ما يذكره التنوخى عن مراسيم بعض اللصوص وجماعات الفتيان فى القرن الرابع الهجرى [الفرج بعد الشدة (١٩٠٤) ، جـ٢ ص ١١٣] .

مقـــدمة

لسيادة الدكتور مهدى المخزومى
عميد كلية الآداب

هذه باكورة أعمال كلية الاداب بعد أن انفردت منذ بضعة أشهر ، وأصبحت كلية على حدة ، وهى تضم نتاج بعض أعضاء الهيئة التدريسية فى الـكلية ، وهى مجموعة من البحوث العلمية لم تكتب للقراء جميعا ، وانما كتبت لطائفة منهم ، وهم المعنيون بمثلها .

والطابع العام الذى اتسمت به ، هو الطابع العلمى الهادىء الذى يهدف الى خدمة العلم وبسط المعرفة على كل حال .

ولي أمل وطيد أن الـكلية ستمضى فى طريق التوجيه وتثبيت الروح الجامعى ، وتوسيع البحث العلمى حتى تصل الى غايتها ، وأنهـــا ستتعلق بأهداب الثورة حتى تتسرب الى كل اختصاص ، وتنتشر فى كل قسم ، وتتآخى مع كل موضوع .

وبهذا يتحقق الانسجام بين نتاج الاساتذة ومطالب الشعب ويتحقق الغرض الرئيس الذى يهدف اليه العلم ، وتهدف اليه التطورات الفكرية والاجتماعية ، أعنى بناء مستقبل علمى راض لا زيف فيه ولا تمويه .

واذا كان العهد البائد قد أخرس الالسنة ، وسد دون العقول منافذ النور ، وفرض على قادة الفكر أساتذة الـكليات والمعاهد العالية وغيرهم وجهة خاصة تخدم أغراض المستعمرين فكلية الآداب التى تنتظمها جامعة بغداد ـ بعد الرابع عشر من تموز يوم انطلاقة الشعب الى الحرية ، والافكار الى الانعتاق ـ ستمضى تحمل مشعل النور لتؤدى رسالتها الـكريمة فى نشر الثقافة العامة ، وتعزيز البحث العلمى بما ينتج فيها من بحوث ، وما يعقد

فيها من محاضرات ومناظرات تمتد الى كل ناحية والى كل موضوع ، لايصرفها عن النظر فى موضوع من الموضوعات خطة توجيهية تنحرف بها عن القصد ، وهى بذلك انما تحقق مطلبا حيويا ، لان حاجة المواطنين الى العلم والثقافة حاجتهم الى الماء والهواء .

واذا كان العهد الملكى الفاسد قد وجه الجهود الى خدمته ، وستر فضائحه واظهار الملك الفاسد على غير حقيقته ، وتغليف تسلطه واستبداده واستهتاره واستغلاله واستحواذه على مقدرات البلاد بغلاف من التقديس مجنداً لتحقيق هذا الغرض لفيفاً من صغار النفوس وضعاف الضمائر ، فعل المؤرخين القدماء حين يتناولون سيرة خليفة أو وال أو أمير ، وحين يسجلون فيما يؤرخون له كل شيء الا التاريخ الصحيح ـ اذا استطاع العهد الملكى الفاسد ذلك فان فجر الرابع عشر من تموز قد عرى العهد البائد البغيض ، وكشف سوأته وزيفه ، فلم يعد الشعب بعد أن أظلته جمهوريته الحبيبة بقرة حلوباً تشبع نهم الخلفاء أو الملوك وتروى ظمأهم وتملأ خزائنهم ، ولكنه استوى عملاقا مخيفا ، وانصب غضبا على رؤوس الظالمين ، واحتكر البطولة لنفسه ليضفيها على من يريدهو لا من كان المؤرخون يريدون ، ليضيفها على أولئك النفر الذين يتجاوبون معه ، يحسون بما يحس ، ويشعرون بما يشعر ، ويدأبون جاهدين لتحقيق ما يريد .

ولم تعد العقول فى ظل الجمهورية أيضا ترضى بالتضليل ، ولم تعد النفوس ترضى بالهوان وان حاول خدام ذلك العهد أن يفرضوه عليها فرضا ، ولم تعد الاقلام أقلام الكتاب والباحثين تشعر بشيء من التقييد ، أو ترضى بأن تنحرف الى الوجهة التى يريدونها لها ، وليس كالفكر الحر من غاية للادباء والمفكرين والعلماء ، وما دام هؤلاء أحرارا منطلقين فترقب أيها المواطن كل خير .

لا أشك أن الزملاء أعضاء الهيئة التدريسية بعد أن أمسكوا بأهداب

التحرر الفكرى سينطلقون انطلاقة شعبهم العظيم ، وسينقضون بأقلامهم الماضية على كل عتيق مفروض ، وسيزيلون من عيون الدارسين الناشئين كل غشاوة تحول بينهم وبين رؤية الحقائق •

وعلى قسم الاقتصاد وقسم التاريخ خاصة يقع عبء كبير ، فان الاستعمار كان قد دس أنفه فى شئونهما ووجههما الى الوجهة التى أرادها ، ولن تنسى الكلية ما كان الاساتذة الذين تعاقبوا على رياسة قسم الاقتصاد والذين نسبتهم العلاقات الثقافية الاستعمارية الى رياسة قسم الاقتصاد وغير قسم الاقتصاد يوحون فى كثير من الدجل والافتيات الى طلابهم أن العراق بلد زراعة ، وأن الصناعة خطر على كيانه الاقتصادى ، ويعللون هذا بما ترسمه لهم الدوائر الاستعمارية التى لا تريد بالعراق الا أن يكون متخلفا مستغلا تتحقق لهم فيه السيطرة الكاملة • ولن تنسى الكلية ما كان من وزراء المعارف من تدبير الخطط لتثبيت آراء هؤلاء الرسل الاجانب ، وما كان يلاقيه الاساتذة الاحرار من عنت واضطهاد ، ولا ذنب لهم الا جرأتهم فى تكذيب هؤلاء الرسل المفترين •

كذلك لن تنسى الكلية ما كان يلاقيه بعض الاساتذة الذين كانوا يحاولون أن يفسروا التاريخ تفسيرا علميا ، وأن يستخلصوا الحقائق من تلك المخلفات التاريخية البالية المحشوة بالزيف والتمويه من غضب الفئات الرجعية التى تستوحى الحاكمين الموجهين •

وعلى هذين يقع جزء من تبعة هذا التخلف الذى اتسم به وادى الرافدين مهد الحضارة وموطن الحرية ، ولكن اذا تعاونا ، هذا يعيد النظر فى تاريخ هذا الشعب ليظهره على حقيقته ويزيل عنه ما علق به من غبار القرون وتدليس المؤرخين ، وذاك يعيد النظر فى رسم المنهج الجديد الذى يتناسب مع تطور الشعب فى هذه المرحلة الجديدة ، ويضع الاسس لتطوير الحياة الاقتصادية تطويرا يحقق شيئا من أهداف ثورتنا المجيدة ، اذا تعاون

هذا وذاك ، وتضافرت معهما جهود الاقسام كلها ، وتعاونت على تأدية الرسالة العلمية المنوطة بمثل هذه الـكلية ، ثم مهدت للناشئين من الدارسين سبيل الدرس الحر ، والمناقشة العلمية الحرة كانت الـكلية قد أدت بعض ما عليها ، وكانت الهادية التى تحمل أمام جماهير الشعب المتعطشة الى المعرفة مصباحا ينير لها معالم الطريق ، طريق الحياة الحرة والانسانية الـكريمة •

وهذا ما تنتظر البلاد أن تؤديه هذه الـكلية الناشئة •

مهدى المخزومى